



# قَصَصُ الْعُشَّاقِ النَّثْرِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْأَمْوِيِّ

تأليف

الدكتور عبد الحميد إبراهيم

عميد كلية الدراسات العربية  
جامعة المنيا

١٩٨٧



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج ٤٠م -

الطبعة : ١٩٨٠

جميع الحقوق محفوظة

نوقشت هذه الرسالة سنة ١٩٦٥ بكلية  
دار العلوم ونال صاحبها درجة الماجستير بتقدير ممتاز





## مقدمة

(١)

عاطفة العشق عاطفة إنسانية أصيلة . يغرى الحديث عنها كل فرد . ويجذب كل إنسان . وهو حديث قديم منذ بدء الخليقة ، وسيظل إلى أن تنتهى الخليقة .

وقد أولع كثير من العرب بنوع من العشق ، هو ذلك النوع العفيف . وكانوا يقدرّون العاشق ويحترمونه ، فأخو الفزارية كان يرغب فى مصاهرة قيس ابن ذريح ، ولما لامته العرب فى ذلك ، قال لهم : « دعونى فى مثل هذا الفتى ترغب الكرام » (١) وذلك العاشق الذى أصاب السبع معشوقته فلحق بها ، عظم القوم تضحيته وقالوا : « والله لننحرن عليه تعظيما له ، فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة ، وتسامح الناس ، فاجتمعوا اليها فنحرت ثلاثمائة ناقة » (٢) وكانوا يتجاوبون مع هذه العاطفة ، ويعطفون على أصحابها ، فمعاوية يقول : لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما (٣) ، وحتى بعض الأزواج كانوا يقدرّون هذه العاطفة ، فجميل يذكر فى نهاية القصة التى افترس فيها الأسد المعشوقة ثم انتحر العاشق ، أن الزوج تأسف وحزن حزنا شديدا لأنه لم يجمع بينهما فى حياتهما (٤) . وكان من العشاق من يعتقد أن هناك رباطا يربط بينهما ، كذلك الرباط الذى يربط بين الزوجين ، فكان

(١) تزيين الأسواق ١ - ٥٣

(٢) المحاسن والاضداد ص ٧٠

(٣) الاغانى ٢٠ - ١٥٧ ماسى

(٤) ذم الهوى ص ٥٧٦

إذا غضب مع معشوقته ، يرد عليها هذا الرباط ، كما يطلق الرجل امراته  
فالرماح بن مالك القيسى غضب مع معشوقته فقال لها « الوصل عليك  
مردود » فقالت له « ما قضى الله فهو خير » (٥) . وتنتهى بعض  
قصص العشق بنوع من الخيال يومئذ الى انتصار الحب على الجاء  
والثروة وعلى العادات والتقاليد . فعروة وعفراء حين حال المال بينهما  
فى الحياة يتعانقان بعد الموت فى هيئة شجرتين ملتفتين (٦) . وعتبة  
وريا حين حالت العادات بينهما وبين اكمال عرسهما ، ثبتت على  
قبرهما شجرة عليها ألوان من الورق يقال لها شجرة العروسين (٧) .

وقد اهتم الباحثون بدراسة الناحية العاطفية عند العرب ، فهناك  
من درس الغزل كالدكتور أحمد الحوفى وهناك من درس الحياة  
العاطفية كالدكتور غنيمى هلال ، وهناك من درس الحب العذرى  
كالدكتور موسى خليل سليمان والدكتور أحمد عبد الستار الجوارى ،  
وهناك من درس حب ابن أبى ربيعة وشعره كالدكتور زكى مبارك .

وهناك جانب أريد أن أهتم به ، وهو قصص العشق النثرية ،  
وهو جانب لا يقل أهمية عن الجوانب السابقة التى اهتم بها الباحثون  
وهو فى الوقت نفسه يقوم دليلا عمليا أمام الاتهامات التى اتهم بها  
العرب وأنهم جنس أدنى من الجنس الأرى ، لا يعرفون القصة ولا الخيال  
المبتكر .

## ( ٢ )

وأعنى بتلك القصص ، هذه الأخبار التى كانت تدور حول فريق  
من العشاق منهم من هو معروف مشهور كالمجنون ، ومنهم من هو

(٥) تزيين الأسواق ١ - ٣٧

(٦) ذم الهوى ص ٤١٨

(٧) تزيين الأسواق ١ - ٢٠٣

مجهول أو مغمور كان يكون أعرابيا . وهذه الأخبار أو الأحاديث أو القصص ، كانت معروفة منذ العصر الجاهلي ولكنها في العصر الأموي ازدهرت وانتشرت بين عامة الشعب ، فقد كانت حلية المجالس وأحاديث السمر ، بجانب الغناء والشعر ، وكان لها روايتها وقصصها ، ولها مستمعوها وطلابوها .

وهذه النظرة إلى هذه الأخبار ، وأنها شيء لا يتحرى الدقة التاريخية ، وأنها حكايات شاعت بين الناس ، فتزيدوا فيها ، كما قال ابن ذريح وهو يعتذر لقيس أمام ليلى ، فإن قيسا قال انه رأى ليلى ليلة الغيل فقط ، ولكن الناس قد تزيدوا في ذلك - هذه النظرة تفسر الاضطراب في الروايات التي قد تسند خبرا إلى قيس . ثم نراه مسندا إلى جميل . أو شعرا إلى عروة ثم نراه منسوبا إلى ابن ذريح . . . الخ وهذه النظرة تنتشل فريقا من الباحثين من حيرتهم أمام هذا التزييد والاضطراب ، كما احتار الدكتور الجوارى أمام هذه الأخبار ( ٨ ) .

### ( ٣ )

على أن هناك فريقا من الباحثين ، نظر إلى هذه الأخبار تلك النظرة ، وذلك في أبحاث جزئية لم يستقل بها كتاب ، أو تنفرد بها رسالة .

فالأستاذ بروكلمان تحدث عن قصص الحب التي شاعت في العصر الأموي فذكر أن أخبار الحب ، قد استولت على خيال الشعب العربى ، حتى صنع منها قصة غرام ، وأخذت مواد هذه القصة تتكاثر وتترايد حتى حمل المروز والاعجاب بها على انشاء حلقات من القصص الغرامية . ثم رأى أن أول من ينطبق عليه ذلك هو قيس بن الملوح ،

( ٨ ) الحب العذرى ص ٥٨

وقد ساق صاحب الاغانى اختياره فى اطار من البواعث الضعيفة فى احكامها الفنى . ثم رأى ان ما ساقه الرواة من اخبار ابن ذريح أعلى درجة من اخبار المجنون . ثم تحدث عن عروة بن حزام وأنه بطل قصة غرامية . ثم ختم الحديث بوضاح اليمن ، وأنه بطل من أبطال القصص الغرامية ، وأن البواعث التى ذكرتها القصة فى نهاية حياته ، موجودة الى الآن عند أهل مهرة فى قصة ذكرها « يان » (٩) .

والدكتور عبد العزيز عبد المجيد حين استعرض أدب القصة عند العرب ، منذ عصر ما قبل الاسلام حتى منتصف القرن التاسع عشر ، تحدث عن قصص الحب «The love story» ورأى أنها ترجع الى عهد الامويين ، وأن مؤلفيها مجهولون ، وأنها تخاطب غرائز الجنس والشر ، وعواطف الحب والشهامة ولذلك التصقت بذاكرة الشعب ، يقول : F.C. Bortlet « نجحت فى احداث التأثيرات الدرامية على عقول الشعب ، وفى خلق الدهشة والاستغراب » (١٠) .

والاستاذ موسى خليل سليمان عقد فى كتابه « الادب القصصى عند العرب » فصلا للقصص الاخبارى (١١) ، وعنى بهذا الحكايات القصيرة ، والاسمار الكثيرة ، والنوادر الظرفية ، والاخبار المثبتة هنا وهناك ، لا يجمعها كتاب واحد من كتب الاصول ، لأنها لم تدون فى مكان واحد معين ، ولم يكتبها كاتب واحد معروف ، لغرض من الأغراض الأدبية . الخ . ثم رأى أن أهم ما يلفت النظر فى هذه الحكايات لونها : الحكايات الغنائية ، والحكايات الحبية . ولكنه فى هذا الكتاب اكتفى بدراسة الحكايات الغنائية . ولم يدرسها دراسة أدبية ، بل عرض للغناء ، وترجم لأشهر المغنين والمغنيات . ثم

(٩) تاريخ الادب العربى لبروكلمان ١ - ١٩٩ - ٢٠٢  
The Modern Arabic Short Story, P. 45.

(١٠)

(١١) الادب القصصى عند العرب ص ٢٢

ذكر أن لها فوائد تاريخية ، واجتماعية ، وأدبية ، ولكنه لم يطنب في ذكر هذه الفوائد ، ولا ننتظر منه أن يطنب في جزء من كتاب ، تحدث عن الأدب القصصى بوجه عام الدخيل منه والموضوع . على أنه في كتابه « يحكى عن العرب » أورد نماذج للقصص العربى ، وذكر - فيما ذكر - نماذج للحكايات الحبية (١٢) ، فعرض لقصة مجنون ليلى ، وقيس وليلى ، وعروة وعفراء ... الخ . وكان يعقب على كل حكاية بالدرس والتحليل والأسئلة ، وكان فى تحليله لا يتعمق تعمقا كبيرا ، مما يرشح هذا الكتاب لطلاب المدارس الثانوية ، وقد ذكر المؤلف فى مقدمة الطبعة الأولى أنه من الحرام أن يمر الطالب مروراً عابراً بهذا التراث القصصى الضخم ، ولهذا عرض تلك النماذج خدمة للطلاب العربى ... الخ .

والاستاذ محمد مفيد الشويشى ، خصص جزءا من كتابه « القصة العربية القديمة » لدراسة قصص الحب العذرى (١٣) . وعرض - فيما عرض - قصة جميل ويثينة ، وقصة قيس وليلى . ورأى أن العرب فى ذلك ، أو بعضهم على الأقل ، قد ضارعوا المبرزين من مؤلفى القصص العصرية ، فى ابتداء الأحداث والمشكلات ، واماطة اللثام عن كنهها ومضمونها .

وخير من تعرضوا لهذا الموضوع هو الدكتور طه حسين . فقد رأى أنه اكتشف فنا أدبيا ظهر بعد الاسلام وهو فن القصص الغرامى . ثم بحث أسباب نشأة هذا الفن ، وتعرض لطائفة من هذه القصص ، وأظهر ما فى بعضها من تكلف وبخف وما فى البعض الآخر من جودة واتقان (١٤) .

(١٢) يحكى عن العرب ٢ - ٦٠

(١٣) ص ٧١

(١٤) حديث الأربعاء ١ - ٢٢٧ - ٣٥٩

هذه هي أهم البحوث التي دارت حول هذا الموضوع . ورسالتى  
سارت فى ذلك الطريق الذى بدأه هؤلاء السادة الأفاضل . وأننى أرجو -  
وقد اقتصر على هذا الموضوع ، فلم أجعله جزءاً فى كتاب ، بل  
تناولته تناولاً واسعاً مفصلاً - أن أقطع قدراً من الشوط ، وأن ألقى  
شعاعاً من الضوء .

( ٤ )

وقد مهدت لها بتمهيد ، تحدثت فى جزء منه عن « القصة عند  
العرب » فتتبع - فى الماسة سريعة - القصة العربية منذ العصر  
الجاهلى ، حتى العصر الحديث . وفى جزء آخر تحدثت عن « القصة  
فى العصر الأموى » فبينت أسباب ازدهار القصة بوجه عام ، ثم تحدثت  
عن أنواع القصة فى العصر الأموى ، وأشرت الى أشهر القصص ، وإلى  
مناهجهم فى القصص والرواية . وفى الجزء الأخير بينت « المقصود  
بقصص العشاق النثرية » وأشرت الى أيتارى لكلمة « قصة » مع أن  
كلمة خبر ، أو حديث أو غيرهما ، قد تؤدى المراد نفسه من مفهوم  
القصة فى ذلك العصر ، إلا أن كلمة « قصة » أقرب الى مفهوم الأدب  
من كلمة خبر أو حديث . وهى فى الوقت نفسه ، كانت فى العصر  
الأموى كثيرة الدوران على ألسنة المفسرين ، والشعراء ، والرواة .  
ثم قسمتها الى بابين ، وخاتمة .

تحدثت فى الباب الأول عن « نشأة قصص العشق » فذكرت فى  
فصل « مصادر قصص العشق » وبينت أنها عربية أصيلة ، وأن تأثرها  
بالتيارات الخارجية كان ضئيلاً . ومع أنها قد عرفت فى العصور  
الجاهلية إلا أنها قد ازدهرت فى العصر الأموى ، وكان لابد لهذا  
الازدهار من عوامل ، هى موضوع الفصل الثانى والأخير من هذا  
الباب .

أما الباب الثاني ، فقد خصصته « للفن فى قصص العشق » .  
وبينت بادية ذى بدء ، أننى لا أقصد بالفن ذلك المعنى المفهوم فى  
أذهان المعاصرين عن القصة الفنية الحديثة ، وإنما أقصد معنى قريباً  
من المعنى العام للقصة فى العصور القديمة ، وهو معنى أقرب إلى  
« الأسلوب القصصى » منه إلى « الفن القصصى » بالمفهوم الحديث . وإذا  
كنت قد وضحت غرضى ، وأننى أدرس هذه القصص دراسة أدبية فنية  
وليست دراسة تاريخية محققة ، كان لابد لى من الحديث فى الفصل  
الأول - من هذا الباب - عن « أغراض قصص العشق » . ثم أشرت فى  
الفصل الثانى إلى « معالم قصص العشق » فرسمت هيكلها ، وكشفت  
عما فى بعضها من صراع ، أو تشويق ، أو خيال .. الخ . والفصل الثالث  
درست فيه تطور هذه القصص وبيان أثرها وتأثيرها . وعرضت فى  
الفصل الرابع والآخر « نماذج من قصص العشق » حللتها ودرستها  
وقارنتها بغيرها .. الخ .

أما الخاتمة فقد عرضت فيها أهم نقاط البحث ، وأشرت إلى  
الجديد الذى أضافته هذه الرسالة إلى تراثنا العربى . ثم أنهيتها  
بمقترحات ، راجياً أن تجد العناية من المسؤولين والمهتمين .

#### ( ٥ )

ولم أجد مصدراً من المصادر القديمة ، قد جمع هذه القصص فى  
مجموعة واحدة ، بل كانت هذه القصص متناثرة فى بطون الكتب  
الأدبية والتاريخية وتحت عناوين مختلفة . ولست أبالغ إذا قلت أن  
نصف الجهد ، ونصف الزمن على الأقل ، قد أنفقاً للبحث عن هذه  
القصص ، وتجميعها ، وكم كتاب قرأته من الدقة إلى الدقة ، ثم  
خرجت منه صفر اليدين ، غير قابض على شئ يخدمنى فى بحثى .

وأمر آخر قد استهلك منى الجهد الكثير ، إذ أن معظم هذه



القصص شعبية مجهولة المؤلف ، تدور حول الاعراب ، أو أناس مغمورين من عامة الشعب ، وقليل منها نستطيع أن نرده إلى العصر الأموي ، وذلك مثل القصص التي كانت تدور حول أبطال معروفين كابن ذريح وابن الطثرية . وهنا تدركون مدى الجهد الذي بذلته لمحاولة التعلّق بشيء يوصلني إلى نسبة هذه القصص إلى العصر الأموي ، وخاصة أن سلاسل الرواة ، التي كان يذكرها بعض المؤلفين لم تكن وافية ، فقد يقتصر على جزء من اسم الرواي ، أو يذكر لقباً له ، أو شيئاً غير محدد ، كان يقول : انه رواها عن عمه عن أبيه . فمثلاً صاحب المصارع يعبر تعبيرات غير واضحة عن الرواي . فمرة يقول : ذكر أبو عمر محمد ابن العباس الخزاز (١٥) . وثانية يقول : ذكر أبو عمر محمد بن العباس ابن حيوة (١٦) . ومرة يقول : ان أبا بكر محمد بن خلف المصولي هو الذي حدث أبا عمر بن العباس (١٧) ، وثانية يقول ان الذي حدثه هو أبو بكر محمد بن خلف (١٨) . فهل هما شخص واحد ؟ وهل هما أو هو يختلف عن أبي بكر محمد بن خلف المرزبان ، الذي ذكر الخطيب البغدادي أن محمد بن العباس المعروف بابن حيوة قد سمع عنه (١٩) . أولاً اختلاف وأن هذه الأسماء الثلاثة لشخص واحد ؟ أشياء تحتاج إلى جهد وتحقيق .

ولابد من ضرب مثل يوضح الصعوبة الشاقة التي لقيتها ، فالقصة التي ذكرتها في الفصل الأخير ، تحت عنوان « مأساة عاشق » . قرأتها في مصارع العشاق ، فإذا سلسلة الرواة هكذا « ذكر أبو عمر بن الخزاز ، ونقلته من خطه ، أن أبا بكر محمد بن خلف حدثهم ، حدثني أبو أحمد

(١٥) مصارع العشاق ص ٢٢٩

(١٦ ، ١٧) المرجع السابق ص ٢٤٩

(١٨) المرجع السابق ص ٢٢٩

(١٩) تاريخ بغداد ٣ - ١٢١

عبد الله بن محمد الطالقاني ، حدثني محمد بن الحسارث الرازي ، أخبرني أحمد بن عمر الزهري حدثني عمي عن أبيه قال : خرجت في نشدان ضالة لي ، فأواني المبيت إلى خيمة إعرابي . . . » وكان لا بد من الرجوع إلى الكتب التي تؤرخ للرواة ، فرجعت إلى « تاريخ بغداد » ولكن لم أصل إلى النتيجة المرجوة . وكل ما استطعت أن أعرفه أن محمد ابن العباس بن محمد بن زكريا بن يحيى ، أبو عمر الخزاز المعروف بابن حيوة ، وأنه ولد سنة ٢٩١ هـ وتوفي سنة ٣٨٢ هـ ، وأنه سمع عن جماعة ، ذكر منهم محمد بن خلف بن المرزبان ( ٢٠ ) . فرجعت إلى الجزء الذي يتحدث عن ابن خلف ، فعرفت أنه توفي سنة ٣٠٩ هـ ( ٢١ ) وبعد ذلك عييت أن أصل إلى شيء محدد عن بقية الرواة . فرجعت إلى القصة في تزيين الأسواق ، فإذا به يذكرها في القسم الثاني : فيمن جهل اسمه ، أو اسم محبوبته ، أو شيء من سيرته ، أو مال حقيقته ، فقال : « ومنهم مارواه إعرابي أو هو جبلة بن الأسود » حتى أتيت ابن معمر ، وأنه قصها أمام عبد الملك بن مروان . ومثل آخر تلك القصة التي ذكرها صاحب المصارع عن فتى يقال له بشر ، ويعرف بالأشتر ، فمن الصعب معرفة عصرها على حسب روايته ( ٢٢ ) . وقد رجعت إليها في التزيين ، فإذا به يذكرها في القسم الثاني ، فيمن جهل اسمه . . الخ ، وإذا به يسمى هذا الفتى : بشيرا وليس بشرا ( ٢٣ ) . حتى رجعت إلى المحاسن والاضداد ، فإذا به يذكر قصة شبيهة بهذه القصة ، قصها طريح بن اسماعيل الثقفي ، حين قدم من عند الوليد ابن يزيد ، يريد الطائف . وبعد قصة طريح يقول « وحدث بهـذا

( ٢٠ ) المرجع السابق ٢ - ١٢١

( ٢١ ) المرجع السابق ٥ - ٢٣٧

( ٢٢ ) مصارع العشاق ص ٢٥٢

( ٢٣ ) تزيين الأسواق ١ - ١٠٩

الحديث محمد بن صالح ٠٠٠ يسر من رأى سنة أربعين ومائتين ، وكان حصل من البادية الى المتوكل ٠٠٠ قال : كان منا فتى ، يقال له الأشتر بن عبد الله ٠٠٠ (٢٤) \* مما يدل على أن هذا الحديث كان شائعاً منذ عصر الوليد بن يزيد ، وظل متداولاً في أيام المتوكل .

وكم من قصة أعجبتنى ، فظلمت أدور وراعها في المراجع ، وأبحث عن عصور رواها ، ثم اذا بى اصدى في النهاية أنها رويت في عصر متأخر عن العصر الأموي . وكم من قصة ظننت أنها وردت في العصر الأموي بسبب علم فيها ، وسرت على هذا الظن ، وبنيت عليها دراسات وتحليلات ونتائج ، ثم تبين لى بعد كل هذا أنها لا تنسب للعصر الأموي ، وأن هذا العلم جاء فقط للاستشهاد بشعره . ولكننى لا أخفى . اننى احتفظ بقصص كثيرة ونافعة ، عجزت عن أن أرجعها الى العصر الذى أنا بصدد .

#### ( ٦ )

على أن هذه الصعوبة انما جاءت من تقييدى نفسى بفترة تاريخية ، ومن تحديدي بحثى بالعصر الأموي . وكان خيراً لى أن أتخطى سيئات هذا التقييد ، وأن أكون حراً طليقاً ، فأدرس هذه القصص دراسة واسعة على مختلف العصور . وخاصة أن الظاهرة الأدبية ليست شيئاً مادياً يمكن تحديده ببداية ونهاية ، بل هى شىء معنوى ، قد تكون له مقدماته في الفترة السابقة على الفترة المحددة له ، وقد يبقى له أثره بعد تلك الفترة . فكيف اذا عرفنا أن هذه القصص أقرب الى الروح الشعبى الذى لا يدق في الزمان ، ولا يحقق في المكان .

ولكننى مع هذا ، لست ذلك الانسان الذى يستطيع أن يدرس هذه

(٢٤) المحاسن والاضداد ١٩٧ - ٢٠٠

القصص على مختلف العصور . فقد يوقعنى كذا فى أحكام مريعة مبتهرة ، ولذلك قنعت بهذا التقييد ، حتى أستطيع أن أصل فى حدود طاقتى وامكانياتى الى نتائج مدروسة ناضجة .

ومع ذلك ، فقد تحايلت على هذا التحديد ، بذلك الفصل الذى حاولت فيه أن أبحث عن مصادر هذه القصص فى العصور السابقة ، وبذلك الفصل الذى تتبعت فيه تطور هذه القصص وأثرها وتأثيرها .

وكنى أحيانا أقنن هذه القصص ، وأرى ما فيها من قرب أو بعد عن المقاييس الفنية الحديثة ملتصبا لها العذر بظروفها التاريخية ، وبظروف عصرها البعيد . وكنى أحيانا أقارن القصة بشبهات لها ، وبذلك أكون قد جمعت بين المنهج الذى يقيس الشيء بما ينبغى أن يكون ، وبين المنهج الذى يصف الشيء كما هو كائن .

#### ( ٧ )

وقد رجعت الى كل ما أتيج لى حول هذا الموضوع من كتب مؤلفة أو مترجمة ، مطبوعة أو مخطوطة ، عربية أو أجنبية ، قديمة أو حديثة ، ومن مجلات وصحف ، وقد ذكرت ثبنا فى آخر الرسالة بكل هذا ، وكنى أضطر فى بعض الأحيان الى الرجوع الى أكثر من طبعة للمرجع ، وعلى هذا فإذا كانت الطبعة التى رجعت اليها موحدة فى جميع الرسالة ، لم أجد داعيا الى ذكر الطبعة وتاريخها فى هوامش الرسالة ، اكتفاء بذكر ذلك فى قائمة المراجع وإذا كنت قد اضطررت الى الخروج عن هذه الطبعة الموحدة مرة أو مرتين أو ثلاثا ، فأننى سأذكر فى الهامش الطبعة وتاريخها ان وجد ، فى المرات القليلة التى خرجت فيها عن الطبعة الموحدة ، أما اذا كنت قد اضطررت الى الرجوع الى طبعات مختلفة ، فلا بد لى فى هوامش الكتاب من ذكر كل طبعة وتاريخها .



تہید



### القصة عند العرب

القصة عمل فنى معقد ، يحتاج الى عقلية تحليلية ، تستطيع المزج بين عناصر القصة المختلفة ، وتقدر أن توائم بين الشخصيات فى علاقة بعضها مع الآخر ، وتلائم بين الشخصية وحوارها وميلكها ... ثم توجه كل هذه العناصر لخدمة غرض معين وهدف فى ذهن الكاتب .

وهى عمل يحتاج الى خيال مبتكر خلاق ، يحاكى الطبيعة فى صنع الأحداث ، ويشاكل الحياة فى ابتكار العلاقات .

وقد انكر بعض المعاصرين على العرب قدرتهم على خلق قصة وحكموا بخلو الأدب العربى من هذا الفن الممتاز .

فالأستاذ الزيات يؤمن بقصور العرب فى القصص ، ويرى أن هذا القصور استمر حتى « وضع ابن المقفع الفارسى مناهج النثر ، وفكر فى تدوين شئ من القصص ، فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو « كليله ودمنة » و « هزار افسانه ( ألف خرافة ) » « ودارا والصنم المذهب » حديا للعرب ، ونموذجا لهم فى وضع ما وضعوه منها ( ١ )

ويجمل الأسباب التى أدت الى هذا القصور ، فى أن مزاوله القصة تقتضى الروية والفكرة ، والعرب أهل يديهة وارتجال ، وتتطلب الأمام بطبائع الناس ، وهم قد شغلوا بانفسهم عن النظر فيما عداهم ، وتفننوا الى التحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصارا للقول وأقلهم تعمقا فى البحث ، وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة ، والاضطراب الشديدة ، وحرمتهم طبيعة أرضهم ، وبساطة دينهم ، وضيق خيالهم . - كثرة الأساطير ، وهى أغزر ينابيع هذا الفن .. الخ ( ٢ )

( ١ ) تاريخ الأدب ص ٣٧٩ .

( ٢ ) المرجع السابق ص ٢٦ .



والاستاذ توفيق الحكيم \* يرى أن الادب العربي - في الفترة السابقة للإسلام - خلق فني ناقص التكوين ، فإذا تأملت الادب القديمة وجدت أنه قد عاصرت بها فنون كبرى ، فالمعابد العظيمة ، والتماثيل الرائعة في مصر القديمة ، والهند ، والاعريق ، خليق أن يعاصرها ادب عظيم مثل الملاحم والتمثيل والقصص ، ولكن الادب العربي نشأ في بيئة قاحلة فكان أقصى ما عاصر لغة امرئ القيس ، أو لبید ، أو زهير ، تلك المسوخ والتهاويل لالهة من الحجر اطلقوا عليها الهبل ، واللات والعزى (٣) .

والدكتور أحمد أمين ، يعتقد في تقصير العرب في هذا النوع من القول ، وان كان يخفف الامر ، فيرى أن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال لامظهر الخيال كله ، فالفخر والحمامة ، والغزل ، والوصف ، والتشبيه والمجاز - كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال ، والعرب قد اکتروا القول فيه كثرة تسترعى الانظار ، وان كان الابتكار فيه قليلا ، كذلك ما ملئ به شعر العربي من الغزل ، وبكاء الاطلال ، وذكر الايام والحوادث ، وما وصف به شعوره ووجدانه ، وما صور به المتيائه وهيامه - لا يمكن أن يصدر عن عواطف جامدة ، ولكنه يجمع بين رايه في عريى الجاهلية بأن « خياله محدود ، وغير متنوع ، وقلما يرسم له خياله عيشة خيرا من عيشته ، وحياة خيرا من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف المثل الاعلى لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له في لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر اليه فيما تعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعري في عالم جديد يستقى منه معنى جديدا ، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب » .. (٤)

(٣) زهرة العمر ص ١٣٨

(٤) فجر الاسلام ص ٧٧

وغير هؤلاء كثيرون ممن يؤمنون بضيق الخيال العربي ، وعدم توفيقه فى انشاء القصة أو خلق الأساطير ( ٥ ) .

ولعل هؤلاء وغيرهم متأثرون بما احتفى به بعض الباحثين فى القرن التاسع عشر وما بعده ، من مناداة بالفروق بين الاجناس البشرية أو بنظرية « العروق » كما يسميها الدكتور « غوستاف لوبون » . ويلخص هذه النظرية - كما أقرتها العلوم الحديثة - فيقول : « تقسم الجماعات البشرية المنتشرة فى مختلف أقطار الأرض الى عروق ، وكان يظن أن الفروق بين العروق البشرية أقل مما هى عليه بين أنواع الحيوان ، بيد أن العلم الحديث أثبت أن عروق البشر مفترقة فى إخلاقها افتراق أنواع الحيوانات المتقاربة ، فيجب عد كلمة « عرق » بالنسبة للانسان مرادفة لكلمة « النوع » ، ويمكن تعريف العرق أو النوع البشرى بأنه يدل على جماعات ذات أخلاق مشتركة ، تنتقل اليها بالوراثة المنتظمة » ثم يرى أن أثر البيئة أو التوالد ، يكاد يكون معدوماً فى العروق العريقة فقد دلت حوادث التاريخ على أن العرق إذا ما استقرت أخلاقه وسجاياه

( ٥ ) مثل الدكتور محمد ضيف الذى يرى أن الاسلوب القصصى جاء الى لغة العرب مما نقل اليها من الفارسية أو الهندية أو غيرها ، بل يرى أن سبب انتشار القصص العامة يرجع الى الاعاجم الذين اندسوا بين العرب أيام الدولة العباسية ، وكانوا يحملون الاخبار الغريبة ، والاخيلة العجيبة فذاع أثر هذه القصص بين عامة الناس حتى امتلأت اللهجة العامة ( انظر المقتطف فبراير سنة ١٩٣٥ - ص ١٤٦ ) . ومثل الاستاذ عباس محمود العقاد اذ يقول عن العرب أنهم « كانوا قبائل رحلا يؤمنون المدن فى مواسم تتقسمها العبادة والتجارة والخطابة » . فائتمر التاريخ والاقليم واللغة على أن يكون العرب أمة بلا خيال » [ الفصول ص ١٤٠ ] . ومثل الاستاذ عبد العزيز البشرى الذى يقول : « ولقد بقيت القصة مقصورة فى الجملة على الشعر ، ولكن بالقدر الذى أسلفناه عليك ، حتى اذا كان عهد الدولة العباسية التفت الناس للقصص وترجم ابن المقفع كلية ودمنة » ( المختار ١ / ٢٥ ) .

بالتوراة وبلغ من الكبر عتيا ، عجزت البيئة عن التأثير فيه ، وصار  
أهون عليه أن ينقرض من أن يتحول (٦) .

وشرع بعض الباحثين يربطون الصفات العقلية والوجدانية لكل  
جنس فهذا جنس آرى ممتاز ، وذلك جنس سامى أقل منه ، هذا جنس  
آرى قد منحته إله الدهشة نحو العالم ، وأفاض عليه العاطفة المشبوبة ،  
والخيال الواسع ، فأخرج للانسانية القصص الرائعة ، والمسرحيات  
الذائعة ، وذلك جنس سامى لم يوسع الله عليه ، فحرمه الخيالات  
المبتكر ، والعاطفة الخلاقة ، فلم يبتكر قصة ولم يخلق مسرحية (٧)

ويتحدث دى بور عن النظر العقلى عند الساميين فيقول : لم  
تكن للعقل السامى قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات فى الفلسفة وراء  
الالغاز والأمثال الحكيمة . وكان هذا التفكير السامى يقوم على نظرات  
فى شئون الطبيعة ، متفرقة ، لا رباط بينها ، ويقوم بوجه خاص على  
النظر فى حياة الانسان ، وفى مصيره . وإذا عرض للعقل السامى  
ما يعجز عن إدراكه لم يشق عليه أن يرده الى إرادة الله التى لا يعجزها  
شئ ولا تدرك مداها ولا أسرارها ، ونحن نعرف هذا الضرب من الحكمة  
فى العهد القديم ، ويدل على تكوته لدى العرب ما جاء فى التوراة من

(٦) حضارة العرب ص ٧٧ . وانظر أيضا « الادب المقارن » للدكتور  
محمد غنيمى هلال ، فقد لخص رأى تين عن الجنس والاستعدادات  
الفطرية التى تميز مجموعة من الناس عن غيرها ( ص ٥٢ الى ٥٧ .  
الطبعة الثانية ) .

(٧) ان أردت التفصيل فى هذه النقطة فارجع الى :

- ١ - فجر الاسلام والمراجع المبينة به ص ٣٣ .
- ٢ - ثورة الادب للدكتور محمد حسنين هيكل ص ٩٢ .
- ٣ - مقال لمى نشر بمجلة الرسالة ( ١٢ شعبان سنة ١٣٨٣ هـ ) .
- ٤ - فن كتابة السيرة الشعبية ص ٦٠٨ .

قصة ملكة سبا وما يحكى عن شخصية لقمان الحكيم ، مما هو وارد فى المأثورات العربية « (٨) » .

واعتقد أن هذه الآراء كانت بسبب الغرور الذى أصاب أوربا فى القرن التاسع عشر وما بعده بسبب حركاتها الاستعمارية ، وقوتها الصناعية وانتصاراتها العلمية ، فخيّل اليها - وهى فى تلك النشوة المثمرة - أنها جنس ممتاز ، ودم فريد ، من حقّه ، يسّ من الواجب عليه ، أن يتولى أمور الأجناس الأخرى ، وأن يمتلك زمامها . وقد وقع الأستاذ جب Gibb على سبب شبيه بهذا ، وهو يعلل لبعد العقل الغربى فى القرن التاسع عشر عن استيعاب الشرق فى آدابه . إذ « شغلت الغرب يومئذ آراؤه الفلسفية الحديثة ، ومبادئه السياسية الجديدة ، والتطور الصناعى العظيم الذى شمله فلم يعد بحالة يستطيع فيها الاصغاء الى الشرق ، بله العمل فى صبر وإناة على تفهم الروح الشرقى ، وقضى الشعور بالوطنية على ذلك المثل الأعلى الذى كان يراه جوته فى وجود أدب عالمى » (٩) .

ومن الطريف أن هذه النظرة الاستعلائية تصيب - كما يسدل التاريخ - كل قوم أقيمت على أيديهم حضارة كبيرة - فالمصريون القدماء كانوا يسمون الشعوب الأخرى « بالبربر » والعلماء والكتاب اليونانيون يسمون كل من عداهم من الشعوب « بالبربر » لا يستثنون المصريين ، ولا الكلدانيين ، ولا الفينيقيين ، ولا الفرس ولا غيرهم (١٠) .

وحين أتيت للحضارة الإسلامية أن تزدهر ، أصاب الغرور العرب أيضا ، فراوا أنهم أفضل الأمم ، وأن حكمتهم أشرف الحكم (١١) .

(٨) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١١ .

(٩) تراث الاسلام - فصل الادب ص ٢١١ .

(١٠) « على هامش التاريخ المصرى القديم » ص ٦٩ .

(١١) العمدة ١ / ٤ .

وأكثر من هذا أنهم أولوا نظرة المساواة التي جاء بها الدين الاسلامي .  
 فاذا احتج أهل التسوية ( الموالى ) على العرب بقول النبي عليه السلام  
 في حجة الوداع « ايها الناس : ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية  
 وفخرها بالآباء كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لغربي على عجمي  
 فضل الا بالتقوى » ويقول الله تعالى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم (١٢) » .  
 اذا فعل أهل التسوية ذلك فان ابن قتيبة يرد عليهم بان المساواة التي  
 ارادها النبي ، انما تكون في الأمور الآخرة ، أما أمور الدنيا ، فالناس  
 لا يتساوون فيها ، فالنبي ﷺ يقول : « اذا اتاكم كريم فاكرموه »  
 ويقول عن قيس بن عاصم « هذا سيد الوير » (١٣) .

وكما ان دعوى الأوربيين - في العصر الحاضر - استطاعت أن تجد  
 قبولا عند أشخاص ليسوا أصلا من أوربا : فرددوها وأمنوا بها ، كما  
 رأيت في أول هذا الكلام ، فقد استطاعت دعوى العرب - قديما - أن  
 تؤثر أيضا على أشخاص ليسوا أصلا من العرب ، فآمنوا بدعوى العرب  
 ورددها ، فسهل بن هارون وهو فارسي الأصل يربط اللغة العربية  
 بنظام الكون ، فحروفها ثمانية وعشرون حرفا على عدد منازل القمر ،  
 وغاية ما تبلغ الكلمة منها مع زيادتها سبعة أحرف على عدد النجوم  
 السبعة ، وحروف الزوائد اثنا عشر حرفا على عدد بروج الاثنى عشر ،  
 ومن الحروف ما يدغم مع لام التعريف وهي أربعة عشر حرفا مثل  
 منازل القمر المستترة تحت الأرض ، وأربعة عشر حرفا ظاهرا لاتدغم  
 مثل بقية المنازل الظاهرة ، وجعل الاعراب ثلاث حركات . لأن الحركات  
 الطبيعية ثلاث : حركة من الوسط كحركة النار وحركة الى الوسط كحركة  
 الأرض ، وحركة على الوسط كحركة الفلك (١٤) .

(١٢) العقد الفريد ٢ / ٦٩ .

(١٣) نفسه ص ٧١ .

(١٤) الفهرست ص ١٥ .

وسواء أكان ابن هارون يقول هذا على أساس أنه حقيقه ، أم يقوله من باب التناول الطريف ، والاتفاق الطريف ، كما يعلق صاحب الفهرست على هذا النص - سواء أكان هذا ، أم ذاك ، فإن روح النص تؤمى الى تمجيد العربية وتفضيلها . وقد سأل ابن المقفع وهو فارس جماعة كانوا معه أى الأمم أعقل ؟ فجعلوا يقولون له مرة فارس ، وثانية الروم ، وثالثة الصين ، ورابعة الهذد ، وخامسة السودان ، وسادسة الترك ، وسابعة الخزر . وابن المقفع لا يرضى بهذا . . . وأخيرا يخبرهم بأن أعقل الأمم هم العرب وجعل يعدد مزاياها ( ١٥ ) .

والحق أن هذه الآراء التعصبية - سواء كانت من جانب الأوروبيين أو من جانب العرب ، أو من جانب غيرهما - ينقصها التمهيد العلمى الدقيق والنظرة التاريخية الكلية .

أما النظرة التاريخية الكلية ، فإنها ترى أن الحضارات الانسانية لم تكن وقفا على جنس دون آخر وأن كل حضارة هى مرحلة تطورية ترضع مما سبقها من حضارات ، وترضع ما لحقها من حضارات .

فالحضارة المصرية القديمة ، لم تكن منبئة عن لاحقتها الحضارية اليونانية ، فقد أثبت البحث الحديث وجود اقتباس وأحيانا نقل فى الياذة هو ميروس وأوديسه ، فالعالم الفرنسى Victor Berard وهو من المتفرغين للآداب اليونانية ، أثبت أن هوميروس اقتبس كثيرا من آداب المصريين ومعتقداتهم . والعالم M.W. Crolenicheff وهو من علماء المصولوجيا فى روسيا يكتشف أن فضلا من فصول الأوديسا منقول عن قصة ، وجدها فى ملف من أوراق البردى المحفوظة فى إحدى مكتبات بترو غراد ، وتوصل الى هذه النتيجة غير هذين من

---

( ١٥ ) العقد الفريد ٢ / ٤٣

العلماء (١٦) ، والحضارة العربية الاسلامية افادت كثيرا من الحضارة اليونانية في فلسفتها ونحوها ومعتقداتها ، وعلومها ... الخ (١٧) . وحملت الحضارة العربية الامانة بصدق واخلاص وسلمتها الى سليلتها الحضارة الاوروبية « وللحضارة العربية أهمية خاصة عند دارسي التراث الانساني بصفة عامة ، ولهؤلاء الذين يهتمون باظهار تكامل الجهود الانسانية مرة أخرى في وجه الاقطار الوطنية والعلمية لأن الحضارة العربية ، كانت - ولا تزال - قنطرة ، وقنطرة رئيسية بين الغرب والشرق ، فعبرها أخذت طريقها الى أوربا الاعداد والعلوم الهندسية من الهند ، والحريير والورق والخزف من الصين » (١٨) .

وفذلكة الموضوع أن الحضارة الانسانية قاسم مشترك بين ابناء نوح ، ساميهم وحاميههم يسهم فيها كل بمقدار مايتيح ظروفه .

أما التمهيص العلمى الدقيق ، فقد هال الأمم المتحدة خطورة هذه الفكرة التعصبية فاصدرت بيانين عن « طبيعة الجنس والاختلافات الجنسية » . وضع البيان الاول - بصفة رئيسية - علماء الاجتماع من مختلف الدول في دار اليونسكو بباريس في ١٨ من يولييه سنة ١٩٥٠ . أما البيان الثانى فقد وضعه علماء الانثروبولوجيا الجسمية وعلماء

(١٦) على هامش التاريخ المصرى القديم ٧٣ - ٨٣ .

(١٧) انظر لتوضيح هذه النقطة : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ( الفصل الثالث من الباب الاول ، الباب الثانى ، الباب الثالث والباب الرابع . )

(١٨) مقال مقتطف من كتاب « المرشد الى تاريخ العلم » تأليف جورج سارتون ترجمة عزت قرنى ، نشر بمجلة « المجلة » ص ١١١ ( عدد يولييه سنة ١٩٦٣ ) وأن أردت المزيد فانظر :

١ - من الوجهة النفسية فى دراسة الادب ونقده - للاستاذ محمد خلف الله ص ٢ .

٢ - أثر العرب فى الحضارة الاوروبية للاستاذ عباس محمود العقاد .

الوراثة ، فى دار اليونسكو بباريس يوم ٢٨ يوفيه سنة ١٩٥٩ ومما جاء فى المادة / ١٣ ، والمادة / ١٤ من البيان الاول ما يأتى :

« ١٣ - فيما يتعلق باختلاط الاجناس تشير الدلائل بما لا يتطرق اليه الشك الى انه ظل مستمرا منذ أقدم العصور ، بل ان طريق العمليات الرئيسية لتكوين الاجناس ، وانتشار الاجناس وامتصاصها ، تتم عن طريق التهجين بين الاجناس ، أو المجموعات الاثنولوجية »

« ١٤ - لا بد من التمييز بين الجنس كحقيقة بيولوجية ، والجنس كاسطورة من الاساطير ، الجنس من جميع الوجوه الاجتماعية العلمية ليس ظاهرة بيولوجية ، بقدر ما هو اسطورة اجتماعية ، وقد خلقت اسطورة الجنس قدرا هائلا من الضرر الانسانى والاجتماعى . . . وليس فى ذلك أكثر من ادراك ما كتبه عالم بيولوجى عظيم فى عام ١٨٧٥ م « بينما يتقدم الانسان فى مضمار الحياة ، وتتوحد القبائل الصغيرة فى مجتمعات أكبر ، يوحى أبسط التفكير لكل فرد بأن عليه ان يمد غرائزه الاجتماعية ، ومشاركته الوجدانية لجميع بنى قومه ، رغم أنه لايعرفهم معرفة شخصية ، واذا ما بلغ هذه النقطة ، فلن يحول الاحاجز صناعى ، دون ان تمتد مشاركته الوجدانية الى الناس من كل الأمم والاجناس » هذه كلمات تشارلز داروين فى كتابه The Descent of Man الطبعة الثانية عام ١٨٧٥ ، صفحات ١٨٧ - ١٨٨ « (١٩) »

بعد هذا الاستطراد الذى كان لا بد منه لهدم الاساس الذى بنى عليه من رعى الادب العربى بالجذب ، وعدم التنوع فى الاقائين الادبية - اعود على بدء الى المنكرين للقصة فى الادب العربى فأعرض عليهم دليلا أقوى مما سبق ، وهو واقع الأمة العربية التاريخى .

(١٩) ماهو الجنس ص ٧٩



فالحقيقة أن القصة واكبت الأمة العربية في سيرها التاريخي ، وفي كل عصر كانت أداة فنية ، تعبر عن حاجات العرب ، وتكشف عن ظروفهم التي كانوا يمرون بها .

فبالصحراء العربية صحراء رهيبة ، يشعر أمامها العربي بالضالة فإذا ما هجم الليل ، لف العربي وخيمته ، فلا يستطيع أمامه مهربا كما يومئذ النابغة إلى ذلك وهو يعتذر للنعمان ، والعربي أمام الصحراء وليلها يشعر بالرغبة والجلال ، يحيط به هزيع الرياح ، وتتطلع إليه نجوم كأنها عيون ذات شرر وتتساقط عليه شهب كالقصر . فماذا يفعل العربي - في تلك الفترة المبكرة - أمام هذه المظاهر الرهيبة ؟ لقد جسدها وأضفى عليها الكثير من القصص . فهناك الجان التي تتلصص على الملكوت الأعلى ، وتحاول أن تخترق الحجب عسى أن تجد تفسيراً لهذه المتناقضات التي تحيط بالعربي في صحرائه ، وقد جاء القرآن بإبطال هذا الصنيع ، فقد امتلأت السماء حرسا شديدا وشهبا تمنع الجن من الوصول إلى أسرار الغيب « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » ( ٢٠ ) . والعربي في ضعفه أمام مظاهر الصحراء يلجأ إلى الجن ، « فكان الرهط من العرب في الجاهلية إذا أمسوا في واد أو قفر وخافوا من الجن - لجئوا إلى الاستعاذة بعظيم الجن المسود فيهم فيقولون : نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، ثم يبيتون آمنين » ( ٢١ ) وقد أشار القرآن إلى هذه العقيدة في قوله « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقا » ( ٢٢ ) .

( ٢٠ ) سورة الجن ، الايتين ٨ ، ٩ . وفي رسالة الغفران يلتقي ابن القارح في جنة العفارىت بجنى هو أبو هدروش فقص عليه قصة الرجم وإيمان طوائف من الجن « ١ / ٩٤ » .  
( ٢١ ) تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي ص ١٥٠  
( ٢٢ ) سورة الجن الآية ٦ .

وقد حيكّت أقاصيص كثيرة حول الجن ، فهناك رجال من الانس يتزوجون من الجن ، وهناك عشاق من الجن للانس ، وقد ذكر ابن الفديم ستة عشر كتابا فى أسماء عشاق الانس للجن وعشاق الجن للانس (٢٣) .

وهناك رجل من بنى عذرة يقال له « خرافة » سبته الجن ، وكان معهم ، فاذا استرقوا السمع أخبروه فيخبر به أهل الأرض فيجدونه كما قال (٢٤) وقد كان أبرهة ذو المنار من أجمل الناس وجها فعثقته امرأة من الجن ، ثم تزوجت منه ، ولدت له ولدين : العبد ذا الأشرار ، وعمراً ذا الأذعار (٢٥) وكان العبد اذا أضل طريقه استنجد بالجن فتعينه (٢٦) .

وقد استغل الكهان هذه العقيدة ، فأشاعوا بين الناس أن مع كل واحد منهم رئيساً من الجن مثل حازى جهينة ، وظريقة الحجورية التى أتاها آت فى المنام ، فخبرها بين العلم والولد فاختارت العلم (٢٧) وورث العلم (٢٨) من بعدها سطيح وشق (٢٩) . وحكوا الأساطير حول هذه الشخصيات الجنية ، فشق نصف آدمى ، له يد واحدة ورجل

(٢٣) الفهرست ص ٤٢٨ .

(٢٤) العقد الفريد ١ / ٢٥١ .

(٢٥) التيجان ص ١٢٧ وأخبار عبيد بن شربة ص ٤٠٦ .

(٢٦) التيجان ص ١٣٠ .

(٢٧) التيجان ص ٢٦٥ .

(٢٨) المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٢٩) البيان والتبيين ١ / ١٥٩ . ولاخبار شق أنظر : الحيوان

٢ / ٢٠٦ « طبع الحلبي وتحقيق عبد السلام محمد هارون » ، وسيرة

النبي لابن هشام ص ١٢ « كتاب التحرير العدد ٥٢ » ، ولاخبار سطيح

أنظر : العقد الفريد ٣ / ٢٨ « مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر »

ونهاية الأرب فى فنون الأدب ٣ / ١٢٤ « طبع دار الكتب » .

واحدة وعين واحدة (٣٠) وليس له مفصل ولا عظم يخرج ممسوخا ،  
وماله رأس ولا عنق (٣١) . أما سطيح فقد عمر حتى بلغ ثلاثمائة سنة ،  
وجهه في صدره ولد هو وشق في يوم واحد ، لاعظم فيه الا الجمجمة ،  
لايقدر على الجلوس الا اذا غضب ، له سرير يوضع فيه اذا اريد نقله من  
مكان الى مكان ، واذا اريد استخباره عن المغيبات فانه يحرك كسا  
يحرك سقاء اللبن ، فينتفخ ويمتلئ ويعطو النفس ، فيسال ، فيخبر  
عما سئل عنه وهو الذي تنبأ بظهور محمد (ص) وبغلبة العرب (٣٢) .

وقد علل المسعودى لهذه الاساطير التي شاعت بين العرب تعليلا  
منتزعا من البيئة ، ومن موقفه العربي ازاء هذه البيئة فقال : « وقبيل  
تنازع الناس في الهواتف والجان ، وان ما تذكره العرب وتنسب به من  
ذلك انما يعرض لها من التوحد في القفار ، والتفرد في الاودية ،  
والسلوك في المهامه الموحشة لان الانسان اذا سلف في المهامه روع ووجل  
وجبن ، واذا هو جبن ، داخلته الظنون الكاذبة ، والاوهام المؤذية  
السوداوية الفاسدة ، فصورته له الاصوات ومثلت له الاشخاص ، واوهمته  
المحال ، كما يعرض لذوى الوسواس ، لان المتفرد المتوحد يستشعر  
المخاوف ، ويتوهم المتالف ، ويتوقع الحثف لقوة الظنون الفاسدة على  
فكره ، وانغراسها في نفسه ، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به  
واعتراض الجان له (٣٣) » .

(٣٠) الحيوان ٦ / ٢٠٦ « طبع الحلبي » .

(٣١) التيجان ص ٢٨٠ .

(٣٢) العقد الفريد ٢ / ٢٨ « طبع دار الكتب » ، نهاية الارب

٣ / ١٢٤ « طبع دار الكتب » ، التيجان ص ٢٩٢ .

(٣٣) مروج الذهب ١ / ٣٢٦ . وقد عرض الدكتور احمد الحوفي

فكرة الجن عند العرب عرضا علميا مستمدا من الاخبار والنصوص  
الاصلية انظر « الحياة العربية من الشعر الجاهلي ٤٥٩ - ٤٨٣ من الطبعة  
الرابعة » وفي الجزء الرابع من قصص العرب قصص : « عن الجان

وما يدل على خيال العرب .... » .

والعرب - في معظمهم - قبائل تنتجع الغيث والكلأ . وما أكثر أن تنح السماء ، فلا تمطر نبأتنا إلا في بقع قليلة ، يتقاتل عليها العرب وتدور بينهم الحروب ، ولذلك يعبد المؤرخون « أيام العرب » (٣٤) .

وقد روى الرواة حول هذه الأيام قصصا ، وسواء أكانت واقعية أم فيها شيء من المبالغة فإنها تعتبر من التراث القصصي ، وبعض هذه القصص تعد مآسى إنسانية رائعة ، كقصة « حرب البسوس » ، فكليب ابن ربيعة بنى وطغى ، وداخله الغرور على قومه ، حتى أنه كان يحمى مواقع السحب ، ويجير على الدهر ، ويجير الوحش في فلواتها ولا تورد ابل مع ابله ، ولا توقد نار مع ناره ، وفي يوم تسربت ناقة « للبسوس » يقال لها « سراب » ووردت الحوض مع ابل كليب فأرداها بسهم ، فاستغاثت بابن اختها « جساس بن مرة » ، فاحمسته ، وتسارعت فيه عواطف النجدة والتخوة والدفاع عن أقربائه المقربين ، والتحرر من هذا الطغيان فركب فرسا له ، مغرورا به ، وأخذ آتته ، وتبعه عمرو ابن الحارث ، حتى دخلا على كليب الحمى فقتلاه ... وهنا تتنازع الأمور وتدور المعارك المهولة بين بكر وتغلب ابنى وائل ، تلك المعارك التي امتدت رحاها الى كثير من القبائل العربية ، وأصبحت وكائنها ملحمة ، يشعر فيها الشعراء ويقص حولها القصاص ، ووسط هذا الضجيج ، كانت هناك نفس إنسانية تحولت الى ميدان من المتناقضات ، تلك هى جلييلة بنت مرة ، زوج كليب المقتول وأخت جساس القتال ، فهى بين نارين من حبها لأخيها ، وحبها لزوجها ولجأت الى الانتحار عسى أن تخفف من حسرة هذا التناقض ... وأخيرا لحقت أو الحقت بقومها (٣٥) .

(٣٤) العقد الفريد ٣ / ٤٨ - ٩٣ « أيام العرب ووقائعها » .

(٣٥) المرجع السابق ٣ / ٧٤ .

وهناك ضرب من القصص انتشر بين العرب ، وكان هذا الضرب يهدف إلى اظهار تجربة والكشف عن عظمة ، وهو تلك القصص التي تجد في ثناياها أمثالا سائرة بين الناس ، فيها خلاصة التجارب التي تنير للأجيال ، فما المثل - في اعتقادي - لأجملته قد اقتطعت من حكاية ، فهذه الجملة تحمل مغزى القصة ، اكتفى - تمثيا مع ميل العرب العام للإيجاز (٣٦) - بهذه العبارة لتكون رمزا للقصة كلها ، وليس عبثا أن يتكلم البيانبيون (٣٧) عن مورد المثل ، وعن مضرب المثل ، فما مورد المثل إلا القصة الأصلية التي حكيت للعبارة والعظة ، وما مضرب المثل إلا الجملة التي اقتطعت من القصة والتي أصبحت تحمل معنى القصة الأصلية ، وتداولها الناس ليقيدوا منها في حالات مشابهة للحالة الأولى التي ورد فيها المثل . جاء في تفسير المنار ما يلي : « والمثل في اللغة الشبه والتشبيه ، وضربه عبارة عن إيقاعه وبيانه ، وهو في الكلام أن يذكر لحال من الأحوال ما يناسبها ويشابهها ، ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيا ، ولما كان المراد به بيان الأحوال كان قصة وحكاية ... هذا ما قاله الأستاذ الامام » (٣٨) .

والقصص التمثيلية أنواع (٣٩) منها القصص التي ترد على السنة

- (٣٦) الايضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٥ / ١٣٥ « خفاجي » ، والفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٧ .
- (٣٧) الايضاح ٥ / ١٣٥ « خفاجي » .
- (٣٨) تفسير المنار ١ / ٢٣٦ .
- (٣٩) أنظر :
- ١ - مجمع الأمثال للميداني .
- ٢ - جمهرة الأمثال للعسكري .
- ٣ - المستقصى للزمخشري .
- ٤ - العقد الفريد ١ / ٢٤٨ « المطبعة الوثرية » .
- ٥ - قصص الحيوان في الادب للدكتور عبد الرازق حميدة .

الحيوان ، ومنها القصص التي دارت حول شخصيات انسانية ، اسطورية  
أو واقعية .

فمن النوع الثاني تلك الامثال الثرية التي دارت حول شخصية « لقمان  
ابن عاد بن عاديا ( ٤٠ ) » ، ونكتفى منها بهذا الموقف الانساني الفياض  
« كان لقمان بن عاد بن عاديا ، الذي عمر سبعة انسر ، وابتلئ بالنساء ،  
وكان كلما يتزوج امرأة تخونه ، حتى تزوج جارية صغيرة ، لم تعرف  
الرجال ثم نقر لها بيتا في سطح جبل ، وجعل لها درجة بسلاسل يفرز  
بها ويصعد ، فاذا خرج رفعت السلاسل ، حتى عرض لها فتى من  
العمالق ، ووقعت في نفسه ، فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجنين عليكم  
حريرا لا تقومون لها قالوا : وما ذاك ؟ قال امرأة لقمان بن عاد هي أحب  
الناس الى . قالوا : فكيف نحتال لها ؟ قال : اجمعوا سيوفكم ، ثم اجعلوني  
بينها وشدوها حزمة عظيمة ، ثم ائتوا لقمان فقولوا : انا أردنا أن نسافر  
ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع . وسموا له يوما . ففعلوا واقتلوا  
بالسيوف فدفعوها الى لقمان . فوضعها في ناحية من بيته ، وخرج لقمان  
وتحرك الرجل فخلت الجارية به ، فكان يأتيها ، فاذا أحست بلقمان ،  
حملته بين السيوف ، حتى انقضت الأيام ، ثم جاءوا الى لقمان فاسترجعوا  
سيوفهم فرفع لقمان رأسه بعد ذلك ، فاذا نخامة تنوس في سقف البيت ،  
فقال لامراته : من نخم هذه ؟ قالت : انا : قال : فتنخمي ، ففعلت فلم  
تصنع شيئا ، فقال : يا ويلتاه ، السيوف دهنتني . ثم رمى بها من ذروة  
الجبل ، فقطعت قطعا ، وانحدر مغضبا ، فاذا ابنة له يقال لها صحر .  
فقال : يا ابتاه ما شأنك ؟ قال : وأنت أيضا من النساء فضرب رأسها

( ٤٠ ) أنظر لحديث لقمان :

- ١ - التيجان ص ٨٢ . ٢ - تزيين الأسواق ١ / ١٣ .  
٣ - المحاسن والأضداد ص ١٧٨ .

بصخرة فقتلها ، فقالت العرب : ما أذنبت الا ذنب صحر ، فصارت  
مثلا (٤١) .

ومن المدهش أن نجد القصة منتشرة في العصر الجاهلي ، انتشارا  
واسعا « فلم يكن الشاعر وحده هو الذي تهفؤ له النقوس ، وتسمو اليه  
الاعين عند عرب الجاهلية ، بل كان القاص يقوم أيضا مقامهما الى  
جانب الشاعر في سمر الليل ، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة  
وفي مجالس أهل القرى والحضر (٤٢) . وانتنى اقترح أن ترجع الى  
ما ذكره وهب بن منبه في كتاب « التيجان » عن ذى القرنين (٤٣) ،  
فستدهش لهذا الخيال الخلاق الذى يكاد يكافئ أقوى الأخيلة المعاصرة ،  
وارجع - بنوع خاص - الى تلك الرؤية العجيبة التى كان يراها  
ذو القرنين (٤٤) . أو الى ما ذكره عن أرض الملائكة حين أشرف  
ذو القرنين على دار مفردة بيضاء ، فيها بيت واحد ، وعلى باب الدار  
رجل أبيض واقف . وعلى سطح الدار رجل مبيض واقف ، قد أخذ  
شيئا كمزمار ، فحبسه فى قمه وأمسكه بيديه جميعا : وعيناه تشخصان  
الى السماء ... الخ (٤٥) . أو الى ما ذكره عن أرض قطربيل ، اذ أنها  
أشبه بالمدينة الفاضلة التى نادى بها الفلاسفة ، فأهلها : « لاغنى فيهم  
ولا فقير ، ولا قاض فيهم ولا أمير ، ولا ناه فيهم ولا أمر ، ورأى مواشيهم  
بلا رعاة (٤٦) ... » وانظر الى العوالم العجيبة التى كان يلتقى بها  
ذو القرنين ، فمرة يلتقى بقوم « آذانهم كبار من أعلى رأس أحدهم

(٤١) مصارع العشاق ص ٣٨ .

(٤٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١ / ١٢٨ .

(٤٣) التيجان ٨١ - ١٢٦ :

(٤٤) المرجع السابق ٨٢ .

(٤٥) المرجع السابق ص ١٠١ .

(٤٦) المرجع السابق ص ١٠٣ .

الى ذقنه ، فاذا رقد وضع شقا عليها ، وغطت الاخرى الشق الاعلى (٤٧) »  
ومرة يلتقى يقوم « صغار الاعين ، صغار الوجوه ، مشعرين ، وجوههم  
كوجوه القردة ، وهم لا يظهرون في النهار ، وانما يظهرون في الليل .  
يختفون في حر الشمس في المغارات والكهوف في الجبال (٤٨) » وغير  
ذلك من عوالم عجيبة تشبه ما نقرؤه في رحلات جوليفر من غرائب  
ومدهشات .

وان الامر - بعد - يحتاج الى رسالة مطولة في ميثولوجيا العرب  
وقصصهم (٤٩) ولكن يكفي - في هذا التمهيد اليسير أن أقول :

ان القصة في العصر الجاهلي ، كان لها اثر كبير على قلوب عامة  
العرب حتى ان القرآن الكريم اعتنى بالقصص عنانية فائقة ، فهناك  
سورة تسمى باسم « القصص » ، وهناك سور تقص قصص الانبياء  
وغيرهم ، وتسمى بأسماء شخصيات وردت في هذه القصص مثل : سورة  
ابراهيم ، وسورة هود ، وسورة يونس ، وسورة آل عمران ، وسورة

---

(٤٧) المرجع السابق ص ٨٨

(٤٨) المرجع السابق ص ١٠٦

(٤٩) أنظر : في طريق الميثولوجيا عند العرب وهو بحث يقول  
لنا مؤلفه أنه مسهب في المعتقدات والاساطير العربية قبل الاسلام .  
والدكتور عبد العزيز عبد المجيد يرد على أرنست رينان ومن ذهب مذهبه  
في أن الجنس السامي أدنى من الجنس الآري ، وأن هذا الاحتياط هو  
المسئول عن عدم وجود اساطير في اللغة العربية - يرد عليهم ويبين  
أن هذه النظرية وجدت لأسباب سياسية واجتماعية ، وأنه لا توجد  
براهين علمية لاثباتها : ولكنه يسلم بأنه لا توجد اساطير خاصة  
بالعرب ، كما هو الحال عند الاغريق ، والمصريين ، والبابليين ،  
والكلدانيين ، ويرجع ذلك الى بيئة العرب الطبيعية المتكررة  
الملولة ، التي عبرت عن نفسها بالنظام القبلي والتفكير غير الفلسفي ،  
والخيال الضحل (The Modern Arabic short PP. 28, 30).



يوسف وسورة الكهف . الخ . ووردت مادة قصص في القرآن أكثر من سبع وعشرين مرة . ( ٥٠ ) .

وقد صادفت هذه القصص حاجة في نفوس العرب ، فاقبلوا عليها اقبالا حال زعماء الشرك فأزاد النضر بن الحارث أن يصرفهم عنها يقصص أخرى ، فتحدث عن رستم وأسفنديار ، فإذا قسام محمد بن مجلسه يجلس فيه النضر فيحدثهم عن متلفاته ، ثم يقول : بالله أينما أحسن قصصا ، أنا أو محمد ( ٥١ ) .

وقد بعثت قصص القرآن نهضة عظيمة في القصص العربي ، حتى يصعب على الذهن متابعة هذا الطوفان من القصص . . . فهناك قصص حول الأنبياء ، عمل فيها الخيال عمله ، وافتن فيها العقل الاسرائيلي ما أمكنه الافتنان ، وإن أردت المزيد من التوسعة ، فارجع الى الكتابين الذين ألفا في هذه القصص ، وهما : كتاب « الثعالبى » ( ٤٢٧ هـ ) ( ٥٢ ) في قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ، وكتاب الكسائي ( من مواليد القرن الخامس ) في قصص الأنبياء أيضا .

وانما ساكتفى هنا بضرب مثل عما حيك حول الآية « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة ، فلا تكفر . . » . ففي تفسير الطبري « أنه كان من أمر هاروت وماروت ، أنهما طعنا على أهل الأرض في أحكامهم ، فقبل لهما : اتى أعطيت ابن آدم عشرا من الشهوات ، فيها يعصوننى ،

( ٥٠ ) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مادة « قصص » .  
( ٥١ ) تفسير القاسمى ٨ / ٢٩٨٤ « تعليق محمد فؤاد عبد الباقي » الآية ٣١ من سورة الأنفال ، وكذا تفسير البضاوى ٩ / ٢٣٩ « مطبعة صبيح سنة ١٣٦٦ » .  
( ٥٢ ) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعالبى النيسابورى . يقال له الثعلبى والثعالبى ، توفى سنة سبع وعشرين وأربعمائة . ( وفيات الأعيان ١ / ٦١ )

قال هاروت وماروت : ربنا لو أعطينا تلك الشهوات ، ثم نزلنا لحكما بالعدل ، فقال لهما : انزلا ، فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر فاحكما بين الناس ، فنزلا ببابل دنيا وند ، فكانا يحكما حتى اذا امسيا عرجا ، فاذا اصبحا هبطا ، فلم يزالا كذلك حتى اتتهما امرأة تخاصم زوجها ، فاعجبهما حسنهما ، واسما بالعربية « الزهرة » ... فقال احدهما لصاحبه : انها لتعجبني ، قال الآخر : قد اردت ان اذكر لك فاستحييت منك . فقال الآخر : هل لك ان اذكرها لنفسها ؟ قال : نعم ، ولكن كيف لنا بعذاب الله قال الآخر : انا نرجو رحمة الله . فلما جاءت تخاصم زوجها ، ذكرها لها نفسها ، فقالت : لاحتى تقضيا لى على زوجى فقضيا لها على زوجها . ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتياها فيها ، فاتيا لذلك ، فلما اراد الذى يواقعها قالت : ما انا بالذى يفعل حتى تخبرانى باى كلام تصعدان الى السماء ، وبأى كلام تنزلان منها ؟ فآخبراهما فتكلمت فصعدت . فانساهما الله ما تنزل به ، فبقيت مكانها ، وجعلها الله كوكبا .. فلما كان الليل ارادا ان يصعدا فلم يستطيعا فعرفا الهلك . وفى رواية عن مجاهد : انهما بعد الخطيئة عرجا فردا ، ولم تحملهما اجنحتهما فاستغاثا برجل من بنى آدم ، فدعا لهما ، فاستجيب له فخيراه بين عذاب الدنيا والاخرة فاخترتا عذاب الدنيا ... وزعم انهما معلقان فى الحديد مطويان ، يصفقان باجنحتهما (٥٣) .

وبعد تلك الخطوة القرآنية ، تدفق سيل القصص وتنوع (٥٤) « فابن النديم يذكر فنا فى أخبار السامريين والمخرفين ، وأسماء الكتب

(٥٣) تيسير الطبرى ٣ / ٤٣٤ « طبع دار المعارف وتحقيق محمود محمد شاكر »  
(٥٤) فاذا كان الاسلام لم يشجع قصص الآلهة الوثنية ، ولا قصص المسرات الدنيوية او قفل بابا من ابواب الالهام للأدب القصصى بموقفه المعادى من تصوير الشكل الانسانى كما يقال The Modren Arabic short story P. 34 فانه فتح ابوابا عدة للإلهام القصصى .

المصنفة في الاسمار والخرافات ، وذكر أكثر من ستة ومائة كتاب ، ألفت في أسماء العشاق وفي أسماء الحبايب المتظرفات ، وفي عجائب البحر وغيره . . . الخ ( ٥٥ ) والجاذب يحدد تحت عنوان « ذكر القصص ( ٥٦ ) » أسماء القصصين ، فيذكر نحواً من ثمانية وعشرين اسماً . وقرب الخلفاء القضاة ، فعثمان بن عفان يقرب أبا زيد الطائي وهو من رواة ملوك العجم ، وكان عالماً بسيرها وقد قص على عثمان قصته مع الأسد حين خرج يريد الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام ، وجعل يفيض في الوصف حتى قال له عثمان « أسكت ، قطع الله لسانك ، فقد رعبت قلوب المسلمين ( ٥٧ ) » . وهناك أسر تتوارث هذا الفن أبا عن جد « كان الفضل ( وهو الفضل بن عيسى الرقاشي ) من أخطب الناس . . . وكان قاصاً مجيداً ، وهو رئيس الفضلية واليه ينسبون وكان عبد الصمد بن الفضل أغزر من أبيه . . . حدثني أبو جعفر القاص قال : « تكلم عبد الصمد في خلق البعوضة ، وفي جميع شأنها ثلاثة مجالس تامة » وكان يزيد ابن أبان عم الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي يتكلم في مجلس الحسن ، وكان زاهداً عابداً وعالماً فاضلاً ، وكان خطيباً ، وكان قاصاً » ( ٥٨ ) .

وحملت القصة العربية الأمانة في مختلف العصور . . . وهي في كل عصر مرآة صادقة تعكس الظروف التي يمر بها المجتمع . ففي العصر الأموي حين مر الحجاز بظروف خاصة ، شاعت قصص العشاق ، واتخذت لها لونا في الحاضرة مغايراً للون الذي ظهرت في البادية .

وفي العصر العباسي ، حين ظهرت فلسفة ماني ، وأباحية مزدك ، وسفر القجور والظرف ، وكثرت الخلاعة والمجون ، وتزايدت الشذوة

( ٥٥ ) الفهرست ٤٢٢ - ٤٢٨ .

( ٥٦ ) البيان والتبيين ١ / ١٩٥ - ١٩٧ القاهرة ١٣٣٢ هـ

( ٥٧ ) طبقات الشعراء ص ٢١٠ « صبيح »

( ٥٨ ) البيان والتبيين ١ / ١٦٧ ( القاهرة سنة ١٣٣٢ )

والانحراف ، شفت القصة عن تلك الحالة فظهرت كتب من قصص الادب الصريح ، ككتاب اخبار الغلمان وكتاب حسين اللوطى ، وكتاب عاشق الصورة ، وكتاب عاشق الكف ، وكتاب المخنث والفتاة التى عشقته ( ٥٩ ) .

ولما تعقد العقل العربى ، وغذته موارد الفلسفة ، وهذبته طرائق الصوفية - استطاعت القصة العربية أن تلبس ثوبا جديدا مناسبا لهذا العقل المركب ، قال ابن سينا ( ٩٨٠ - ١٠٣٧ م ) رسالة فلسفية ، سماها قصة حى بن يقظان . ثم ألف الفيلسوف ابن طفيل ( ١١١٠ - ١١٨٥ ) رسالته التى يعدها نقاد أوروبا خيرا قصة فى العصور الوسطى ( ٦٠ ) . وبعده جاء السهروردي ( قتل سنة ١١٧٣ م ) قائل قصة عنوانها العربية الغربية « .

وحين طغى على الادب العربى الشكل اللفظى والافتنان بالمأحكات الأسلوبية - كان للقصة من ذلك نصيبها الاوفى « فطفت المقامات بالاستعراضات اللغوية ، وامتلات بالالفاظ القاموسية » ( ٦١ ) .

( ٥٩ ) القهرست ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

( ٦٠ ) أنظر : الادب المقارن للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٢٣٥

الطبعة الثالثة « .

( ٦١ ) الباحثون أمام المقامات طوائف : منهم من ينكر أن تكون قصة ، ومنهم من يرفعها الى أرقى المستويات القصصية ، ومنهم من يقف مترددا مضطربا فالدكتور شوقى ضيف ينكر أن تكون قصة ( المقامة ص ٨ - ٩ ) . والدكتور مصطفى الشكعة يعتبر محاولة البديع فى مقاماته أول محاولة عرفت فى العربية للكتابة القصصية ، ثم أخضع بعض مقامات البديع لقواعد فن القصة الحديثة ( بديع الزمان : رائد الأقصوصة فى الادب العربى ( ص ٢٧٩ - ٢٨١ ) أما الدكتور محمد يوسف نجم فيرى أن العنصر القصصى فى المقامات ضعيف ( القصة فى الادب العربى الحديث ص ٣٣٠ ) أما الأستاذ محمود تيمور فيقول : « ولعل أول عمل أدبى يشعرنا بروح القصة الخالصة هو « المقامات » إذ أن فيها

ففي هذه العصور الوسطى كانت القصة العربية مزدهرة ، وقسم  
أوضح الأستاذ جب GIBB مدى تأثير النثر العربي في الاداب الاوربية ،  
وان هذا التأثير يؤلف مظهرا من مظاهر حركة فكرية عامة ، شملت  
تلك العصور ، فلقد كانت النظم الدينية العنيفة التي اقتنعت بها العصور  
الوسطى لاتتسع للحضارة اللاتينية . وبات الناس يتشوقون الى معرفة  
مسائل ، كانت الى هذا الحين تملئها السلطات العليا ، فيقبلونها في غير  
مشقة ، ولما لم يجدوها فيما لديهم من الاداب اللاتينية ، على ضيقها  
وجدوها واقتارها الى قوة الابداع ، كان لابد لهم ان يولوا وجوههم شطر  
جهة اخرى . . . . ولقد كانوا الى ذلك الحين يعترفون على مضض بتفوق  
العالم الاسلامي في الناحية الحربية فحسب ، ولكنهم لم يلبثوا يومئذ ان  
لاحظوا في شيء من الخجل انه يبرزهم في الحياة العقلية ايضا ثم أخذ  
« جب » يحدد النواحي التي أثرت فيها القصة العربية في القصة  
الاوربية في ذلك الحين ( ٦٢ ) .

وسارت الحضارة مبرها ، واختارت في هذه المرة ان تشرق في  
أوروبا وكان لابد للقصة العربية ان تواكب الحضارة ، وان تسترد الدين  
من القصة الاوربية ، وان تأخذ منها في هذه المرة ، كما أعطتها من  
قبل .

وليس هذا يعني ان القصة العربية المعاصرة ، هي بنت القصة  
الاوربية لحما ودما ، كما يرى الكثيرون .

عنصر الخيال والابتكار ، ولكنه بدائي ضعيف الاثر ، فقد كان هدف  
المقامة التفتن البلاغي والمطارحات الشعرية ، والالغاز النحوية واللغوية  
( فن القصص ص ٢٧ ) . والدكتور عبد العزيز عبد المجيد يرى أن  
المقامة Assembly أول شكل حقيقي للاقصصة في اللغة العربية ثم  
يشرح الاسباب التي أدت الى عدم تطورها :

The Arabic Modren short story P. 38

( ٦٢ ) انظر : تراث الاسلام ، فصل الادب ١ / ١٧٧ - ١٩٥

لست أعنى هذا ، وإنما الذى أعنيه أن القصة العربية سارت سيرها الطبيعى ، فافادت من الآداب الأوروبية ، وامتصت ما هو صالح لها ولظروفها . فإضاف إليها ذلك دما جديدا ، امتزج بالسدم العربى الأصيل فكان منهما خلق جديد ، ذو ملامح خاصة ، فيه الكثير من دماء أجداده ، وفيه أيضا عناصر آخر بسبب التهجين الجديد .

فالقصة المعاصرة ابتدأت كتطوير للمقامات العربية ، فما هى الا مقامات جديدة ، أفادت من النهضة الأوروبية فى تنويع المناظر ، وفى تعميق التحليل النفسى والعناية بالمشكلات المعاصرة ونقدتها ، وغير ذلك . ومن أمثلة ذلك : « حديث عيسى بن هشام » . لمحمد المويلحى و « لىالى سطيح » لحافظ إبراهيم و « شيطان بنتاؤر » لأحمد شوقى .

ثم أخذت القصة العربية تتطلع الى أختها القصة الأوروبية ، فكانت تقتبس منها الموضوع فقط ثم تحور فيه ماتشاء ، وتضيف اليه أشياء مناسبة لجمهورها ، وتخذف منها مالا يصلح لها ، ومن أمثلة ذلك مصطفى لطفى المنفلوطى فقد عرب - وأقصد المعنى الحقيقى لكلمة « عرب » - قصة بول وفرجينى وسماها الفضيلة . وحول - واستعير منه هذا اللفظ الذى استعمله (٦٣) - مسرحية سيرانودى برجرارك للشاعر الفرنسى : ادمون روستان ، من القالب التمثيلى الى القالب القيسى .

وارتوت القصة العربية كثيرا من القصة الأوروبية ، أما عن طريق الترجمة الدقيقة ، أو عن طريق المشافهة الحقيقية ، حتى قدر لها أن تستقل بنفسها فاتجهت الى بيئتها الأصلية ، تلتبس منها الموضوع ، وتبحث فيها عن المشكلة ، وهى فى الوقت نفسه لا تأنف من استيراد هواء جديد من أوربا ، ومن أمثلة تلك الأعمال الناضجة التى استوحيت بيئتها المحلية ، قصص نجيب محفوظ التى عالجت شخصيات وأجيالا

(٦٣) انظر مقدمة « الشاعر » ص ٥

مصرية متعاقبة ، كالثلاثية ( بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية )  
وخان الخليلي ، وزقاق المدق ، ومثل عودة الروح لتوفيق الحكيم ،  
ومثل الأرض لعبد الرحمن الشرقاوي .

وهكذا نجد أن القصة العربية مخلوق حي على مدى العصور  
التاريخية ، أحيانا يتأثر بالآداب الأخرى ، كالآداب الفارسية أو الهندية  
أو الأوروبية ، وأحيانا يؤثر في تلك الآداب كما حدث في العصور  
الوسطى .

وربما كان عذر المنكرين لوجود القصة في الأدب العربي القديم  
أنهم نظروا الى ذلك الأدب ، وفي ذهنهم القصة الحديثة بمعناها الفني  
المعاصر .

وهذا أمر فيه كثير من الظلم ، فإن القصة الفنية لم تعرف - سواء  
في الآداب العربية في الآداب الأوروبية أو غيرها - إلا في ذلك العصر .

وقد قرر بروفيسور Baldwin بعد استقصاء شامل مجهود للمائة قصة  
التي ألفها بوكاشيو ( ١٣١٣ - ١٣٧٥ م ) في الديكاميرون Boccaccio  
Decameron قرر أن قصتين فقط من قصص هذه المجموعة ، هما  
اللذان حققنا معنى القصة القصيرة بالمفهوم النقدي ، وهما القصة الثانية  
من اليوم الأول ، والقصة السادسة من اليوم السابع ( ٦٤ ) .

وحينما استحال الشاعر الصغير « والترسكوت » قصاصا كبيرا ،  
خجل من عمله الجديد وكتب يقول : « لم أنسب ويفرلى الى نفسي » .  
فلست على ثقة من أنه يليق بمن كان مثلي من رجال القانون أن يكتب  
القصص . فقد كان القصص يعد في أيامه فرعا منبوذا من فروع دوحه  
الشعر ، إذ كان يمثل الابن البغيض في الأسرة الأدبية « ( ٦٥ ) » .

Encyclopaedia Britanica (short story) (٦٤)

(٦٥) أنظر مقدمة « أعلام الفن القصصي » والترسكوت ولد سنة  
١٧٧١ م وتوفي سنة ١٨٣٢ م ، أنظر المرجع نفسه ص ٨٤ ،

.. وحين بشر Poe السيد الاول للقصة القصيرة الحديثة - كما تلقىه دائرة المعارف البريطانية - بنظريته عن الوحدة *Totality* فى القصة القصيرة وذلك بصدد آرائه الشهيرة عن حكايات ناثانيال هاوثورن ( ١٨٤٢ م ) Nathaniel Hawthorne - لم تلق آراؤه آذانا صاغية الا بعد مرور أربعين عاما ، حين أصدر Brander Mathews مقالة الشهير عن « فلسفة القصة القصيرة » وشبهها فيه بالمرحبة الفرنسية الكلاسيكية من حيث مراعاة الوحدات الثلاث ، اذ يجب أن تقتصر القصة القصيرة على بطل واحد ، وحادثة واحدة وانفعال واحد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد ( ٦٦ ) .

وهكذا لو نظرنا الى العرب نظرة تاريخية منصفه ، لا نتطلب منهم سبق الأحداث ، نجد انهم لم يقصروا فى فن القصة « زاول العرب جميع انواع الادب فضلا عن الشعر ، فللعرب روايات فى المخاطر والحب والفروسية .. وترى فى رواياتهم العربية - مع قلة اعتنائهم بنفسية الأشخاص - قوائد كبيرة لاشتمالها على ضروب المخاطر العجيبة ، فالعرب قد جملوا بخيالهم الساطع كل شئ لمسوه .. وهم الذين ابتدعوا روايات الفروسية ، قال سيدىو : « كان خيال الشعراء يتجلى فى الروايات والاقاصيص ، فالحق أن اتباع محمد كانوا من أكبر المحدثين على الدوام ، فكانوا يجتمعون مساء تحت خيامهم ليسمعوا بعض الاقاصيص العجيبة ، التى تتخللها الموسيقى والغناء » ( ٦٧ ) .

ومع ذلك ، ومع كل هذا التراث الضخم الثرى ، فإن النقاد العرب لم يولوا هذا الفن العناية الكافية ، ولم ينظروا الى تلك القصص نظرتهم الى الشعر .

Encyclopaedia Britannica (short story).

( ٦٦ )

( ٦٧ ) حضارة العرب ص ٥٤٢ .



فقد شغلهم الشعر - أوكاد - عن كل ماعداء ، فاهتموا به الاهتمام الكبير ، وانطلق غير واحد يتحدث عن طبقات الشعراء ، وعن سرقات الشعراء ، وعن أجود ما قاله الشعراء وعن الوساطة بين الشعراء ، وعن المفضليات ، وعن المعلقة ... الخ ، وصار الكثيرون منهم يبحثون عن جوانب فضل الشعر على النثر « لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة » ألا ترى أن الدر أخو اللفظ ونسيبه ، واليه يقاس ، وبه يشبه ، إذا كان منثورا لم يؤمن عليه ، ولم ينتفع به في الباب الذي له كتب ومن أجله انتخب ، وإن كان أعلى قدرا وأعلى ثمنا . فإذا نظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال (٦٨) . « أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة والمشاهد الجامعة ... إذا قام به منشد على رؤس الأشهاد ... ولا يفوز أحد من مؤلفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة ... ولا يهتز ملك ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتز له ، ويرتساح لاستماعه » (٦٩) .

وإن درسوا النثر فانهم يدرسون ألوانا أخرى بعيدة عن القصة ، يدرسون الخطابة والكتابة ، والوصاية والحكم ، والأمثال لا على أنها قصة وإنما لما فيها من بيان ولفظ ولما فيها من سمو معنى وصدق .

حتى الجاحظ الذي كان يهتم بنوادر العوام وملح الحثوة والطغام ، ويرى أن تحكى كما رواها أصحابها (٧٠) ، والذي تحدث عن الطبقات الشعبية : كالبخلاء ، والظرفاء ، والنوكى - حتى الجاحظ في كتابه العظيم

(٦٨) العمدة ١ / ٤ « باب في فضل الشعر » وكذلك الصفحات

٩ ، ١١ ، ٣٧ ، ٥٠ .

(٦٩) الصناعتين ص ١٠٣ .

(٧٠) البيان والتبيين ١ / ٨١ ( القاهرة سنة ١٢٣٢ هـ ) .

« البيان والتبيين » الذي اعتبره ابن خلدون واحدا من أربعة دواوين تمثل اصول فن الادب وأركانه وما سواها فتبع لها وقرع عنها (٧١) .

تحدث الجاحظ في هذا السفر الذي يبلغ ثلاثة أجزاء عن الخطب والخطباء (٧٢) وعن الشعر والشعراء (٧٣) ، بل وعما دق وصفه كالعصا ، والشجرة ، والهرابة ، والسراج ، والدبوس ، والقضيب ، الخ ، ولكنه مع ذلك لم يدرس القصص دراسة أدبية تعترف بما لهذا الفن من خطورة . حقا انه نص على « ذكر القصص (٧٤) » ولكنه تحت هذا العنوان اكتفى بتعداد اسماء القصاص ، وذكر شيء يسير من أخبارهم ، وتلمح في تلك الاخبار اليميرة أنه يريد القصاص الذين هم أشبه بالوعاظ ، بل تلمح في كلامه السخرية من القصاص ، فمرة يتحدث عن جهلهم (٧٥) وأخرى عن نوادرهم (٧٦) وثالثة عن فلسهم (٧٧) .

أهتم النقاد والعلماء بهذه الألوان الأدبية ، وربما كان الدافع الى هذا نفعا أكثر منه خدمة الفن ، فالشاعر « حماية لأعراضهم وذبح عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكورهم .. وكانوا لا يهنتون إلا بغلام يولد ، وشاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج (٧٨) » . وكان أشهر في عهد الملوك والخلفاء وسيلة للكسب السريع فلا يفوز أحد من

(٧١) المقدمة ص ٥٥٣ .

(٧٢) مثلا في ٢/٢ - ٣٢ .

(٧٣) مثلا في ٥/٢ .

(٧٤) ١ / ١٩٥ - ١٩٧ .

(٧٥) ٣ / ٩٢ .

(٧٦) المرجع السابق .

(٧٧) ٢ / ٨٩ . وتحت عنوان « مجانين القصاص » سخر ابن عبد

ربه من القصاص فأورد حكايات عن جهلهم وعن نوادرهم ( العقيد

الفريد ٣ / ٢٤٠ ) .

(٧٨) العمدة لابن رشيق ١ / ٣٧ وكذلك ١ / ٥٠ .

مؤلفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة ... ولا يهتز ملك ولا رئيس لشيء من الكلام ، كما يهتز له ويرتاج لاستماعه ... أما الخطابة والكتابة ، فما يعرف أيضا من أمرهما ، انهما مختصان بامر الدين والسلطان وعليهما مدار الدار وليس للشعر بهما اختصاص . أما الكتابة فعنهما مدار السلطان ، والخطابة لها الحظ الأوفر من أمور الدين » ( ٧٩ ) .

ولعل لا أخطيء لو قسنت الأديب العربي القديم - في جملته - الى قسمين : أدب ارسقراطي وجه - في معظمه - لخدمة الملوك والرؤساء وخضع للسلطة القائمة . وأدب شعبي أهتم « بميثولوجيا » العامة وأحلامهم ، وترجم عن أحوالهم ، وتحدث عن أخبارهم .

وقد طغى القسم الأول على القسم الثاني أو كاد ، فقال معظم الاهتمام وجل العناية . ولم يبحث القسم الثاني على أنه يدخل في فنون الأدب ، ولذلك لم يقومه النقاد ولم يذكروا ما فيه من جمال أو ما ينبغي له من فن ، وإنما كان يذكر في بطون الكتب على أنه مجرد أخبار ومجرد تاريخ ، ومجرد حكايات ، قد يقصد بها التسلية وأجزاء الفراغ ( ٨٠ ) .

( ٧٩ ) الصناعتين ص ١٠٣ . وحين أراد ابن القارح دخول الجنة جعل يمدح رضوان بابيات من الشعر ، فلم يفهم رضوان منه شيئا فقال له ابن القارح عن الشعر : « وكان أهل العاجلة يتقربون به الى الملوك والسادات » . ثم يكرر هذا مع ملك آخر يقال له زفر فلما لم يستجب له يقول : « رحمتك الله ، كنا في الدار الذاهية نتقرب الى الرئيس أو الملك بالبيتين و الثلاثة فنجد عنده ما نحب » ( رسالة الغفران ١ / ٥٦ - ٥٧ ) .

( ٨٠ ) يقول الدكتور محمد غنيمي هلال : « ان الذي يحل اشكالنا فيما يخص القصة في الأدب العربي ، أنه كان لها مفهوم خاص لم ينهض بها لتكون ذات رسالة إنسانية أو غير إنسانية ، فضلا عن أنها

وقد آن الأوان - وفى هذا الوقت بالذات الذى أصبحنا نهتم فيه  
بالطبقات الشعبية - أن نوفى اهتمامنا لهذا التراث الضخم ، إذا رما  
كان هذا الجانب أقوى دلالة على نفسية العرب وأصدق ترجمة لحياتهم  
وأوفى قضاء لحاجتهم الفنية .

---

لم تكن جنسا أدبيا أو فنا من فنون الأدب ، كالشعر والخطابة والرسائل  
مثلا بل كان يتخلل عنها كبار الأدباء لغيرهم من الوعاظ وكتاب السير  
والوصايا « ( الأدب المقارن ص ٢١٩ ) . ويقول الأستاذ نعيم حسن  
اليافى : « فإن القصة ظلت بشتى طرق سياقها وصور سردها ، جنسا  
متخلقا عن بقية أجناس الأدب كالشعر والخطابة والرسائل بل لم يكن  
يعد من جوهرها على الإطلاق . . . » ( رسالته للماجستير ص ٨ من  
المدخل ) .

### القصة في العصر الأموي

رأينا - في الجزء السابق من التمهيد - ولع عرب الجاهلية بالقصة ، فقد عرفوا ألوانا عديدة منها ، فمن قصص تحكى حول الجان وما شابهه ، ومن حكايات تهاك حول الامثال ، ومن أخبار تنسج عن الأيام .

فلما نزل القرآن ضرب على هذا الوتر ، فأتخذ القصة قالباً لبث أفكاره ، وتبليغ أغراضه ، وانبتت في القرآن ألوان من القصص ، فمن قصص يحكيها الهدهد والنمل ، ومن قصص تقص حول الأنبياء والمرسلين ومن قصص تحكى عن أخبار الماضين ، كاصحاب الكهف ويأجوج . الخ .

ويبدو أن النبي عليه السلام كان يجلس الى تميم الدارى ، ويسأله عن خبر الجساسة والدجال ، فيقصه عليه (١) . وكان يصاحب الدعوة المحمدية الكثير من القصص التي ترغب في الاسلام وتنفر من عبادة الأصنام ، كذلك القصة التي يقصها رجل من أهل نجران من بنى الحارث ابن كعب عن سبب اسلامه (٢) .

ثم كان العصر الأموي - وهو عصر ملئ بالأحداث والمفاجآت فازدهرت فيه القصة ازدهاراً كبيراً ، تفوقت فيه على ما كانت عليه في العصر الجاهلي ... وفي صدر الاسلام .

وقد كانت هناك أسباب وعوامل لهذا الازدهار .. وذلك التفوق .

(١) الاصابة ١ / ١٩١ .

(٢) راجع التيجان ٢٠٣ - ٣٠٩ .

( ١ ) فالحكام والقادة الامويون كانوا ذوى اتجاهات جاهلية ،  
ونزعات عربية ٥

كانوا يتشوقون الى احوال آبائهم فى الجاهلية ، روى أن الحجاج قال  
للفرزدق وجريير وهو فى قصره بجزيرة البصرة اثتيا فى لباس آبائكم  
فى الجاهلية ، فجاء الفرزدق وقد لبس الديباج والخز ، وقعد فى جبة .  
وشاور جريير دهاة بنى يربوع فقالوا : مالباس آبائنا الا الحديد ( ٣ ) ...

ومن هنا أبداً فاقول : أن شيوع القصة فى العصر الاموى ، كان  
امتداداً لشيوعها فى العصر الجاهلى . وإن الامويين قد حافظوا - فى  
هذه الناحية - على تراث أجدادهم الجاهليين .

( ب ) ثم كانت القصص التى فى القرآن ، وفيها اشارات مجملة  
عن ناقة صالح ، وعن هدهد سليمان ، وعن معجزات موسى ، وعن  
احوال عيسى وزكريا ويحيى وعن اخبار اهل الكهف ... الخ .

وكان لابد أن تختزع القصص والحكايات ، لترضى هذه الحاجة  
الناشئة وأن تلتصق هذه القصص إحيانا من اخبار اهل الكتاب ، وأحيانا  
من الخيال المحض ، يحكى السيوطى فى حديثه عن العلوم المستنبطة  
من القرآن قول أبى الفضل المرسى فى تفسيره : « وتلمحت طائفة ما فيه  
من قصص القرون السالفة ، والامم الخالية ، ونقلوا اخبارهم ، ودونوا  
آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا ، وأول الاشياء ، وسموا ذلك  
بالتاريخ أو القصص » ( ٤ ) .

واشتهر العصر الاموى بأسماء قصاص حاولوا أن يشبعوا هذه النزعة  
الجديدة مثل كعب الاحبار ، وهو يهودى من اليمن ، وينسب اليه كتاب

( ٣ ) طبقات الشعراء ١٥٧ « صبيح »  
( ٤ ) الانتقان ٢ / ٢١٥ « الطبعة الثالثة »

فى حديث ذى الكفل (٥) . وعن كعب هذا أخذ عبد الله بن عباس وهذا  
يعلى مافى تفسيره من اسرائيليات (٦) ، وعبيد بن ثرية ، وله من  
الكتب كتاب الامثال وكتساب الملوك واخبار الماضيين . (٧) ووهب  
ابن منبه ، وكانت له معرفة باخبار الاوائل وقيام الدنيا واحوال الانبياء  
وسير الملوك . (٨) وقال فيه السخاوى انه كثير الخرافات (٩) ، وله  
كتاب الاسرائيليات وله كتاب قصص الانبياء (١٠) .

(ج) ونجى الى منبع آخر من منابع ازدهار القصة . . . . . وهو  
الحديث الشريف ، وذلك لأن الخصومات السياسية بين على ومعاولية ،  
وبين الحسين ويزيد وبين ابن الزبير وعبد الملك ، وبين المختار الثقفى مرة  
مع الامويين ومرة مع الزبيريين - هذه الخصومات دعت البعض الى ان يضع  
حكايات يؤيد بها وجهة نظره ، أو يدحض بها وجهة نظر مخالفه ، ثم  
راى أن يكسب حكاياته قوة فينسبها الى النبى عليه الصلاة والسلام ،  
وما حديث المهدي والسفيانى وما يحدث بينهما من قتال - عنا بخاف .

(د) ثم كانت غزوات الرسول ﷺ مجالا خصبا ، لافتنان المفتنين  
وخيال المتخيلين ، فنعرف أن العرب فى جاهليتها كان يستهويهم حديث  
الايام ، وما يحاك حول أبطالها من قصص ، وما ينشد فيها من اشعار  
وما يكمن فيها من خلق يعبر عن المثل الاعلى عند العرب ، فلما جاء  
الاسلام نهى عن العصبية والقبلية ووجد العرب ، فوجد العرب فى مغازى  
الرسول فرجة يعيدون فيها الحديث الذى يشبه حديث ايام العرب ،

(٥) تاريخ الادب العربى لبركلمان ١ / ٢٥٢

(٦) فجر الاسلام ١٩٠

(٧) معجم الادباء لياقوت ١٢ / ٢٨ وبروكلمان ١ / ٣٥٢

(٨) وفيات الاعيان ٥ / ٨٨

(٩) الاعلان بالتوبيخ ٤٨

(١٠) بروكلمان ١ / ٢٥٢

ولو رجعت الى الايام فى الجزء الثانى من العقد الفريد مثلا ، والى المغازى فى الجزء الاول والثانى من تاريخ الطبرى مثلا ، لوجدت بينهما تشابها ، فالرسول هو البطل الذى تدور حوله الأحداث ، كما كانت تدور حول أشخاص أيام العرب ، والاشعار تطرح فى المغازى كما تطرح فى الايام ، والخلق العربى كالشهادة والتضحية والشجاعة ، ظاهر فى المغازى كما هو ظاهر فى الايام .

وفى العصر الاموى لمعت أسماء تقص أخبار المغازى وتؤلف فيها ، فخالد ابن عبد الله القسرى طلب من محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ان يكتب السيرة له (١١) ، ونسب اليه السخاوى كتابا يسمى « مشاهد النبى » ، وقد روى عنه المغازى حجاج بن أبى منيع (١٢) . واذا أخذنا رأى الأستاذ فيك Fuck من أن كتاب محمد بن اسحاق ( توفى ١٥٠ هـ ) الذى رواه عنه ابن هشام ، لم يؤلفه فى بغداد أو الحيرة أو بامر من الخليفة المنصور ، بل ألفه فى المدينة قبل اقامته لدى العباسيين ، بدليل أن فيه بعض الأحداث التى لا يرضى عنها العباسيون ، كاشتراك العباس فى بدر الى جانب الكفار ، وأسر المسلمين له (١٣) اذا أخذنا بهذا الراى فاننا نعتبر الكتاب من التراث التاريخى فى العصر الاموى . وعروة بن الزبير كان يحكى الكثير من هذه الغزوات ، مما تستطيع أن تلتزمه فى ابن اسحاق والواقدي والطبرى ، وقد روى عنه المغازى ابو الاسود والزهرى (١٤) ، وكان يسارع الى ارضاء حاجة السائلين « حدثنا هشام بن عروة عن عروة أنه كتب الى عبد الملك بن مروان فانك كتبت الى فى أبى سفيان ومخرجه ، تسألنى كيف كان شأنه ؟ كان من شأنه ... » (١٥) .

(١١) الاغانى ١٩ / ٥٩ « طبعة ساسى » .

(١٢) الاعلان بالتوبيخ ٨٨ .

(١٣) نشأة التدوين التاريخى ٤٨ .

(١٤) الاعلان بالتوبيخ ٨٨ .

(١٥) تاريخ الطبرى ١ / ٢٦٧ .



وكان المسلمون يحرصون على أحاديث المغازي ، ويقربون العارفين بها ، فعن سعيد بن المسيب قال : بينما نحن عند مروان بن الحكم ، اذ دخل عليه حاجبه ، فقال : هذا أبو خالد حكيم بن حزام . قال : ائذن له فلما دخل حكيم بن حزام قال : مرحبا بك ، يا أبا خالد ، ادن . فحال له مروان عن صدر المجلس حتى كان بينه وبين الوسادة . ثم استقبله مروان فقال : حدثنا حديث بدر « (١٦) » .

( هـ ) وربما كانت طبيعة المفارقة قد أدت الى ازدهار هذا النوع من القصص ، التي كانت تدور حول شخصية النبي عليه الصلاة والسلام ، فاهل الكتاب حين أسلموا أكثروا من الحديث عن أنبيائهم « وقد تتبعنا في تفسير ابن جرير كثيرا من الآيات التي وردت عن بني اسرائيل فاذا بطل الرواية فيها وهب بن منه ، وقد ذكرنا من قبل انه كان من يهود اليمن وأسلم ، فكان يعكس ماجاء في كتب اليهود من غير تحر دقيق . كما تتبعنا كثيرا من الآيات التي وردت عن النصارى فاذا كثير مما يرويه الطبري عن ابن جريج ، ويقول عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ انه من أصل رومي ، فهو نصراني الأصل ، ويقول عنه بعض العلماء : انه كان يضع الحديث ، وانه تزوج تسعين امرأة زواج متعة ٠٠٠ » (١٧) وازاء . هذا الطوفان من مبالغات اليهود والنصارى ، اندفع بعض المسلمين الى الحديث عن نبيهم أيضا ، فاذا اطلب ابن منه في الحديث عن موسى ، واسرف بن جريج في الكلام عن عيسى ، لم يبق أمام قصاص المسلمين الا أن يكثروا من الحديث عن محمد ﷺ ، ليعارضوا أهل الكتاب بهذا . عقد السيوطي فصلا لكاذيب العرب ، ختمه بهذه العبارة « وحدثني الثوري قال : سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب ،

(١٦) المرجع السابق ٣ / ٢٧٨

(١٧) فجر الاسلام ٢٤٢

فقال : ان العجم تكذب أيضا فتقول : كان رجل نصفه من نحاس ، ونصفه من رصاص فعارضها العرب بهذا وما أشبهه « ( ١٨ ) •

وعلى هذا فالقصص التي وردت عن أنبياء وشخصيات سابقة على الاسلام وتنبيء بمظهر الدعوة المحمدية والترقب لها - موضوعة لتمجيد السيرة النبوية والتتويه بها ، كقصة الحارث بن مضاض الجرهمي التي يقول فيها لرفيقه « يابني هل ولد في بني مضر مولود اسمه محمد ، قلت له : لا • قال : انه ولد ، والا فسيولد ويأتي حينه ويعلو دينه » ( ١٩ ) •

( و ) وتؤثر طبيعة المفاخرة في نوع آخر من القصص ، وهي تلك القصص التي حكاها عبيد بن شربة الجرهمي أمام معاوية ، فاعتقد أن عبيدا كان يخلق الأحداث التي تمجد ملوك قحطان ، أو على الأقل يبرز تلك الأحداث ويقيض فيها ، ويلفت النظر إليها ، ليفتخر بأمجاد ملوك اليمن وحضارتهم الغابرة ، أمام أمجاد قريش وحضارتهم الطارئة ، بل انه يرجع أمجاد العدنانيين الى يعرب بن قحطان ، فهو أول من تكلم العربية ، ولنترك عبيدا يكمل افتخاره ... « حتى كان اسماعيل • ونقله ابراهيم ( ص ) من بلاده فانزله بمكة ، فكنا نحن جرهم أهل البلد ، فمشى اسماعيل فينا وتكلم بكلام العربية ، وتزوج منا فجميع ولد اسماعيل من بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، واسماعيل وابوه منا ، وانتم يا قريش منا ، والعرب بعضها من بعض ... » وقد تنبه معاوية لهذه النبذة فقال : كأنك تحدث عن حديث الجاهلية « فيستدرك عبيد ويقول : لك في الاسلام ما يغنيك عن ذلك فقد محق الاسلام ما كان قبله كما محقت الشمس ضوء القمر ( ٢٠ ) • بل ان معاوية يثور أمام تلك اللهجة من عبيد ، وذلك بعد قول عبيد لمعاوية : انك لتكلفني أقوال

( ١٨ ) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ٣ / ٣١٤

( ١٩ ) التيجان ١٨٧ •

( ٢٠ ) أخبار عبيد بن شربة الجرهمي ص ٢١٤ •

نوم قد ذهبوا . كانوا ملوكا فاذا قالوا صغروا غيرهم لقدرتهم وعظمتهم «  
فيرد معاوية . . لم تكن حمير كما ذكرت ، فقد أورثنا الله ذلك من ملكهم  
فهو لنا اليوم . فانتزعه الله لنبيه محمد ( ص ) وهو منا فنحن أسرته  
ونخير الناس بعده ، ولولاه لم تكن شيئا وجعل حمير لنا والحمد لله الذي  
أكرمنا بنبيه وأورثنا أرض أعدائه الجبابرة العتاة » ( ٢١ ) :

( ز ) ثم ان الحياة في العصر الاموي تعقدت من نواحيها السياسية  
والاجتماعية ، فالمنظرون قد انصقظوا دولة فارس ، وقضوا على جزء كبير  
من دولة الروم . فراوا حضارات جديدة لم يعهدوها من قبل في  
صحرائهم فمن حكمة للهند ، الى فلسفة لليونان ، الى آداب للفرس .

حقيقة ان الترجمة لم تنشط في هذا العصر ، كما نشطت في العصر  
العباسي الاول ، ولكن هذا لا يمنع ان القائمين على هذه الدولة ، قد  
راعتهم الامور الجديدة والطريقة في الممالك فشرعوا يتتبعون اخبار  
هذه الممالك ، ويبحثون عن سير هؤلاء الملوك ، عسى ان يجدوا فيها  
حلا لمشكلاتهم الجديدة ، التي نشأت بسبب تعقد الحياة وتشابكها ،  
فيكون ان معاوية كان يستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب  
وايامهم وملوكها وسياستها لرعيتهما ، وسائر ملوك الامم وحروبها  
ومكايدها وسياستها لرعيتهما ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة . . .  
ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم ، فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير  
الملوك واخبارها والبحروب والمكاييد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ،  
وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار  
والسير والاثار وانواع السياسات » ( ٢٢ ) .

ورما كان نتيجة للحضارة وتعقدها ان تخصص بعض الناس في

( ٢١ ) المرجع السابق . ص ٤٧٢ .  
( ٢٢ ) مروج الذهب ٣ / ٧٢ ( طبع عبد الرحمن محمد بمصر ) .

حكايات معينة ، فالغاضرى وأشعب تخصصا فى خلق النوادر والحكايات الغربية لاضحاك أهل المدينة وتسليتهم (٢٣) . ويبدو أن محمد بن بشير الخارجى تخصص فى الحكايات التى تتعلق بالصيد . فالحاجظ يذكر أن نسوة أردن أن يختلن بسليمان بن عبد الله الأسلمى وابن أخ له فارسلن اليهما « انما خرج أزواجنا للصيد . وقد بلغنا أن-لكم صاحباً يعرف من طلب الصيد مالا يعرفه غيره » فلو طرح لهما شيئاً من ذكره لاسرعوا اليه وتخلفتهم وتحديثهم ماثلتكم يعنين به محمد بن بشير » . قال محمد : فصرت اليهم وذكرت لهم الصيد فخرجوا-معنى ، فمازلت أحدثهم بالصدق حتى أخذت فى الكذب مما يضارع الصدق حتى أفنيته . فاقمت معهم ثلاثة أيام ولياليها ثم انصرفوا فقلت فى ذلك :

انى انطلقت معى قوم ذوو حسب ما فى خلائقهم زهو ولا حمق  
انى لأعجب منهم كيف أخدعهم أم كيف أفك قوما ما بهم رهق  
أظل فى الأرض الهيم وأخبرهم أخبار قوم ما كانوا ولا خلقوا (٢٤)

( ج ) ويبدو أن الخلفاء الأمويين كانوا يميلون الى السمر والمناذمة ، وإلى القصص والحكايات ، فحين ولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة ، وانتظمت اليه الأمور ، استحضر ليلة خواص أصحابه ، وذاكرهم وقائع أيام صفين (٢٥) ، وكان من أخلاقه أنه اذا صلى الفجر يجلس للقاص حتى يفرغ من قصصه (٢٦) ، وكان أفضل لذاته فى آخر عمره المسامرة وأحاديث من مضى . ومن أجل ذلك استدعى عبيد بن شربة الجرهمى ،

- (٢٣) العقد الفريد ٣ / ٣٤٧ وزهر الآداب للحصرى على هامش  
العقد الفريد ١ / ١٥٧ - ١٥٨ .  
(٢٤) المحاسن والاضداد ص ٢٠٣  
(٢٥) التحفة البهية ص ١٧٩  
(٢٦) مروج الذهب ٢ / ٧١

واتخذته سميره يقص عليه وقائع العرب وأخبارها وأشعارها ، وأمر أهل ديوانه وكتابه أن يوقعوه ويدونوه في الكتب (٢٧) . وعبد الملك ابن مروان قبل أن تفضى إليه الخلافة كان يجلس في ظل الكعبة أيام الموسم مع قبيصة بن ذئيب « وعروة بن الزبير ومالك بن عماره اللخمي ، فلما أفضت إليه الخلافة جعل يحادث مالك بن عماره عشرين ليلة يسأله مرة عن العراق ، وأخرى عن الحجاز (٢٨) ، ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك تأقت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف في أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمناذمته غير الشعبي » (٢٩) . وكان جليسه ومضحكة روح بن زنباع (٣٠) ، وقد رأى منه روح مرة أعراسا ، فشكى حاله لابنه الوليد ، فقال « احتل له في حديث تضحكه به ، كما احتل مرزيان نديم سابور ملك فارس » وأخبره أمر مرزيان ، إذ ظهرت له من سابور جفوة ، فتعلم نباح الكلب ، وعى الذئب ، ونهيق الحمير ، وزقاة الديوك ، وشحيح البغل ، وصهيل الخيل ، حتى استطاع أن يضحك الملك ضحكا شديدا وأن يرضى عنه في النهاية ، وقد عمل روح بنصيحة الوليد ، واخترع قصة عن ابن عمر وابن أبي عتيق ، « فضحك عبد الملك حتى فحص برجله ، وقال له : قاتلك الله ، ما أطيب حديثك (٣١) . ثم عاد إلى أحسن حالاته » . وسليمان لا يجد لذة تعدل لذة القصص والحكايات والمناذمة والمسامرة ، فيقول : « قد أكلنا الطبيب ولبسنا اللين وركبنا الفاره ، ولم تبق لذه إلا صديق ، اطرحت معي فيما بيني وبينه مؤونة التحفظ (٣٢) » . « وقيل للوليد بن يزيد : ما بقي من لذاتك ؟ قال : محادثة الاخوان في الليالي القمر ، على الكتبان

(٢٧) أخبار عبيد ص ٣١٢

(٢٨) التحفة البهية ص ١٨٩

(٢٩) مروج الذهب ٢ / ١٠٩

(٣٠) ثمرات الاوراق ص ٧٦

(٣١) مروج الذهب ٢ / ١٢٩ والتاج للجاحظ ص ١٣٠

(٣٢) مروج الذهب ٢ / ١٦٣

العفر . وبلغ الوليد بن يزيد : عن شراغة . حسن عشرة ، وحلاوة  
مجالسة ، فبعث في احضاره « ( ٣٣ ) » .

وسار القادة والرؤساء على الدرب نفسه ، فخالد بن عبد الله  
القنري كان يبحث عن يحدثة حديثا يستريح اليه قلبه ، فانبرى له  
قاص ، جعل يقص بعض اخبار بني عذرة ( ٣٤ ) . وقد اتخذ الحجاج  
له سميرا هو سيرة بن الجعد . فلم يك يطلب شيئا من الحديث الا وجد  
عنده منه علما ( ٣٥ ) . وارق ذات ليلة ، فبعث الى ابن القرية ، فقال :  
« اني ارق ، فحدثني حديثا يقصر على طول ليلي ، وليكن من مكر  
النساء وفعالهن فقص عليه قصة مشوقة ذكرها الجاحظ ، وعقب عليها  
الحجاج بقوله : « لله درها ما احسن ما احتالت لاستخراج حقها » ( ٣٦ ) .

وهكذا نجد الحضارة ، وطبيعة الترف والملك ، يدفعان بالقصة  
والحكايات الى منافسة الشعر لدى الخلفاء والقواد . وكل هذا وغيره  
يدل على مدى اثر الحضارة ، واشتياك الأمور ، وتعقد الاشياء في  
المسامرة ، وما يتبع المسامرة عادة من حكايات واقاصيص ، قد يراد  
منها مرة تعرف ما عليه الملوك الاخر من عادات وسياسات ، كما كان  
حال معاوية مع غلمانه ، وقد يراد منها ثانياة مجرد الاضحاك والتسلية  
كما فعل روح مع عبد الملك ، وقد يراد منها ثالثة العبرة والعظة والاقتداء  
بأحوال الغير كتلك القصة التي قصها مسامر الوليد بن يزيد ( ٣٧ ) .

( ط ) ثم ان الامويين كانوا على جانب كبير من المكر والدهاء  
السياسي فحين وجدوا ان القصص تروج لدى العامة ، ويقبلون عليها ،

( ٣٣ ) المرجع السابق ٣ / ١٨٦ .

( ٣٤ ) اخبار النساء ص ٧٢ .

( ٣٥ ) مروج وذهب ٢ / ١٣٨ .

( ٣٦ ) المحاسن والاضداد ١٧٥ .

( ٣٧ ) راجع : ثمرات الاوراق ص ٧٦ .

راوا أن يستغلوا هذه الناحية في تثبيت أركانهم وتدعيم سلطانهم ، فقد روى أن معاوية حين بلغه أن عليا قُتل فدعا على قوم من أهل حربه ، أمر رجلا يقص بعد الصبح ، وبعد المغرب ، يدعو له ولاهل الشام ، قال يزيد وكان ذلك أول القصص (٣٨) بل أن معاوية لبعد نظره جعل ذلك من المناصب الرسمية المهمة التي تضاهي القضاء ، « ثم ولى سليم ابن عنز التجيبى على القضاء فى أيام معاوية بن أبى سفيان . وجعل إليه القص والقضاء جميعا ، وكان يقص على الناس ، وهو قائم . . . وهو من العبادة المجتهدين . وكان يختم القرآن فى الليل مرات » (٣٩) . ولعل ابن عمر يعنى هذا الجانب الرسمى فى القصص حين قال : « لم يقص فى زمن رسول الله ( ص ) ، ولا أبى بكر ولا عمر ولا عثمان ، وإنما كانت القصص فى زمن معاوية » (٤٠) ، وربما كانت رواية ابن عمر . أو رواية يزيد بن حبيب هى التى جعلت الرافعى يعمم ويقول : « ولستم يكن القصص فى زمن النبى ( ص ) ، ولا فى زمن أبى بكر وعمر . . . لاجتماع كلمة المسلمين . . . وإنما أحدثت القصص فى زمن معاوية . . . حين كانت الفتنة بين الصحابة » (٤١) .

هذه هى أهم الأسباب التى أدت الى ازدهار القصة - بوجيئه عام - فى العصر الأموى ، أما الأسباب التى أدت الى ازدهار قصص العشق فى هذا العصر فسأفرد لها فصلا مستقلا .

بقى أن أتحدث الآن عن أنواع القصة فى العصر الأموى :

بعض قصص هذا العصر امتداد لقصص العصر الجاهلى مع تحوير

- (٣٨) خطط المقرئى ٣ / ٣٥٢  
 (٣٩) حسن المحاضرة ٣ / ٩٦ وخطط المقرئى ٢ / ٢٥٣  
 (٤٠) خطط المقرئى ٣ / ٣٥٥  
 (٤١) تاريخ آداب العرب ١ / ٣٩٧

يسير يناسب الظروف .. وبعضها امتداد لحركة قصصية جاهلية ، ولكنها في العصر الأموي ليست ثوبا جديدا وتركزت حول موضوع جديد .. وبعضها كان له أصل في العصر الجاهلي ، ولكنه في هذا العصر تشعبت فروعها وتعددت آفاته .

وسأتحدث بالتفصيل عن كل نوع من هذه الأنواع :

١ - فمن القصص التي كانت موجودة في العصر الجاهلي ثم استمرت في العصر الأموي « قصص الحيوان » . ففي العصر الجاهلي وجدت حكايات تحاك حول قنطرة الهدد ، أو حول مشية الغراب ، أو حول فرخ نوح (٤٢) واستمر هذا اللون في العصر الأموي ، وكان القصص يلجئون إليه أحيانا للتعبير عن معنى خلقى . كهذه الحكاية التي ساقها وهب بن منبه للرياء « نصب رجل من بني إسرائيل فخا ، فجاءت عصفورة فنزلت عليه ، فقالت : مالي أراك متحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتي انحنيت . قالت : فمالي أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامي بدت عظامي . قالت : فمالي أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتي في الدنيا ليست الصوف . قالت : فما لهذه العصا عندك ؟ قال : أتوكلت عليها وأقضى حوائجي . قالت : فما هذه الحبة في يدك ؟ قال : قربان أن مزبى مسكين ناولته إياها . قالت : فاني مسكينة ، قال : فخذها . فدننت فقبضت على الحبة ، فاذا الفخ في عنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى . تفسيره لا غرنى نائك مراء بعدك أبدا » (٤٣) .

٢ - ومن القصص التي كانت موجودة في العصر الجاهلي . ثم ليست ثوبا جديدا في العصر الأموي « أيام العرب » فقد دارت في العصر الأموي حول الحروب الإسلامية ، واتخذت من مغازي النبي عليه الصلاة والسلام مسرحا لها وانظر سيرة ابن هشام ، أو تاريخ الطبري ،

(٤٢) بلوغ العرب ٣ / ٣٦٤

(٤٣) العقد الفريد ١ / ٢٤٩ .



أو غيرهما ، فستجد أنهم كانوا يحيطون هذه الغزوات بكثير من القصص البطولية (٤٤) .

٣ - ومن تلك القصص الأساطير التي نسجت حول شخصيات في العصر الأموي ، للنيل منها أو لتمجيدها ، فيزعمون أن الحجاج ابن يوسف ولد « مشوها لا دبر له ، فتثقب عن دبره ، وأبى أن يقبل ثدى أمه وغيرها فاعياهم أمره ، فيقال أن الشيطان تصور لهم في صورة الحرث بن كلفة ( وكان زوجا لأم الحجاج فطلقها ثم تزوجها من بعده أبو الحجاج يوسف بن عقيل الثقفي ) فقال ما خبركم فقالوا : بنى ولد ليوسف من الفارعة وكان اسمها ، وقد أبى أن يقبل ثدى أمه فقال : اذبحوا جديا أسود وأولغوه دمه ، فإذا كان في اليوم الثاني ، فاقعلوا به كذلك ، فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سالخا فأولغوه دمه وأطلوا به وجهه فانه يقبل الثدى في اليوم الرابع . قال : ففعلوا به ذلك ، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه في بدء أمره » (٤٥) وحين قتل الحجاج سعيد بن جبير « لم يعش بعده إلا خمس عشرة ليلة حتى وقعت في جوفه الأكلة ، فمات من ذلك ، ويروى أنه كان يقول بعد مقتل سعيد : يا قوم ، مالى ولسعيد ابن جبير ، كلما عزمت على النوم أخذ بخلقى » (٤٦) . ويحكون عن بسر بن أرطاة العامري الذي قتل عبد الرحمن وقتلما ، ابني عبيد الله ابن العباس ، أنه خرف « حتى ذهل عقله واشتهر بالسيف ، فكان لا يفارقه ، فجعل له سيف من خشب ، وجعل في يديه زق منفوخ ، كلما تخرق أبدل ، فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف حتى مات ذاهل العقل ، يلعب بخرثه ، وربما كان يتناول منه ثم يقبل على من يراه فيقول . أنظر . أنظر ، كيف يطعمنى هذان الغلامان ابنا عبيد الله ،

(٤٤) راجع مثلا : تاريخ الطبري ٢ / ٢٨٣ .

(٤٥) مروج الذهب ٢ / ١٣١ .

(٤٦) المرجع السابق ٢ / ١٥٦ .

وكان ربما شدت يده الى ما وراء منعا من ذلك ، فانجى ذات يسوم  
 فى مكانه ثم اهوى بفيه فتناول منه ، فبادروا الى منعه فقال : انتم  
 تمنعونى وعبد الله وقثم يطعمانى « (٤٧) وشبيب الخارجى مشهور  
 بالشجاعة ، وقد دوخ الحجاج ، ولما مات شق الحجاج بطنه ، واستخرج  
 قلبه « فاذا هو كالحجر ، اذا ضربت به الارض ثبا عنها ، فشق فاذا  
 فى داخله قلب صغير كالكرة ، فشق فأصيب علقه الدم فى داخله « (٤٨)  
 ولعل السر فى انتشار هذه الاساطير ، انها كانت « كاحلام اليقظة »  
 تعكس رغبات الشعب ومكنوناته ، فقد منى بشرذمة من الطغاة وقد عجز  
 عن أن ينتقم منهم فى واقعه ، فلا اقل من أن ينتقم منهم فى خياله  
 وأحلامه ، ومن أن يمجّد الشجعان الذين خرجوا عليهم . فالحجاج  
 مصاص دماء ، ويسر يتحول الى صورة شبيهة بصورة « دون كيشوت »  
 يلعب طواحين الهواء ، وشبيب بطل عملاق قلبه من حجر .

وهناك شخصية حيكت حولها الاساطير ، فبدت كذلك القصص  
 التى تسمعا عن مصارعى روما وعمالقتها ، كهرقل وشمشون ... فقد  
 روى أبو الفرج الأصفهاني خوارق عن هلال بن الأسعر من شعراء الدولة  
 الأموية ، فيحكى هلال عن نفسه : « جعت مرة ومعى  
 بغيرى فنحرته ، وأكلته الا ما حملت منه على ظهري » (٤٩) .  
 وحدث عنه ابن العلاء أنه لم ير أطول منه (٥٠) . « وقد مر به رجلان  
 وكانا أشد تميمين بطشا ، وهو مضطجع ، فدنا أحدهما منه وأهوى على  
 عجزه بالسوط ، فتناول هلال يده ، فاجتذبه اليه ورماء تحت فخذه ،  
 ثم تناول الآخر ورماء تحت فخذه الآخرى ، ثم أخذ  
 برقابهما فجعل يصك برؤوسهما (٥١) وقتل مرة جلانيا

(٤٧) المرجع السابق ٢ / ١٥٥

(٤٨) المرجع السابق ٢ / ١٤١

(٤٩) الاغانى ٣ / ٦٨ « دار الكتب »

(٥٠) المرجع السابق ٣ / ٧٠

(٥١) المرجع السابق ٣ / ٥٤

كان قد استجار بمعاذ ، ثم هرب فتيّعه معاذ وأخوته التسعة وابن عمّتهم وكانوا أمثال الجبال ، ومعهم عشرة غلمان أقوياء ، وجعلوا يرمونه بالحجارة ويضربونه بالعصى ، فما استطاعوا أن يأخذوه ، حتى كسروا من إحدى يديه ثلاث أصابع ، ومن الأخرى أصبعين ، ودقوا ضلعين من أضلاعه وأكثروا الشجّاح في رأسه ، ثم أخذوه ووضعوا في رجله أدهم ، ثم دفعوه إلى الجلائيين ، فانطلقوا به إلى بلادهم ، ولكنه في الطريق تبرز هلال كما يصنع وفي رجله الأدهم كأنه يقضى حاجة ووضع كسائه على عصاه في ليلة ظلماء ثم اعتمد على الأدهم فحطمه ، ثم طار تحت ليلته على رجله وفر إلى اليمن » ( ٥٢ ) .

٤ - أما القصص التي كانت موجودة في العصر الجاهلي ، ولكنها في العصر الأموي تنوعت ودخلت فيها موضوعات جديدة لم تعرف في العصر الجاهلي ، وبعض هذه الموضوعات كان بسبب الدعوة الإسلامية الجديدة ، فمنها تلك القصص الدينية التي دارت حول الأنبياء والشخصيات المقدسة .

فقد عرفت الجزيرة العربية قصصاً أشاعها أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ثم نزل القرآن وفيه إشارات عن موسى وعيسى ... الخ . وحين أراد المفكرون أن يرضوا حاجة المستمعين إلى القصص ، وتفصيل الإشارات المجملّة ، لجأ فريق منهم إلى الأسرائيليات ، وإلى ما أشاعه أهل الكتاب من قصص وحكايات . ويذكر ابن خلدون « أن العرب كانوا إذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية ، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، وهم أهل الكتاب من اليهود ، ومن النصارى . وأهل التوراة الذين بين العرب أهل ياديسه مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما يعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم

من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلمسا أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يختلطون لها « (٥٣) .

ولم يكن يراد بهذه القصص الحقائق ، إذ فيها من المبالغات والخوارق مالا يستطيع العقل أن يتصور وقوعه ، ولعل هؤلاء القصص كانوا يقصدون جذب قلوب العامة الذين أصبحوا يتطلعون الى مزيد من تفصيلات القصص القرآني . وقد أحسن ابن جرير بهذا ، فتنبراً من العهدة وقال في مقدمة كتابه : « فما يكن في كتابي هذا من خير ذكرناه عن بعض الماضيين ، مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف وجهها في الصحة ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يوث ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه الينا ، وإنما ادينا ذلك على نحو ما أدى الينا » (٥٤) .

ولعل الدكتور أحمد أمين يقصد هذا النوع من القصص - الذي تأثر في كثير منه بالقرآن - حين يرى أن القصص استحدثت في صدر الاسلام « روى عن ابن شهاب أن أول من قص في مسجد رسول الله ﷺ تميم الداري ، استأذن عمر أن يذكر الناس فابى عليه ، حتى كان آخر ولايته ، فأذن له أن يذكر الناس في يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر ، فاستأذن تميم عثمان بن عفان فأذن له أن يذكر يومين في الجمعة ، فكان تميم يفعل ذلك . وفي رواية أخرى عن الحسن أنه مثل : متى أحداث القصص ؟ قال : في خلافة عثمان . فسئل : ومن أول من قص ؟ قال : تميم الداري » (٥٥) .

وكان أكبر فرسان هذا الميدان : كعب الأحبار ، وهب بن منبه ، وعبيد بن شربة الجرهمي . وسأعرض لهؤلاء الفرسان الثلاثة ، وسأضرب

(٥٣) المقدمة ص ٤٣٩

(٥٤) تاريخ الطبري ١ / ٥

(٥٥) فجر الاسلام ٨٧ ، وانظر خطط المقرئ ٢ / ٢٥٢

أمثلة من قصصهم ، وأبين مناهجهم ، وسنرى من كل ذلك أن هؤلاء لم يكونوا يقصدون الحقيقة والتاريخ ، بقدر ما يقصدون التفتن والتشويق .

أما كعب الأحبار ، فهناك نموذجا صغيرا لبيان أسلوبه القصصى قال : « ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم ، وما يأتون من الذنوب فقبل لهم اختاروا منكم اثنين ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقبل لهما . انى أرسل الى بنى آدم رسلا ، وليس بينى وبينكم رسول ، أنزلا ، لا تشركا بى شيئا ، ولا تنزيا ، ولا تشربا الخمر ، قال كعب . فوالله ما استكملا يومهما الذى أنزلا فيه حتى عملا ما حرم الله عليهما . » ( ٥٦ )

ولا تعقيب لى على نموذج كعب القصصى ، الا أن أستعير قول ابن كثير : « فهذا أظنه من صنع الاسرائيلين ، وان كان قد أخرجه كعب الأحبار ، وتلقاه عنه طائفة من السلف ، فذكروه على سبيل الحكاية ، والتحدث عن بنى اسرائيل . وقال أيضا « وإذا أحسنا الظن قلنا هذه من أخبار بنى اسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار ، ويكون من خرافاتهم التى لا يعول عليها » ( ٥٧ ) .

أما وهب بن منبه ، فقد كان ذا قدرة قصصية عجيبة ، يمدد ذلك الغيظ من كتب الأولين التى قرأها ، فقد روى أنه قرأ اثنين وسبعين كتابا من كتب الله تعالى ( ٥٨ ) ، ويرفعها بعضهم الى ثلاثة وتسعين كتابا مما أنزل على الانبياء ( ٥٩ ) ، وكان أكثر قصصه تدور حول

---

( ٥٦ ) تفسير الطبرى ١ / ٤٢٩ « تحقيق شاكر » .  
( ٥٧ ) تاريخ ابن كثير ١ / ٨٧ ٨٨ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٥١ هـ .  
( ٥٨ ) وفيات الاعيان ٥ / ٨٨ .  
( ٥٩ ) التيجان ص ٣ .

اليهود (٦٠) ، فقد كان من يهود اليمن وكان مصدره الأول هو التوراة ، أنظر إليه يحكى قصة آدم والحية التى نغوته « لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة ، ونهاه عن الشجرة ، وكانت شجرة غصونها تتشعب بعضها فى بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة فيخلدهم ، وهى الثمرة التى نهى عنها آدم وزوجته ، فلما أراد إبليس أن ينزلهما دخل فى جوف الحية ، وكان للحية أربعة قوائم كانتها بختية من أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت خرج من جوفها إبليس ، فأخذ من الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته وجاء بها إلى حواء فقال : انظرى إلى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها ، وأحسن لونها ، فأكل منها آدم ، فبدت لهما سوءاتهما ، فدخل آدم فى جوف الشجرة فناداه ربه : يا آدم ، أين أنت ؟ قال : أنا هنا يارب . قال : ألا تخرج ؟ قال : استحي منك يارب . قال : ملعونة الأرض التى خلقت منها لعنة حتى تتحول ثمارها شوكا . ثم قال : يا حواء أنت التى غررت عيذى ، فأنك لاتحملين حملا الا حملته كرها . فاذا أردت أن تضعى ما فى بطنك ، أثمرت على الموت مرارا . وقال للحية : أنت التى دخل الملعون فى بطنك حتى غر عيذى . ملعونة أنت لعنة حتى تتحول قوائمك فى بطنك ولا يكون لك رزق الا التراب . أنت عدوة بنى آدم ، وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه ، وحيث لقيك شدخ رأسك » (٦١) .

أما عبيد بن شربة ، فهو الذى وصفه عمرو بن العاص لمعاوية لما رأى شوقه إلى المسامرة فقال له : « لو بعثت إلى الجرهمي الذى بالرقعة من بقايا من مضى ، فإنه أدرك ملوك الجاهلية ، وهو أعلم من بقى اليوم فى أحاديث العرب وأنسابها ، وأوصفه لما مر عليه من تصارييف الدهر ، فبعث إليه معاوية . . . » فاذا هو شيخ كبير السن ، صحيح

(٦٠) أنظر تفسير الطبرى وخاصة ١ / ٢٠٩ - ٢١١ / ٢٥٧ دار المعارف .

(٦١) تاريخ الطبرى ١ / ٥٤ .

البدن ، ثابت العقل منتهبه ، خرب اللسان كأنه الجذع (٦٢) . « وقد أصاب في قلب معاوية شيئا فكان يرتاح اليه ويبتدى أعجابه . فمرة يقول له : « زادك الله علما وفهما وزادنا بك رغبة ، وعليك حرصا ، فانا لا نخفى أياديك ، فزادك الله فضلا الى فضل ، وهدى الى هدى (٦٣) . . . » وأخرى يقول له : « يا عبيد أنك لتخدعني عجبا ، ما شفاني عنهم وعن أخبارهم وما كان منهم أحد غيرك (٦٤) » . . . .

ومنهج عبيد في قصصه متزن الى حد ما ، فهو لا يشطح مع الخيال كما يفعل وهب ، وهو لا يحابي معاوية في قصصه . وقد صرح بمنهجه قبل أن يبدأ في القصص أمام معاوية وخاصة ، إذ قال لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، لك في غير هذا الحديث ما يقصر ليلك ، وتلذبه في تهاوك فان فيه ماتهوى ، ومالا تهوى ، ومغضبة وشغفا للملوك ، ونعش المودة « ولكن معاوية أصر على الحديث وأعطاه هو وخاصة الأمان (٦٥) .

ولعله من الطريف أن نقارن بين تيجان وهب ، وأخبار عبيد - جمعهما الناشر في مجلد واحد - فالكتابان يشغلان موضوعا واحدا ، إذ التيجان في ملوك حمير ، والأخبار في اليمن . وادنى تصفح للكتابين يلفتنا الى أن عبيدا لم يكن مجتذ الخيال ولا غريب الأخبار ، كما هو الشأن عند صاحبه وهب . ولعل السبب في هذا أن عبيدا كان في أداركه أنه يقص أمام معاوية وخاصة : « ومعاوية كان عالما بسير العرب وأخبارها ، وأكثر من مرة كان يحاور عبيدا في أخباره ويسأله .

هؤلاء هم أشهر المفسرين الذين نزعوا نزع قصصية ، وأمثال

(٦٢) أخبار عبيد ص ٣١٤ .

(٦٣) المرجع السابق ص ٣٩٦ .

(٦٤) المرجع السابق ص ٤٨١ .

(٦٥) المرجع السابق ص ٣١٤ .

هؤلاء المفسرين هم الذين وصف ابن خلدون كتبهم ومنقولاتهم بأنهم تشتمل على الغث والسمين ، والمقبول والمردود ، لأنهم رجعوا فيها الى أهل الكتاب الذين كانوا يسكنون البادية ، ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة ، ولم يتحرج المفسرون في الأخذ عنهم لأنها أمور لا تعلق لها بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل : أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع الى الحدثن والملاحم ... الخ (٦٦) . فالأمر لا يعدو ناحية قصصية يراد بها الوعظ والتذكير . قال داود بن أبى هند للفضل بن عيسى الرقائى : « لولا أنك تفسر القرآن برايك ، لا تدينك فى مجلسك » . قال : فهل ترانى أحرم جللا وأحل حراما ؟ وإنما كان يتلو الآية التى فيها ذكر النار والجنة والحشر والموت وأشبه ذلك » (٦٧) .

وهذا القصص الدينى قد ارتبط بالوعظ ، لدرجة أن المؤلفين بعد ذلك كانوا يعنونون الوعظ والقصص بعنوان واحد ، يقول الحصرى « فقر من كلام المتصوفة والزهاد والقصاص (٦٨) » . ويبدو من كلام بعض المؤلفين أن كلمة « قصة » قد أصبحت ترادف عندهم كلمة « وعظ » . قص قاص فقال : إذا مات العبد وهو سكران ، ودفن وهو سكران ، حشر وهو سكران (٦٩) . والفضل هو الذى يقول فى قصصه : « مل الأرض فقل من شق أنهارك وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا (٧٠) » . فمن هذين النموذجين ترى أن كلمة « قاص » تعنى كلمة واعظ ، وأن كلمة « قصصه » تعنى « وعظه » . ولهذا لم يبعد الدكتور شوقى ضيف حين جعل هذا النوع من القصص يدخل فى الخطابة الدينية ، فقد تكلم عن أنواع الخطابة فى العصر

(٦٦) المقدمة ص ٤٣٩ .

(٦٧) البيان والتبيين ١ / ١٦٠ ( القاهرة سنة ١٣٣٢ ) .

(٦٨) زهر الآداب على هامش العقد الفريد ٣ / ١١٣ .

(٦٩) أخبار الظراف والمتماجنين ص ٩٠ .

(٧٠) البيان والتبيين ١ / ١٦٧ ( القاهرة ١٣٣٢ ) .



الأموى ، وإن نوعاً يسمى « الخطابة الدينية » ، وتعتمد على القصص والوعظ ، وأخذت في الظهور منذ عهد عثمان إذ كان تميم الدارى يجلس فى المسجد الجامع ، فيحاضر الناس بهذا اللسان من القصص والوعظ (٧١) .

وانتشرت قصص الوعظ فى العصر الأموى انتشاراً واسعاً ، فتحت عنوان « ذكر القصص » يورد الجاحظ أسماء كثيرة ، لاحظ فيها كثرة الأعلام التى وجدت فى العصر الأموى مثل : الأسود بن سريع ، وهو الذى قال :

فإن تنج منها تنج من ذى عزيمة      والا ، فانى لا أخالك ناجياً  
والحسن وسعيد أبى الحصن ، وجعفر بن الحسن ، وهو أول من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن فى مسجد البصرة ، وإبراهيم التميمي . وقد جلس إليه عبد الله بن عمر ، وقد أقرته كذلك عائشة ولم تنكر عليه ، ثم من هذيل مسلم بن جندب وكان قاضى مسجد النبى بالمدينة ، وكان إمامهم وقارئهم وفيه يقول عمر بن عبد العزيز . « من سره أن يسمع القرآن غصاً فليسمع قراءة مسلم بن جندب » (٧٢) وهناك أسر اشتهرت بهذا النوع من القصص ، كالأسرة الفضالية التى تنسب إلى الفضل ابن عيسى الرقاشى وقد قال عنهم أبو عبيدة : « وكان أبوهم خطيباً ، وكذلك جدهم ، وكانوا خطباء الأكاسرة ، فلما سبوا وولد لهم الأولاد فى بلاد الاسلام ، نزعهم ذلك العرق » (٧٣) .

والدكتور شوقى ضيف يرى أن الخطابة الدينية التى تعتمد على القصص والوعظ ، تمت فى هذا العصر ، ولكن لا فى المدينة ، وإنما

- (٧١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٢ .  
(٧٢) البيان والتبيين ١ / ١٩٥ « القاهرة سنة ١٣٣٢ » .  
(٧٣) المرجع السابق ١ / ١٦٧ .

فى العراق والشام ، أما العراق فتجد فيه الحسن البصرى ومعبدا وواصل ابن عطاء ، ويزيد بن أبان الرقاشى وابن أخيه الفضل بن عيسى ، وأما الشام فاشتهر منها غيلان والأوزاعى (٧٤) ثم يرى أن العراق اشتهر بهذا النوع أكثر من الشام الذى « قلما عنى بالوعى الدينى » وقد قتل هناك غيلان الواعظ ، ولم يخلف تلاميذ ولا حركة تشبه حركة البصرى ، نظيره فى العراق « (٧٥) ، ويعلل لاشتهار العراق بذلك الجانب ، بأن الناس فيه ياثسون من حياتهم لكثرة حروبهم وهم ياثسون من أملهم فى الملك والخلافة ، وهو يأس أعاد لارتفاع هذه النعمة الواعظة الزاهدة » (٧٦) .

على أننا إذا اتخذنا اليأس من الحياة ومن الأمل مقياسا ، فإن المدينة أخرى بأن تعاني هذه النعمة الواعظة الزاهدة ، فهي أشد يأسا من العراق - الذى انتشرت فيه الأحزاب السياسية المعارضة - فقد كانت مركز الحكم الإسلامى ثم انتزعت منها الشام قهرا واستبدادا ، واستعمل معها الامويون أفانين العذاب والاضطهاد والقتل . وبالفعل عرف الحجاز - بالنسبة لتلك الظروف - اليأس وانتشرت فيه النعمة الواعظة الزاهدة . وقد ذكر هذا أيضا الدكتور شوقى ضيف نفسه فى نهاية كتاب آخر له هو « الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية » (٧٧) . على أنه إذا كان عدد أسماء القصص والوعاظ فى إقليم العراق ، فأننى من جانبى أذكر بعض أسماء القصص والوعاظ فى إقليم الحجاز ، مثل : عبيد بن عمير الليثى الذى جلس إليه ابن عمر ، وأقرته عائشة ، ومسلم بن جندب وكان يلقى فى مسجد النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد أخذ عنه طاووس ابن كيسان التابعى ، وهو من الأبناء وتوفى سنة ١٠٦ هـ وورث الرواية عنه ابنه عبد الله (٧٨) .

(٧٤) الفن ومذاهبه فى النثر العربى من ٢٢

(٧٥) المرجع السابق ص ٢٣

(٧٦) المرجع السابق ص ٧٣

(٧٧) الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية ١ / ٣٠٦

(٧٨) البيان والتبيين ١ / ١٤٥ القاهرة سنة ١٣٣٢

على أن بعض القصص انخرط بهذا اللون من الوعظ ، استهواء لقلوب العامة ، فقد كانوا يفصلون في القصص التي تثيرهم وتستهوهم ، كقصّة داود الذي أحب امرأة أوريا فبعثه إلى القتال ، حتى قتل وتزوج امراته . وكان القصاصون يذكرونها حين الحديث عن الآية « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة » (٧٩) ويروون عن الأعمش المحدث ( توفي سنة ١٤٨ هـ ) أنه كان يلجأ إلى الغرائب ليجذب قلوب العامة ، فكان يقلب الفرو ويلبسه حتى يكون صوفه إلى خارج ، ويطرح على عاتقه متدبيل الخوان مكان الرداء . وسأله رجل مرة عن أسناد حديث ، فأخذ يحلقه وأسندته إلى الحائط وقال . هذا أسناده . . . والأعمش هو القائل فيمن كانوا يسمعون منه « والله لا يأتون أحداً إلا حملوه على الكذب » (٨٠) .

وبعض هؤلاء القصاص كان يتخذ هذه القصص وسيلة للكسب ، ويشبهون ما كنا نراه من عهد قزوين في ريفنا المصري ، فقد كنا نرى المداحين يطوفون حول البيوت ، يستجدون الناس ، ويحدثونهم عن معارك « أبو زيد الهلالي » ويطولة « الزناتى خليفة » الخ . . . وقد سخر الجاحظ من هؤلاء القصاصين تحت عنوان « باب أن يقول كل إنسان على قدر طبعه وخلقه » فقد قال : وقيل لطفيلى : كم اثنين في اثنين ؟ قال . أربعة . وقال الفلاس القصاص . كان أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر ثلثمائة وستين درهماً » (٨١) .

وقد تتابع القصاصون الذين كانوا يعمدون إلى الكذب والاختلاق فغير بعيد أن « أبو على الاسوارى » كان يلجأ إلى مخيلته ، لأنه - كما يقول الجاحظ - كان يفسر آية واحدة في عدة أسابيع (٨٢) ، ولن

(٧٩) سورة « ص » آية ٢٣

(٨٠) تاريخ آداب العربى للرافعى ١ - ٣٥٩

(٨١) البيان والتبيين ٢ / ٨٩ ( طبعة القاهرة سنة ١٣٣٢ )

(٨٢) المرجع السابق ١ / ١٩٧

يستطيع هذا إلا إذا كان ذاخيال واسع . وحين دخل سفيان بن حبيب البصرة ، وتوارى عند مرحوم عطار ( من أصحاب الحديث ، وكان قى أواخر القرن الثاني ) ( ٨٣ ) قال له مرحوم : هل لك أن تأتي قاصاً عندنا ، فتتفرج بالخروج والنظر الى الناس والاستماع منهم ، فأتاه على كره كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه ، فلما أتاه وسمع منطقهم وسمع تلاوته للقرآن وسمعه يقول : حدثنا سعيد عن قتادة وحدثنا قتادة عن الحسن - رأى بياناً لم يحتسبه ، ومذهباً لم يكن يدانيه ، فأقبل سفيان على مرحوم فقال : « هذا ليس قاصاً ، هذا نذير » ( ٨٤ ) .

بعد هذا أستطيع أن أفرق بين نوعين من القصص : قصص العامة وقصص الخاصة . ومن الروايات السابقة يمكنني أن أقول : أن قصص العامة هي ذلك النوع الذي كان يراد به استهواء قلوب العامة ، وكان يتخذ وسيلة للكسب فيكثر فيه الحديث عن الغرائب ، والأمور التي تجذب أفئدة العامة وخاصة ما يتصل بحديث الحب والقلب ، كحب داود لامرأة أوريا ، ولم يكن القاص فيه يتقيد بأسناد أو حقيقة ، بل كان همه إرضاء العامة والتأثير عليهم والعامة - كما يقول المسعودي - « لا تراهم الدهر إلا مرقطين الى قائد دب ، وضارب يدف على سياسة قرد ، ومتشوقين الى اللهو ، أو مختلفين الى مشعب منتمس مخرف ، و مجتمعين الى قاص كذاب » ( ٨٥ ) .

وقال الليث بن سعد : هما قصصان قصص العامة وقصص الخاصة ، فاما قصص العامة فهو الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظمهم ويذكرهم فذلك مكروه لمن سمعه ولمن استمعه . وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية ، ولى رجلاً على القصص فإذا سلم من صلاة الصبح ،

( ٨٣ ) المرجع السابق ١ / ١٩٧

( ٨٤ ) المرجع السابق ١ / ١٩٧

( ٨٥ ) مروج الذهب ٢ / ٧٤

جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده ، وﷺ ودعا للخليفة ولاهـل ولايته ولحمته وجنوده ، ودعا على اهل حربه وعلى المشركين كافة (٨٦) .

وقد نفر الخاصة من هذا النوع ، يذكرون أن عليا كرم الله وجهه دخل مسجد البصرة ، يتعرف ماذا يقول القصاص ، فلما جاء الى حلقة « الحسن البصري » أعجب به وجاز له أن يتحدث ، وأقصى عن المسجد من لم يره أهلا للقص على الناس (٨٧) . ويعلق الكشاف على قصص العامة وعلى ما يروى من شأن داود مع امرأة أوريا بقوله : « فهذا ونحوه مما يقبح أن يتحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أئمة المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء . وعن سعيد بن المسيب والحرث الأعور أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء » (٨٨) .

٥ - ومن القصص التي كانت موجودة في العصر الجاهلي ، ولكنها تنوعت ودخلت فيها عناصر جديدة ، قصص الحب والعشق .

فقد عرفت هذه القصص ، في العصر الجاهلي ، ولكنها في العصر الأموي - ولظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية - تنوعت وملا الحجاز حواضره وبواديه .

وفي هذا العصر اشتهر كثير من القصاص ، يقصون قصص الحب ويرجع اليهم الناس في أخبار العشاق وحكايات المحبين .

(٨٦) خطط المقرئ ٢ / ٢٥٣ .

(٨٧) أحياء الفزالي ١ / ٣١ .

(٨٨) تفسير الكشاف للزمخشري ٢ / ٢٤٧ .

فعمرو بن بى ربيعة كان قصاصاً ، كما يبدو فى ديوانه ، وفى مذهبه الشعرى الذى اتخذته فى قصائده (٨٩) ، وكما يتضح من الحلقات التى كان يجلس إليها يقص أخبار العذريين (٩٠) ، ومن القصص التى كان يرسلها دعابة لفنّه وترويحاً لشعره (٩١) . وجميل يسأله عبد الملك أن يحدثه أحاديث عذرة ، فأنهم أصحاب أدب وغزل ، فيقص عليه قصة عذرية (٩٢) . والفرزدق كان قصاصاً فى أدبه وراويّة للقصص ، وتبدو النزعة القصصية فى شعره ، وفى الحكايات التى كان يرويها كحكاية يوم الغدير التى قص فيها على نسوة حديث دارة جلجل (٩٣) ، وكحكايته عن بنت الضحاك مع عمرو (٩٤) ، وشهاب ابن حرقة السعدى يقص على الحجاج قصة عاشق يسكن الصحراء بعيداً عن الناس ، فيعفو عنه الحجاج ، وكان قد أزمع على قتله لخروجه عليه (٩٥) ، وعروة بن الزبير يسأل رجلاً من بنى عذرة أن يحدثه أحاديث عذرة ، لأن فيهم رقة وغزلاً (٩٦) .

(٨٩) أنظر : الشعر الغنائى فى الامصار الاسلامية « مكة » ص.

١٧٧

- (٩٠) العقد الفريد ٦ / ٤٥٦ « مطبعة دار الكتب »
- (٩١) المحاسن والاضداد ص ٢٢٢
- (٩٢) أخبار النساء ص ٣٤
- (٩٣) الاغانى ١٩ / ٢٧ « سامى »
- (٩٤) الزهرة ص ١٦١
- (٩٥) المحاسن والاضداد ص ٧١
- (٩٦) أخبار النساء ص ٣٥

## قصص العشاق الثثرية

لست أعنى بالقصة ذلك المعنى الذى أرادته « بو » - السيد الاول للقصة القصيرة الحديثة كما تلقىه دائرة المعارف البريطانية - بصدد حديثه عن حكايات ناثانيال هاوثورن ( ١٨٤٢ ) فقد قال : « علينا ألا نكتب أى عبارة - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - منبثقة عن ميل لم يكن موجودا فى التخطيط المبدئى ، فتقدم الفكرة كما هى مرتسمة فى الذهن ، واضحة المعالم ، غير مهزوزة .. والقصة القصيرة كالشعر ، من حيث أننا نبتعد فيها عن الإيجاز المخل ، والاستطراد الذى لاضرورة له ، وأكدته بعد مرور أربعين عاما براندرماتىوس فى بحثه المشهور عن فلسفة القصة القصيرة ، قال فى الجزء الثانى من هذا البحث « ان القصة الخليفة بأن تكون قصة شىء آخر أسمى من أن يعتبر مجرد قصة ذات حجم قصير ، القصة القصيرة الجديرة بهذا الاسم تختلف عن الرواية أساسا فى الوحدة العامة للانطباع ، بعبارة دقيقة وموجزة ... ومن الجدير بالملاحظة أن القصة القصيرة غالبا ماتتتحقق فيها الوحدات الثلاث الأساسية التى تتحقق فى الشكل المسرحى الفرنسى الكلاسيكى والذى يظهر فى فعل واحد ، فى مكان ، وزمان واحد . القصة القصيرة تقتصر على بطل واحد ، وحادثة واحدة ، وانفعال واحد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد » ( ١ ) .

لست أقصد هذا المعنى ، إذ إنه لم يكن معروفا فى العالم عامة قبل

القرن-التابع عشر (٢) . وإنما أقصد ذلك المعنى الذى جاء فى القواميس العربية لهذه المادة . وأعنى تلك الطبيعة الخلسة للقالب القصصى العربى .

ففى السان : « والقصة الخبر وهو القصص » وقص على خبره يقصه قصا وقصصا أورد . ، والقصص الخبر المقصوص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه ، والقصص بكسر القاف جميع القصة التى تكتب ..... وتقصص كلامه حفظه ، وتقصص الخبر تتبعه ، والقصة الامر والحديث ، واقتصصت الحديث رويته على وجهه .... والنقص والبيان والقصص بالفتح الاسم ، والقاص الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها والفاظها .. وقص آثارهم تعقبها قصا وقصصا ، وتقصصا تتبعها بالليل ، وقيل هو تتبع الأثر أى وقت كان ....

قال الأزهرى : القص اتباع الأثر ويقال خرج فلان قصصا فى أثر فلان وقصا وذلك اذا اقتص أثره . وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر وسوقه الكلام سوقا .... « (٣) » .

ذلك هو ما يتعلق بموضوعنا من المعنى اللغوى لهذه المادة ، فمعناها « المتابعة » فقص آثارهم تتبعها بالليل أو فى أى وقت كان ، وتقصص الخبر تتبعه .

ولا تطلب من اللغويين أكثر من هذه المعانى العامة للكلمة ، فإن مهمة أصحاب اللغة هى الإشارة الى ماثيره هذه الكلمة من صيور ذهنية عند أصحاب اللغة ، وليس من مهمتهم التحديدات الفنية لاستعمال

(٢) انظر المرجع السابق . وانظر فنون الادب لشارلتن ص ١٥١ ، ومقال الدكتور محمد مندور ( الجمهورية ١٣ نوفمبر سنة ١٩٦٣ ) . وثورة الادب ص ٨٢ .  
(٣) مادة « قصص » ٨ / ٣٤٦



الكلمة ، فان كلمة « بديع » مثلا فى اللغة غير المعنى المراد لها عند اصحاب البلاغة •

واذن فمن حقنا ان نلوم اصحاب البلاغة على تجاهلهم التحديد الفنى لمعنى القصة ، وكان هناك اكثر من مناسبة تتيح لهم الحديث عن معنى القصة ، فمثلا كان يمكنهم ذلك فى اثناء شرحهم للاستعارة التمثيلية ، وانها قد تكون بتشبيه حالة حاصلة بحكاية قد حصلت وضرب فيها مثل كان تضرب المثل « الصيف ضيعت اللبن » فى حالة تشابه حكاية المراه مع الرجل العجوز الذى طلب منها الزواج ففضلت عليه شابا ، ثم حدث ان احتاجت اليه فى امر فقال لها هذه الجملة التى صارت مثلا •

ومن حقنا ايضا ان نلوم اصحاب الكتب الادبية ، كالجاحظ مثلا وكان ذا عقلية قصصية شعبية اذ لم يتعرض لمعنى القصة ولا لتحديداتها

وهذا التجاهل غرغ من القضية الكبرى وهى ازورار اصحاب البلاغة الفصحى ، وعلماء الادب الفصيح عن هذا اللون المهم من الادب -

امر نحمده لهؤلاء المفسرين ، فقد حددوا معنى القصة ، اثناء تفسيرهم للايات التى وردت فيها هذه الكلمة ، وهذا المعنى ملائم لتجاهلهم وللغرض الذى يريده اصحاب الدين من القصة •

يقول الرازى رحمه الله عند تفسيره للآية « ان هذا لهو القصص الحق .. الخ » مايلى :

« والقصص هو مجموع الكلام المشتغل على ما يهوى الى الدين ويرشد الى الحق ويأمر بطلب النجاة » (٤) •

---

(٤) التفسير الكبير ٣ / ٤٧٤

بل ويتقدم المفسرون خطوة أكثر من هذا ، فتحدثوا عن عناصر القصة ، فلا مانع لديهم من أن يكون في القصة عناصر ليست صادقة صدقاً خارجياً ، بل هي أمور خيالية يؤتى بها للتوضيح والتمثيل .

جاء في الكشف « فان قلت مامعنى ذكر النعاج ، قلت كان تحاكمهم في نفسه تمثيلاً ، وكلامهم تمثيلاً لأن التمثيل ابلغ من التوبيخ لما ذكرنا ، وللتنبية على أمر يستحق من كشفه عنه ، فيكنى عنه ، كما يكنى عما يستسمح الاقصاد به ، وللستر على داود عليه السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يلتبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم ، قلت هو تصوير للمسألة وفرض لها ، فصوروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناش كما تقول في تصوير المسائل : زيد له اربعون شاة ، وعمره له اربعون وانت تشير اليها ، فخلطها وحال عليها الحصول كم يجب فيها ؟ وما لزيد وعمره سيدو لا ليد ، وتقول أيضاً في تصويرها لى اربعون شاة ولك اربعون فخلطناها ، ومالكما من الاربعين اربعة ولا ربعها » ( ٥ ) .

فالزمخشري يرى أن القرآن قد يلجأ الى عنصر التمثيل ، يوضح به قصصه ، ويكشف به احداثه . وكان النيسابورى اصرح في الاشارة الى هذا العنصر ، فقد قال : « ونحن نرى ان الانسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغي ، فاذا ذكر المثال اتضح وانكشف ، وذلك ان من طبع الخيال حب المحاكاة ، فاذا ذكر المعنى وجدده ادركه العقل ولكن مع منازعة الخيال ، واذا ذكر معه ادركه العقل مع معاونة الخيال ، ولاشك أن الثاني يكون اكمل ، واذا كان التمثيل يفيد زيادة البينان

( ٥ ) الكشف ٣ / ٢٢٣ - ٢٢٤ ( مطبعة مصطفى محمد بمصر - الطبعة الاولى سنة ١٣٥٤ هـ ) .

والوضوح ، وجب ذكره في الكتاب الذي أنزل تبياناً لكل شيء » (٦) .  
نعم ، وجب ذكر التمثيل في الكتاب ، لأن القصص القرآني لابد وأن يتحقق فيه الأثر البلاغي ، ذلك الأثر الذي يظهر الحقيقة في ثوب من الخيال قريب إلى النفوس وسريع إلى القلوب ، قال الزمخشري مشيداً بهذا الجانب من الفن « ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا اللطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تاويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره وعليته تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديماً وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره ، لما خفى عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعياله عليه » (٧) .

ويخطو الزمخشري - رحمه الله - خطوة أخرى فيتحدث عن أثر القصة ، وما تفعله في نفوس النشء فيقول : « فإن قلت : لم جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح ( وذلك بصدد حديثه عن تمثيل الملائكة في صورة أناس ودخولهم محراب داود عليه السلام يختصمون إليه في أمر النعاج ويلمحون بذلك إلى أمر داود مع أوربا وامراته ) قلت : لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن المتأمل إذا هداه إلى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه ، من أن يبادره صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة إلا ترى إلى الحكماء ، كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة ، أن يعرض له بأنكارها عليه ولا يصرح ، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمح حال نفسه ، وذلك أرجر له ، لأنه ينصب ذلك

(٦) غرائب القرآن ١ / ١٩٩ « مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ »

(٧) الكشف ٢ / ٢٧٠ ( مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ ) .

مثالاً لحاله ، ومقياساً لثأنه ، فيتصور ما وجد فيه بصورة مكشوفة مع أنه صون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة » ( ٨ ) .

كنا نود أن يتلقف أصحاب البلاغة هذه التلميحات ، فتدفعهم الى البحث عن القصة وعناصرها التي تكون لها الجمال الفني الرائع ، ولكنهم وقفوا عند هذا ، وكان الأدب لا يعرف من أنواع القصة الا القصة الدينية ، وكان المفسرين هم المسئولون فقط عن هذه القصص .

وغلبة المعنى الدينى على القصص نلمحه أيضاً فى المعاجم العربية ، فلو وقفها الله وأرادت أن تتوسع فى الحديث عن القصص ، فأنها تتكلم عن القصص الدينية ، جاء فى اللسان « وفى الحديث لا يقص الا أمير أو مأمور أو مختال » أى لا ينبغي ذلك الا لأمير يعظ الناس بما مضى ليعتبروا ، وأما مأمور بذلك يكون حكمه حكم الأمير ولا يقص مكتسباً ، أو يكون القاص مختالاً يفعل ذلك تكبراً على الناس ، أو مرأثياً يراى الناس بقوله وعمله ، لا يكون وعظه وكلامه حقيقة . وقيل أراد الخطبة ، لأن الأمراء كانوا يلونها فى الأول ، ويعظون الناس فيها ، ويقصون عليهم أخبار الأمم السالفة . وفى الحديث القاص ينتظر المقت لمسا يعرض فى قصصه من الزيادة والنقصان ، ومنه الحديث أن بنى اسرائيل لما قصوا هلكوا ، وفى رواية لما هلكوا قصوا » ( ٩ ) . . .

ويخيل للقارئ فى كتب المفسرين ، وفى المعاجم ، وفى كتب الأدب ، أن كلمة « قصة » قد تخصصت بعد نزول القرآن ، فبعد أن كانت عامة تطلق - فيما تطلق - « على الأمر والتي تكتب » كما يقول صاحب القاموس ( ١٠ ) ، أصبحت ترادف كلمة « وعظ » ، أى الأمر الذى يلين قلوب الناس بما يقصه عليهم من أخبار الأمم السابقة ، حتى

( ٨ ) الكشف ٣ / ٣٢٢ ( طبع مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ ) .

( ٩ ) مادة « قصص »

( ١٠ ) القاموس المحيط مادة « قصص »

أن الزمخشري يجعل من المعانى الحقيقية لهذه المادة ، ذلك المعنى الذى تستطيع أن تلمحه من قوله : « والقصاص يقصون على الناس ما يرق قلوبهم » ( ١١ ) .

على أى حال عرف العصر الاموى الوانا مختلفة من القصص ، وقد وردت هذه الكلمة فى اشعارهم وفى أخبار العشاق منهم .

فمن اشعارهم قول هدية بن خشرم :

فقصوا عليه ذنبنا وتجاوزوا      ذنوبهم عند القصص والاثار  
أى عند القصة وللحكاية ( ١٢ ) .

ومن أخبار عشاقهم تلك القصة التى قصتها بثينة وأنها بينما تسير فى هودج لها إذا بهاتف ينشد شعر جميل ، فجعلت تنادى المنشد ما وراءك ؟ وهى تحسب أن جميلا قضى نحبه ، فلم يجيبها ثم أخذ ينشد مرة ثانية ، وأخذت هى تسأله ، ولكنه لم يجيبها ، ولما أنشد مرة ثالثة أقبلت نحو الصوت ، فإذا شيخ كأنه من رجال الحى وأخبرها بموت جميل وتكمل بثينة القصة فتقول « وصرخت صرخة أذيت منها الحى ، وسقطت بوجهى فاغضى على ، فكان صوتى لم يسمعه أحد ، فبقيت مائتة ليلتى ، ثم افقت عند طلوع الفجر ، وأهلى يطلبوننى فلا يقفون على موضعى ، ورفعت صوتى بالعويل والبكاء ، ورجعت الى مكانى ، وقال لى أهلى : ما خبرك وما شأنك ؟ فقصصت عليهم القصة فقالوا : يرحم الله جميلا » ( ١٣ ) .

وقد كثر استعمال هذه المادة « قصة » ، وخصوصا بعد نزول القرآن

( ١١ ) أساس البلاغة مادة « قصص »

( ١٢ ) أساس البلاغة مادة « قصص »

( ١٣ ) الاغانى ٨ / ٣٠٢ ( دار الكتب )

ولجؤته الى القصص كوسيلة للتأثير على القلوب ، وقد استخدم القرآن هذه المادة فى آياته أكثر من سبع وعشرين مرة (١٤) .

فاستخدام هذه المادة فى القرآن ، وورودها فى نصوص أموية جعلانى أفضلها عنوانا للرسالة أكثر من غيرها من الالفاظ الأخرى فقلت « قصص العشاق » ولم أقل مثلا : حكايات العشاق ، أو أخبارهم أو أحاديثهم ، أو خرافاتهم ، أو سمرهم .

ومن ناحية ثانية ، فإن هذه الالفاظ الأخرى غير مناسبة - مناسبة كلمة القصة - لاطلاقها على هذا النوع من القصص ، فإن « السمر » يعنى - فيما يعنى - الليل وحديثه (١٥) ، والأسمار تدل بصفة خاصة على الأحاديث . والقصص التى يسمر بها الناس فى حياة الصحراء (١٦) .

أما الخرافة فأنها وإن كان مصدرها أن رجلا من عذرة - القبيلة التى اشتهر فيها العشاق الذين نحن بصددهم - استهوت الجن فكان يحدث بما رأى ، فكذبوه وقالوا : حديث خرافه (١٧) ، فمع أن مصدرها رجل من عذرة لكنها تطلق على « حديث مستملح كذب (١٨) » ، ثم تطور مدلولها فأصبح لا يدل الا على الأساطير المستحيلة ، اذ قوبلت بغيرها من الحكايات التى يقبلها العقل ، وإن كانت من نسج الخيال (١٩) .

(١٤) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم مادة « قصص »

(١٥) القاموس مادة « سمر »

(١٦) دائرة المعارف الاسلاميه مادة « الحكايات » .

(١٧) القاموس مادة « خرف »

(١٨) القاموس مادة « خرف »

(١٩) دائرة المعارف الاسلاميه مادة « الحكايات »

أما الخبر والحديث فيطلقان في المعاجم على المعنى العام لهاتين المادتين ، فالحديث هو الخبر (٢٠) وعن ابن سيدة أن الخبر هو النبا (٢١) ، ثم أصبح لهاتين الكلمتين معنى خاص ، وهو اصطلاح الأصوليين إذ يعنى ما ينسب الى النبی عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير (٢٢) .

فيستحسن - اذن - ترك هاتين المادتين للمعنى الاصطلاحي الذي يسرع الى ذهن بمجرد التلفظ بهما ، ويبحث عن مادة اليق بالفن وادخل فيه .

وأما كلمة « حكاية » فلم تستعمل في « اللسان » بمعنى القصة ، فمما جاء فيه بصدد الحديث عن هذه المادة : « الحكاية كقولك حكيت فلانا وحكايته ، فعلت مثل فعله ، أو قلت مثل قوله سواء لم أجازه ... والمحاكاة المشابهة ، تقول فلان يحكى الشمس ويحاكيها بمعنى » (٢٣) وتلخص دائرة المعارف الاسلامية ، المعانى التى كانت تطلق على الحكاية فى القرون الأربعة الأولى ، فتقول : انها أولا تاتى بمعنى المحاكاة ، رغبة فى التسمية ، والحكاية المحترف هو الذى يقلد أيضا ثم ترد بمعنى رواية القول ، فنقول « حكيت عنه الحديث حكاية » . وقد تدل على مجرد المشابهة كما لو كان شئ يحاكى آخر لشبه بينهما (٢٤) « وإذا صح ما جاء فى هذه الدائرة من أن الحكاية لم يكن من معانيها القصة ، فى

(٢٠) لسان العرب مادة « حدث »

(٢١) المرجع السابق والمادة السابقة

(٢٢) المرجع السابق مادة « خبر » ، أنظر أيضا دائرة المعارف الاسلامية « حديث » فقد جاء فيها « ثم أصبح لها معنى خاص هو ماورد عن النبي وصحابته من قول أو فعل » .

(٢٣) لسان العرب ، مادة « حكى » .

(٢٤) دائرة المعارف الاسلامية « الحكاية » .

القرون الأربعة الأولى على الأقل ، فإن الرازي حين يقول . « وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً ( ٢٥ ) » يجعل الاخبار التي تروى عن الامم السالفة حكايات ، ثم أطلق عليها لفظ « قصة » لأن الحكايات يتبع بعضها بعضاً ، مع أن العكس هو الصحيح ، إذ أن تلك الاخبار يسميها القرآن « قصصاً » ، ثم أطلق على تلك القصص - في وقت متأخر ، يحدده بعضهم بعضاً - الحريري ( ٢٦ ) - حكايات ، لأن الذي يقص القصص - على ما اعتقد - يحاول أن يحاكي في قوله الاصل الذي وقعت فيه ، وهذا التعليل يصدق أن كان للحكاية أصل تحاول أن تقلده ، أما إذا كانت بنت القرية ، فإنا نعتقد أن لفظ الحكاية أطلق على القصة التي لها أصل ، ثم أصبح تدخل في مدلوله - من باب الغلبة - القصة التي لا أصل لها .

وفذلكة الموضوع أن الكلمات خبر وحديث وحكاية وقصة ، تفيد معنى واحداً ، ففي تزيين الاسواق عقد عنواننا « اخبار المجنون وصاحبه ليلى ( ٢٧ ) » ، ويقول في اثناء هذه الاخبار « وسيجيء ذكر ما رأى له من الأشعار أورده آخر القصة » ( ٢٨ ) . وفي كتاب « قصص الانبياء » أورد الكسائي كل قصة تحت عنوان « حديث » ( ٢٩ ) ، وابن المقفع

( ٢٥ ) التفسير الكبير ٥ / ١٠١ ( المطبعة الخيرية بجمالية مصر سنة ١٣٠٨ هـ ) .

( ٢٦ ) دائرة المعارف الاسلامية « حكاية » . والواقع أن هناك نصوصاً تثبت أن الحكاية تعنى القصة في وقت سابق على الوقت الذي حددته دائرة المعارف ، ويرجع الى ما قبل منتصف القرن الثاني الهجري ففي كتيبة ودمنة ، وردت هذه العبارة « وحكى أن ربيعة من العلماء ضمهم مجلس ملك » ( ص ٢٥ ) ، وعلى أي حال فإن إطلاق كلمة « قصة » على اخبار الامم السالفة أسبق من إطلاق كلمة « حكاية » .

( ٢٧ ) تزيين الاسواق ١ / ٦٢

( ٢٨ ) المرجع السابق ١ / ٧٥

( ٢٩ ) مثلاً ص ١٢٨ ( حديث ابراهيم عليه السلام ) .



يستعمل كلمة « حكى » لما أورده من إحدى القصص (٣٠) .

ولكن مع ذلك أوتر كلمة « قصة » على غيرها ، لأنها أقرب إلى محيط الأدب ، ولأنها كانت شائعة في العصر الأموي . وقد وردت في نصوص أدبية ودينية وأخبار تاريخية ، ولأن كلمة خبر أو حديث ، غلب عليهما المصطلح الديني ، ولأن كلمة « حكاية » لم تستعمل بمعنى القصة في العصر الأموي ، أو على الأقل لم تشتهر بهذا المعنى .

على أنني أعود فأكرر أنني لا أعنى بالقصة ، ذلك المعنى الذي قال به « بو » إذ لا أطالب الأقدمين بشيء قد اخترعه المحدثون ، وخاصة أن فن القصة فن سريع النمو ، وأنه لتشتنا تلك المذاهب السريعة التلاحق والكثيرة التشعب ، فمن كلاسيكية ، إلى رومانتيكية ، إلى واقعية ، إلى عبثية ... الخ . وكل مذهب من هذه المذاهب وغيرها له فهم خاص للقصة ، يتمشى مع نظريته وبنائه الفلسفي .

وانما أعنى معنى يتفق وطبيعة القصة العربية . وسيوضح - فيما بعد حين أتكلم عن معالم قصص العشق - المعنى الذي يتفق وطبيعة هذه القصص .

أما ما أعنيه بكلمة « عشق » فهو المعنى العام الذي أرادته لهذا القواميس ، العشق والعشق كمقعد عجب المحب بمحبوبه ، أو افراط الحب ، ويكون في عفاف وفي دساسة ، أو عسى الحس عن ادراك عيوبه ، أو مرض وسواس يجلبه إلى نفسه لتسليط فكره على استحسان بعض الصور » (٣١) .

فاحمد الله على أن هذه الكلمة تتسع لكل أنواع القصص التي

(٣٠) كليلة ودمنة ص ٢٥

(٣١) القاموس المحيط مادة ( عشق ) .

سأتحدث عنها في هذا العصر ، فهي تتسع لقصص الحضر التي فيها عجب  
بمحاسن المحبوبة ، وهي لا تضيق بقصص الدعارة والتبذل ، وهي  
تشمل قصص البادية التي في معظمها عفة وزهد ، بل وتمتد إلى الحب  
المفرط الذي هو أشبه بمرض يستولى على صاحبه فينسيه كل شيء .

على أن كلمة « عشق » غلبت على ذلك النوع من الحب الذي فيه  
اقرار وقوة والذي يكثر في البوادي .

وجاء في لسان العرب . « فالعشق فرط الحب وقيل هو الحب  
عجب المحب بالمحبوب . . . . . وسمى العاشق عاشقا لأنه يذبل من شدة  
الهوى كما تذبل العشقة إذا قطعت ، والعشقة شجرة تخضر ثم تساقط  
وتصفّر » ( ٣٢ ) .

وكلمة « حب » غلبت على ذلك النوع من القصص الذي يكثر في  
الحواضر « وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن الحب والعشق أيهما  
أحمد ؟ فقال : الحب ، لأن العشق فيه افراط » ( ٣٣ ) . وربما هذا  
ما جعل ابن داود يجعل العشق في مرتبة أقوى من مرتبة الحب ، فالمحبة  
تقوى وتصير خلة ، ثم تقوى الخلة فتوجب الهوى ، ثم يقوى الهوى  
فيصير عشقا ( ٣٤ ) .

بقيت كلمة أخيرة ، إذ إن دراستي عن « قصص العشاق » ستوسع  
المعنى الضيق الذي تصوره الباحثون لأنواع النثر في العصر الأموي ،  
فهم في دراستهم وفي كتبهم يتحدثون عن الخطابة والخطباء ، وعن

( ٣٢ ) لسان العرب مادة ( عشق ) قال الجاحظ « كل عشق يسمى  
حبا وليس كل حب يسمى عشقا ، لأن العشق اسم لما فضل عن المحبة كما  
أن السرف اسم لما جاوز الجود . . . » ( ذم الهوى ص ٢٩٥ ) .  
( ٣٣ ) لسان العرب مادة « عشق » .  
( ٣٤ ) الزهرة ٣ : ٣٤ .

الرسائل والكتاب ، وغير ذلك من أنواع النثر التي فيها تائق وصناعة  
« وارسقراطية » .

وفاتهم أن هناك نوعا من النثر فيه شعبية وديمقراطية ، كان  
يجرى على السنة العامة في يسر وسلاسة من التائق والصناعة .

وربما كان هذا النوع من النثر أصبح دلالة على نفوس منثيئة  
ومتلقيه ، من هذا النوع الذي نشأ - معظمه - في بلاط الخلفاء ،  
وفوق احتشاب المنابر .

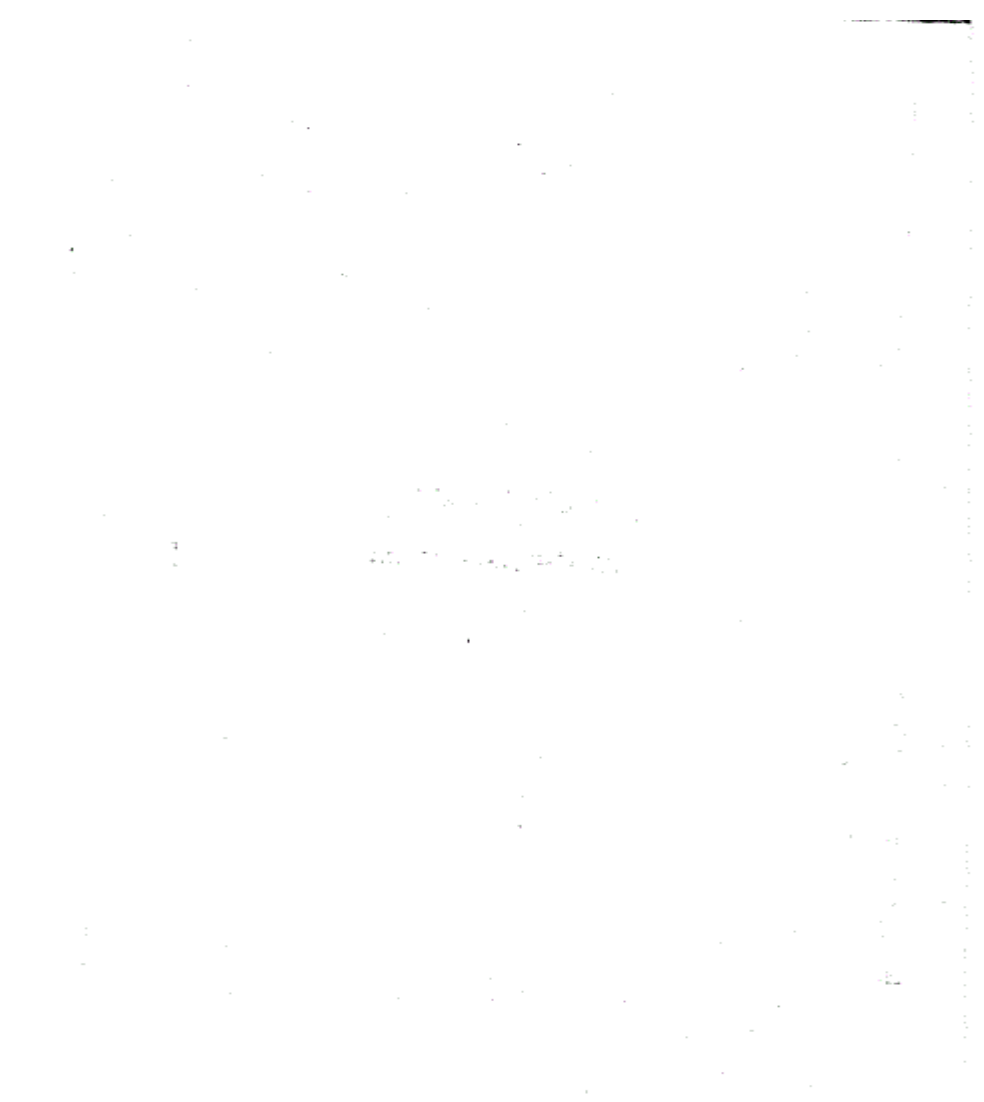
وبملاحظة هذا النوع من النثر لا نبيح لأنفسنا تلك النظرة الضيقة ،  
التي نظرها مثلا الدكتور عبد الرازق حميده اذ قال عن النثر في العصر  
الأموي «أما النثر فكان ساذجا ، وكان لخدمة السياسة والادارة ، وكانت  
الكتابة العربية ضيقة الميدان ثقلة الكتاب ، واقتصار الموضوعات على  
الناحية السياسية ، ووضع النظم التي يجب أن يسير عليها الولاة  
والامراء . ولم يكن يظهر في ذلك الوقت من ينشئ الادب لذات  
الادب » ( ٣٥ ) . . . .

والحق أننا في حاجة الى تخطيط جيد لدراسة النثر في ادبنا  
العربي ، يتسم بالنظرة الكلية التي تلتفت الى ادب الشعب بجانب ادب  
الخاصة ، ويتخلص من تلك الدائرة الضيقة التي حصر فيها الباحثون  
أنفسهم ، الأمر الذي دعاه البعض الى اتهام الادب العربي بالنعقش  
والتكلف .

وهذا الاهمال لذلك الجانب الحيوي - من النقاد والمثقفين - أدى  
الى أن هذه القصص الشعبية أن صح هذا الوصف ، أخذت تنمو في بطن  
وبعد عن الرعاية والتخطيط والدراسة الرائدة .

( ٣٥ ) قصص الحيوان في الادب العربي . ص ١٢٢ .

البَابُ الْأَوَّلُ  
غشاة قصص العشاق



ربما كان من أصعب الأشياء على أن أتبين نشأة هذا النوع من القصص .

فهذه القصص ذات صبغة شعبية ، وليس من السهل أن أعرف متى انتشرت بين الناس ؟ أو من أين عرفها الناس ؟ وكيف جاءوا بها ؟ .

ثم انها تشترك مع البواعث الانسانية عند كل الامم ، ففي كل امة الارض نسمع عن قصص حب وحكايات عشق . ومادام الجنس البشرى واحدا ، والغرائز والعواطف واحدة ، فليس بعجيب أن نسمع عن أمثال حكايات روميو وجوليت ، وليلي وقيس ، وحسن ونعيمة ، عند كل الطبقات وبين كل الناس .

ثم ان الفرس ، وهم أكثر الناس التصاقا بالعرب بعد الاسلام حتى انهم استطاعوا في اوائل القرن الثاني أن يقيموا خلافة عباسية ظاهرها عربي وباطنها فارسي - هؤلاء الفرس ، قد فقدت لغتهم الساسانية ، فلم يصلنا منها الا نقوش وآثار ضئيلة ، وهي اللغة القديمة ، قبل أن يتخذ الفرس لغتهم الجديدة التي نشأت في حضنة الاسلام ، واستعارت الحروف العربية ، فقدت هذه اللغة أو معظمها ، وهذا زاد الامر صعوبة ، في معرفة مصادر قصص العشق العربية .

على أنني حاولت جهدي أن أصل الى رأى في هذا الموضوع .  
فنتبعت - أولا - قصص العشاق من أين صدرت ، وكيف نشأت ؟ .  
واختبرت - ثانيا - العوامل التي أدت الى ازدهارها في العصر الاموي .

فكان هذان الفصلان المكونين للباب الاول .

1. The first part of the paper is devoted to the study of the properties of the function  $f(x)$  defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

It is shown that the function  $f(x)$  is increasing and concave down on the interval  $(-\infty, \infty)$ . Moreover, it is proved that the function  $f(x)$  has a horizontal asymptote at  $y = \frac{\pi}{2}$  as  $x \rightarrow \infty$  and a vertical asymptote at  $x = 0$  as  $x \rightarrow -\infty$ .

2. In the second part of the paper, we consider the function  $g(x)$  defined by the equation

$$g(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

It is shown that the function  $g(x)$  is increasing and concave down on the interval  $(-\infty, \infty)$ . Moreover, it is proved that the function  $g(x)$  has a horizontal asymptote at  $y = \frac{\pi}{2}$  as  $x \rightarrow \infty$  and a vertical asymptote at  $x = 0$  as  $x \rightarrow -\infty$ .

3. In the third part of the paper, we consider the function  $h(x)$  defined by the equation

$$h(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

It is shown that the function  $h(x)$  is increasing and concave down on the interval  $(-\infty, \infty)$ . Moreover, it is proved that the function  $h(x)$  has a horizontal asymptote at  $y = \frac{\pi}{2}$  as  $x \rightarrow \infty$  and a vertical asymptote at  $x = 0$  as  $x \rightarrow -\infty$ .

## الفصل الأول

### مصادر قصص الفسق

علاقة العرب بغيرهم قبل الاسلام

الجزيرة العربية تحيط بها مياه وبحار من جوانب ثلاث ، فمن الشرق الخليج العربي ونهر الفرات ، ومن الجنوب البحر العربي ومن الغرب البحر الاحمر ، ولو أتيح لتلك البلاد أن تحيط بها مياه من الشمال ، لكان إطلاق كلمة « جزيرة (١) » على هذه البلاد حقيقيا ، ولما احتجنا إلى بحث عن تفسير ، أو لجوء إلى مجاز نبرز به هذا اللقب الشائع .

وهذه المياه وراءها عمران وحضارات مختلفة ، ف وراء البحر العربي حضارة الهند وماجاورها ، وحول الخليج العربي ووادي النهرين تزدهر حضارة الفرس ، وغربي البحر الاحمر ، تقبع حضارة الغرارة شمالا ، وحضارة الحبش جنوبا ، أما في الشام - شمالا - فتنتشر حضارة الاغريق والرومان .

وبحكم امتداد العمران وانتشاره ، لابد أن تتطلع كل حضارة إلى اختها ولا بد أن تتبادل فيما بينها المنافع ، والثقافات . فحضارة العراق وأهل فارس ، تتشوف إلى ما عند الشام ومصر ، وتقترض وتقترض وماجاورها ، بل إن الهند تلقى نظرة بعيدة تمتد حتى الشام ومصر .

(١) صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٤٧.



وحكمت الظروف على الجزيرة العربية أن تقوم بدور الوسيط بين كثير من هذه الحضارات ، فكانت - في كثير من الأحيان - حلقة اتصال بين حوض بحر الروم ، وحوض المحيط الهندي « وساعد على ذلك أن طريق المواصل إلى الشام كان مقللاً » بسبب الحروب المستمرة بين الفرس والروم ، وإيضاً فإن الملاحة في البحر الأحمر ضعفت بسبب كثرة القراصنة فيه ، فلم تعد هناك وسيلة للصلة بين الشمال والجنوب ، ونقل توابل الهند وعروض اليمن ، سوى هذه القوافل التي أمسكت بزمامها ( ٢ ) .

وكان لا بد أن تتساقط أشياء من هذه الحضارات في بلاد العرب وتؤثر فيها .

ولم يكتف العرب بصفة الوسيط بين هذه الحضارات ، تعرف حضارة بأخرى ، ثم تكتفى بالفتاب المتساقط ، بل كانوا يحتكون بهذه الحضارات ، ينقلون منها لأنفسهم فأتصلوا بحضارة الفرس ، واحتكوا بحضارة الإغريق ، واتصلوا بأسباب من الديانتين اليهودية والنصرانية .

وسأتكلم - بإيجاز - عن علاقة العرب بغيرهم ، في الجوانب التي تهمني في هذا البحث .

#### الغناء

سأذكر - فيما بعد - أنه كان لانتشار الغناء أثره الواضح في ذبوع قصص العشق ، التي كان بعضها يحاك تفسيراً لأبيات غناها أحد المغنين فشاعت وذاعت ، واختلقت حولها القصص والحكايات .

وقد كان للفرس أثرهم الذي لا يخفى على الغناء في العصر الجاهلي فالتاريخ يحدثنا أن الحارث بن كلدة ، قد تعلم الغزف على العود

---

( ٢ ) التطور والتجديد في الشعر الأموي ج ١ ص ١٠١

بفارس واليمن ، ثم قدم مكة وعلم أهلها (٣) . ويحدثنا أيضا أن  
يشر بن عمرو ، حين هرب من النعمان ، كانت معه قينتان ، تسمى  
أحدهما هريرة والأخرى خليفة (٤) .

وأمرأء الحيرة يتشبهون بملوك فارس في مجالس أنسهم وأنشادهم  
فالحارث بن حلزة أشد عمرو بن هند من وراء سبعة ستور (٥) . وعادة  
احتجاب الملوك عن الندماء عادة فارسية ، إذ « كانت ملوك الأعاجم  
كلها من لدن أردشير بن بابك إلى يزدجر تحتجب عن الندماء  
بستارة » (٦) .

وكان للروم أيضا أثرهم في إشاعة بعض مظاهر الترف والغناء بين  
العرب الملتصقين بهم . فمثلا يصف حسان بن ثابت مجلسا من مجالس  
الغناء عند جبلة بن الأيهم ، وصفا يدل على الترف الذي اقتبسه العرب  
من الروم ، ويقول حسان أنه سمع عشر قيسان يغنين ، منهن خمس  
روميات يغنين بالبرابط ، وأخذ يصف مجلس جبلة ، إذا جلس للشراب  
وصفا يدل على الترف والبذخ (٧) .

وقد كثرت القيان المحترفات بالغناء في العصر الجاهلي (٨) .  
وقد كن غير عربيات ، لأن صناعة الغناء « من عمل النساء دون  
الحرائر » (٩) ، ولأن العربيات « أما مكفولات الرزق برجالهن ، وأما  
كافيات رزقهن بأعمال غير الغناء ، وما من شك في أن الغناء يقتضى من

(٣) عيون الأبناء ٣ / ١٣

(٤) الأغاني ٨ / ٧٧ « ساسي »

(٥) العمدة ١ / ٢١

(٦) التاج ص ٢٨

(٧) لأغاني ١٦ / ١٤ « ساسي »

(٨) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٤٤٣

(٩) لسان العرب « قين »

المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وإن تكون مناط أنظارهم ، ومجتمع  
أشتهاثهم ، كما تحدث الشعراء بذلك ، وما يرضى رجل عربى أن تكون  
ملتقى الأنظار والشهوات امرأة تربطها به صلة . ولا تجرؤ عربية أن  
تشذ عن بنات جنسها ، فتمثل هذا الوضع المخصص للاماء « (١٠) » .

وكانت القيان جميلات ، جذابات ، ماهرات . وانظر الى طرفه  
يصف قينة ، أنها طيعة ، تلبى رغبات السامعين ، وأنها جميلة ، جمالا  
يبدو في تغتر عينيها وتكسر نظراتها ، فيقول :

ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسـد  
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى ، بضة المتجرد  
إذا نحن قلنا اسمعينا انبرت لنا على رسلها ، مطروقة لم تشدد  
إذا رجعت فى صوتها خلت صوتها تجاوب أظفار على ريع ردى (١١)

فلا غرو اذن أن يعشقهن بعض الشعراء ، ويعلل الجاحظ لقوة أثر  
القيان فيقول « ولاتهن يجمعن للانسائ من اللذات مالا يجتمع فى شىء على  
وجه الأرض ، واللذات كلها انما تكون بالحواس . . . فاذا جاء باب القيان  
اشترك فيه ثلاث من الحواس ، وصار القلب لها رابعا ، فللعين النظر  
الى القينة ، وللسمع منها حظ الذى لا مثونة عليه ، ولا تطرب آلتـه  
الا اليه ، وللحس فيها الشهوة ، والحواس كلها رواء للقلب ، وشهود  
عنده « . . . (١٢) »

وفى كتب الاقدمين أخبار عن حب الشعراء للقيان والتغزل بهن ،

(١٠) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٤٤٥

(١١) شرح ديوان طرفة ص ٢٨

(١٢) رسالة القيان ص ٦٩

والأعشى يتغزل في هريرة ، وله فيها شعر ، وذكر أبو الفرج أبياتاً له  
يتغنى بها ، منها :

هريرة ودعها ، وإن لام لائتم  
غداة غد ، أم أنت للبين مزاحم (١٣)  
وهريرة هذه هي التي قدم بها بشر بن عمرو من الحيرة (١٤) .

#### القصص والأساطير :

( ١ ) كان للفرس أثر في اشاعة قصص واساطير بين العرب .  
قابن هشام يذكر أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ،  
وممن يؤذون النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان قد شخص الى الحيرة ،  
وتعلم احاديث ملوك الفرس ، وقصة رستم واسفنديار ، فكان الرسول  
إذا جلس مجلساً ، وذكر فيه باله ، وحذر قومه ما أصاب الطغاة من  
قبلهم ، خلفه النضر في مجلسه إذا قام ، وقال : يا معشر قريش ، أنا  
والله أحسن منه حديثاً ، فهلّموا الى ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وعن  
رستم واسفنديار ، وهو الذي قال « سأنزل مثل ما أنزل الله » ، وفيه  
نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : « إذا تتلى عليه  
آياتنا ، قال أساطير الاولين » (١٥) .

وقصة رستم واسفنديار التي كان يشيعها النضر بين قريش قصة  
قديمة ذكرها الفردوسي في الشاهنامه ، وتدور حول الحرب التي نشبت  
بين رستم واسفنديار وقد دارت بينهما طويلاً وانتهت بقتل  
اسفنديار (١٦) .

(١٣) الاغانى ٩ / ١٢٧ « دار الكتب »

(١٤) الاغانى ٨ / ٧٧ « ساسى »

(١٥) السيرة ١ / ٣٢٠ وتفسير القاسمى ٨ / ٧٩٨٤ والبيضاوى

٢٣٩ / ٩

(١٦) الشاهنامه ص ٣٥١ وتيارات مذهبية ص ٦١ .

وقد كان لعرب الحيرة وما جاورها ، ولأمراءهم وتاريخهم ، أثر كبير فى أشاعة بعض الحكايات مثل أحاديث جذيمة وإساطير الزباء ، والخورنق وستمار بانى الخورنق ، والأمثال التى ضربت حوله ، ويومى النعمان .

وقد ذكر الدكتور أحمد أمين أن قصة شريك مع المنذر ، التى تروى أن المنذر أتاه فى يوم يؤسه ، رجل يقال له حنظلة ، فأراد قتله ، فطلب منه أن يؤجله سنة ، فأجله بعد أن كفله شريك بن عمرو . فلما كان من القابل جلس فى مجلسه ينتظر حنظلة ، فلم يأت ، فأمر بشريك ، فقرب ليقتله ، فلم يشعروا إلا براكب قد طلع عليهم ، فتبينوه فإذا هو حنظلة فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وأبطل تلك السنة - ذكر الدكتور أحمد أمين أن لتلك القصة أصلاً يونانياً معروفاً ( ١٧ ) ولكنه لم يذكر هذا الأصل المعروف ، ولا المرجع الذى يمكن أن نستقيه منه مع أن هذه القصة قريبة إلى الخلق العربى الذى يمجّد الوفاء والمروءة ( ١٨ ) .

وتذكر كتب الأدب أخباراً عن حب بعض الشعراء . لنساء ملوك الحيرة فالنابغة كان يهوى المتجردة زوج النعمان بن المنذر ، وكانت أكمل أهل عصرها جمالاً ، فبلغ النعمان ، فهم بقتله ولكنه هرب إلى الشام ( ١٩ ) . وكان بينها وبين المنخل عيب لا حد له ، وقد دخل عليهما النعمان مرة فوجدها معه ، وقد لبسته أحد خلخالها وشدت رجله إلى رجلها ( ٢٠ ) . ويبدو أنه كان هناك تناقض بين النابغة

( ١٧ ) فجر الإسلام ص ٨٠

( ١٨ ) عقد الدكتور الحوفى باباً عن « الحياة الخلقية من الشعر » وذكر فيه صفات العربى الخلقية ومنها الوفاء والإيمان بالكلمة التى ينطقها ( الحياة العربية ص ٢٦٥ ) .

( ١٩ ) المحاسن والأضداد ص ١٩٠

( ٢٠ ) تزيين الأسواق ١ - ١٧٠

والمنخل على حب المتجردة ، فقد قيل انهما كانا جالسين يوما عند النعمان ، وكان دميما أبرش قبيح المنظر ، وكان المنخل من أجمل العرب ، ويحدث العرب أن ابني النعمان من المنخل . فقال النعمان : يا ابا أمامة ، صف المتجردة في شعرك ، فقال قصيدة وصفها فيها فلحقت المنخل من ذلك غيرة ، وقال النعمان ما يستطيع هذا الا من جرب ، فوقر ذلك في نفسه ( ٢١ ) .

وكانت أخبار ملوك الحيرة وتاريخ سنيهم مودعة في بيع الحيرة ، وقد قال هشام بن محمد الكلبي : « كنت استخرج أخبار العرب ، وانساب آل نصر ابن ربيعة ، ومبالغ اعمار من عمل منهم ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها ( ٢٢ ) .

( ب ) ومن ناحية أخرى ، امتلأ الأدب العربي بالقصص والاساطير وحكايات الحب والغرام ، التي قيلت حول الغساسنة وملوك الروم ، كالذي ذكروا من حكاية امرئ القيس ، وايداعه مائة درع عند السمل ، فطلبها ملك من ملوك غسان ، فابى أن يعطيها اياه ( ٢٣ ) . أو كقصة حب امرئ القيس لبنت قيصر ، فحين خرج الى قيصر ، يسأله النصره على من قتل اياه « ارسل الى بنت قيصر ، واراد أن يختدعها عن نفسها ، وبلغ ذلك قيصر ، واراد أن يقتله فتذمم من ذلك ، وأمر بقميص ، فغمس في السم ، وقال لامرئ القيس : البس هذا القميص ، فاني احببت أن اوثر بك به على نفسي لحسنه وبهائه ، فعمل السم في جسمه ، وكثرت فيه الجروح ، فمات منها فسمى ذا القروح » ( ٢٤ ) .

( ٢١ ) الاغانى ٩ / ١٥٩ « ناسى »

( ٢٢ ) تاريخ الطبرى ٢ - ٣٧ « المطبعة الحسينية بالقاهرة »

( ٢٣ ) الاغانى ٩ - ٩٦ « دار الكتب »

( ٢٤ ) المحاسن والاضداد ص ١٦٠ وتزيين الاسواق ١ - ٣٨

( ج ) وكانت الأديار المنتشرة حول الجزيرة العربية ، منبعاً لكثير من قصص الحب والعشق .

والعرب عرفوا كثيراً من هذه الأديار ، منها دير هند الصغرى بالحيرة ( ٢٥ ) ودير هند الكبرى بالحيرة أيضاً ( ٢٦ ) ، ودير لى إلى جانب الفرات ( ٢٧ ) ، ودير اللج بالحيرة ( ٢٨ ) ، ودير « أبو حنظلة الطائي » ، وكان قد تنسك في الجاهلية وبنى هذا الدير بالحيرة ( ٢٩ ) . وهناك بالقرب من الموصل دير العذارى وكانت به نساء عذارى قد ترهين وأقمن للعبادة . وقد بلغ بعض الملوك أن فيه نساء جميلات ، فامر بحملهن إليه ، فدعون عليه فطرقه طارق أثلفه ( ٣٠ ) .

وكان الدير مبعث حب وغزل ، فقد كانت الفتيات يشخصن إليه مزدانات ، وكان الحبيب يحل به كالغزال الجميل ، حلو النغم أغن ، قال الشاعر :

سقى الله دير اللج غيثاً ، فإنه على بعده منى إلى حبيب  
يهيج ذكراه غزال يحله أغن سحور المقلتين ربيب  
إذا رجع الانجيل واهتز مائداً تذكر محزون وحن غريب  
وهاج لقلبي عند ترجيع صوته بلابل أسقام به ووجيب ( ٣١ ) .

( ٢٥ ) معجم البلدان ٢ - ٧٠٧

( ٢٦ ) معجم البلدان ٢ - ٧٠٧

( ٢٧ ) المرجع السابق ٢ - ٦٩٠

( ٢٨ ) معجم البلدان ٢ - ٦٩١

( ٢٩ ) المرجع السابق ٢ - ٦٥٥

( ٣٠ ) المرجع السابق ٢ - ٦٧٩

( ٣١ ) معجم البلدان ٣ / ٦٩١

ويشكو مرار الفقعسى من أرقه بسبب حبيبته التى فى الدير ، فيقول :

أحقا يا جريس الرهن منكُم فلا أصفاد منك ولا قفولا  
تصبح اذا هجعت بدير توما حمامات يزدن الليل طولا (٣٢)

وهناك قصص غرامية كانت الأديار مسرحها ، ومنها قصة لعب  
الفتى الأول فيها عدى بن زيد وقد مثل دورين ، دور العاشق الولهان  
من ناحية ، ودور المحبوب المرغوب فيه لحسنه وجماله من ناحية  
ثانية ، ومثل الدور الأول مع هند بنت النعمان ، ومثل الدور الثانى  
مع أمة لهند ، فقد قدم عدى بن زيد بهدية من كسرى الى المنذر ، فرأى  
هندا تدخل البيعة فى خميس الفصح فهويها ، وكانت هناك أمة لهند  
تجبه ، وهو لا يدري ، فلما عرفت حب عدى لهند ، احتالت لهما  
على الاجتماع ، على أن تقضى حاجة مع عدى ، ثم خطبها الى النعمان  
فأجابته وزوجه ، ومكثت عنده حتى قتله النعمان ، فترهبت وحبست  
نفسها فى الدير المعروف بدير هند (٣٣) .

( د ) وعلى أرض الجزيرة العربية كان هناك تنافس بين الديانتين  
اليهودية والنصرانية ... يطلعنا القرآن على بعض مظاهره ، كحركة  
اضطهاد للنصارى فى نجران التى أشارت اليها سورة البروج .

ولم يقتصر التنافس على تلك الحركات الاضطهادية ، بل تعداء  
الى تنافس من نوع خفى ، فكان كل منهما يروج لثقافته ، فاليهود  
يتحدثون عما فى التوراة من قصص ، فتكلموا عن قصص موسى وأخيه ،  
وعن أخبار داود وسليمان وعن هاروت وماروت ... الخ . ويتحدث  
النصارى عن الجانب القصصى الذى يهمهم فذكروا قصة عيسى وأمه ،  
والمسيح وصلبه ... الخ .

(٣٢) المرجع السابق ٦ / ٦٥٠  
(٣٣) الأغاني ٢ / ٣٠ « ساسى »



وشاعت هذه القصص بين العرب ، فكانوا اذا أرادوا أن يرضوا حاجتهم لجأوا الى أهل الكتاب ، فيسألونهم عما يريدون ، فيخبرهم هؤلاء ، ولايتحرون الدقة التاريخية في اخبارهم . يقول ابن خلدون : « ... والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والامية وإذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تشوق اليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة ، وإسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدون منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك الا ما يعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية الخ » ( ٣٤ ) .

وقد التقط الشعراء ما هو متطابق في الجو من هذه القصص ، وعكسوه في شعرهم ، وأضرب المثل بأمية بن أبي الصلت ، ففي أشعاره كثير من قصص اليهود والنصارى التي شاعت بين عرب الجاهلية ، وأشير هنا الى مثلين يتحدث في أحدهما عن حماسة السلام التي انقذت ركاب سفينة نوح ودلتهم على اليابسة ، فصاغوا لها طوقاً تورثه بنوها ( ٣٥ ) كما هو مفصل في التوراة ، أما المثل الآخر فيخاطب فيه النصارى ، ويقص ما جاء في دينهم على حد تعبيره ، من قصة مريم وولادة المسيح عليه السلام ( ٣٦ ) .

ولم يقتصر التنافس بين اليهود والنصارى فحسب ، بل امتد الى التنافس بين أهل الكتاب وبين من يسمون بالحنفاء . وهم قوم من العرب عبدوا الله على ملة أبيهم ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

( ٣٤ ) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩

( ٣٥ ) ديوان أمية بن أبي الصلت ص ١٨

( ٣٦ ) المرجع السابق ص ٥٨

واعتقد أن قصة اعتناق زيد بن عمرو بن نفيل لدين الحنفاء ، يراد منها الغرض من شأن اليهود ومن شأن النصارى ، وفي الوقت نفسه اعلاء دين الحنفاء » روى أن زيد بن عمرو خرج الى الشام يسأل عن الدين ، فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم ، وقال : لعلى أدين بدينكم . فقال اليهودى أنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، فقال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحصل من غضب الله شيئا وأنا أستطيع ، فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا ؟ قال : لا أعلمه إلا أن يكون حنيفا . قال وما الحنيف قال : دين ابراهيم . فخرج من عنده وأتى عالما من علماء النصارى فقال له نحوا مما قاله لليهودى . فقال النصرانى : أنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله . قال : لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا وأنا أستطيع ، فهل تدلنى على دين ليس فيه ، فقال له : لا أعلمه إلا أن يكون حنيفا . فخرج من عندهما ، وقد رضى بما أخبراه واتفقا عليه من دين ابراهيم عليه السلام . فلما برز رفع يديه وقال : اللهم انى على دين ابراهيم » ( ٣٧ ) .

ومن المنطوق أن يكثر الحنفاء الحديث عن أبيهم ابراهيم وعن حفر زمزم ، وعن بناء الكعبة ، وعن اسماعيل جد العرب ، وأن ينسب بعضهم فضل الفداء اليه ، حتى يناقشوا بذلك اليهود الذين كانوا ينسبون الفداء الى جدهم اسحاق ( ٣٨ ) . وقد شاعت قصة الفداء على السنة العرب حتى رأيناها تتجدد بصورة أخرى فى حادثة عبد الله والد النبى

( ٣٧ ) الأغاني ٣ / ١٧ « ساسى »  
( ٣٨ ) تعرض العقاد لمسألة الفداء ، وبين الأسباب التى تكون وراء نسبة الفداء الى اسماعيل أو اسحاق ، وأورد نصا ليهودى اعترف به ان الذبيح هو اسماعيل وقال فيه « ان اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يصدونكم معشر العرب على ان يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه . ويزعمون أنه اسحاق لأن اسحاق أبوهم » ( أبو الانبياء ص ١٠٤ ) .

عليه السلام ، الذى لم يفده أبوه بذبح عظيم فحسب ، بل فداه بمائة من الأبل العظام .

ولم يقتصر تأثير اليهود ولا النصارى على هذا الجانب القصصى فقط ، بل وعلى جانب أكثر التصاقا بما نحن فيه .

فإننى اعتقد أنه كان لهم تأثير فى قصص العشق ، فقد كان بعضهم أبطالا لقصص غرامية ، فقد تزوج بعض العرب يهوديات ونصرانيات ، بل ومجوسيات ، وقد افرد أبو الحسن المدائنى كتابا قيمين تزوج مجوسية ( ٣٩ ) وغير مستبعد أن تحدث قبل الزواج قصص ، أو تعاصره قصص ، والتاريخ يحدنا عن قصص غرامية لم تكن بين أزواج وزوجاتهم . بل كانت بين عشاق وعشيقات كتلك المناقصة التى كانت بين النابغة والمنخل حول المتجردة امرأة النعمان .

وأكثر من هذا يروون قصة عن فطيون اليهودى ، ويلخص هذه القصة الدكتور أحمد الحوفى ، نقلا عن مصادر أصيلة ، فيذكر أن فطيون كان ملكا على يهود المدينة ، وكان يفتض العرائس قبل أزواجهن ، سواء كن عبريات أم عرييات . فلما تقوى الأوس والخزرج تزعمهم مالك ابن العجلان وتزوجت اخته الفضلاء ، أنفت أن يفعل بها ما يفعل بغيرها ، واستثارت اخاها فاشتعل على سيفه وتنكر مع النساء ، ودخل على الفطيون فقتله . وأخيرا يرى الدكتور الحوفى أن هذه القصة تغاير « ما كان العرب يأخذون انفسهم به من الأنفة والغيرة على النساء وحماية العرض بالمهج والأرواح فليس بمعقول أن يصبروا على عهارة الملك وفجوره ببنايتهم حيناً من الدهر ، حتى يقبض الله رجلا منهم يتنكر ليقتال الملك العاهر » ( ٤٠ ) .

( ٣٩ ) الفهرست ص ١٠٢ .

( ٤٠ ) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٨٤ .

وربما كانت الرواية التي ذكرت في المحاسن والاضداد ، لاتفاير  
الخلق العربي ، فان فطيون هذا كان ملك تهامة والحجاز ، وقد امر  
« الا تزف من اليهود في مملكته امرة الا يدعوه بها » ، فلبث عدة احوال ،  
حتى زوجت امراة من اليهود من ابن عم لها ، وكانت ذات جمال رائع ،  
وكانت اخت مالك ابن عجلان من الرضاعة ، فلما ارادوا ان يهدوها الى  
زوجها خرجت الى نادى الاوس والخزرج ، رافعة ثوبها الى سرتها ،  
فقام اليها مالك بن عجلان ، فقال : ويحك ، ما ذاك ؟ ، فآخبرته  
القصة فانف من ذلك انفا شديدا ، وتنكر حتى استطاع ان يقتل الفطيون ،  
ثم اثار اليهود عليه وعلى جنوده فقتلوه عن آخرهم » (٤١) .

ربما كانت هذه الرواية اقرب الى الخلق العربي ، اذ هي لا تنافي  
غيره العرب ولا حميتهم ، ففطيون كان يوقع بينات من اليهود ، ولم  
تذكر القصة ان كان يفعل فعلته مع بنات من العرب ، حتى بطلت القصة  
كانت يهودية اخت مالك من الرضاعة ، ومع ذلك انف مالك انفا شديدا  
كما تقول الرواية ، وتزعم اليهود ضد فطيون وجنوده .

علاقة العرب بغيرهم بعد الاسلام .

كانت هذه صلات الحجاز بغيره في العصر الجاهلي ، فلما جاء الاسلام أصبحت هذه الصلات أظهر عمقا ، واشد ايجابية ، وأكثر تشعبا .

فقد فتح العراق ، وكان يسكنه بعض قبائل عربية ، وبعض الفرس ، وكان فيه نصارى وزرادشتيه ومزدكية .

وفتحت فارس ، وكان يسكنها الفرس ، وبعض الروم الذين أسروا في الحروب الفارسية الرومانية ، وقد تداولته عقائد شتى كالزرادشتية والمانوية والمزدكية ، وكان فيه أيضا نصارى أكثرهم من النساطرة ، وقد ترجموا كثيرا من المؤلفات الاغريقية .

وفتح الشام ، وكان يسكنه أهل البلاد الأصليون ، وبعض قبائل عربية من أشهرها غسان ، وكان يسكنه اليهود ، وكانوا يفرون إلى الصحراء كلما وقع لهم اضطهاد ، ويسكنه بعض الروم إذ كان اقليما رومانيا ، وكان فيه أيضا نصارى يدين معظمهم بالمذهب اليعقوبي ، وقد تعاقبت على الشام مدنيات مختلفة من فينيقيين وأموريين وكنعانيين ... الخ .

وفتحت مصر ، وكان يسكنها المصريون ، ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان ، وهي الوارثة لحضارة قدماء المصريين واليونان والرومان ، وبها الاسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية ، وملتقى الآراء الشرقية والغربية .

وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومراكش إلى مضيق جبل طارق .

سببت هذه الفتوحات عملية اختلاط ومزج، فلم يعد الاتصال مقصورا على أشياء تلتقط من هنا أو من هناك ، بل أصبح امتزاجا قويا وتفاعلا شديدا .

فالفاتحون العرب ومن معهم من أسرهم ، كانوا يقطنون ، هذه البلاد فيتصلون بأهلها ويتزوجون منهم . فمثلا أبو عبيدة أسكن مدينة فارس حين فتحها جماعة من العرب (٤٢) . وكانو يحملون معهم تساعهم في الحروب (٤٣) .

ومن أهل هذه البلدان من كانوا يدخلون في الاسلام ، فعظيم الخزر حين بلغه ما عليه المسلمون من قوة وعدد ، أظهر الاسلام ووادع مروان (٤٤) وقد أجاب بعض أهل قنسرين حين دعاهم أبو عبيدة الى الاسلام (٤٥) .

ومما ساعد على عملية المزج والاختلاط كثرة الرقيق ، فمعاوية أرسل الى عمر رضى الله عنهما أربعة آلاف من سبى قيسارية ، فقسّمهم على يتامى الانتصار وجعل بعضهم في أعمال المسلمين (٤٦) . والزبير ابن العوام مات عن ألف عبد وأمة (٤٧) .

وقد كان لهؤلاء الرقيق أثر كبير في نقل حضارتى الفرس والروم الى العرب ، وقد تنبه ابن خلدون لهذا ، وفي الفصل الذى عقده بعنوان « انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة (٤٨) » .. بل كان لهم اثر

(٤٢) فتوح البلدان ص ١٧٨

(٤٣) المرجع السابق ص ١٩٨

(٤٤) المرجع السابق ص ٢٤٥

(٤٥) المرجع السابق ص ١٧٣

(٤٦) المرجع السابق ص ١٦٨

(٤٧) مروج الذهب ٤ / ٢٥٤

(٤٨) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٢

كبير على الثقافة العربية ، ويعقد ابن خلدون فصلا « في أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم من العجم » (٤٩) .

وقد ظهرت بواكير الترجمة والنقل من هذه الحضارات منذ العصر الأموي فخالد بن يزيد بن معاوية أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي (٥٠) . « وقال ابن جليل الاندلسي : إن ماسرجويه كان سريانيا ، يهودي المذهب ، وهو الذي تولى في أيام مراون في الدولة المروانية تفسير كتاب اهرن القس بن أعين إلى العربية (٥١) » .

وفي هذا العصر ابتدأ العرب يحولون الدواوين إلى اللغة العربية فالدنيوان الفارسي نقله إلى العربية أيام الحجاج ، صالح ابن عبد الرحمن (٥٢) ، أما ديوان الشام وكان بالرومية فقد نقله في زمن هشام أبو ثابت سليمان بن سعد (٥٣) ، أما ديوان الخراج في مصر فقد نقل في خلافة الوليد بن عبد الملك (٥٤) .

تلك الفتوح ، وهؤلاء الموالى علماء وغيرهم ، وهذه الترجمة والنقل - كان لها أثرها الكبير على المجتمع العربي ، وسأكتفي هنا بالإشارة إلى الجوانب التي تهتمى .

١ - ظهر من نسل الفرس شعراء كثيرون في العهد الأموي ، كزياد الأعجم ، وإمرة ابن يسار النسائي . وهي أسرة فارسية ، اشتهر منها

(٤٩) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٤

(٥٠) الفهرست ص ٣٣٨

(٥١) تاريخ الحكماء للقفطي ص ٣٢٤

(٥٢) الفهرست ص ٣٣٨

(٥٣) المرجع السابق ص ٣٣٩ وفتوح البلدان ص ٢٣٠

(٥٤) خطط المقرئ ص ١ / ٥٨

اسماعيل بن يسار ، ومحمد وابراهيم وموسى شهوات . وقد كان لبعض هؤلاء الشعراء أخبار غرامية كالخبر الذى ذكر عن موسى شهرات وأنه هوى جارية بالمدينة ، فطلب أهلها عشرة آلاف درهم ، فعاونته أصحابه على جمع المال فلم يستطيعوا ، فأتى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ابن عفان ، فاعتل عليه ، ثم أتى سعيد بن خالد بن عبد الله ابن أسيد ، فاشتري له الجارية وأعطاه مائة دينار وملحقة فراشه ، فقال فى ذلك شعرا (٥٥) .

٢ - ولقد كان للأعاجم أثرهم على الغناء وما يتصل به :

فيذكر أبو الفرج أن سعيد بن مسجح أول من نقل غناء الفرس إلى العرب وأنه رحل إلى الشام ، فأخذ الحان الروم والبريطانية والاسطوخية ، وانقلب إلى فارس ، فأخذ غناء كثيرا وتعلم العزف ، ثم قدم الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى ما استقبحه وغنى على هذا المذهب (٥٦) . ويذكر أن ابن محرز أصله من الفرس ، وكان يشخص إلى فارس فيتعلم الحان الفرس وغنائهم ، ثم يسير إلى الشام فيتعلم الحان الروم وغنائهم ، وقد أسقط مالا يستحسن وأخذ المحاسن ، ومزج بعضه ببعض ، وألف منها الأغاني التى صنع فى أشعار العرب فأقضى بها لم يسمع مثله (٥٧) . ويذكر - ثالثا - أن سائب خاثر الفارسى الأصل كان مولى لعبد الله بن عامر ، ثم قدم رجل فارسى اسمه نشيط فغنى ، فأعجب به عبد الله ، فقال له سائب : أنا أصنع لك مثل هذا الغناء الفارسى بالعربية ، ثم غدا عليه ، وقد صنع « لمن الديسار رسومها قفر ... الخ » . وقد أخذ عن سائب ابن مريج ، وجميلة ، وعزة الميلاء ، وكثير من أصواته منحوالة إلى معبد « (٥٨) » .

(٥٥) الاغانى ٣ / ١١٥ « ساسى »

(٥٦) المرجع السابق ٣ / ٨١

(٥٧) المرجع السابق ١ / ١٤٥

(٥٨) المرجع السابق ٧ / ١٧٩



فمن هذه الروايات نعرف الأثر الكبير للفرس أو الروم على الغناء العربي في عصر الاسلام ، ونرى أن فحول الغناء كانوا أصلاً من الفرس .

وكان هؤلاء المغنون يلحنون أشعاراً ، لشعراء أصلهم من الفرس ، قال ميمون شهابي لمبعد : قد قلت في حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فغن فيه ، حتى يكون أجزل لصلتنا ، ففعل ذلك معبد ( ٥٩ ) .

وقد مثلت بعض المغنيات طرفاً ثانياً في حكايات غرامية ، حدثت في العصر الأموي ، فقصة عشق عبد الرحمن بن أبي عمار القس لسلامة قصة مشهورة ( ٦٠ ) وخبر غرام الوليد بجاريته حياية وسلامة ، والتنافس بينهما على كسب قلب الوليد ، خير معروف ( ٦١ ) .

والتأثير تعدى إلى المنادمة ، ومجالس الغناء ، وآداب تلك المجالس .

فقد كان الأمويون يحاكون الفرس في تقريبيهم مسامرين ، يقصون عليهم الحكايات المضحكة ، ففي يوم رأى روح بن زنياع جليس عبد الملك منه أعراضاً فشكى روح إلى الوليد ، وكان الابن خبيراً بنفسية أبيه ، فقال لروح : احتل له في حديث تضحكه به ، كما احتل مرزيان نديم سابور ملك فارس « . وبالفعل اختلق له حكاية مضحكة ، فضحك عبد الملك حتى فحص برجله ( ٦٢ ) .

والحكم الأمويون قلدوا ملوك الأعاجم الذين كانوا يحتجبون عن الندماء يستارة ( ٦٣ ) . وقال الجاحظ « قلت لاسحاق بن إبراهيم : هل

( ٥٩ ) الأغاني ٣ / ١١٧ « ساسي »

( ٦٠ ) المرجع السابق ٨ / ٣٣٤ « دار الكتب »

( ٦١ ) المرجع السابق ٨ / ٣٣٤ « دار الكتب »

( ٦٢ ) مروج الذهب ٢ / ١٢٩

( ٦٣ ) التاج ٢٨

كانت الخلفاء من بنى أمية تظهر للندماء والمغنيين ؟ قال : أما معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام ومروان بن محمد ، فكان بينهم وبين الندماء ستارة ، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة ... فاما الباقون من خلفاء بنى أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجردوا ويحضروا عراة بحضرة الندماء والمغنيين « (٦٤) » .

٣ - ونقد تأثير العرب - كما ذكرت - بثقافة الأمم المفتوحة :

( ١ ) فلقد أثرت الثقافة الهيلينية على الحركة القدرية عند العرب . فالمدرسة العقلية التي أسست في البصرة ، والتي كانت تقول بحرية الإرادة والاختيار ، وكان من أهم دعائمها الحسن البصري ، يوجد بينها وبين مدارس الناصرة اللاهوتية التي انتشرت في فارس شبه كبير ، ولعل هذا ما جعل دى مور يقول : « هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لاساتذة مسيحيين (٦٥) » ويؤيد هذا ما يروى أن « أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فاسلم ، ثم تنصر (٦٦) » . وقد تعاطف راهبان قدما إلى البصرة مع الحسن ، إذ لما نظرنا إليه ، قال أحدهما لصاحبه : « مل بنا إلى هذا الذي كان سمته سميت المسيح » (٦٧) .

ومن ناحية ثانية يلاحظ فون كريمير أثر الثقافة الهيلينية على المدارس التي ترعرعت في الشام ، فيقول : « وبهذا الطريق وحده يجب أن نفسر التشابه البين الذي نلاحظه في مظاهر المسيحية البيزنطية الأساسية والتعاليم الإسلامية ، وإن البحث في كنه الله وصفاته هو أول شيء له المقام الأول في كتابات كل من آباء الكنيسة الاغريق ، وأقدم

(٦٤) التاج ص ٣١

(٦٥) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٤٩

(٦٦) شرح العيون ص ٢٠١

(٦٧) الكامل للمبرد ١ / ٥٢

علماء الدين عند العرب ، فاقدم علماء المسلمين يشغلون انفسهم الى حد كبير بالابحاث التي تدور حول القضاء والقدر والارادة ، مثلهم في ذلك مثل آباء الكنيسة الشرقية « (٦٨) » .

وسواء اكان القول بالقدر قد نشأ في العراق (٦٩) ، أم نشأ في الشام ، متأثرا بمن كان يسكنها من النصارى (٧٠) . فإنه - على أي حال - قد تأثر الى حد كبير ، بالثقافة الهيلينية التي انتشرت على يد النساطرة في العراق ، واليعاقبة في الشام .

(ب) وجانب مهم اثر فيه الفرس ، وهو جانب التشيع لعلی وأهل بيته ، فقد وجد الشيعة أرضا طيبة في العراق وفارس ، ربما لأن أهل الفرس يؤمنون بتوارث الملك أبا عن جد ، وقد قالت عجوز لبهرام وكانت لا تعرفه وقد سألتها عن بهرام الذي نازع كسرى : « جاهل أحقق يدعى الملك وليس من أهل بيت المملكة (٧١) » ثم أن المجتمع الفرسى مجتمع طبقي ، فالجاحظ يذكر طبقات الناس عند الفرس ، ثم يذكر قول ازدشير « ما شيء أسرع في انتقال الدول وخراب المملكة ، من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها ، حتى يرفع الوضع عن مرتبة الشريف ، ويحط الشريف الى مرتبة الوضع » (٧٢) .

والعراق من قديم منبع الديانات المختلفة ، والمذاهب الدينية ، وكان فيه يهود ونصارى ، وزاد شتية ، ومزدكية ، ومانوية .  
وقد ظهرت في الشيعة آثار يهودية ، ونصرانية ، ومجوسية .

(٦٨) الحضارة الإسلامية ٦٦

(٦٩) شرح العيون ص ٢٠١

(٧٠) دائرة المعارف الإسلامية مادة « شام »

(٧١) الاخبار الطوال ص ٩٤

(٧٢) التاج ص ٢٥

فغالبية الشيعة كانوا يؤمنون برجعة علي وبالتناسخ (٧٣) . ولعل ابن سبا الذي أشاع هذه الفكرة ، قد اقتبسها من اليهودية ، فقد كان يهوديا (٧٤) وعند اليهود أن النبي الياس قد صعد الى السماء ، وأنه سيعود (٧٥) .

والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم : ان نسبة الامام الى الله كنسبة المسيح اليه ، وكان الشيعة يرون ان اللاهوت قد اتحد بالناسوت في الامام (٧٦) . والملكانية والنسطورية واليعقوبية - وهم عمدة فرق النصارى كما يقول ابن حزم - يرون ان في المسيح عنصرا الهيا وعنصرا بشريا (٧٧) .

وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الارواح وتجسيد الله والحلول (٧٨) ، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والمجوس قبل الاسلام .

- 
- (٧٣) الاغانى ٩ / ٥ « دار الكتب »  
(٧٤) الملل والنحل للشهرستاني ص ٣٥٦ ودائرة المعارف الاسلامية « الياس »  
(٧٥) دائرة المعارف الاسلامية « الياس »  
(٧٦) الملل والنحل للشهرستاني ص ٢٨  
(٧٧) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ١ / ٤٨  
(٧٨) الملل والنحل للشهرستاني ص ٢٨٠

#### • موقف قصص العشق من الحضارات الأخرى •

بعد هذه المقدمة الصغيرة ، التى تبين منها أن العرب لم ينعزلوا عن جاورهم من الأمم ، وأنهم عرفوا كثيراً من مظاهر الحضارات الأخرى ، والثقافات المختلفة ، وبعض هذه المظاهر له صلة وثيقة بقصص العشق ، كالغناء ، ومجالس المنادمة ، والقصص والحكايات •

بعد هذه المقدمة أتساءل : ما موقف قصص العشق من هذا الاحتكاك الحضارى ؟

أ - هل نقلت قصص العشق من الأمم الأخرى ، كما نقلت بعض مظاهر الحضارة ، أو أنها نشأت نشأة عربية ، ومن داخل المجتمع العربى ؟ •

ب - ثم هل تأثرت فى عنصر من عناصرها بثقافة أو بتيار أجنبى ؟ ومامدى هذا التأثير ؟ هل يبلغ حداً عميقاً كهذا التأثير الذى نراه فى الغناء ، أو أنه تأثير ضئيل •

ج - وما هى الأسباب التى أدت الى هذا الموقف ؟ •

كان لابد من هذه الأسئلة ، وقد رأينا الاحتكاك بين العرب وغيرهم ، وخاصة أننا نجد بعض المظاهر أو العناصر ، تتشابه فيها قصص العشق بتيارات ومظاهر أجنبية •

فالحب العذرى الذى هو سائد فى القصص العذرية ، يتشابه مع الحب الافلاطونى الذى يرى فلاسفة اليونان أن يتبغى أن يسود جمهوريتهم ، وأن يس فى شريعتها « أنه - منع أن المحب يلاحق محبوبه ، ويرافقه ، ويقبله قبلة الأب لابنه لسبب جماله إذا ارتضى المحبوب منه ذلك - يجب أن تنظم علاقاته على وجه لا يأذن بتجاوز هذا الحد الى

ما وراءه ، والا عزل لفظاظته وعدم ذوقه « (٧٩) . ويرون أن العفاف مبدأ من المبادئ الأربعة التي يجب أن تسود المدينة (٨٠) وأن الدولة الجديدة تدعى سيدة نفسها إذا سادها العفاف ، وضبط النفس سيادة العنصر الصالح ، العنصر الرديء في الإنسان (٨١) .

والقدر الذي يسود كثيرا من المسرحيات الاغريقية ، ويجعل موقف البطل موقف العاجز أمام الإرادة العليا ، كموقف أوديب في المسرحية التي كتبها سوفو كليس مثلا - يتشابه مع موقف العذرى إزاء عاطفته التي يعتبرها شيئا قد كتب عليه (٨٢) .

وكثير يتشيع ، ويحب آل البيت ، ويحترم كبارهم ويعطف على صغارهم (٨٣) ، فهل كان في موقفه هذا متأثرا بتأثير أجنبي ؟ وهل لهذا الموقف أثر على قصص العشاق ؟

وفعلا ... قال فريق من الباحثين بأشياء شبيهة بهذا .

فماسينيون Louis Massignon يرى أن فكرة الحب العذرى Udhri Love ترجع إلى فكرة الحب الافلاطوني Platonie love وإلى فكرة الحب العفيف Amour Courtois التي سادت في العصور الوسطى عند المسيحيين الغربيين (٨٤) .

وباسمه R. Basset يزعم أن قصة عروة بن حزام العذرى أساسها ما رواه الشعراء الفرنسيون القدماء في قصة « Floire et Blancheleur » (٨٥) .

(٧٩) جمهورية افلاطون ص ٧٩

(٨٠) المرجع السابق ص ١٠٤

(٨١) المرجع السابق ص ١٠٣

(٨٢) الاغانى ٨ / ١٤٩ ( دار الكتب )

(٨٣) المرجع السابق ٩ / ١٠٦

(٨٤) The Encyclopedias of Islam (udhri).

(٨٥) تاريخ الادب العربى لبروكلمان ١ / ٢٠١ .

١٠٢٣

( م ٨ - قصص العشاق )

ولابد من الإجابة على الأسئلة التي طرحتها سابقا :

( ١ ) أما الإجابة على السؤال الأول ، فأننى أزعـم أن قصص العشق بشطريها العذرى والحسى - قد نشأت نشأة عربية .

فمن الطبيعى أن يوجد فى كل مجتمع هذان اللونان من الحب ، فالنفس الإنسانية بحكم تركيبها مستعدة لكل منهما ، ومن الطبيعى أن تحاك حكايات حول هذين اللونين .

فالقصص الحسية تمتد خيوطها من عصر الى عصر ، وقد كانت موجودة فى العصر الجاهلى ، وكانت تنسج حول شخصيات عربية جاهلية ، وقبل أن تتعمق صلة العرب بغيرهم .

فالمنصور يحكى حكايات عن عروة الصعاليك ، ذلك الشجاع الفتاك فقد نهب مـرة ابلا فتتبعه غلام ، وكان عروة شجاعا لايقهر ، ولكن هذا الغلام لحقه ، وأمسك بعروة وضرب به الأرض ، فوقع قائما ، فيدهش عروة ، ثم يتبين له أن هذا الغلام ابنه ، فقد مر يوما بامرأة جميلة ، وزوج لها شيخ كبير ، وكانا يريدان سوق ذى المجاز ، فاستطرفت المرأة عروة ، فكان هذا الغلام . وقد عرض عروة على الغلام أن يتبعه ويترك هذا الشيخ ولكنه أبى ، لأن للشيخ عليه حقا وبعد هلاك الشيخ لحسق به ( ٨٦ ) .

ووجدت هذه القصص فى العصر الإسلامى ، وأشهر أبطالها عمر بن أبى ربيعة والعرجى . ويذكر الأغاني قصة طريقة كان بطلها العرجى ، فقد كان يتعرض لأم الأوقص ، ولكنها كانت تتستر منه فتحايل وليس ثياب أعرابى وركب قعودا ، ثم أقبل على نسوة ، بينهن أم الأوقص ، فطلبن منه اللبن فأعطاهن وجعل يتأمل أم الأوقص وينظر

( ٨٦ ) الأغاني ٢ / ١٨٩ « سامى » .

أحياناً إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً . فقالت له امرأة متهن : أى شيء  
تطلب يا أعرابى فى الأرض ؟ هل ضاع منك شيء ؟ قال : نعم ، قلبى .  
فلما سمعت أم الأوقص كلامه عرفته ، فوثبت وسترها نساؤها وطلبن من  
العرجى أن ينصرف عنهن . فمضى ( ٨٧ ) .

وهذه القصة تشبه قصة كان يطلها عمر بن أبى ربيعة ، وأمثال  
هذه المشابهة هى التى جعلت أبا الفرج يقول عن العرجى أنه « نحا  
نحو عمر بن أبى ربيعة ، وتشبه به ، فاجاد » ( ٨٨ ) .

فأمثال هذا الحب ، وأمثال تلك الحكايات يمكن أن تنشأ فى أى  
مجتمع انسانى ، لاحتياج إلى أن تنقل من شرق ولاغرب ، فإن التركيب  
الانسانى لايتغير فى شرق ولا فى غرب ، وقد أدرك هذه الحقيقة  
ابن حزم ، فرأى أن الله عز وجل ، ركب فى الانسان طبيعتين متضادتين :  
أحدهما : لاتشير إلا بخير ، ولاتحض إلا على حسن . . . وهى العقل :  
والثانية : ضد لها لاتشير إلا إلى الشهوات ولاتقود إلا إلى الردى ، وهى  
النفس . ثم بين أن هاتين الطبيعتين جبلتان فى الانسان ، وضرب أمثلة  
من واقع عصره ، لنسوة انحرفن ولرجال انحرفوا ، ثم استدل أيضاً  
بقصة يوسف بن يعقوب ، وداود بن إيش فما أورد الله علينا قصتهما  
إلا « ليعلمنا نقصاننا » وحاجتنا إلى عصمته ، وأن بنيتنا مدخولة  
ضعيفة » ( ٨٩ ) .

أما قصص العشق العذرية ، فقد تتابعت فى تاريخ العرب بدون  
انقطاع وبكثرة لافتة للنظر ، فهى وجدت منذ الفترة التى يسميها  
المؤرخون بالعرب البائدة ، وقصص هذه الفترة - وإن لم تكن صادقة

( ٨٧ ) الأغاني ١ / ٣٩٦ « دار الكتب » .

( ٨٨ ) المرجع السابق ١ / ٣٨٥ .

( ٨٩ ) طوق الحمامة ص ١٢٢ - ١٤٢ .



تاريخيا - فهي صادقة في انها تعكس الروح العربي ، وتشف عن  
نفسيته .

بين يدى قصة حدثت فى هذه الفترة ، وكنت أود أن أنقلها بنصها  
فانها قصة رائعة ومؤثرة ، تقوم دليلا على أن العرب لم يحرموا من  
القصص ولم يعدموا الخيال الابتكارى ، ولكن المقام يضيق عن  
ذكرها (٩٠) ، وهى قصة مضاض ومى ، وقد حكاهما الحارث وهو فى  
غربته وتيهه ، فقد مر على موضع يسمى « موطن الموت » فجعل الحارث  
يشرح سبب هذه التسمية ، وأن مضاضا ابن أخيه عشق ميا بنت عمه  
وعشقه ، وبارك أهلها هذا الحب ، ووافقوا على الزواج ، وانتظروا  
مرور رجب حتى يزفوهما ، ثم تدخل قبيس الجرهمى وكان يحسب  
ميا ، وهى لاتعلم . فوثن بين الحبيين وأخبر ميا أن مضاضا يحب  
أخرى وأنه يراعيها وينشد فيها الشعر ، وترد عليه بالشعر . فأخذتها  
الحمية والأنفة وكذلك أخذت أباهما الغيرة الشديدة ، فعزموا على  
الارتحال . وبلغ الأمر مضاضا فخرج يريد قتل قبيس فهرب فى البيداء  
وابتعلته الأرض ، ثم رجع يستعطف ميا ، ويعتذر لها وينشدها الاشعار ،  
ويجربى وراءها ، ولكنها أبت لأن كرامتها وكرامة أبيها قد جرحتا ، ولما  
احس باليأس منها عزم على ألا يذوق الشراب حتى يموت ، وأوصى أن  
يدفنه عمه الحارث بين الدوحتين . أما ميا فقد عرفت الحقيقة وانها  
كانت سيئة الظن بمضاض ، وأن الشعر منحول عليه ، فبعثت الى مضاض  
ولكنه نعى اليها فالت على نفسها ألا تشرب الماء ، حتى غشيها الموت  
فى اليوم الثالث وأوصت أباهما أن يدفنها بالدوحتين بجوار مضاض ،  
فسمى ذلك الموضع « موطن الموت » ..

وشاعت هذه القصص فى عهد الجاهلية السابقة على الاسلام ،  
ونلاحظ أسماء كثيرة لعشاق عذريين ، كعبد الله بن عجلان وصاحبه هندوقد

(٩٠) انظرها كاملة فى التيجان ص ١٨٨ / ١٩٧ .

ضرب بحبه المثل (٩١) ، وعنثرة وعيلة (٩٢) ، ومساقر بن عمر بن أمية  
وهند بنت عتبة (٩٣) .

وقصة عبد الله بن علقمة وصاحبته حبيشه تحدثت في العهد الجاهلي  
وتستمر الى أوائل الهجرة النبوية ، فقد خرج مع أمه لتزور جارة لها ،  
فلما رأى ابنتها حبيشه وقعت في نفسه ، وكرهت أمه أن تزوجه منها ،  
وجعل يرسلها حتى علقت كما علقتها ، فلما بلغ خبرهما أهلها حجبوها  
عنه مدة ، وهو يزيد غراما بها فقالوا لها : عديه المرحه ، فإذا أتاك  
فقلولي : نشدتك الله أن كنت أحببتني ، فما على وجه الأرض أبغض إلى  
منك . فوعدته وجلسوا قريبا يسمعون . فلما دنا منها عبد الله دمعت  
عينها ، والتفتت الى حيث أهلها جلوس فعرفت أنهم قريب ، فرجع .  
ولما فتح الرسول عليه السلام مكة بعث الى قوم عبد الله يدعوهم الى  
الاسلام ، واستطاعت سرية أن تأسره وكان بينه وبين معشوقته شعر  
رائع وهو اسير « فضرينا عنقه فتقحمت الجارية من خدرها ، حتى أهوت  
نحوه . فالتقمت فاه ، ففزعا منها رأسه ، وانها لتكسع بنفسها حتى  
ماتت مكانها » (٩٤) . ولما أخبروا الرسول بمقتله قال : أما كان فيكم  
رجل رحيم ؟ (٩٥) .

وقبل الايقال في العصر الأموي وجد شاعر مخضرم ، أدرك صدر  
الاسلام وأوائل العصر الأموي (٩٦) : ذلك الشاعر الذي ضرب بعشقه  
الأمثال (٩٧) هو عروة بن حزام .

- 
- (٩١) تزيين الاسواق ١ / ٩١  
(٩٢) الاغانى ٨ / ٢٣٨ « دار الكتب » .  
(٩٣) المرجع السابق ٩ / ٥٠ .  
(٩٤) الاغانى ٧ / ٢٦ « سابي » .  
(٩٥) تزيين الاسواق ١ / ٩٨ .  
(٩٦) المرجع السابق ١ / ٨٦  
(٩٧) المرجع السابق ١ / ٩١ و ١ / ٨٦ والموشى ٢ / ٦٩

وقصة عروة تتشابه فى أشياء كثيرة مع قصة المرقش الأكبر التى حدثت فى العهد الجاهلى ، فعروة قد أحب عفراء ، وخرج يطلب المال مهرا لها وفى غيابه تزوجها رجل أموى وحملها الى الشام ، وعمد عم عروة الى قبر عتيق فجدهه ولما عاد عروة أخبره عمه أنها قد ماتت ، فجعل يختلف الى ذلك القبر ، حتى أخبرته جارية الخبر ، فركب يريد الشام ، ثم طرح خاتمه فى قعب اللبن فعرفته عفراء وأخبرت زوجها الأموى فزاده أكراما (٩٨) . أما المرقش فقد أحب أسماء وخرج ينال الجوائز ، وفى غيابه تزوجها رجل من مراد وحملها الى بلاده . وعمد أخوته فذبحوا كبشا ، ولفوا عظامه فى ملحفة وقبروها ، ولما عاد أخبره أخوته ان هذا قبر أسماء ، فجعل يختلف اليه حتى عرف الخبر من صبيين كانا يلعبان . فرحل فى طلبها الى المرادى ، ثم اتصل برأعيه وأعطاه خاتمه وطلب منه ان يلقيه فى اناء أسماء ، فتعرفت أسماء على الخاتم وأخبرت زوجها فزاده أكراما (٩٩) .

ومكذا نجد خيوط هذا النوع من القصص تتصل بدون انقطاع ، قال صاحب التزيين ، وقد تقدم فى احوال العشق انه من الأحوال القديمة ، حتى ورد فيه ما سمعت من الأخبار والآثار (١٠٠) .

فهذه القصص عربية ، نشأت نشأة طبيعية لاحتاج الى ان تنقل من فارس أو روم ، ولو نظرت الى كتاب « الزهرة » لوجدته يحوى خمسين بابا فى العشق وما يتصل به ، وفى كل باب مائة بيت على الأقل ، لشعراء مختلفين منهم الجاهلى ومنهم الأموى ، ومنهم العباسى ، مما يدل على ان هذا الباب ، كان يتبع فيه بعض الشعراء أثر البعض الآخر ، محتذين نى المعانى مقتدين فى الخواطر ، فهم يقلدون بعضهم البعض ، ولا ينتظرون حتى تأتيهم نماذج أجنبية فيقلدونها وينشئون على مثالها .

(٩٨) الاغانى ٢٠ / ١٥٢ « ساسى » .

(٩٩) المرجع السابق ٥ / ١٧٩ .

(١٠٠) تزيين الأسواق ١ / ٣٥ .

وكان بعض العشاق يضرب المثل بمن سبقه من صرغى هذه العاطفة يقول  
الوشاة « وقد ضرب فى عروة بعشقه المثل ، لأنه كان أطولهم صبوة  
وأكثرهم فى العشق كثرة » . ثم ذكر بعد ذلك الابيات التى فيها ضرب  
المثل بعشق عروة وهى أبيات لآبى وجرة السعدى ، وكثير وجسرير  
والأحوص وجميل ومروان بن أبى حفصة وعمرو بن قنّان (١٠١) . وقد  
ذكر المجنون أن حاله أسوأ من عروة الذى دارت قصته على كل لسان  
والتي تتوارثها الاجيال فقال :

عجبت لعروة العذرى أضحى أحاديثا لقوم ، بعد قوم  
وعروة مات موتا مستريحا وها أنا ميت فى كل يوم (١٠٢)

والتشابه لا يأتى فى مجرد الخواطر والمعانى الجزئية فحسب ، بل  
أحيانا نجد تشابها قويا بين هيكل القصتين ، كهذا التشابه الذى رأيناه  
بين قصة عروة والمرقش أو كهذا الذى نراه بين قصة عبد الله بن العجلان  
وصاحبه هند ، وبين قصة قيس بن ذريح وصاحبه لبنى .

فقد رأى عبد الله هنداً على ماء غسان ، فأسرّه جمالها . وشكا  
إلى صديقه ، فأخبره أن يكتّم ما به ، ويخطبها إلى أبيها ، ففعل ،  
وتزوج بها ، وظلّ أسعد الناس بها حتى فرق أبوه بينهما ، وذلك لأن  
هنداً كانت عاقراً لم تلد لعبد الله ، وكان العجلان سيّداً فى قومه ، ولم  
يكن له غير عبد الله ، فأمر ابنه أن يطلق هنداً ويتزوج بأخرى تلد له .  
والج عليه حتى طلقها ، فأسف أسفا شديداً . ولما علم بزواجها من  
بنى نمير دنف وسقم ، وعرضوا عليه فتيات الحى فأبى ، وما زال يقول  
الشعر ويبكيها حتى مات أسفا (١٠٣) وكذلك قيس أحب لبنى حين ذهب  
إلى خيامها يستمقى ماء ، ثم تزوجها بفضل تدخل الحسين ، وسعد بها

(١٠١) الموشى ١ / ٦٩

(١٠٢) الاغانى ٢ / ١٢ « ساسى »

(١٠٣) تزيين الاسواق ١ / ٩٢ والاغانى ١٩ / ١٠٢ « ساسى »

وقد ألح عليه أبوه وكان سيّداً على قومه ولا ولد له غير قيس ، في أن يطلق لبنى فاجاب ، ولكنه أسف وركبه الندم (١٠٤) .

والخلاصة أن كلا من قصص الحب الحسى والعشق العذرى ، قد نشأ نشأة طبيعية ومن داخل المجتمع العربى ، ولا تحتاج الى نقل من مصادر أجنبية ، أو أخذ من روافد غير عربية ، وإنما هى النفوس التى خلقها الله ، بعضها تغلب عليه اللذات الحسية ، فيحب حبساً حسياً ، وبعضها لا يحب هذه اللذات ، فيعشق عشقاً عذرياً ، وحول الحب الحسى دارت حكايات حسية ، وحول العشق العذرى دارت قصص عذرية ، ولعله من المفيد أن نذكر فى تلك الساعة قصة المرقشين ، فهما من دوحه واحدة ، إذ أن الأصغر ابن أخ للكبير ، وكان كل منهما شجاعاً . فقد أبليا فى حروب قبيلتهما بكر من بنى تغلب ومع ذلك فقد عشق الأكبر عشقاً عذرياً ، وأحب الأصغر حباً حسياً .

وقد عرفت فيما سبق قصة الأكبر ، أما الأصغر فقد كان « أجمل الناس وجهاً وأحسنهم شعراً » وكان يأتى الى بنت عجلان وليدة لفاطمة بنت الملك المنذر ، ويبىث معها . وقد كانت فاطمة هذه لها قصر بكازمة وعليه حرس ، وكان الحرس ينثرون كل ليلة التراب حول القصر ويجرون عليه ثوباً حتى يستوى ، فلا يدخل عليها إلا ابنة عجلان ، فإذا كان الغد بعث الملك بالقافة فينظرون اثر من دخل عليها ، ويعودون فيقولون : لم نر إلا ابنة عجلان . حتى رأت فاطمة يوماً مرقشاً من فوق القصر ، فأعجبت به وطلبت من ابنة عجلان أن تدخله عليها فمضى معها ، وقد حملته على ظهرها وحزمت على بطنها بثوب ، فأدخلته اليها ، فبات معها ، فلما أصبح الملك قال له القافة : قد رأينا آثار ابنة عجلان وهى مثقلة . فمكث كذلك حيناً يدخل عليها حتى عرف صدق ذلك الأمر ، فقال له : لا أرضى عنك ولا اكلمك أبداً ، أو تدخلنى عليها ، وحلف على ذلك فانطلق مرقش الى المكان الذى كان يواعد فيه

(١٠٤) الاغانى ٩ / ١٨٠ « دار الكتب »

ابنة العجلان ، فاجلسه فيه وانصرف ، وكانا متشابهين ، فانتبه ابنة عجلان فاحتلمته وأدخلته إليها ، فلما أراد مباشرتها استنكرته فإذا هو يردد فدفعته صدره ، وقالت . « قبح الله سرا عند المعيدى » ( ١٠٥ ) .

ومع أن العرب عرفوا الحب الحسى ، والعشق العذرى ، إلا أنني أقول : أن العرب بخوقهم وطبيعتهم كانوا يميلون إلى العشق العذرى ، فهو العشق المشروع الذى يمتدح به الفرسان ويفتخر به الرجال ، وكانوا يضعون فيه الكتب ، يتناقلون أخبارها ، ويروون أحاديثها « حدثنا دعبل بن على الخزاعى ، كان بالكوفة رجل من بنى أسد ، عشق جارية لبعض أهل الكوفة فعظم أمره وأمرها ، فكان يقول فيها الشعر . وذكر بعض أهل الكوفة أنه مات بحبها ، وصنعوا له كتابا فى ذلك مثل كتاب جميل وبثينة ، وعفراء وعروة ، وكثير وعزة » ( ١٠٦ ) .

فالعشق العذرى هو العشق المشروع المبارك ، ولهذا كانوا يكرهون الوشاة والعاذل ، ويحبون المساعد من الأخوان . عقد ابن حزم بابا سماه « باب العاذل » ( ١٠٧ ) جعل فيه العذل آفة من آفات الحب ، ثم عقد « باب الرقيب » ووصفه بأنه حمى باطنة ، وبرسام ملح ، وفكر مكب . ثم تكلم عن الواشى وأنه السم الزعاف . أما المساعد من الأخوان « فمن الأسباب المتمناة فى الحب ، أن يهب الله عز وجل ، صديقا مخلصا ، لطيف القول » . وكذلك فعل ابن داود ، فقد تكلم عن « من وفى له الحبيب ، هان عليه الرقيب » ، وعن « من أحبه أحبابه ، وشى به إترابه » وذكر أشعار الشعراء فى الضيق بالرقيب وكراهة الواشى .

والكتب التى فلسفت هذه العاطفة ، اهتمت بهذا العشق العفيف ، فلو ألقيت نظرة على موضوعات كتاب « الزهرة » ، لوجدتها حول هذا العشق مثل : « من كثرت لحظاته ، دامت حشرات - العقل عند الهوى

( ١٠٥ ) الأغاني ٥ / ١٨٥ « ساسى »

( ١٠٦ ) مصارع العشاق ص ٣٢٤

( ١٠٧ ) طوق الحمامة ص ٤٧ .

أسير ، والشوق عليهما أمير - التذلل للعفيف من شيم الأديب - من كان ظريفا ، فليكن عفيفا - من منح من كثير الوصال ، قنع بقليل النوال - قل من سلا الا غلبه الهوى - ما خلق الفراق ، الا لتعذيب العشاق - من فاته الوصال نعهه الخيال » .

أما ابن حزم ، فقد سار في الدرب نفسه ، فهو حين يتكلم في « طوق الحمامة » عن ماهية الحب ، يكتفى بالحديث عن الحب العفيف « الذى ليس بمتكر فى الديانة ، ولا بمحذور فى الطبيعة ، اذ القلوب بيد الله عز وجل . وقد اختلف الناس فى ماهيته وأطالوا ، والذى اذهب اليه أنه اتصال بين اجزاء النفوس المعشوقة فى هذه الخليقة » وهو حين اذ يتحدث عن علامات الحب ، يذكر علامات الحب العفيف مثل : البهت ، والروعة التى تبدو على المحب عند رؤية من يحب ، أو الاضطراب الذى يبدو عليه عند رؤية من يشبهه ، أو عند سماع اسمه فجأة ، ومثل الجزع الشديد ، والزفير ، وقلة الحركة ، والتأوه . ولا ينسى أن يختم كتابه ببابين : قبح المعصية ، وفضل التعفف .

والعرب - منذ الجاهلية - يحبون العفة ويتباهون بها ، ويعتبرونها من فضائل الفرسان . قال هرم بن قطبة لعلقمة « بأى شيء أنت أسود من عامر ؟ قال : أنا بصيروهو أعور ، وأنا أبو عشرة وهو عقيم ، وأنا عفيف وهو عاهر ( ١٠٨ ) » . وكانت النساء أكثر عفة وتصونا ، حتى لقد عجبت هند بنت عتبة ، وهى تعاهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أن يعاهدن على ألا يزني ، وقالت « وهل تزنى الحرة يارسول الله » ( ١٠٩ ) .

والحب الحسى - على الرغم من وجوده ووقوعه - حب كرىه ، تمقته القبيلة ، ولا ترضى عنه الجماعة ، وكان الخليج مهانا عند

( ١٠٨ ) اخبار النساء ص ٩٨

( ١٠٩ ) الاصابة ٨ / ٢٠٥

العرب ، فقيس بن الحداذية - على الرغم من انه كان شجاعا شاعرا -  
كان ممقوتا عند قومه لخلاعه ، فقد لقيه جماعة يريدون الغارة ،  
فقالوا : استأسر - فقال : وما ينفعكم منى اذا استأسرت وأنا خليع ، والله  
لو أسرتمونى ، ثم طلبتم من قومى عنزا ما أعطيتموها « ( ١١٠ ) .

حتى اذا اظلمهم الاسلام رغبتهم أكثر وأكثر فى هذه الصفة الحميدة ، وجعل  
القرآن يتلو على أسماعهم عفة يوسف ، وحزمه أمام المغريات ، وصرف  
الله عنه سوء والفحشاء ، وكان يأمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ  
الفروج « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم « ( ١١١ ) . ويأمر المؤمنات  
بالتصون : « ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن « ( ١١٢ )  
وقد نهى الاسلام نهيا قاطعا عن قذف الحصنات واشاعة قالة سوء  
قال تعالى : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، لعنوا فى  
الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ( ١١٣ ) » . وجعل حد القذف ثمانين  
جلدة ، فقال تعالى : « والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة  
شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك  
هم الفاسقون « ( ١١٤ ) .

فالعشق العذرى عشق مرغوب فيه يباركه المجتمع والدين ، والحب  
الحسى حب ظلامى يطارده المجتمع والدين .

والبيئة العربية تساعد على نمو هذا النوع من الحب ، فهى بيئة  
صحراوية يتنالا فيها القمر وتصفو فيها النجوم ، فتساعد على السمو  
بالعواطف .

( ١١٠ ) الاغانى ١٣ / ٢ « ساسى »

( ١١١ ) سورة النور من الآية ٣١

( ١١٢ ) سورة النور من الآية ٣١

( ١١٣ ) سورة النور الآية ٣٢

( ١١٤ ) سورة النور الآية ٤



وكان العرب في هذه البيئة يملكون وقت فراغ كبير ، يتيح لهم التعايش مع هذه العاطفة وتقليبها . وقد جعل داود الانطاكي « أشد الغرام ما كان عن فراغ ، فأخف الناس عشقا الملوك ، ثم من دونهم لاشتغالهم بتدبير الملك وقدرتهم على مرادهم ، ومن دونهم أفرغ له لقلة الاشتغال حتى يكون المتفرغون له هم أهل البادية ، لأنهم غير مشغولين بعوائق ، ولذا فهم أكثر الناس موتا بالحب » ( ١١٥ ) .

وكانت المرأة - في هذه البيئة الصافية الفارغة - تملأ على العربى حياته ، فطالما تقرب لها الشعراء وخطبوا ودها ( ١١٦ ) . وطالما شجع الرجال وكرموا مرضاة لها ( ١١٧ ) . وطالما أشهدوا الأبطال على بلاتهم ومفاخرهم ( ١١٨ ) ، وكانوا يعترفون بقدرها ويحترمونها ، ويعتبرونها مثل الرجال وشقت منهم ، فلهن مثل ما عليهن من الحقوق ( ١١٩ ) .

فلهذه الأسباب لا أبعد لسو قلت : أن العربى يميل بطبعه وبيئته الى العشق العذرى ، وأن الحب الحسى قليل ومحارب من المجتمع . ولهذا كثرت قصص العشق العذرى ووضعت فيها الكتب والتأليف ، أما حكايات الحب الحسى ، فهي قليلة ، سريعة ، لم توضع لها كتب مستقلة ، مثل الكتب التى وضعت عن عقراء وعروة وكثير عزة ... الخ .

حتى الحب الحسى الذى كان معروفا عند العرب ، لم يخرج - فى معظمه وحتى العصر الذى نحن بصدده - العربى عن حده ، ولم يكن حبا ماجنا مستهترا بكل القيم والعادات . بل كان من هذا النوع الذى

( ١١٥ ) تزيين الاسواق ١ / ٩

( ١١٦ ) المرجع السابق ص ٩٨

( ١١٧ ) المرجع السابق ص ٩٤

( ١١٨ ) المرجع السابق ص ١٠٤

( ١١٩ ) مجمع الامثال ١ / ٢٥

يسميه العرب « ظرفا » ويكون فيه الظريف وعاء لكل لطيف (١٢٠) .  
وابن أبي ربيعة - فارس هذا النوع - كان يذهب مذهب ابن أبي عتيق ،  
فابن أبي عتيق كان من اهل الطهارة والعفاف ، ومن سمع كلامه توهم  
انه من اجرا الناس على الفاحشة (١٢١) .

ولم يعرف العرب المجون والاستهتار ، ولم تنشأ بينهم ، ومن  
واقعههم ، ومن بيئتهم ، أمثال تلك المذاهب الاباحية التي عرفها الفرس  
مثلا ، فقد عرف الفرس رجلا يقال له . مزدك ، دعا أن تكون الاموال  
والنساء مشتركا بين الناس ، ودخل قبايز ملك الفرس في دينه . وذكر  
أن أم أنو شروان ، كانت يوما بين يدي زوجها الملك قبايز ، فدخل  
عليهما مزدك ، فلما رأى أم أنو شروان أعجبه ، وقال للملك : ادفعها  
الى ، فقال . دونكها (١٢٢) .

ولهذا أشك في كثير من القصص التي لا تتماشى مع طبيعة الخلق  
العربي ، والتي رواها الرواة على أنها حدثت للعرب القدامى .  
أشك مثلا في كثير من الحكايات التي حيكت حول لقمان .

فقد قيل انه خرج يجول في قبائل العرب ، فنزل بحى من العماليق  
فلما ظعن القوم ظعن معهم ، فسمع امرأة تقول لزوجها : لو حملت سقطى  
هذا حتى تجاوز به الثنية ، فان فيه من متاع النساء مالا بد لهن فيه ،  
ولعل البعير يقع فيتكسر . فاحتمله على عاتقه ، فلما انحدر وجد بللا  
في صدره ، فشمه فاذا هو ريح بول قد جساء من السقط ، الذي على  
رأسه ، ففتح السقط فاذا هو بسلام قد خرج منه يعدو (١٢٣) .

ثم أتى قبيلة أخرى ، وإذا هو بامرأة تذهب الى الخلاه ، فتبعها

(١٢٠) أخبار الظراف ص ١٢

(١٢١) نوادر الجاحظ ص ٨٠

(١٢٢) الاغانى ١ / ٧٨ « دار الكتب »

(١٢٣) المحاسن والاضداد ص ١٧٨ والتيجان ص ٧٣

لقمان ، فعارضها رجل ، فمضيا جميعا ، ثم وقع الرجل عليها ، وقضى حاجته منها ، فقالت المرأة : هل لك أن اثماوت على أهلى ، فانما هى ثلاثة أيام أكون فى رجمى . ثم تجيء فتستخرجنى فنتمتع . فقال الرجل : افعلى وكان اسمه الخلى ، وزوج المرأة اسمه الشجى فقال لقمان ويل للشجى من الخلى ، ففعلت ، وأخذها الرجل وظلت معه ، الى أن تعرفت عليها صغرى بناتها ( ١٢٤ ) .

أو قصته مع الفتاة التى حبسها فى بيت من الجبل ، ومع ذلك تسلل اليها رجل من العرب فى حزمة من الحطب ، وخانت لقمان فى غفلة منه ( ١٢٥ ) .

فهذه القصص لا تتفق مع الطبيعة العربية ، فالمرأة العربية لم تكن بهذه الصنعة إذ لم تكن خائنة مخادعة ، تستغل زوجها ، وتبييم بناتها ، وتضحى بسمعتها . والرجل العربى لم يكن بهذه الغفلة ، ولا بهذا الحمق ، وفى بعض هذه القصص ما يدعو الى نفى صحتها التاريخى ، فما الداعى لأن تطلب المرأة من زوجها أن يحمل السقط كما جاء فى المحاسن ، أو التابوت كما يقول وهب ، هل هى ترغب فى اذلال زوجها ... وكفى ؟ ولم تعرض نفسها للفضيحة ؟ وما الداعى الذى يجعل الرجل يحمل السقط أو التابوت على كتفه ؟ لم لا يركب بعيره ويحمله معه ؟ وما الداعى الذى جعل الغلام يبول فى ذلك الوقت بالذات ؟ ... الخ . اننى أشك فى هذه القصص من الناحية التاريخية ، وأعتقد أنها حكايات قد وضعت وتدوولت ، وكان المقصود منها بيان مكر المرأة ، وقدرتها على الخداع والحيلة ، ولهذا أحسن صاحب المحاسن والاضداد حين ذكرها تحت عنوان « مساوىء مكر النساء » .

ولعلى بهذا أكون قد أجبت على السؤال الاول : فقصص العشق

( ١٢٤ ) المحاسن والاضداد ص ١٧٨

( ١٢٥ ) التيجان ص ٧٣

فقد نشأت نشأة شعبية عربية لم تنقل من فارس ولا روم . ولكن القصص العذرية هي القصص التي ياركها المجتمع ، وافتخر بإبطالها ، أما الحكايات الحسية ، فهي حكايات ظلامية مطاردة من المجتمع .

ب - أما الاجابة على السؤال الثاني ، فانه من اصعب الاشياء ان اتبين التأثير الخارجى فى هذه القصص ، وخاصة ان العلماء العرب - على ما اعتقد - كانوا يستغيرون اسماء فارسية يقصد التحلية ، واثارة الانتباه ، ولو رجعت الى « امثال اكثم بن صيفى ، وبزرجمهر الفارسى » وقد ذكرها ابن عبد ربه ( ١٢٦ ) ، دون ان يسند المثل الى صاحبه لما عرفت : هل المثل للاكثم او لبزرجمهر ، ولرايت عليها جميعا مسحة عربية ، مما يدل على ان اسم بزرجمهر اجتلب لغرض فى نفس المؤلف . بل واحيانا تجد القصة تدور حول اعلام فارسية ، ثم تلاحظ ان اسلوبها اسلامى ، كذلك القصة التى رويت عن كسرى ابرويز ، فحين اعياء امر خاله بسطام ، اتفق على تدبير مؤامرة بوساطة امرأة بسطام ، فقد اغراها بقتله ، على ان يتزوجها ويجعلها سيدة نسائه ، وكتب لها كتابا قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب لكردية بنت بهرام جسناسب ، كتبه لها كسرى ابرويز بن هرمز ، ان لك عندي عهد الله وذمة انبيائه ورسله ، ان انت قتلت بسطاما وارحتنى منه ، ان اتزوجك واجعلك سيدة نسائى ، وابلىغ من كرامتك مسالا يبلغ معك ملك من الملوك ، واشهد على ذلك ، وكفى بالله شهيدا » ومن هذا الجزء الذى اقتبسته من القصة وهى طويلة ( ١٢٧ ) ، لاحظ ان اسلوب كسرى اسلوب اسلامى وفيه عبارات قرآنية مثل : بسم الله الرحمن الرحيم « وكفى بالله شهيدا » .

( ١٢٦ ) العقد الفريد ١ / ٢٥٠  
( ١٢٧ ) المحاسن والاضداد ص ٦٨

ولكن لابد وقد عرفنا أن العرب لم يكونوا قفلا أمام الحضارات الأخرى ، وأن صلتهم بهذه الحضارات قد توثقت ، بعد أن اسقطوا فارس ، وفتحوا كثيرا من ممالك الروم - لابد أن تتأثر القصص بمؤثرات خارجية ، فبعض أبطال هذه القصص لم يكونوا عربا ، فقد كان منهم الفارسي كوضاح اليمن على أحد الأقوال (١٢٨) ومنهم الحبشي كزوج بريرة (١٢٩)

وقد كان من العادات الاجتماعية الشائعة عند العرب أن يجلسوا داخل خيمة أو بجانب نار ، ويستمعون إلى شخص يسرد عليهم القصص ، وبعض هذه القصص كانت فارسية أو بيزنطية ، أو بابلية الأصل (١٣٠) .

ولعل لا أبعد لو قلت : أن القصص التي تحمل رأى لقمان في المرأة ، وأنها مأكرة ، مخادعة لا ترعى حرمة الزوجية ، ولا تصون واجبها نحو أبنائها - لعل لا أبعد لو قلت : أن هذه القصص قد اجتلبت اليهم من الخارج ، فلو كان واضعها رجلا عربيا لكان على وضعه مسحة عربية ولكن العرب لا ينظرون إلى المرأة هذه النظرة ، بل يحترمونها وتحترم هي نفسها عن أمثال هذه المخاتلات (١٣١) ، وصورة المرأة هنا أقرب إلى صورة المرأة اليهودية التي تستخدم المكر والخديعة والخيانة (١٣٢) .

وعلى أي حال فالتأثير في قصص العشق حتى العصر الأموي ، كان

(١٢٨) الأغاني ٦ / ٣١ « ساسي »

(١٢٩) مصارع العشاق ص ١٧٥

The modern Arabic Short Story, p. 18

(١٣٠)

(١٣١) أنظر مقالا لي عن « المرأة في قصص القرآن » بمجلة منبر

الاسلام ص ١٨٦ ( ٩ أغسطس سنة ١٩٦٤ ) وقد تعرضت فيه لنظرة

الاساطير الاغريقية للمرأة ، ثم لنظرة التوراة ثم لنظرة القرآن .

(١٣٢) أنظر سفر أستير . ومقالا لي بمجلة الرسالة (١١) ذو الحجة

سنة ١٣٨٣ ( ) .

تأثيراً ضئيلاً . فلم يعد الشكل الخارجى واستعارة أسماء فارسية ، أو نقل بعض حكايات مشكوك فى نسبتها الى العرب ، ولم يصل هذا التأثير الى المحتوى الداخلى فيؤثر فى العاطفة نفسها أو فى طريقة الحب ، أو فى الأفكار التى تحملها هذه القصص .

ولكن ما القول فى تلك المشابهة التى نراها بين بعض مظاهر قصص العشق ، وبين بعض المظاهر الاجنبية ، كتلك المشابهة فى العفة بين الحب الافلاطونى والحب العذرى ، أو تلك المشابهة فى موقف العذرى أمام القدر ، وموقف الاغريقى فى بعض المسرحيات الاغريقية .

ان البحث الموضوعى لا يكتفى بمجرد وجود احتكاك بين حضارتين ثم بوجود مشابهة فى بعض المظاهر ، فيحكم بان الحضارة الاخيرة ، قد استمدت من الحضارة السابقة . بل لابد من وجود وثائق تثبت ان تلك الظاهرة بعينها ، قد نقلت أو ترجمت الى الحضارة الاخرى ، ولابد من نظرة كلية عامة ، لا تكتفى بمجرد مشابهة فى جانب ، بل تمتد الى الجوانب الاخرى لترى هل هذه المشابهة تامة ، أو أنها مشابهة فى جزئية ، ومفارقة فى جزئيات .

وأظن أن تلك المشابهة التى نلمحها جاءت بمحض المصادفة . فأننا لم نعرف أن العرب قد ترجموا المسرحيات الاغريقية ، أو اطلعوا على شيء منها ، بل حتى حين ازدهرت الترجمة نقلوا المنطق الارسطى وما شابهه ، ولم ينقلوا المسرحيات الاغريقية .

ولست أعتقد أن موقف العذريين من القضاء والقدر ، كان متأثراً بما أشاعه فقهاء الاسلام ومحدثوه ، من مسائل اثناء شرحهم لبعض آيات من القرآن كما يرى الدكتور غنيمى ( ١٣٣ ) . تمشياً مع مذهبه العام فى الأثر الكبير للإسلام على نشأة الحب العذرى ، فقد كان هذا الموقف معروفاً عند العاشق الجاهلى .

( ١٣٣ ) الحياة العاطفية ص ٣٣

وكل ما اظنه - وسيأتى شرح هذا فى الفصل الثالث ، من الباب  
الثانى - أن هذا الموقف موقف معتاد لرجل العامة ، وأن الأحداث التى  
ابتلى بها الحجاز فى العصر الأموى قد نمت من هذا الموقف .

ومن ناحية أخرى فإن الحب الأفلاطونى يختلف عن الحب العذرى -

فالحب الأفلاطونى مجموعة أفكار فلسفية ، فقد اجتمع كبار الفلاسفة  
اليونان ، وراوا أن يتناولوا موضوع الحب بالبحث والتحليل ، فأدلى كل  
منهم برأيه ، فمثلا فيدروس يوسع من دائرة الحب ، فيريطه بالجماعات ،  
فاذا ارتبطت فئة برباط المودة ، وكونت حكومة أو جيشا ، فلا ريب فى  
أن مابينهم من روابط المودة يدعوهم الى أداء مايجب حق أداء ( ١٣٤ ) .  
أما بوسانيوس فيقسم الحب الى أنواع ثم يميز بين النوعين من  
الحب الملازم ، لزهرة بانديموس ، وهو الحب الذى تعرفه العامة  
لما فيه من الشهوات الدنيئة ، والحب الملازم لزهرة أورانوس وهو  
الحب المذكر الذى يوحى بالاخلاص والنقاء ويهيم فيه صاحبه بالعقول  
الناضجة والنفوس الصحيحة ( ١٣٥ ) . واريستوفانوس يذكر أن الانسان  
كان فى أول أمره شيئا واحدا ، ثم رأت الالهة أن تعاقبه فقسمته الى  
نصفين : الذكر والانثى ، فعندما يلتقى النصفان يرتبطان برابطة الحب  
السابق ( ١٣٦ ) . أما سقراط ، فقد تحدثت اليه - فيما تحدثت - ديوتيميا  
النبية عن مراحل الحب . فبيدا المحب بحب شكل واحد جميل ، ثم  
يحب سائر الاشكال ، ثم يتخلص الى محيط الجمال العقلى ، حتى يصل  
الى الجمال العام ( ١٣٧ ) .

أما الحب العذرى ، فهو حب يعيد عن الفلسفة وتحليلاتها وتفاريحها  
ومراحلها . اذ هو حياة ، كان يعيشها فئة من العرب ، يعشق الواحد

( ١٣٤ ) مائدة أفلاطون ص ٢٢٠

( ١٣٥ ) مائدة أفلاطون ص ٢٢٥

( ١٣٦ ) المرجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٩

( ١٣٧ ) المرجع السابق ص ٢٦٠

منهم ابنة عمه أو أخرى ثم يريد أن يتزوج بها ، فيحال بينهما فيظلل  
يتغنى بها في شعره ، ويحلم بها في وجدانه .

فالعلاقة بينهما علاقة واهنة ، كذلك العلاقة التي نلاحظها بين  
الفيلسوف والشاعر وبين العقل والعاطفة ( ١٣٨ ) .

وعلى ذلك حين يشير ابن داود الى الاسطورة الاغريقية ، التي  
تري أن الانسان كان واحدا ثم قسم الى نصفين ، ثم يقول : « وقد قال  
جميل في ذلك :

تعلق روحى روحها قبل خلقنا      ومن بعد ما كنا نطافا وفي المهد  
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا      وليس اذا متنا بمنتقض العهد

ولكنه يساق على كل حالة

وزائرنا في ظلمة القبر واللحد ( ١٣٩ )

حين يفعل ابن داود ذلك ، لا اعتقد أنه يؤمن بأثر الاسطورة  
الاغريقية على جميل ، وإنما يشير الى مجرد المشابهة بين شيئين .  
كما أنني لا اعتقد أن جميلا قد تأثر بفكرة اسلامية ، وهي أن محدثي  
الصدر الأول كانوا يؤمنون بيوم الميثاق ، ويرون أنه حق أخذه الله على  
الخلائق قبل أن يأتوا الى هذا العالم - كما يرى الدكتور غنيمي ( ١٤٠ )  
تمشيا مع مذهب العام . فقد كانت الفكرة التي جاءت في شعر جميل  
موجودة عند شعراء جاهليين ، وابن داود قبل أن يذكر الاسطورة  
الاغريقية ذكر قول طرفة بن العبد :

- ( ١٣٨ ) كثير من المفكرين ردوا على فكرة ماسينون ، أذكر منهم :
- الدكتور أحمد الحوفي ( الغزل في العصر الجاهلي ص ١٥٤ ) .
  - موسى خليل سليمان ( الحب العذري ) ص ٥١ .
  - أحمد عبد الستار الجوارى ( الحب العذري ص ٤٥ ) .
  - عبد اللطيف شراره ( فلسفة الحب عند العرب ص ٩٣ ) .
  - ( ١٣٩ ) الزهرة ص ١٤ وانظر ذم الهوى ص ٢٩٧ .
  - ( ١٤٠ ) الحياة العاطفية ٣١٢ .



تعارف أرواح الرجال اذا التقوا فمنهم عدو يتقى وصديق (١٤١)

فالحب العذرى فى العصر الأموى ، كان حياة يعانيتها فريق من الشعراء وقد شغلته هذه الحياة عن فلسفة حبه وتخليه وبيان مصادره . حقا وبعد هذا العصر ، حين هدأت هذه العاطفة ونضج العقل العربى ، وغذته موارد الفلسفة الأجنبية - حين ذاك أصبحت هذه العاطفة ، محور تفكير وفلسفة ، فالتفت حولها الكتب والرسائل مثل رسالة العشاق لابن سينا ، ورسائل اخوان الصفا . ومثل الكتب التى ألفها ابن داود وابن حزم والسراج وابن قيم الجوزية وابن ابي حجلة وداود الانطاكى ... الخ .

وفى بعض هذه الرسائل وتلك الكتب ، لا أنكر وجود اثر للفلسفة الاغريقية ولكن هذا بحث آخر .

ولعلنى بذلك اكون قد أجبت عن السؤال الثانى ، فقصص العشاق كان تأثرها بالحضارات الاخرى ضئيلا لايتجاوز الشكل الخارجى . ولا يصل الى المستوى الداخلى فيؤثر على العاطفة نفسها او على مقادير ابطالها .

ج - اما الاجابة على السؤال الثالث ، فاننى اعتقد ان الذى ادى الى هذه العزلة فى قصص العشاق ، اسباب منها :

١ - كان حكام بنى أمية يتعصبون لكل ماهو عربى . وكان خيالهم ينجح الى حياة البادية ، ومثلهم العليا تلتمس من النماذج الصحراوية ، حكى ان عبد الملك بن مروان كان يعجب بأحاديث عروة بن الورد ، وهو فارس من فرسان الجاهلية وأجودها ، وصلوك من صعاليكها . وقد قال عبد الملك مرة : « ما يسرنى أحد انه ولدنى الا عروة ابن الورد » (١٤٢) .

(١٤١) الزهرة ص ١٤ .  
(١٤٢) الاغانى ٢ / ١٨٤ « سامى » .

وسار الولاة على دين ملوكهم فكان الصجاج يتعلق بكل ما هو  
عربي ، ويطلب من جرير والفرزدق ان يدخلوا عليه في لباس آباتهما في  
الجاهلية .

وسار الناس على دين الولاة ، فشغل معظم الرواة بالادب العربي  
واخبار الامة العربية ، اهتماما بما يروج لدى الرؤساء ومن وراءهم .  
ولهذا نجد ان الموضوعات العربية هي الموضوعات الرائجة ، قال  
المسعودي : ان عبد الملك بن مروان ، يحب الشعر ، والفخر ، والتقريض  
 والمدح . وكان عماله على مثل مذهبه « ( ١٤٣ ) .

حتى الشعراء الفرس مثلا ، لم يتجهوا الى الادب الفارسي لياخذوا  
منه موضوعاتهم ، بل قلدوا الطرُق العربية . واقرأ مثلا اخيار زياد  
الاعجم ، أو اسماعيل بن يمار ، فلن تجد فرقا بينهما وبين شاعر  
من أبوين عربيين .

على ان العرب أو فريقا منهم كانوا يميلون الى المحافظة ، أو الى  
ان يأخذ الخلف عن سلفه ، وكلنا يعرف ان رسم القصيدة الجاهلية ،  
ظل مسيطرا على الادب العربي الى وقت قريب . ويتحدث ابن رشيق  
عن طائفة من مشاهير الرواة تنعصب للقديم ، مثل أبي عمرو بن العلاء ،  
والأصمعي ، وابن الأعرابي . فكان أبو عمرو يقول : « لقد أحسن هذا  
المولد ، حتى هممت أن أمر صبياننا بروايته » يعني بذلك شعر جرير  
والفرزدق . فجعله مولدا ، بالاضافة الى الشعراء الجاهليين  
والمخضرمين . وكان لا يعد الشعر الا للمتقدمين . قال الأصمعي : جلست  
اليه ثمانى حجج ، فما سمعته يحتج ببيت أسلمى « ( ١٤٤ ) .

وقد أنبهر المسلمون بالاسلام ، فقد نقلهم من حياة يادية ، الى

( ١٤٣ ) مروج الذهب ٣ / ٣٦

( ١٤٤ ) العمدة / ٥٧

حياة متحضرة ، ومن حالة كانوا يتسقطون فيها فتات الموائد ، الى حالة أصبحوا فيها سادة الموائد ، فأقبلوا على القرآن يتفهمونه ، ويدرسون هديه ومعانيه ، ووجدوا فيه مجالا خصبا ، يغنيهم عما سواه . قال ابن خلدون « ولما فتحت ارض فارس ، ووجدوا فيها كتباً كثيرة ، كتب سعد ابن أبي وقاص الى عمر ليستأذنه في شأنها وتنقلها للمسلمين . فكتب اليه عمر أن اطرحوها في الماء ، فإن يكن ما فيها هديا ، فقد هدانا الله بأهدى منه . وإن يكن ضلالا ، فقد كفانا الله . فطرحوها في الماء أو النار ، فذهبت علوم الفرس عن أن تصل إلينا » (١٤٥) .

فالتعصب للقديم ، مع ميل كثير من الرواة الى المحافظة ، والانبهار بالعقيدة الجديدة ، وروعة القرآن - كل هذا ساعد على ألا تتأثر قصص العشق بالمؤثرات الاجنبية تأثرا كبيرا .

٢ - معظم قصص الحب والعشق ، نشأت داخل الجزيرة العربية وينوع خاص في الحجاز : حواضره وبواديه .

ولو ألقيت نظـرة دقيقة على خريطة طبيعية للجزيرة العربية ، لوجدت انها ابتليت بالصحراء الشاسعة ، والجبال الكثيرة . فجبال السراة تمتد في الحجاز شرقا وغربا . ونجد هي الصحراء الداخلية لجزيرة العرب ، ويمكن ان نميز فيها صحراء النفود التي تقع شمالها ، وتشتهر بكتباتها الرملية ، وجنوبي هذه الصحراء نجد جبلى طيبى أجا وسلمى ، وتضيق صحراء النفود كلما اتجهنا شرقا حتى تصل بوساطة برزخ ضيق الى صحراء الدهناء الشرقية التي تسقط سقوطا مباشرة نحو الخليج الفارسي . وفي جنوب الدهناء من ناحية الغرب ، نلتقى بصحراء كبيرة تسمى الربع الخالى .

(١٤٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ ، ومع اننى اشك في هذا فليس العرب قوما متعصبين ، وقد افادوا من الثقافة الفارسية وغيرها ، الا أن دلالة النص تبقى في أن العرب قد شغلوا بالقرآن والعلوم الاسلامية كثيرا .

ويعيش معظم سكان هذه المناطق فى انتظار الغيث والكلأ . وينتقل  
العزى من مكان الى مكان فى طلب الكلأ ، وكثيرا ما تقوم حروب حول  
هذه الاماكن ، والقوى من يستطيع ان يحمى اكبر قدر ممكن من هذه  
الاماكن ، ولذلك كانت حياة معظم العرب فى ذلك ، حياة لاتعرف  
الاستقرار ولا الاطمئنان ، فهم فى انتقال من مكان الى مكان ، وهم فى  
حروب مع القبائل الاخرى من أجل لقمة العيش .

فهذا الجذب والجفاف ووعورة المسالك ، جعل تلك الاماكن تعيش  
فى عزلة نسبية عن العالم الخارجى ، فلم تتعاقبها مدنيات مختلفة الا اثاره  
قليلة تتساقط اليها . وتلك الطبيعة جعلت الفاتحين العظام ينصرفون عن  
احتلال الحجاز « فلم يعيث بحريته الملوك الفاتحون ، فى الوقت الذى  
عبث فيه كيرش وقمبيز وغيرهما من ملوك الفرس باستقلال كثير من  
الامم ، كذلك ظل محافظا على استقلاله أيام الاسكندر المقدونى » (١٤٦)

فالصلة بين الحجاز ومن جاوره لم تكن - قبل الاسلام - عميقة  
تصل الى حد الازدواج ، وانما وصلت الى هذا الحد بعد الفتوحات  
الاسلامية .

ولا ننتظر ان تكون لهذه الفتوحات اثرها العميق فى العصر  
الاموى ، فقد كان المسلمون فى مرحلة الدهشة ، وكانوا مبهورين بكنوز  
الارض وخيراتها ، ونشر الاسلام وتعاليمه عن ترجمة كتب الفرس  
والروم . حقا وجدت بواكير الترجمة فى هذا العصر ، ولكن الترجمة  
الكثيرة الواسعة انما كانت فى العصر العباسى . هذا من ناحية ، ومن  
ناحية ثانية ، فان الحجاز لم يحافظ على سطوته سنين طويلة ، فما  
ان يهل العقد الرابع من السنة الهجرية ، حتى ينتقل مركز الحكم الى  
الشام وينتقل مركز المعارضة الى العراق ، وقد حاولت دمشق ان تبقى

الحجاز على عزلته ويعدّه عن المساهمة في مقالية الدولة ، وفعلت في ذلك الأفاعيل .

وهذه العزلة للحجاز ، جعلته يشتهر في الاسلام بنوع خاص من العلم ، وهو العلم الديني المطبوع بالطابع العربي ، كالتفسير والحديث والفقه واللغة والانساب بينما اشتهرت العراق والشام بالعلوم العقلية التي كانت أساسا لعلم الكلام ، كالجدل حول القضاء والقدر ، وصفات الله ، وغير ذلك من بحوث تاثرت بالثقافة الهيلينية كما سبق أن ذكرت .

ولهذا كان أبطال العشق الذي نجموا في الحجاز ، بمعزل عن التيارات الثقافية أو الحزبية التي كانت سائدة في العصر الأموي ، فعمر بن أبي ربيعة وركبه ، كانوا مشغولين بمغامراتهم ومعاركهم الغرامية وانتصاراتهم الوهمية ، عن المساهمة في صنع الحياة ، وفي الانتصار الفعلي لمذهب أو حزب ، والمجنون وثلته ، كانوا غارقين في تهويماتهم وسبحاتهم ، عن مجابهة الواقع ، والصدام به .

ولم نجد لواحد منهم تحسنا لمذهب أو تيار ، فلم نجد منهم خارجيا يشهر السلاح ، في وجه الطغيان ، ولم نجد منهم معتزليا يرى أن من أصول مذهبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا حتى من أسهم مع بني أمية أو مع بني المهلب في حروبهم .

بخلاف شعراء العراق والشام ، فمنهم من كان يتحمس للشيعة كالكميت (١٤٧) ومنهم من كان خارجيا كالطرماح بن الحكم (١٤٨) . وكان بعضهم يحبذ مجلس علم على آخر ، فقد كان الفرزدق صديقا للحسن البصري ، وكان يفضل حلقته ويذهب اليها (١٤٩) .

(١٤٧) الأغاني ١٥ / ١٩ « ساسي » .

(١٤٨) المرجع السابق ١٠ / ١٤٩

(١٤٩) العقد الفريد ٦ / ١٢٥

حقاً ، كان كثير شيعياً ، ولكنه فى تشيعه كان أثبه بالمشهور  
والمخرف ، وكانت معلوماته أقرب الى رجل العابة ، وحين سئل عن  
مصدر معلوماته قال بالتوهم ( ١٥٠ ) وكان فريق من آل البيت يعتقدون أن  
كثيراً بموقفه هذا ، يضرهم أكثر مما ينفعهم فعبد الله بن حسن خاصمه من  
أجل هذا ، وأقسم أنه لا يشهد أن مات ، ولا يعود ولا يكلمه ( ١٥١ ) .  
ولو قارنت بينه وبين شاعر آخر ، يحب الشيعة ويتعصب لهم ،  
وهو الكميت لأدركت أن الأخير ذا عقلية حسنة ، كما وصفه  
الفرزدق ( ١٥٢ ) ، وكان لا يبدو فى هاشمياته الخيل والشعوذة . بل  
يحتج فيجيد الاحتجاج ، مما يدل على أن العلم قد صقل عقله وقوى  
موقفه ، وأنظر قصيدته التى مطلعها :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب

ولا لعباً منى ، وذو الجهل يلعب ( ١٥٣ )

فستجد فيها الاحتجاج القوى الذى يصدر عن عقلية حسنة .

فعزلة الحجاز النسبية كان لها اثر ، فى أن تجعل تأثير الحضارات  
الخارجية على قصص العشق ، تأثيراً ضئيلاً .

ولكن هذه العزلة ، وذاك الجذب والجفاف والوعورة ، وذلك  
التعصب والمحافظة والانبهار بالعقيدة الجديدة ، لم تمنع الغناء مثلاً أن  
يتأثر بالتأثير الخارجى تأثراً كبيراً ، فقد كان غناء العرب قديماً كما  
يقول ابن رشيق - على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج ، حتى جاء  
الله بالاسلام ، وفتحت العراق وجلب الرقيق من فارس والروم ، فغنوا

( ١٥٠ ) الاغانى ٩ / ١٦ « دار الكتب »

( ١٥١ ) المرجع السابق ٩ / ١٧

( ١٥٢ ) الاغانى ١٥ / ١١٩ « ساسى »

( ١٥٣ ) الاغانى ١٥ / ١١٦ « ساسى »

الغناء المجزء المؤلف بالفارسية والرومانية وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير  
والمعازف والمزامير (١٥٤) .

وهنا أصل الى السبب الثالث ، الذى اعتبره أهم الأسباب :

٣ - فالغناء - كما يرى ابن خلدون - يزدهر نتيجة الحضارة ،  
وهو مطلب كمالى لا يستدعيه « الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية  
والمهمة من المعاش والمنزل وغيره » . وقد كان العرب فى جاهليتهم اهل  
بداوة ، فلم يزدهر لديهم الغناء ، حتى جاءهم الترف واتصلوا  
بحضارات الأمم الأخرى ، فازدهر الغناء وتنوع (١٥٥) .

بخلاف قصص العشق ، فانها قصص شعبية ، تداولها العربى منذ  
الجاهلية ، وكان يسمر بها فى الليالى المقمرة ، وفوق الكثبان العفر ،  
وحول النيران المتقدة ، وفى حلقات الانس والسمر ، وورث عنه العربى  
المسلم هذه العادة ، واخذت هذه الحكايات تقص بين العجائز والعامه ،  
وفى اوقات السمر والحديث ، والعامه - يومئذ - بعيدون عن المناقذ  
الخارجية والتيارات الثقافية ، ولهذا لم يتح لهذه القصص تلقيح جديد  
او دم آخر ، وانصرف عنها الأدباء والخاصة والنقاد ، واعتبروها لغوا  
من الحديث ، ونوعا من السمر لا يستحق الاهتمام ولا العناية .

فالقصاص نوع من السمر الشعبى ، الذى لا يتفتح للمناقذ الخارجية ،  
بخلاف الغناء الذى اجتلب من الخارج نتيجة الحضارة وتعقدها .

ونهاية الفصل ، أن كلا من قصص الحب الحسى ، والعشق العذرى ،  
قد نشأ نشأة عربية خالصة ، فعرفها العرب منذ العهود البائدة وتتابع  
وجودها من عصر الى عصر . ولكنى لاحظ أن هذه القصص قد ازدهرت  
وتكاثر فى العصر الأموى . فالعشاق العذريون الأربعة المشهورون ،

(١٥٤) العمدة ٢ / ٢٤١

(١٥٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٧

غبغوا في العصر الأموي « قال الفارسي في تنزيه النفس : من لدن أدار  
الله الأفق على نظام التريب ، حيث جعل دائرة العالم العلوى أربعة ،  
والعناصر والرياح والطبائع كذلك ، جعل المذاهب وطريقة الحقيقة يعنى  
مسالك الصوفية ، والعشاق كذلك . أما العشاق فهم : جميل بئينه ،  
ومجنون ليلى ، وكثير عسرة ، وقيس لبنى ( ١٥٦ ) » . والاستاذ  
جورجى زيدان أحصى شعراء العشاق في الجاهلية ، وفي العصر الأموي  
فإذا بهم في الجاهلية ستة شعراء ، ثم صاروا في العصر الأموي واحدا  
وعشرين شاعرا ( ١٥٧ ) .

ولا بد أن لهذه الكثرة والازدهار أسبابا . هي حديثي في الفصل  
المقبيل .

( ١٥٦ ) تزيين الأسواق ١ / ٣٨

( ١٥٧ ) تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٢٤٨ . والدكتور أحمد الحوفي  
ذكر أكثر من عشرة شعراء ، عشقوا عشقا عذريا في العصر الجاهلي  
( الغزل في العصر الجاهلي ص ١٢٠ ) . وسواء أكانوا ستة أم أكثر من  
عشرة ، فإنهم قد كثروا في العصر الأموي كثرة واضحة ، قال رجل من  
عذرة لعروة بن الزبير « لقد خلفت في الحى ثمانين مريضا ، دنفا ،  
عشقا ما بهم غير الحب قد خامر قلوبهم » ( الموشى ٨٥ ) .



1870

My dear Mr. Garrison  
I have just received your letter of the 14th inst. and am  
glad to hear that you are so interested in the  
cause of the colored people. I have been thinking  
much of late about the condition of the colored  
people in this country and the progress they are  
making towards freedom and equality.

Yours truly,  
Wm. L. Chapin

I have been thinking much of late about the  
condition of the colored people in this country  
and the progress they are making towards  
freedom and equality. I have been thinking  
much of late about the condition of the colored  
people in this country and the progress they are  
making towards freedom and equality. I have been  
thinking much of late about the condition of the  
colored people in this country and the progress  
they are making towards freedom and equality.

## الفضل الثاني

### اسباب ازدهار قصص العشق

#### في العصر الاموي

اختار الحسن بن علي الحل الاسلم ، فسلم الامر لمعاوية بن ابي سفيان سنة احدى واربعين من الهجرة وسمى العام عام الجماعة .  
وبقيام الدولة الجديدة ( الدولة الاموية ) ، قام طراز جديد من الحكم يختلف في كثير من مقاصده واساليبه عما كان يقصد اليه الجيل السابق ، وتحقق قول الرسول ﷺ « الخلافة بعد ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عوضا (١) » .

فمعاوية مؤسس هذه الاسرة الاموية يمثل الزعيم الذي خلقته الحياة الجديدة . ولهذا اختلفت وسائله ، واصبحت أكثر ملاءمة لتلك الحياة ، أعلن معاوية سياسته بوضوح حين قدم المدينة عام الجماعة ، فقال « ولقد رضى لكم نفسى على عمل ابن ابي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفارا شديدا ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت على ، فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة ، مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة . فان لم تجدوني خيركم فاني خير لكم ولاية » .

وينشا جيل جديد لم يشاهد الرسول عليه السلام ولم يتم له أن يشهد عنفوان الدعوة ، فلم يجد غضاضة في أن يتمتع بحياته وأن ينعم بأطاييب العيش ، فبينما كان عمر رضى الله عنه يرقع ثوبه ، وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء ويا بيضاء غرى غبرى « وكان أبو موسى

(١) مروج الذهب ٢ / ٥٢

يتجافى عن أكل الدجاج (٢) . بينما كان حال السابقين كذلك ، كان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب (٣) وكان عبد الملك يجلس بين جاريتين تميّسان ، ويبد كل جارية منهما مروحة تروح عليه ، ومكتوب بالذهب عليها اشعار غزلية (٤) .

وهذا وغيره يدل على أن حياة جديدة قد ابتدأ يعيشها الناس ، وملكا اساسه الترف والتعيم جاء اثر خلافة ميناها التقصى والتخرج .

ونظرة الى العصر الاموى يتبين لك ان هذا العصر قد اشتهر بالصراع والاضطراب ، فالثورات تملأ كل مكان ، والحروب تشتد ، والعصية بين القبائل قد بدأت تطفح .

ففى سنة ٤٢ هـ اجتمع الخوارج واعتزموا على القيام بكرة ، واختاروا زعيما لهم المستورد بن علقمة الخارجي . فحاربهم المغيرة ابن شعبة ، وأرسل اليهم جيشا على رأسه معقل بن قيس فانتصر عليهم وقتل المستورد (٥) .

وفى سنة ٥٣ هـ نعى الى زياد بن أبى سفيان أن جماعة من الشيعة ، على رأسهم حجر بن عدى الكندى ، يجمعون الناس ويدعون الى الحرب ، فبادر زياد الى القبض على حجر ومن معه ، ثم قتل ثمانية من بينهم حجر (٦) .

ومن سنة ٧٤ هـ الى سنة ٧٧ هـ انشغل عبد الملك بن مروان بحرب الخوارج ، وانتدب لذلك قواده العظام مثل المهلب والحجاج .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٤

(٣) مروج الذهب ٢ / ٩٤

(٤) العقد الفريد ٣ / ١٨٤

(٥) تاريخ الطبرى ٤ / ١٣

(٦) مروج الذهب ٢ / ٣٠٧

والناظر الى العرب فى العصر الاموى ، يجد أن كثيرا منهم قد عادوا الى حياة ائبىة بحياة اجدادهم فى الجاهلية ، كالسلب والنهب بين القبائل والنزاع بسبب العصبية والتفاخر بالاشعار التى تسيل بسببها الدماء .

فالنزاع بين القبائل قد اشتد اواره فى مختلف الاقليم ، ففى خراسان بين الازد وتميم ، وفى الشام حرب بين اليمانية وكان هواهم مع الامويين ، والقيسية وكانوا زيدية ، وحدثت ايام رهبة كانت أهمها « مرج راهط » ، وفيه خرج عبد الملك بن مروان فى ثلاثة عشر ألفا ، وخرج الضحاك بن قيس فى ستين ألفا ، واقتتلوا بالمرج عشرين يوما .

كان هذا هو الأمر خارج الحجاز فى الاقاليم الاسلامية : ثورات وصراع واضطراب وهيجان .

اما فى الحجاز فقد وجد الامويون أن الحجازيين يحقدون عليهم ، ولا يمكن أن يصفوا لهم ، ففى الحجاز يقطن معظم آل هاشم ، الأعداء التقليديين لآل أمية . والذين يعتقدون أنهم أصحاب الحق فى تولية أمور المسلمين ، فهم آل بيت محمد ﷺ صاحب الدعوة . وقد كانت المدينة مركز النشاط الاسلامى وعاصمة الدولة الاسلامية ، وموطن الانصار الذين نصروا الدين وأزروه ، ويعتبرون من المؤسسين الأوائل للدعوة المحمدية .

ثم انتقل مركز النشاط - وعلى يد الامويين - الى دمشق ، فأصبحت هى عاصمة المسلمين ، فيها يقطن الخليفة وخاصة ، واليها ترد السبايا والغنائم ، ومنها تصدر الأوامر والتعليمات .

وحاول الحجاز أن يسترد سلطته بمختلف الوسائل ، ولكن الامويين استعملوا معهم وسائل ارامية ، لا تعرف الشفقة ولا اللين ، حتى استطاعوا أن يكسروا شوكتهم ، وأن يقصفوا جناحه .

امتنع الحسين عن البيعة ليزيه وخرج يريد العراق ، حتى وصل الى الكوفة والتقى بجيش عبيد الله بن زياد والى الكوفة من قبل الامويين بكربلاء ، والتقى الجيشان وقتل الحسين ، ولقتل ابن قيس الشعبي يصف مقتل الحسين فيقول « فغدونا عليهم مع شروق الشمس ، فاحططنا بهم من كل ناحية ، حتى اخذت السيوف مأخذها من هام الرجال ، فجعلوا يلوذون منا بالاكمام والحفر ، كما يلوذ الحمام من الصقر ، فلم يكن الا نحر جزور او نوم نائم حتى اتينا على آخرهم ، فهاتيك اجسامهم مجزرة ، وهامهم مزلة ، وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس ، وتسقى عليهم الريح بقناع سبب ، زوارهم العقبان والرخم » (٧) .

ثم علا نجم ابن الزبير ، فملك الحجاز والعراق ، وباعه أهل مصر ، ومعظم أهل الشام ، حتى ولى الأمر عبد الملك بن مروان فرماه بالحجاج الذى خرج يريد ابن الزبير فى الف وخمسمائة رجل ، وجعل عبد الملك يرسل اليه الجيوش رسلا بعد رسل ، حتى « هزموا ابن الزبير وقتلوه ، وقتلوا معه عبد الله بن صفوان وعمارة بن جزم وعبد الله بن مطيع ، وبعث الحجاج برعوسهم الى المدينة فنصبوها ، فجعلوا يقربون رأس صفوان الى رأس ابن الزبير ، كانه يسارره ويلعبون بذلك ، ثم بعثوا برعوسهم الى عبد الملك ابن مروان » (٨) .

وكان الحجاج طاغية سفاكا ، ممن يحكى التاريخ عنهم انه لم لا يرتوون من الدماء كهولاكو ونيرون ، ابتلى الله المدينة به ، فعبث بانسانيتها ، ولعب باقدارها ، وهتك كبرياءها ، واشاع فيهم الرعب والرهبه ، وجعلهم يكرهون حياتهم ، وقد وجد فى سجنه ثلاثة وثلاثون الفا ، ما يجب على احد منهم قطع ولا قتل ولا صلب (٩) ، ومات فى

(٧) العقد الفريد ٣ / ٢٤٢

(٨) مرجع الذهب ٢ / ١٠١

(٩) أخبار الظراف والمتماجنين ص ٦٨

حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة ، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ، ولم يكن في الحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ، ولا من المطر والبرد في الشتاء ( ١٠ ) .

وقد دافع الانصار عن حقوقهم ، وأضربوا بغضا للأمويين ، واندفع شاعرهم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، يترجم عن حقد أهل المدينة نحو معاوية وأهل بيته ، فجعل يهجو معاوية ويتغزل في ابنته رملة ، إلى أن استعدى يزيد بن معاوية الأخطل على الانصار ، فجعل يهجوهم ويقول :

ذهبت قريش بالسماحة والنسدى واللؤم تحت عمائم الانصار ( ١١ )

وخلاصة سياسة الأمويين نحو الحجاز ، هي كسر شوكتها بكل وسيلة ، والقضاء على عنصر المقاومة ، وتمييع ارادتها وأرغامها على الاستسلام ، فعبثوا بحرماتها ، وانتهكوا أعراضها ، وأهانوا شيوخها ، وقتلوا ثوارها ، وأسرفوا على آل البيت الذين كانت لهم مكانة في قلوب الحجازيين .

وقد أثمرت هذه السياسة ثمرات ، تختلف باختلاف نفسية الشخص ، وتختلف باختلاف الظروف التي تحيط بالشخص .

فمن الحجازيين من اتجه إلى الزهد والعبادة ، ومنهم من استعرض بطولته في العشق والتوله .

ويلوح للوهلة الأولى أن الزهد والعشق نقيضان ، لا يمكن أن يكونا ثمرة عصر واحد وظروف واحدة وبيئة واحدة . ولكن عند أرجاع الأمور إلى مصادرها الأولى ، نجد أنهما نتيجة ظروف واحدة وبيئة واحدة وثمره عصر واحد .

( ١٠ ) مروج الذهب ٢ / ١٥٨

( ١١ ) الشعر والشعراء ١ / ٤٥٦

ففى الزهد نوع من الاستسلام ، والبعد عن الحياة العامة وعن الدنيا والخيرات الجديدة ، وفى العشق ايضا زهد فى الرياسة والجاه وانصراف عن مقاتلة الاقران وعزوف عن المجد والسلطان ، وفيه استعراض بطولة وهمية واطهار كفاءة خيالية ، يستغنى بها الشاعر المتيم عن البطولة التى يظهرها الغراقي المعارض ، والمناضلة التى يبديها الشاعر المقاتل .

ليس هناك تناقض بين الزهد والعشق ، فازدهارهما فى الحجاز كان نتيجة ظروف واحدة متشابهة ، ولهذا لا نعجب حين نقرأ ان من الزهاد من كانوا عشاقا ، كعروة بن اذينة وعبد الرحمن القس .

ولكن العشق اتخذ الواناً فى حواضر الحجاز ، يختلف عن اللون الذى اتخذه فى بواديهما ، وفى الحواضر انتشر الحب الحسى الذى يهتم بالجسد بالدرجة الاولى ، وفى البوادي ازدهر العشق العذرى الذى يتميز بالعفة والانشغال بالعاطفة .

ولا بد ان يكون لذلك اسباب نحاول ان نكشف عنها .

#### عوامل ازدهار الحب الحسى فى حواضر الحجاز :

من المدينة خرجت جيوش المسلمين تفتح بلاد كسرى وقيصر ،  
والى تلك المدينة كانت تعود الجيوش من مواقعها بجر الحقائق بما  
حملته من مغائم وكثور . وان العقل ليدعش أمام تلك الخبرات التى  
صبت فى ججور المسلمين صبا ، فيتحدث الطبرى عن الخبرات التى  
وجدوها المسلمون لما فتحوا فارس ، فيذكر انهم وقعوا على سقطين .  
وجد فى أحدهما فارس كله ذهب مسرج بسرج من فضة ، وعلى لبيه  
الياقوت والزمرد ، وعليه فارس من فضة مكلل بالجواهر ، وفى الآخر  
وجدت ناقة من فضة عليها ثليل من ذهب ، ولها زمام من ذهب ، وكل  
ذلك منظوم بالياقوت ، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر ( ١٢ ) .

وهذه الخبرات التى جلبت الى المدينة ، أضيفت لها خبرات أخرى  
فى العصر الأموى ، فقد كان من سياسة الأمويين - بجانب سياسة  
العنف - تدفق الأموال الى الحجاز ، يريدون بذلك استمالة الحجازيين  
اليهم من ناحية ، وشغلهم بالأموال والخيرات عن التطلع للسلطان والحكم  
من ناحية أخرى . فقد أهدى معاوية عبيد الله بن العباس وهو عنده من  
هدايا النوروز ، حللا كثيرة ومسكا وأنية من ذهب وفضة ( ١٣ ) . وقدم  
عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية فقال له : كم عطاؤك ؟ فقال :  
الف . قال : قد أضعفناها لك . قال : فذاك أبى وامى ، وما قلتها  
لأحد قبلك . فقال : قد أضعفناها لك ثانية ( ١٤ ) . وكان مهر أم كلثوم  
بنت عبد الله بن جعفر حين زوجها من الحجاج ألفى ألف فى السر  
 وخمسمائة ألف فى العلانية ( ١٥ ) .

هذه الخبرات التى تدفقت على شباب الحجاز ، بالإضافة الى

( ١٢ ) تاريخ الطبرى ٣ / ١٢٨ .

( ١٣ ) ثمرات الأوراق ص ٥٦ .

( ١٤ ) العقد الفريد ١ / ١١٠ .

( ١٥ ) المرجع السابق ١ / ١١٠ .



الأموال التي ورثوها عن آبائهم الغالطين ، كونت طبقة ارسقراطية وبيوتات ذات ثراء عريض وصيت ذائع ، وقد ركنت هذه الطبقة الثرية الوارثة الى حياة الدعة والسكون ، لانه اذا حصل الملك - كما يقول ابن خلدون - آثر الناس الراحة على المتاعب ، واستمتعوا بأحسوا الدنيا . ومما ساعد هذه الطبقة الارسقراطية على الاستمتاع انتشار الموالى والجوارى ، وهى طبقة كانت تقوم لسادتها بكل ماتحتاجه ظروف الحياة من كد وعمل وجهد ، فتتيح لها وقتا للتمتع .

#### الموالى والجوارى :

حملت الحروب الاسلامية كثيرا من الأسرى والسيابا الى المدينة ، وقد مات الزبير بن العوام وحده عن ألف عبد وامة (١٦) .

وكانت الموالى - أو معظمهم - يمثلون الطبقة الخادمة ، التى لا يحق لها أن تتناول الى الطبقة العليا ، وكانوا ينهضون بالأعمال المهنية بدلا من سادتهم الأشراف ، فكانوا يقيمون السوق ويعمرون الطوايق على حد قول معاوية (١٧) ، وكانوا يكسحون الطرق ويخرزون الخفاف ويحوكون الثياب على حد قول عامر بن عبد القيس (١٨) ، وقد أتاح هذا فراغا كبيرا للسادة ينفقونه فى بلهنية العيش وزخرف الحياة .

وامتلات الحجاز بالجوارى ، روميات وفارسيات وشاميات وعراقيات ومصريات وحبشيات ومغربيات . وقد كان لهن أثر كبير فى اشاعة الحب الحسى فى الحجاز ، فلم يكن فيهن عفة العربيات ولا اباء الحرائر ، بل كن يتكشفن ولا يجدن فى ذلك غضاضة بحكم مركزهن الاجتماعى ، وقد أقبل عليهن الناس فانهم يجدون عندهن المتعة السهلة واللحظة السعيدة ،

(١٦) مروج الذهب ٤ / ٢٥٤ .

(١٧) العقد الفريد ٢ / ٧٣ .

(١٨) المرجع السابق ٢ / ٧٤ .

وهن أقرب أملا وأقل تحللا ، والظفر بهن أسرع من الظفر بريات الخدود  
 والمحتجبات وراء الستور ، وأنهن مزورات وأولئك معدومات (١٩) .  
 وكان معظم حب هؤلاء الجوارى حبا حسيا ، فهن قد جلبن من  
 بلاد بعيدة ، الى بلاد لا تربطهن بها صلة رحم أو وطن أو قري ، وكان  
 العرب ينظرون اليهن نظرة طمع ، فهن جميلات طبيعات ذليلات ، يتمتع  
 بهن العربى ويجرب معهن أفانين اللذة ، وكن هن ينظرن الى العربى  
 نظرة فيها خقد ، فهم قد فتحوا بلادهم واستولوا على خيراتها ،  
 وساقوهن الى هذه البلاد سوق الأنعام . . . وعلى فرض أنهم قد أحبين  
 حبا صادقا ، فهل هؤلاء الفاتحون المتكبرون يرضون أن تربطهم بهن  
 صلة سوى تلك الصلة الطارئة السهلة ، لاضرير اذن من أن يحب هؤلاء  
 الجوارى ، وإن يحبين حبا نفعيا يعتمد على المادة والمصلحة أولا وقبل  
 كل شيء ، يقول الجاحظ « ان القينة لا تكاد تخلص فى عشقها ،  
 ولا تناصح فى ودها ، لأنها مكتسبة ومجيولة على نصب الحباله والشرك  
 لمتربصين ليقعوا فى انشوطتها ، فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ،  
 وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى اشعار الغناء مما ولهجت باقتراحاته ،  
 ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه والصيانة لسرعة  
 عودته ، والحزن لفراقه . . . » (٢٠) .

#### الغناء :

يبدو أن نوبة أصابت الحجازيين ، فجعلتهم ينسون أنفسهم فى الغناء ،  
 يتقاتلون من أجله ، ويتحمسون له ، ويصرفون الوقت فى الثرثرة حوله ،  
 وهذه النوبة لم تترك صغيرا ولا كبيرا ولا أميرا ولا حقيرا ، ولا رجلا  
 ولا امرأة ، ولا جانا ولا انسا ، الا ومسته بعضاها السحرية .

فتحمس الفقهاء وأهل العلم والورع للغناء ، فمالك ابن انس أراد

(١٩) الموشى ٢ / ١٢٢ .

(٢٠) نواذر الجاحظ ص ١٠ .

أن يلتبس الغناء ، وأن يسلك نفسه في سلك المغنين ، لولا أن أمه  
نصحت به بان يدع الغناء ويطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ( ٢١ ) .

والولة والحكام - حتى الورع منهم - أصيب بهذه النوبة .  
فعمر بن عبد العزيز كان يسمع الغناء هو أمير المدينة ، وكان ربما صفق  
بيديه ، وربما تمرغ على فراشه وضرب برجله طربا ( ٢٢ ) .

ومست هذه النوبة الجمهور والعامه ، فتغنى صباية لرجل لعنا  
لابن سريج فيثب ويحجل ويقول : هذا وأبيكما مالا تعذلاتي فيه حتى دنا  
من الشمعة فوضع لحيته عليها فاحترقت وهو يصيح : الحريق ،  
الحريق ( ٢٣ ) .

ولم يكتف أهل الحجاز بأن تكون هذه النوبة بين الانس ، بل  
أبوا الا أن يجعلوها تتعدى الى الجن أيضا ، فقد زعموا أن الجن افتتن  
بغناء الغريض ( ٢٤ ) .

وكان الامويون يشجعون هذه النوبة ، فقد استغرقت الحجازيين  
حتى أنستهم المطالبية بحقوقهم ، فسلمان بن عبد الملك كان يضع  
المسابقات بين المغنين في الحجاز ، ويمنح الفائز منهم جوائز كبيرة ( ٢٥ )  
وحج مرة الوليد بن يزيد ، فاستمع الى الأجر ، فأهداه فرسا وأربعمائة  
دينار وتحفا من ثياب ووشى ( ٢٦ ) .

أصابت هذه النوبة الحجاز ، فغرق فيها حتى أذنيه ، ولكن المدينة  
كانت أكثر رضا بهذه النوبة ، فهي عاصمة المسلمين السابقين ، وموطن  
المعارضة في أول الامر للأمويين ، والبلد التي صبت فيها كنوز كمرى  
وقيصر ، ووردت اليها آلاف العبيد والجواري ، فهي أسبق المدن العربية

( ٢١ ) الاغانى ٤ / ٣٩ .

( ٢٢ ) إلتاج الجاحظ ص ٣٣ .

( ٢٣ ) الاغانى ١ / ٣١٦ .

( ٢٤ ) تزيين الأسواق ١ / ٤٤ .

( ٢٥ ) الاغانى ١ / ٣١٧ .

( ٢٦ ) الاغانى ٣ / ٣١٠ .

أخذوا بالحضارة الحديثة ، وهى فى الوقت نفسه أصيبت بخيبة أمل مزيرة وفشل ذريع ، فلا أقل من أن تنسى ألامها فى تلك التوبة ، وأن تسكب أحزانها فيها ، ولا عجب أن الطبقة الأولى من المغنين ظهرت فى المدينة ، وبعدها ظهرت طبقة فى مكة وطبقة فى المدينة .

#### الغناء والشعر :

وقد كان للغناء أثر على الشعر وموضوعاته ، فآدى الى انتشار هذا النوع من الشعر الذى يتحدث عن قصة الحب ، وما فيها من لذة ومتعة أو هجر وصدود ، فامتلك الحجاز بهذا النوع من الشعر الذى يدور حول قصة الحب ، وقد سأل الحارث أخاه عمر أن يترك هذا الشعر ، فقال : أما ما دمت بمكة فلا أقدر ، ولكنى أخرج الى اليمن ( ٢٧ ) . وكانت القصيدة هى القصيدة الأولى فى هذا الجو ، وقللت الأغراض الأخرى كالهجاء والمدح التى كانت تشيع فى العراق والشام ، فالحسن رضى الله عنه كان يكره الهجاء حتى فى إبليس ، وقد حاول الفرزدق أن يسمعه هجاءه فى إبليس فابى ( ٢٨ ) .

وقد استطاع الغناء أن يختصر القصيدة من أبيات كثيرة ، تدور حول الرحلة ومشاقها ، وبيت الحبيبة وآثارها ، وصفة المدح وجوده ، الى مقطوعات قصيرة خفيفة راقصة ، تدور حول الحب ومسايله ، وغير ذلك من الصفات التى تجعلها سريعة الحفظ ، وسريعة العلوق بقلوب الناس ، والدوران على السنتهم .

وأثر الغناء على الشعر فى شكله أيضا ، فمال الى اليسر والسهولة ، واختيار اللفظة البعيدة عن التكلف والأغراب ، بل والى التعبير الذى يقرب الى مدارك العامة ويفهمه الناس فى مجالسهم . ولو أن الشاعر

( ٢٧ ) زهر الاداب ٣ / ٢٤٤ .

( ٢٨ ) طبقات الشعراء ص ١٢٦ .

استخدم اللغة التي تميل إلى الجزالة والفحولة والقوة والرياسة كما نرى في لغة المعلقات ، لشاح عنها المعنى لأنها بضاعة لا تروج بين الناس ولا تنفق عند عامتهم ، وخاصة أن المجتمع العربي قد أصبح مجتمعنا خليطاً ، وفيه غير العربي الذي لا يستسيغ لغة المعلقات ، بل أن معظم المغنين من الأعاجم ، فلا بد أن يراعى الشاعر أن تكون لغته مألوفة لدى هؤلاء المغنين ومن ورائهم جمهور عريض . قال الجاحظ « ولاهل المدينة ألسنة ذلقة ، وألفاظ حبيبة ، وعبارات جيدة ، واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من ينظر في النحو منهم غالب ، واللحن من الجوارى الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح أيسر ، وربما استحسّن الرجل منهن ذلك ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف ، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد (٢٩) » .

وقد أتاح الغناء للشعر شهرة واسعة وأعطاه شعبية ، تصل به إلى مختلف الناس في المدينة ، وأصبح مثله مثل الصحف السيارة في أيامنا . تدخل الدور وتصل إلى الكفور ، وهذا من تكالب التمسّاء على أن يذكرهن الشعراء في غزلهم ، فإن هذا سيجلب لهن فرصة للذبيوع والذكر ، توسلت جارية إلى نصيب أن يذكرها في شعره ففعل فخطبت (٣٠) ، وطلب تاجر من الدارغى أن يعلن عن حمرة ففعل فخطبت بعد أن كانت كاسدة (٣١) .

#### الغناء والشعر والقصص :

ومع انتشار الغناء والشعر انتشر الغرام والحب « لأن سماع الغزل والغناء يصور في النفوس نقوش صور ، فتحفر خميرة صورة موصوفة ، ثم يصادف النظر مستحسناً ، فتتعلق النفس بما كانت تطلبه حالة الوصف » (٣٢) . ولهذا ازدهرت القصص التي تروى حول أبطال العشق ، والتي تشيع تفسيراً لآثارها في شعر الغزل .

(٢٩) البيان والتبيين ١ / ٨١ .

(٣٠) الأغاني ١ / ٣٣ .

(٣١) الأغاني ١ / ١٧٣ .

(٣٢) ذم الهوى ص ٢٩٦ .

وكما كان في الحجاز مغنون فالحق الغيت ، وشغراء غزليسون مشهورون ، كان هناك قوم أيضا حذقوا قصص الغشق وحكايات المعبين ، فمعيد يحكى أنه جاء الى مكة ، وأنه التقى بالغريص ، فغنى معبسد للغريص لحنا في شعر جميل ، ثم غنى الغريص لغيد لعنا في شمسعر جميل ، ثم بعد ذلك أراد معبسد أن يعرف خبر جميل وبثينه فقال : « ليتنى عرفت انسانا يحدثنى بقصة جميل وخبر الشعر » فاكون قد اخذت بفضيلة الامر كله في الغناء والشعر » فسأل عن ذلك فاذا الحديث مشهور وقيل له : « ان أردت أن تخبر بمشاهدته فأت بني حنظلة » فان فيهم شيخا منهم يقال له فلان يخبرك الخبر » . فأتى الشيخ فسأله فقص على معبسد قصة رائعة حدثت في الربيع بين جميل وبثينه بمحضر من هذا الشيخ ، وأود أن ترجعوا الى هذه القصة الطويلة في الأغاني ، فان المقام يضيق عن نقلها ، وإنما نقلت هنا تعليق معبسد على هذه القصة « فجزيت الشيخ خيرا وانصرفت من عنده » وأنا والله أحسن حالا بنظرة من الغريص واستماع لغناؤه ، وعلم بحديث جميل وبثينة فيما أنا غنيت به ، وغنى به الغريص على حق ذلك وصدقه ( ٣٣ ) ،

فاذن كانت هناك بجانب الشعر والغناء ، حكايات عن العشاق يطلبها الناس كما يطلبون الغناء ، ويجيدها بعضهم كشيخ بني حنظلة ، وهذه الحكايات تأثرت بالشعر والغناء ، وبالظروف التي مر بها الحجاز في ذلك العصر ، وكانت لها أساليبها الفنية تؤثر بها على الناس ، فيقبلون عليها ويرضون بها حاجتهم الفنية .

ففي ظل تلك الظروف المتحضرة ، لابد وأن تنشأ قصص حب حسية طائفة ، بنتهب فيها الفريقان اللذة على عجل ، ويساعد على هذا أن المجتمع العربى كان يأخذ بحظ من الحرية في علاقة الرجال بالنساء ، ففتيات مكة كن يخرجن الى المتنزهات ومسرح كل واحدة

( ٣٣ ) الاغانى ٣ / ١٣٩ « ساسى » ،

هواها (٣٤) ، وبعض النساء كن يسفرن كعائشة بنت طلحة التي لا تريد أن تخفى الجمال الذي خصها الله به (٣٥) . وكانت هناك مواسم ينتهزها الشباب وينتظرونها للالتقاء بحبيباتهم والتحدث معهم ، ومن أشهر المواسم أيام الحج .

#### أيام الحج والطواف :

يعتبر المسلمون أيام الحج أيام عيد ، تصحبها البهجة والسرور . والعيد الكبير عند المسلمين يوافق أيام الوقوف بعرفات ، وقد أمر الرسول عليه السلام أبا بكر أن يدع الجاريتين تغنيان وتضربان بالدقوف لأن أيام منى أيام عيد (٣٦) .

وكان ظرفاء مكة وشعراؤها وعشاقها ينتهزون هذه الفرصة ، فكان عمر بن أبي ربيعة « يعتمر في ذي القعدة ويحصل ، ويلبس الحلل والوشى ، ويركب النجائب المخضونة بالحناء عليها القطوف والديباج ، ويسبل لثته ، ويتلقى العراقيات فيما بينه وبين عرق محرمات ، ويتلقى المدنيات إلى مر ، ويتلقى الشاميات إلى الكديد » (٣٧) وكان يستصحب معه ابن سريج المغنى ، وقد خرجا يوما على نجيبين ، رحلتاهما ملتبسة بالديباج ، وقد خضبا النجيبين ولبسا حلتين ، فجعلا يتلقيان الحاج ويتعرضان للنساء إلى أن أظلم الليل (٣٨) وكتاب الأغاني ممتلئ بأخبار عمر أيام الحج مع نساء الطبقة العالية ومع غيرهن ، فكان يلتقى بأم محمد بنت مروان ، ويذهب إلى خباء فاطمة بنت عبد الملك ، ويشرب بعائشة بنت طلحة ويتعرض لها ويطوف حولها ، وكان يراها

(٣٤) الأغاني ٢ / ١٧٣ سمي

(٣٥) الأغاني ١١ / ١٧٦ سمي

(٣٦) أحياء الغزالي ٦ / ١٥٢

(٣٧) الأغاني ١ / ٢٢١ ( دار الكتب )

(٣٨) الأغاني ١ / ٢٥٨

سافرة وهي تستلم الركن أو وهي ترمى الجمار ولهذا لم يكن عجبا أن  
يتمنى عمر أن يكون الدهر كله حجا وعمرة : -

ليت ذا الدهر كان حتما علينا كل يومين حجة واعتمارا (٣٩)

وقد رد عليه ابن أبي عتيق ساخرا « لقد كلفت المسلمين شططا »  
فاجابه عمر « ياأبا محمد ، في نفس الجمل شيء غير مافى نفس  
سائقه » (٤٠) .

وكان العرجى أيضا ينتهز هذا الموسم ، فيطلق العنان لغرامياته ،  
ويشيب بنساء المسلمين ، شبيب في جبرة الخزومية زوجة محمد  
ابن هشام فقال :

عوجى على ، فسلمى جبر	قيم الصدود وأنتم سففر
مانلتقى الا ثلاث منى	مالدهر الا الحول والشهر (٤١)
الحول بعد الحول يجمعنا	حتى يفرق بيننا نفر
وشيب بام محمد بن هشام فقال :	

عوجى علينا ربة الهودج	انك ان لاتفعلى تحرجى
انى اتيحت لى يمانية	احدى بنات الحارث من مخرج
تليث حولا كاملا كاه	مانلتقى الا على منهج
فى الحج ان حجت وماذامنى	واهلك ان هى لم تحجج (٤٢)

(٣٩) الاغانى ١ / ١٦٧ .

(٤٠) مصارع العشاق من ٣٥٨ .

(٤١) الاغانى ١ / ٤٠٨ ( دار الكتب ) .

(٤٢) الاغانى ١ / ٤٠٧ ( دار الكتب ) .



كثرت المطارحات الغرامية اذن ايام الحج وكان بعض الفسوة  
ينتهرن الفرصة ليظهرن قوة تأثيرهن ، قال العرجي :

من اللاتى لم يحجبن ببغين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلا (٤٣)

وقد هال خالد بن عبد الله القسري وكان واليا على مكة ، ما يحدث  
بين الرجال والنساء ايام الطواف ، عقد بلغة قول الشاعر :

ياحبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد  
وحبذا اللاتى تزاحمتنا عند استلام الحجر الاسود  
فقال خالد : اما انهن لايزاحمنك بعدها ابدا ، ثم امر بالتفريق  
بين الرجال والنساء فى الطواف (٤٤) .

وبعد ، فليس بعجيب أن يزدهر الحب الحسى فى ظل تلك الظروف  
حاضرة قد تدفق اليها المال ، وغزاها الترف ، وشعشت فيها الحضارة ،  
وملاتها الجوارى الجميلات ، وانساب فيها الغناء ، وعطرها الشعر .  
حاضرة شأنها هذا وقد أتيح لها نصيب من الحرية فى علاقات الرجال  
بالنساء .

ثم أريد لها أن تبتعد عن مسرح النشاط السياسى وأن تعزل عن  
الحياة العامة ومجريات الأمور .

وقد كانت صاحبة سلطان وحول وطول ، فاغتصب كل هذا منها  
اغتصابا ، وحاولت أن تسترد حقوقها ، فاصيبت بخيبة الأمل وبحسرة  
الندم .

حاضرة هذا شأنها ، لابد أن تعوض عن بطولاتها الماضية ببطولات  
جديدة ، مستمدة من ظروفها ومن واقعها وامكانياتها .  
وقد كان ... فنجم فيها امثال عمر بن أبى ربيعة .

(٤٣) الاغانى ١٢ / ١٣٩١ سالى

(٤٤) مروج الذهب ٢ / ١٦٢

### عوامل ازدهار العشق العذري في البوادي الجحازية :

#### البيئة :

الصحراء بيئة لطيفة الهواء عليلة النسيم ، سماؤها صافية ونجومها زاهرة يتلألأ فيها القمر فيزيدها حسنا وبهاء ، وتجرى فيها الطبيعة على سجيته ، فيحن فيها الطير الى اليقه ، ويسكن فيها الحيوان الى انشاء ، ويتعاطف الانسان مع الطبيعة من حوله ، فيقفو الى ان يحسن الى الفه ويسكن الى انشاء .

وهذا الجو النقي والطبيعة الفسيحة ، متحتا بنات البادية جمالا وصباحة ، وقد سئل كثير من العذريين عن سبب هذه العاطفة الجياشة ، فارجعوها الى مافى بناتهم من جمال وجاذبية ، قال رجل من بني فزاره لرجل من عذره . تعدون موتكم من الحب مزية ، وانما ذلك من ضعف البنية ووهن العقيدة ، فقال العذري : اما لو انكم رايتم المحاجر البلج ، ترشق بالاعين الدلج ، من فوقها الحواجب الزج ، والشفاه السمر ، تفتر عن الثنايا الغر ، كأنها سرد الدر ، لجعلتموها السلات والعزى (٤٥) « .

ويبدو ان تلك الطبيعة تضيف على ابنائها الحساسة واللامحية والتنبيه لادق الامور ، وقد عقد ابن عبد ربه كتابا لكلام الاعراب (٤٦) ، ولو طالعت هذا الكلام فسيصافحك فيه ذكاء وحساسية ونفس وقادة تنبيه للأشياء الدقيقة وتتطلع الى المثال ، ومن ثم كانوا يتوقعون من العاشق العذري ان يكون بعيدا عن التوافه والاشتغال بالأمور الدنيا ، عن المعنى السامى الدقيق ، فكانوا ينكرون عليه ان يكون بطنا يشغله الاكل عن تلك العلاقة السامية ، فقد اضاف جميل بثينة رجلا وخبز له خبزاً ،

(٤٥) مصارع العشاق ص ١٦

(٤٦) العقد الفريد ٢ / ٧٥ - ١٠٣ .

فجعل الرجل ياكل ويتحدث عن بنت عم له يحبها حتى أتى على  
الخبزة ، فقال جميل ،

وقد رابنى من جعفر أن جعفرأ يلح على قرصى ويبكى على جمل  
فلو كنت عذرى العلاقة لسم تكن  
بطنا ، وأنساك الهوى كثرة الاكل (٤٧)

والبادية بما فيها من نظام قبلى يعتمد على السلب والنهب ، قد  
صبغت نفوس كثير من شبابها بصبغة الفارس ، ففتى البادية هو الفتى  
الشجاع الذى يسارع الى الدفاع عن القبيلة وصون أعراضها والذب عن  
أحسابها . والفارس - عادة - شهم صادق فى حبه مخلص لعواطفه ،  
قوى فى الحروب ومناولة الاقران ، ولكنه ضعيف امام معشوقته يذل  
ويتضرع لها ، ومن ثم نجد المرأة محترمة فى تلك البيئة فهى شقيقة  
الرجل ، (٤٨) وهى التى يستفتح بها الشاعر قصائده ، ويبكى عند  
آثارها ويستوقف أصحابه ليبكوا معه .

#### الفراغ :

وفى تلك البيئة لم يكن هناك مايملا حياة العربى ويشغله فمعظمهم  
رعاة يقضون يومهم فى التسكع وراء الابل والأغنام ، وهذا يتيح لهم  
فرصة لكي يخلدوا الى أنفسهم ، ويمثلوا حياتهم بالحديث عن المرأة  
وما تثيره من غرام ولوعة ، وقد أدرك ذلك خالد بن يزيد بن معاوية ،  
فقد حج مرة مع عبد الملك ، فبينما هو يطوف بصر برملة بنت الزبير  
فعثقها عشقا شديدا ، جعل عبد الملك يتعجب ويقول له « ماكنت أقول ان  
الهوى يستأثر منك » فقال خالد « وائى لأشد تعجبا من تعجبك منى ،  
ولقد كنت أقول ان الهوى لايتمكن الا من صنفين من الناس : الشعراء

(٤٧) مصارع العشاق ٢٠٤ .

(٤٨) مجمع الامثال ١ / ٢٥ .

والأعراب . فاما الشعراء فأنهم الزموا قلوبهم التفكير في النساء والغزل ، فمال طمعهم الى النساء ، فضعت قلوبهم عن دفع الهوى ، فاستسلموا اليه منقادين . وأما الأعراب فإن أحدهم يخلو بامراته فلا يكون الغالب عليه غير حبه لها ولا يشغله شيء عنه ، فضعفوا عن دفع الهوى فتمكن منهم « (٤٩) » .

فأذن بيئة بدوية ساذجة ، لا يشغل أهلها ترف الحضارة ولا جعجة المدينة ، وفتيات جميلات صبيحات ، وحساسية مرهفة تتنبه للامور الدقيقة السامية وتتعد عن التوافه العارضة .

وقد أتيح لها قدر من الفراغ ، يجعلها تسكن الى نفسها وتقلب عواطفها ، بيئة هذ حالها لا بد أن تتعلق بالمرأة وتهتم بها .

فإذا أضيفت الى ذلك تقاليد البادية كانت النتيجة ذلك العشق العذري .

#### تقاليد البادية :

فنظام البادية يقوم على المنعة والحفاظ والبقاء فيها للاقوى ، الذى يستطيع صيانة مايحميه ، ويستطيع الدفاع عن أهله وعشيرته من اعتداء المغيرين وسلب الناهبين .

والمرأة من أهم الأشياء التى يحرص عليها البدوى ، اذ هي عنوان قوته وشدة منعته ، فلو فرط فيها لكان معناه انه رجل مستباح ، لا يرد كيد عدو ولا يدفع غارة مغير .

ولهذا حرص عليها العربى ، وحاول أن يدافع عن سمعتها ما استطاع ، فكانوا يمنعون بناتهم أن يتزوجن ممن شيب بهن وقال عنهن شعرا ، وما مأساة المجنون وأمثاله الا بسبب شعرهم ، الذى افصحوا فيه عن عواطفهم .

(٤٩) ذم الهوى ص ٦٧

هناك عوامل بيئية وغريزية دفعت البدوى الحساس ، الى أن يحب ويتعلق بمحبوبته ، ثم يريد أن يقضي معها وطرا ، فاذا به يصدم بقيود وتفرض عليه تقاليد ، تحول بينه وبين هواه ، وتفرض عليه الحرمان ، فيحاول البدوى أن يستعيز عن ذلك بالتقني بحبيبه وترديد اسمها ، ومخاطبة الحمام والجبال ، والشكوى والبكاء والاستكاء ، عسى أن يصل الى شىء يخفف من حرارة الحب ويطفىء نار الوجد ، ولكن هيهات ، فان التقاليد التي تنبع من ظروف القبيلة ، تحول بينه وبين ذلك . فمن ثم اشتهرت البادية بالحب العفيف ، الذي يقنع - فى ظل تلك الظروف - بالقليل ، واصبحت العفة عندهم ديناً يجب الخضوع له ، وتقليداً ينبغى احترامه وعدم تخطيه ، قيل لأعرابي : ماتفعل ان ظرفت بمحبوبتك ؟ قال : امتع عينى من وجهها ، وسمعى من حديثها ، واسترمنها ما يحرم كشفه الا عند حله « (٥٠) .

## الباب الثاني

الفن في قصص العشاق

( م ١١ - قصص العشاق )



القصة القصيرة الفنية من أصعب الأشكال الأدبية ، وتحتاج الى خبرة خاصة وذوق خاص .

وهي أشبه بالقصيدة الشعرية ، يجب أن تكون لها وحدة عضوية ، وأن تكون كالجسم الواحد للإنسان ، يؤدي وظيفة واحدة . وكل جزء من أجزائه يؤدي اختصاصه ، مساهما بذلك في الوظيفة الكلية للجسم ، فالألفاظ والأساليب اللغوية والحوار ، والتصوير كل يساعد على إبراز المعنى الكلى للقصة .

والقاص ينتبه لأمور حيوية في القصة . تساعد على نموها واكتسابها الحركة ، كالتشويق ، والعقدة ، والصراع ... الخ .

والقصة القصيرة ، ينبغي أن يتحقق فيها مايسميه « بـو » بالكلية Totality أي يكون لها أثر كلى ، ويترتب على ذلك مايسمى بوحدة الانطباع Unity of Impression أي أن يحس القارئ - بعد الانتهاء منها - باحساس واحد معين . ولهذا يرى بعض النقاد أن القصة القصيرة ، يتحقق فيها غالبا الوحدات الثلاث الأساسية التي تتحقق في الشكل المسرحي الفرنسي ، والذي يظهر في فعل واحد ، في مكان واحد ، وزمان واحد ، والقصة القصيرة تقتصر على بطل واحد ، وحادثة واحدة ، وانفعال أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد (١) .

ولهذا يجب أن يحرص القاص على توفر عنصر التركيز ، فيجب أن تكون قصته مضغوطة فنيا ، وأن يكون لكل لفظة مكانها ومهمتها ، فإذا أمكن الاستغناء عنها ، يجب أن تطرح ، ولو كنت من المغرمين بالقواعد ، لقلت : كل مالا ينفع في القصة فهو يضر .

والإيجاز في القصص الفنية ، ليس مجرد اختصار أو عملية اختزال Brevity ، فلو أنني لجأت الى رواية طويلة Novel ولخصتها

Encyclopaedia Britanica (short story)

(١) انظر :



فى صفحة أو صفحتين فلن يعتبر هذا الملخص قصة قصيرة . وانمسا  
الايجاز هنا أمر تلقائى محض ، أى هو شىء من طبيعة القصة القصيرة ،  
ومن جوهرها ، ولابد للقاص قينه فهو نتيجة حتمية لمغنى الكلية فى  
القصة ، ولوحد الانطباع ، واختيار موقف واحد من مواقف الحياة .  
وقد ترددت كثيرا فى اطلاق كلمة « فن » على هذا النوع من القصص  
التي نحن بصدها .

فكثير من هذه القصص ، مجرد اخبار وأحاديث لا قيمة لها من  
الناحية الفنية ، أو مجرد مجموعة مواقف ، أو اذا أردنا أن نقارب معنى  
القصة كما هى فى القواميس العربية مجموعة حالات أو أمور . وليس  
هناك رابط لهذه الحالات ، الا ادماجها تحت اسم واحد ، هو قيم مرة ،  
وجميل ثانية ، وعزوة ثالثة . فالشخصية هنا هى الوحدة التي تربط  
القصة .

وأشياء كثيرة محشورة فى هذه القصص من الممكن الاستغناء عنها ،  
ولافائدة منها ، كان يقف القاص فى هذه القصص ، ليفسر كلمة لغوية ،  
أو يجره الاستطراد الى أمور أخرى ، ذات انطباع مخالف لانطباع الحادثة  
التي بدا بها .

ولعل أقرب شىء الى هذه القصص ، هو أن نشبهها بالحوادث التي  
تنشر فى الصحف اليومية ، ولا يعنينا الفن فى شىء ، كما يعنينا القاء  
الخير الى القارىء .

ترددت فى اطلاق كلمة « فن » على هذه القصص ، ولكن عند  
التريث وجدت أنه لا ينبغي أن تتطلب من قصص العشق العربية ، ذلك  
المعنى الذي نجده عند Poe ومن بعده ، فهذا قصر للتاريخ ، ومطالبتة بما  
ليس من مقدوره .

وليس هذا الثوب الذي ظهرت به القصة فى العصر الحديث ، هو  
الذي فقط يرشحها للدراسة العلمية ، وللكشف عما فيها من جوانب فنية ،

فإن العلم ليس ذا نزعة « أرستقراطية » يشترط مستوى معيناً للدراسة ، بل تغريه كل المظاهر ، وتجذبه كل المستويات ، فهو - كما يدرتن القصة المستكملة للشروط الفنية - يدرس أيضاً القصص التي لم تستكمل هذه الشروط ، ويبين ما فيها من بذور فنية ، والأسباب التي قعدت بهذه البذور عن النمو والتكامل .

وكما أن هناك دراسات كثيرة وقيمة حول فن الخبر الصحفي ، وما ينبغي أن يتحقق له من هيئة خاصة تؤثر على القارئ ، وتثير انتباهه وتجذبه إلى الصحيفة - فلا مانع من أن تكون هناك دراسات ، يبدل فيها الجهد لبيان ما في قصص العشق من بذور فنية ، كالتشويق والصراع والعقبة ، وغير ذلك مما كشف عنه الفصل الثاني من هذا الباب .

ولعل لا أبعد لو قلت : أن هناك نوعاً من القصص ، له شكله الخاص شاع بين الناس وحرصوا عليه ، وكان له قصاصه الذين يرجع إليهم الناس ، وله كتبه الكثيرة التي ألغت فيه ، ودرس معظمها فلم يصل إلينا .

وقد حرص الناس على هذه القصص ، وأخذوا يفتشون عنها ، ويرجعون إلى « أهل الذكر » ليقيضوا لهم فيها ، فعبد الملك بن مروان يسأل كثيراً عن أعجب خبر له مع عزة ، فيقص عليه قصة فيها غرابة وطرافة (٢) . ويدخل نصيب على يزيد بن عبد الملك ، فيقول لسه « حدثني يانصيب ببعض ما مر بك » فيقص عليه قصة حبه لجارية خطيبها ، فأبت أن تتزوجه لسواده ، ثم رأت أن الشعر والمال يغطيان على السواد ، فتزوجته (٣) . ويدخل على عبد العزيز بن مروان ، فيسأله هل عشقت قط ؟ فيقص عليه قصة عشقة لامة من بنى مدلج (٤) ويقف الناس

(٢) الأغاني ٩ / ٢٩ « دار الكتب » .

(٣) المرجع السابق ١ / ٥٤ .

(٤) المرجع السابق ١ / ٣٧٥ .

ببواب بعض الولاة ، ويطول وقوفهم ، ويصيبهم الضيق ، وإذا بأعيرابي  
ظريف يتغلب على هذا الضيق ، فينادى « من أراد أن يسمع العجائب ،  
فليدن منى » فيقص عليهم قصة حبه لام جحدر ( ٥ ) .

فكثير ، ونصيب ، وهذا الأعيرابي ، ما هم الا أفراد من تلك الفئة  
التي عندها كثير من هذه القصص ، يسألهم الناس عنها .

وهذا الباب متخصص في الكشف عن هذه القصص ، وبيان مافيهما  
من أغراض ، ومن بذور فنية ، كالتشويق والصراع ، وغير ذلك من عوامل  
قد تهيأت لها .

وقسسته الى أربعة فصول : تحدثت في الفصل الاول عن أغراض  
هذه القصص ، وما كانت تحمله من أشياء يريد القاص أن يوحى بها  
الى الناس . ودرست في الفصل الثانى هذه القصص دراسة جزئية ،  
فبينت معالمها ، وأشرت الى مافيهما من بذور فنية . والفصل الثالث كان  
لدراسة تطور هذه القصص ونموها ، والمقارنة بين القصص وإبراز عنصر  
الأثر والتأثير . والفصل الرابع كان بمثابة دراسة كلية لنماذج من هذه  
القصص ، أوردتها ، وحللتها ، وقارنتها بغيرها ... الخ .

وقد تعمدت أن أورد في الفصل الاول ، وفي الفصل الرابع نماذج  
كاملة من هذه القصص ، حتى يتبين القارئ هذه القصص بنفسه ،  
ويضع عليها يده ، ويقتنع أن بعض هذه القصص لم تكن خبرا تاريخيا ،  
يراد منه أن يؤدي المعنى فى جملة أو جملتين ، بل كانت بعض هذه  
القصص تطول ، وتريد أن ترضى حاجة أدبية ، أكثر مما تريد أن تكشف  
عن حالة تاريخية .

## الفصل الأول

### أغراض قصص العشق

ربما كان لبعض هؤلاء العشاق وجود تاريخي ، فقد يكون التاريخ شاهد يوما عمر بن أبي ربيعة ، أو قيس بن ذريح .

على أن الذي أشك فيه هو تلك الحكايات والأساطير التي دارت حولهم ، فإن عقل المؤرخ لا يستطيع أن يضيف على هذه القصص ، صفة الصدق الواقعي والوجود التاريخي .

وكل ما هنالك أن هذه الأسماء اشتهرت وذاعت ، فانتقلت من مجال الدلالة على شخصية بعينها ، إلى مجال الرمز لأشياء ، يحكيها الناس ويقصون حولها الغرائب والمخترعات ، أنشد ابن المولى لنفسه .

وابكي ، فلا ليلي يكت من صباة الى ، ولا ليلي لذي المود تيزل  
واخنع بالعتبي ، إن كنت مذنباً وإن أذنبت ، كنت الذي اتنصل

فقال له أبو السائب ، وعبيد الله بن مسلم بن جندب : من ليلي هذه حتى نقودها اليك ؟ فقال لهما : ماهي والله الا قوسي هذه ، سميتها بليلى ( ١ ) .

وبعض الشعراء قد اعترف بأن هذه الأخبار من خياله واسترساله ، فحين وقفت ليلي الأخيلية ، على قول توبة :  
قلما دخلت الخدر أطبت نسوعه وأطراف عيدان شديد سيورها

( ١ ) الأغاني ٣ / ٢٨٩ « دار الكتب » .

غضبت وامسكت عن كلامه برهة ، فتوسل اليها ، وعرض عليها :  
 انه سيسقى نفسه السم ان لم تكلمه ، فجمعت ثلاثة من أهلها ، بحيث  
 يخفون عليه ، فلما آنسته قالت : اى خدر دخلت معى ، حتى تقول  
 ماتقول ؟ فقال : هذا استرسال شعراء ثم ذكر لها أمثال ذلك ، وتنصل  
 ففرحت بسماع أهلها ذلك ( ٢ ) . ومعاوية ابن أبى سفيان كان يدرك  
 أيضا تزيد خيال الشعراء والقصاص ، فحين شاعت قصة أبى دهبيل مع  
 عاتكة ، استدعاه معاوية وسأله وعن ذلك فتبرا منه ، فقال له معاوية ،  
 أما من جهتي فلا خوف عليك ، لاني أعلم صيانة ابنتي نفسها ، وأعلم أن  
 فتيان الشعراء لم يتركوا ان يقولوا فى النسب فى كل من جاز ان يقولوا  
 فيه ( ٣ ) .

وكثير من القدماء لم يطمئنوا الى هذه الاخبار ، فداود الانطاكي  
 يذكر ان بعض اخبار قيس لم تصح عنده ، مثل خبر قبضه على الجمر  
 بكلتا يديه حتى احترقتا ، ومثل خبر ذهابه الى ليلي يقترض منها سنا  
 فخرجت اليه بنحى ، وجعلت تسكب فى وعائه ، وهما يتحادثان حتى  
 غرقت أرجلهما ، وخبر مجيئه ليلي يقتبس نارا ، فكان يتحدث معها  
 ويقطع من يرد عليه ، يعلف النار ، وكلما احترقت قطعة أخذ أخرى .  
 حتى صار عريان ( ٤ ) . وأبو الفرج يذكر قصة حب لجارية ، التقى بها  
 الاحوص ومعبد على غدير وكانت تنشد شعرا للاحوص ، ثم يعقب  
 على ذلك بقوله : وليس يشبه الشعر شعر الاحوص ، ولا هو من  
 طرازه ( ٥ ) .

وهذه الاخبار كان سبيلها اليها الرواية والرواة .

والرواة لم يكونوا يتحرون الدقة فى أمثال هذه الاخبار ، التي

( ٢ ) تزيين الاسواق ١ / ١٧٧

( ٣ ) الاغانى ٧ / ١٢١ « دار الكتب »

( ٤ ) تزيين الاسواق ١ / ٦٦

( ٥ ) الاغانى ٢١٨ - ٢ « ساسى »

يقصد بها الى التسلية والظرف واطراف العامة ، واليك مثالا على أنهم لم يكونوا يتحرون الدقة والتحديد ، فاننا نعرف أن قيساً لم يكن ابن عم لبني ، بل أن اباه عارض في تزويجه منها ، لأنه يريد أن يزوجه إحدى بنات عمه (٦) ، ولكننا نقرا ما يفيد أن لبني كانت ابنة عم فليس ، فقد دخل عليها زوجها ، وهي تمسك بغراب ، وتتشد شعرا فسألها عن ذلك ، فقالت : « دعاني أن ابن عمي وحبيبي قيسا ، امرهن بالوقوع فلم يقعن » (٧) .

وكان الرواة حين أرادوا جمع اللغة ، ومعرفة أخبار العرب ، يشافهون الاعراب ، وينقلون عنهم ، وكان الاعراب يعرفون شغف هؤلاء بهذه الاخبار وشدة ولعهم بها ، فكانوا يتزيدون عليهم ، ويختلقون لهم الحكايات ، ليروجوا بضاعتهم ، وليحسوا في أعين هؤلاء الرواة ، فحين ورد داود بن متمر بن نويرة الى البصرة جعل أبو عبيدة وابن نوح يسألانه عن شعر أبيه ، فلما فرغ داود من رواية شعر أبيه ، وكره أن تنقطع عنه الرواية ، أخذ يضع على أبيه مالم يقل (٨) ، وحماة الرواية كان يكذب ويتزيد في أخباره (٩) .

على أن الأمر لم يقف عند تكذيب الاخبار قيلت حول فريق من الشعراء المشهورين ، بل تغداه الى نفي شخصيات بعينها ، حيكت حولها أخبار كثيرة .

فقيس ذلك المجنون الذي اشتهر أمره بين الناس ، ينكره فريق من الناس كالاصمعي (١٠) . وقد نفى عامري أن يكون قيس من قبيلتهم

(٦) تزيين الاسواق ١ / ٥١

(٧) مصارع العشاق ص ٧٧

(٨) طبقات الشعراء ص ٢٣ « السعادة »

(٩) المرجع السابق ص ٢٤

(١٠) الاغانى ٢٢ « دار الكتب »

المعروفة بالجلد ، وأنمسا تموت من الحب هذه اليمانية الضعيف  
القلوب (١١) . ومن الرواة من يزعم أن هذا الشعر لفتى من بنى مروان  
كان يهوى ابنتهم له . وكان يكره أن يظهر ما بينهما فاستترورا هذا الاسم ،  
ونظم كل الأشعار التي تنسب إلى المجنون (١٢) والأصمعي يقول .  
« رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر  
وابن القرية ، فأنهما وضعهما الرواة » (١٣) .

واشتهرت هذه القصص بين الناس ، ولقيت رواجا واسعا عند  
العامة فانطلق كثير من المؤلفين ، يرضون هذه الحاجة العارمة ، وجعلوا  
يكتبون كتباً عن هؤلاء العشاق ، فظهرت أسماء لمؤلفين ، ألفوا حول  
هذه الأخبار مثل عيسى بن داب . وهشام الكلبي . والهيثم بن عدي .  
وغيرهم (١٤) .

وقد أورد ابن النديم ثبوتا بتلك الكتب ، فذكر تحت عنوان « أسماء  
العشاق الذين عشقوا في الجاهلية والإسلام وألف في أخبارهم » ، نحو  
من اثنين وأربعين كتاباً . وذكر تحت عنوان « أسماء العشاق الذين  
تدخل أحاديثهم في السمر » نحو من ثمانية وثلاثين كتاباً . وذكر تحت  
عنوان « أسماء الحياثب المتطريفات » نحو من اثني عشر كتاباً . وذكر  
تحت عنوان « أسماء العشاق من سائر الناس » ، نحو من ثمانية  
وعشرين كتاباً . وذكر تحت عنوان « أسماء عشاق الأنس للجن وعشاق  
الجن للأنس » ، نحو من ستة عشر كتاباً . ثم ختم هذا بقول محمد  
ابن اسحاق : « كانت الأسمار والخرافات مرغوباً فيها مشتبهة ، أيام  
خلفاء بني العباس : سيما في أيام المقتدر . فصنف الموراقون وكذبوا ،  
وكان ممن يفعل ذلك رجل يعرف بابن دلان . واسمه أحمد بن دلان ،

(١١) مصارع العشاق ص ١٧٨

(١٢) الأغاني ٢ / ٤ « دار الكتب »

(١٣) المرجع السابق ٢ / ٣

(١٤) الفهرست ص ٣٢٥

وَأَجْرٌ يُعْرَفُ بَابِنِ الْعَطَارِ وَجَمَاعَةٍ (١٥) . ودعبل بن علي الخزاعي يذكر أنه كان بالكوفة رجل من بني أسد ، عشق جارية لبعض أهل الكوفة ، فتعاطم أمره وأمرها فكان يقول فيها الشعر ، وذكر بعض أهل الكوفة أنه مات من حبها ، وضعوا له كتاباً في ذلك ، مثل كتاب جميل وبثينة ، وعفراء وعروة ، وكثير عزة « (١٦) » .

وكل ذلك لايهمني في شيء ، لايهمني أن يكون لهذه القصص صدق واقعي ووجود تاريخي ، فقد يهم هذا رجلاً مؤرخاً ، أما بحتى هذا فأننى أتجاوز ذلك الى أمر آخر .

وكل ما أريد أن أقوله : ان عصراً وجد ، له ظروف خاصة ، سياسية واجتماعية ، واقتصادية ، وان هذه الظروف اثرت في الادب العربى ، اثرت في الشعر ، فكثير هذا النوع من الشعر الغنائى ، الذى يملأ أرجاء الحجاز ، واثرت في النثر فازدهر هذا النوع من القصص ، الذى انتشر بين العامة ، ووضع فيه المؤلفون الكتب والاوراق .

لايهمني أن يكون قيس أو جميل أو عروة ، قد وجدوا تاريخياً ، وانما الذى يهمنى فى بحثى أنهم شخصيات قصصية ونماذج بشرية ، وأنهم نتاج بيئة واحدة ، وظروف متشابهة ، ولهذا تشابهت أخبارهم ، واختلف الرواة فى اسناد القصة لاي منهم ، هل هى لقيس بن الملوح ، أو قيس بن ذريح ، أو قيس بن جعد ، أو هل هى لعروة بن حزام ، أو عروة بن قيس . ولو أراحونا لذكرنا أن هذه القصص - أو معظمها - لعاشق وجد فى بيئة الحجاز . وكاد بعضهم يقع على هذا التعريف الشامل حين صرح بان المجنون « لم يكن أحد وانما امرؤ تعشق ، واستكبر عن أن يصرح باسمه واسم محبوبته ، فموه بالمجنون وليلى » (١٧) .

(١٥) الفهرست ص ٤٣٦ - ٤٢٨

(١٦) مصارع العشاق ص ٣٣٤

(١٧) تزيين الاسواق ١ / ٦٢



وبعضهم قرب من هذا فزعم أن هذا الشعر كان لغنى من بنى مروان «  
وكان يهوى أبته عم له ، فاستتر وراء هذا الاسم ونظم كل الأشعار التي  
تنسب إلى المجنون (١٨) » . ولو أن هذين تقدما خطوة أخرى ، فقالا  
أن هذه القصص الكثيرة لحجازيين ، عاشوا في ظروف خاصة فاستتروا  
وراء هذا الاسم أو ذاك ، فكانت تلك القصص - لو أنهما فعلا هذا لأصابا  
الأمر الذي أريده .

وخلاصة ما أعنيه أن اسم المجنون ، أو قيس لبنى ، أو عروة ،  
ماهى إلا رموز تشف عن حالة خاصة . أما الاستدلال بأن أشعار قيس  
تدل على وجوده ، والاستعانة بأبحاث « فرويد » حول اللاشعور ، وبأن  
فى أشعاره ما يقطع باستخراجه فى تجربته ، وأصالته فى تعمقه  
فى الصورة اللاشعورية ، التى تدل على صدق شخصيته ، واهتمامه الى  
معان دقيقة لايهتدى اليها إلا من عاش مثل هذه التجربة القاسية التى  
وصفتها لنا أخباره وأشعاره - أما الاستدلال بأن هذا يدل على وجود  
قيس كما فعل الدكتور غنيمى (١٩) . فأننى أريد أن أوسع من دائرة  
هذا الاستدلال ، وأجعله يدل على وجود عاشق عذرى ، عاش فى العصر  
الأموى ، استتر وراء هذا الاسم أو موه بالمجنون وليلى ، ولا أريد  
أن أجعله يدل على وجود شخص بعينه ، أو بعبارة أكثر اختصارا : يدل  
على « شئ » منتشر ، لا على « شخص » معين .

وأكرر مرة أخرى لن أسلك فى معالجة هذه القصص ، مسلك رجل  
التاريخ فأتطلب منها الصدق الواقعى ، والوجود التاريخى ، وإنما أسلك  
مسلك باحث الأدب ، فانظر ما فى هذه القصص من دلالات أدبية ،  
وأشارات فنية .

وعلى ذلك فلن أنظر الى كتاب « الأغاني » أو « تزيين الأسواق »

(١٨) الأغاني ٢ / ٤ ( دار الكتب )

(١٩) الحياة العاطفية ص ٤٩

مثلا ، على انهما كتابا تاريخ أولا وقبل كل شيء . بل سأنظر اليهما  
على انهما كتابا ادب أولا وقبل كل شيء . وربما كانت هذه النظرة هي  
التي ارادها المؤلفان ، فالانطاكى يرى أن الغرض من كتابه هو اراحة  
النفس بالآخبار ، ولطائف الحكايات والاشعار ، حتى تنشط وتعود الى  
المطلوب منها خفيفة من كل الوصب والنصب ، وأنه حين اغترب بمصر ،  
وأصبح لايجد - وهو الغريب - من يؤنس ، رأى أن يريح نفسه فيمتطى  
غارب الادب ، ووقع اختياره على اختصار أسواق الاشواق ( ٢٠ ) .  
وأبو الفرج يتحدث في مقدمة كتابه عن منهجه ، وأنه لم يرد ترتيب  
الكتاب على طبقات المغنيين ، أو طرائق الغناء « وإذا كان هذا هكذا  
فما رتبناه احلى واحسن ، ليكون القارئ له بانتقاله من خبر ، الى  
غيره ، ومن قصة الى سواها ، ومن اخبار قديمة الى محدثة ، ومديك  
الى سوقة ، وجد الى هزل انشط لقراءته واشهى لتصفح فنونه » ( ٢١ ) .

فاذا كنت لاأريد من قيس أو غيره شخصيته التاريخية . ، وانما أريد  
شخصيته القصصية الأدبية فاننى اطرح السؤال الآتى .

هل كان لهذه القصص اغراض ، أو أنها خبط عشواء تنبت كنبات  
الصحراء بدون غاية مرسومة . أو هدف معلوم ؟

( ٢١ ) الاغانى ١ / ٤ « دار الكتب »

( ٢٠ ) تزيين الاسواق ص ٣

#### قصص لتفسير أبيات شعرية :

عرفنا فيما سبق أن الغناء تردد في أرجاء الجزيرة العربية وأنه ملا أركانها ، فلم يدع شيخا ورعا ، ولا حاكما حازما ، أو امرأة محجبة ، إلا وقد مسه هذا الطائف .

وقد أدى الغناء بدوره إلى شيوع الشعر الغنائي ، الذي يبدى ويعيد في قصة الحب ، فغلب على الحجاز في ذلك الحين هذا النوع من الشعر . ولم يترك مكانا مرموقا لشعر الهجاء ، أو تصيبا موقورا لشعر المديح أو لشعر السياسة ، حتى أن بعض المشايخ المحافظين كابن الأسود الدؤلي وبعض الزهاد الورعين كالقاس ، كانت لهم أشعار تغنى ، ويلحن فيها . وشاع هذا الشعر بين طبقات الشعب ، حتى رأينا عجوزا تحفل روث البهائم تنتقد أبياتا لكثير ، وتفضل عليه امرأة القيس فيرشوها بمطرقة .

وفي بعض هذه الأشعار بذور حكايات وقصص ، كان يذكر الشاعر ليلة التقى فيها بحبيبته ، ومالقي من الصغاب . وحين انتشرت هذه البذور وتلك الاشارات ، أراد الناس أن يفسروها ويشرحوها ، فاختلقوا حولها القصص والحكايات التي تفسر الأبيات وتصل بعضها ببعض .

وهذا يكشف لنا عن السر الذي نلاحظه في بعض القصص ، إذ يلاحظ أن أشعارها جيدة وقوية ، وأن هيكل الحكاية في درجة أقل جودة وقوة . وتفسير ذلك سهل ، وهو أن تلك الأشعار أنشدها شعراء معروفون ، قد وهبوا تلك الطاقة الشعرية ، ووقفوا أنفسهم على السمو بهذه الموهبة ، فهم من طبقة الخاصة أما واضعو بعض القصص فقد يكونون من طبقة العامة الذين اختصموا حول أشعار تلك الطبقة ، وأرادوا تفسيرها وشرحها :

أنشد كثير تلك الأبيات :

وقضين ما قضين ثم تركتنى      بغيضا خريما قائما أتلد

ناظرن حتى قلت لسن يوارحيا      وذهبن كما ذاب السديف المبرهـ  
اقول لساء العين : أمعن ، لعله      لما لا يرى من غائب الوجد يشهد  
فلم أر مثل العين ضنت بمائها      على ، ولا مثلى على الدمع يحسد  
وبين التراقى واللهـاة حرارة      مكان الشجى ، ما أن تبوح فتبرد

قال كثير هذه الأبيات ، وشاعت بين الناس ، وفيها حديث عن  
فيفا خريم وعن بكاء كثير صاحب عزة ، وعن خيبته وحسرتة ، فلا أقل  
من أن يأخذ القاص أو الخيال الشعبى ، هذه المواد فيحوك حولها قصة .

« وخرج كثير الى مصر وعزة بالمدينة ، فاشتاق اليها ، فقام  
الى بغلة له فأسرجها ، وتوجه نحو المدينة ، ولم يعلم به أحد . فبينما هو  
يسير فى التيه يمكن يقال له ، فيفا خريم ، اذا هو بعير قد أقبلت من  
ناحية المدينة ، فى أوائلها محامل ، فيها نسوة . وكثير متلثم بعمامة  
ذه ، وفى النسوة عزة ، فلما نظرت اليه عرفته وانكرها . فقالت للقائد  
قطارها : اذادنا منك الراكب ، فاحبس . فلما دنا كثير حبس القائد  
القطار ، فابتدرته عزة فقالت : من الرجل ؟ قال : من الناس . قالت :  
اقسمت قال : كثير . قالت : فاين تريد فى هذه المفازة ؟ قال : ذكرت  
عزة وأنا بمصر ، فلم أصبر أن خرجت نحوها على الحال التى ترين .  
قالت : فلو أن عزة لقيتك ، فأمرك باليكاء ، اكننت تبكى ؟ قال : نعم .  
فترعت اللثام عن وجهها ، وقالت . أنا عزة فان كنت صادقاً ، فافعل  
ماقلت . فافحم . فقالت للقائد . قد قطارك . فقاده وبقي كثير مكانه  
لايحير ، ولا ينطق . حتى توارث . فلما فقدها ، سالت دموعه وأثنا  
يقول . وقضين ثم تركتني ... الأبيات « ( ٢٢ ) .

وواضح أن هذه القصة موضوعة لتفسير تلك الأبيات ، والا فانظر

( ٢٢ ) الشعر والشعراء ١ / ٤٩٢ .

ألى تلك المضادة العجيبة التي تجمع بين كثير وعزة في الشيء . وإلى هذا الطلب الغريب المضحك الذي طلبته عزة من كثير وماذا تجد في بكاء كثير ؟ . وإلى كثير الذي لبث مكانه ، وترك حبيبته تذوب كما ذاب السديف المرهد وهو الذي سافر من مصر لأجلها . وإلى قسوة عزة ، التي سخرت من حبيب تحمل المشاق بسببها وتركته وانصرفت . وإلى تلك السذاجة التي تذو في خيال القاص الشعبي ، فكان مصر صاحبة من ضواحي المدينة ، يتذكر الشخص أن له هوى بالمدينة ، فيقوم إلى بقلته ويسرجها ويسرع نحو المدينة ، على حاله ، ولم يعلم به أحد .

### قصص للتسلية :

وقد عرفنا مما سبق أن الحضارة اظلت الحجاز ، وقد تبعها الوان من الترف واللذات ، فكثر الظرفاء وانتشر المضحكون . كل يقوم بدوره فى التنفيس عما أصاب الحجاز من ناحية ، واستجابة لما يتبع الحضارة عادة من تسرية وتسلية من ناحية أخرى .

وقد قامت القصة بدورها فى التسلية فى مجتمع حضارى . وفى التسرية عن اهل الحجاز .

يجتمع قوم يتنزهون بالعقيق ، ومعهم ابن عائشة ، وكان عتيذا لا يغنى اذا طلب منه ذلك ، فآخذوا يتحدثون بأحاديث كثير وجميل وغيرهما ، عسى أن يهيجوه فيغنى ، ولكن لم يفعل . فقص يونس الكاتب قصة غرام هيجته ، وجعلته يغنى ، مما أمتع الناس وجعلهم يقضون يومهم فى فرح وسرور . ولنترك يونس الكاتب يروى لنا هذا الحديث « كنا يوما متنزهين بالعقيق ، أنا وجماعة من قریش فبينما نحن على حالنا اذ أقبل ابن عائشة يمشى ومعه غلام من بني ليث ، وهو متوكى على يده . فلما رأى جماعتنا وسمعنى أغنى ، فسلم ، وجلس إلينا ، وتحدث معنا ، وكانت الجماعة تعرف سوء خلقه وغضبه ، اذا سئل أن يغنى ، فاقبل بعضهم على بعض يتحدثون بأحاديث كثير وجميل وغيرهما من الشعراء ، يستجرون بذلك أن يطرب فيغنى فلم يجدوا عنده ما أرادوا . فقلت لهم : لقد حدثنى اليوم بعض الأعراب حديثا يأكل كل الأحاديث فان شئتم حدثتكم إياه ، قالوا : هات . قلت : حدثنى هذا الرجل أنه مر بناحية الريدة ، فاذا صبيان يتغاطسون فى غدير ، واذا شاب جميل منهوك الجسم ، عليه اثر العلة ، والنحول فى جسمه بين ، وهو جالس ينظر اليهم ، فسلمت عليه ، فرد على الميلام وقال : من أين وضح الراكب ؟ قلت : من الحى . قال : ومتى عهدك به ؟ قلت : راثحا قال . وابن كان بيتك ؟ قلت : ببني فلان . فقال : أوه . وألقى بنفسه

على ظهره وتنفس الصعداء ، فقلت : انه قد خرق حجاب قلبه ، ثم  
أنشأ يقول .

سقى بلدا أمست سليمى تحله      من المزن مايروى به ويسيم  
وان لم أكن من قاطنيه فانه      يحل به شخص على كريم  
الا حبذا من ليس يعدل قربه      لدى ، وان شط المزار ، نعيم  
ثم سكن كالمغشى عليه . فصحت بالنسوة ، فاتوا بالماء ، فصبيته  
على وجهه فافاق وأنشأ يقول .

إذا الصب الغريب رأى خشوعى      وأنفاس تزين بالخشوع  
ولى عين أضر بها التفانى      الى الاجراع مطلقة الدموع  
الى الخلوات يأنس فيك قلبى      كما أنس الغريب الى الجميع

فقلت له : ألا أنزل فأساعدك ، أو أكر عودى على بدنى الى الحمى ،  
ان كانت لك فيه حاجة أو رسالة ؟ . فقال : جزيت خيرا ، وصحبك  
السلامة . امض لطبيتك ، فلو أنى علمت أنك تغنى عنى شيئا لكنك  
موضعا للرغبة ، وحقيقا بأسعاف المسألة ، ولكبك أدركتنى فى صباية  
من حياتى يسيرة . فأنصرفت ، وأنا لا أراه يمسى ليلته الا ميتا . فقال  
القوم : ما عجب هذا الحديث . واندفع ابن عائشة يغنى فى الشعرين  
جميعا ، وطرب ، وشرب بقية يومه ، ولم يزل مغنيا الى أن  
انصرفنا « ( ٢٣ ) .

وواضح أن هذه القصة موضوعة للتسلية ، فقوم يتنزهون بالعقيق  
فيتحدثون بأحاديث جميل وكثير ، وغيرهما من العشاق الذين يحلو

( ٢٣ ) الأغاني ٢ / ٧٢ « سلسى » و ٢ / ٢٣٠ « دار الكتب »  
والامالى ١ / ١٧ .

ذكرهم في هذه الاوقات ، ويقص يونس الكاتب حديثا عن اعرابي ياكل كل الاحاديث ، فيهيح ابن عائشة ويغنى بالشعر الذي جاء في القصصه ويطربون ويشربون .

فالقصاص في هذا المجتمع الحضاري ، كانت تقوم بدورها ، وتنافس الشعر والغناء في مجالس السرور والانس .

ولم تقف قصص العشق عند حد اتخاذها وسيلة لتفسير المواقف الغرامية التي جاءت في شعر شعراء ، او عند حد قيامها بدور وظيفي في مجتمع حضاري ، بل استغلت لأغراض أخرى ، فاستخدمت لأغراض شخصية ، ولرام شعرية ، ولأهداف دينية .



#### قصص للدعابة :

عرف كثير من الأذكيا قيمة القصة في الدعابة لفنهم ، والترويح لشعرهم ، وخاصة أن هذه القصص تشيع بين العامة ، وتذيع وسط الشعب ، فاستغلوا القصص وحملوها ما يريدون أن يحملوها ، وجعلوها تنتقل وسط الناس ، لاهجة باسمهم ، مذكرة بهم .

#### قال حماد الراوية :

« أتيت مكة ، فجلست في حلقة فيها عمر بن أبي ربيعة ، فتذاكروا العذريين وعشقتهم وصبايتهم ، فقال عمر : أحدثكم عن بعض ذلك : أنه كان لي خليل من عذرة ، وكان مستهترا بحديث النساء ، يشيب بهن ، وينشد فيهن ، على أنه لاعاهر الخلوة ، ولا سريع السلوة . وكان يوافي الموسم كل سنة ، فإذا ابطلا ترجمت له الأخبار ، وتوقفت له السفار حتى يقدم ، وأنه راث عني ذات سنة خيره ، وقدم وفد عذرة ، فأتيت القوم ، أنشد عن صاحبي ، فإذا غلام قد تنفس الصعداء ، ثم قال : عن أبي المسهر تسأل . قلت : عنه نشدت ، وإياه أردت . قال : هيهات . وأصبح والله أبو المسهر . لأمؤنسا منه فيهمل ، ولا مرجوا فيعمل ، أصبح والله كما قال :

لعمرك ما حبي لأسماء تاركى صحيفا ، ولا أقضى به ، فاموت

قلت : وما الذي به ! قال : به مثل الذي بك من طول انهماككما في الضلال ، وجركما أذيال الخسارة ، كأن لم تسمعا بجنة ولا نار . قلت : من أنت منه يابن أخي ؟ قال : أنا أخوه . قلت : ؟ والله ما يمنعك من أن تركب طريق أخيك التي ركبها ، وتسلك مسلكه الذي سلك ، إلا أنك وأخاك كالوشى والبجاد ، لا يرقعك ولا ترقعه . ثم انطلقت وأنا أقول .

أرائحة حجاج عذرة روحة      ولما يرح في القوم جعدين مهجع  
خليلين نشكو ما نلاقى من الهوى      فتى ما أقل يسمع ، وإن قال أسمع  
فلا يبعدنك الله خلا فاننى      سألنى ، كما لاقيت في الحب مصرعى

فلما حججت ، وقفت في الموضع الذى كنت أنا وهو تقف فيه  
بعرفات ، وإذا أنا براكب أقبل حتى وقف ، وقد تغير لونه ، وساءت  
هيئته ، فما عرفته إلا بناقته ، فاقبل حتى خالف بين عنق ناقتى  
وناقته ، ثم اعتنقنى وجعل يبكى . فقلت : ما الذى دهاك  
وما غالك ؟ فقال : برح العزل وطول المطل ، ثم إنشا يقول :

لئن كانت عذيلة ذات بث      لقد علمت بأن الحب داء  
لم تنظر الى تغيير جسمى      وأنى لا يزالنى البكاء  
وأنى لو تكلفت السدى بى      لعفى الكلم وانكشف الغطاء  
وإذا العذرى مات يحلف انفه      فذاك العبد ، يبكيه الرشاء

فقلت : يا أبا مسهر ، إنها ساعة عظيمة ، وإنك فى جمع من  
أقطار الأرض ، ولو دعوت كنت قمينا أن تظفر بحاجتك ، وأن تنصر على  
عدوك . قال : فجعل يدعو ، حتى تدلت الشمس للغروب ، وهمم  
الناس أن يفيضوا ، وسمعته يهيمهم فأصخت له مستمعا ، وهو يقول :

يارب كل غدوة وروحه      من محرم يشكو الضحى ولوجه  
أنت حبيب الخطب يوم الدوحة

فقلت له : وما يوم الدوحة ؟ قال : سأخبرك إن شاء الله ، انى امرؤ  
ذو مال كثير من نعم وثناء ، وأنى خشيت على مالى التلف ، فأتيت  
أخوانى من كلب ، فأوسعوا لى عن صدر المجلس . وسقونى بجمعة

البئر ، فكانوا خير أخوال . حتى هممت بمواقعة ابل لى ، بماء يقال  
له الخرزات ، فركبت وتعلقت معى شرايا ، كان قد أهداه الى بعض  
الكلبيين ، وانطلقت حتى اذا كنت بين الحى ومرعى الغنم ، رفعت لى  
دوحة عظيمة . فقلت : لو نزلت تحت هذه الشجرة ، وتروحت مبردا ،  
فنزلت ، فشددت فرسى بغصن من أغصانها ، ثم جلست تحتها ، فاذا  
انا بغبار قد سطع . فتبينت ، فبدت لى شخوص ثلاثة . فاذا رجلا  
يطرد مسلحا واتانا . فلما قرب منى ، اذا درع أصفر ، وعمامة خز  
سوداء ، واذا هو تنال فروع شعره كتفيه . فقلت فى نفسى : غلام  
حديث عهد بعرس فاعجلته لذة الصيد ، فنى ثوبه وأخذ ثوب امراته .  
فما لبث أن الحق بالمسلح فصرعه ، ثم ثنى طعنته ، فصرعها ، ثم  
أقبل ، وهو يقول :

نطعنهم مسلكى ومخلوجة كرك اللامين على نابيل  
قال : فقلت : انك قد تعبت واتعبت ، فلو نزلت . فثنى رجله ،  
فنزل ، فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة ، ثم أقبل حتى جلس قريبا  
فجعل يحدثنى حديثا ذكرت به قول الشاعر :

وان حديثا منك لو تبدلينه

جنى النحل ، فى البان عود مطاقل

قال : فبينما هو كذلك ، اذ حك بالسوط على ثنثيته ، قرأيت والله  
يا بن ربعة ظل السوط بينهما ، فما ملكت نفسى ان قبضت على السوط .  
فقلت : مه . فقال : وله ؟ فانى أخاف ان تكسرهما فانهما رقيقتان .  
قال : هما عذبتان ، ثم رفع عقيرته فجعل يغنى :  
اذا قيل الانسان آخر يشتهى ثناياه لم ياثم ، وكان له اجرا  
فاذا زاد زاد الله فى حسناته مثاقيل يمحو عنه بها الوزرا  
ثم قال لى : ما هذا الذى تعلقت فى سرجك ؟ قلت : شراب أهداه

الى بعض اهلك . فهل لك فيه ؟ قال : وما اكرهه . فاتيت به ، فوضعه  
بينى وبينه . فلما شرب منه شيئا ، نظرت الى عينيه ، كأنهما عينا  
مهة قد أضلت ولدا ، أو ذعرها قانص ، فعلم أين نظرى فرقع عقيرته  
يغنى :

أن العيون التى فى طرفها مرض قتلنا ، ثم لم يحيين قتلنا  
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله اركاننا  
فقلت له : من أين لك هذا الشعر ؟ قال : وقع رجل منا باليمامة ،  
وانشدني ثم قمت لاصلح شيئا من أمر فرسى ، فرجعت وقد جر العمامة  
عن رأسه ، وإذا غلام كأنه الدينار المنقوش - فقلت : سبحانك اللهم ما أعظم  
قدرتك ، وأحسن صنعك قال : وكيف قلت ذاك ؟ قلت : مما راعنى من  
نورك ، وبهرنى من جمالك . قال : وما الذى يروعك من زرق الدواب ،  
وحبيس التراب ؟ ثم لاتدرى اينعم بعد ذاك ام ييباس ؟ ثم قام الى  
فرسه . فلما أقبل ، برقت لى بارقة الدرع ، فإذا شدى كأنه حقى قلت  
تشدتك الله « أمراه ؟ قال : أى والله ، امرأة تكره العجز وتحب الغزل  
قلت : والله وأنا كذلك . قال : فجلست تحدثنى ، ما أفقد من أنسها حتى  
مالت على الدوحة سكرًا واستحسننت والله يابن أبى ريبة الغدر ،  
وزين فى عينى ، ثم ان الله عز وجل عصمنى منه ، ثم جلست منها  
حجرة ، فما لبثت أن انتبهت مذعورة ، فلاثت عمامتها برأسها ، وأخذت  
الرمح ، وجالت فى متن فرسها ، فقلت : أما تزودينى منك زادا ،  
فأعطتنى شباتها ، فشممت منها كالنبات المطور ، ثم قلت : أين  
الموعد . فقالت : ان لى أخوة شرسين ، وأبا غيورا ، والله لئن أسرك  
أحب الى من ان أضرك . قال : ثم مضت ، فكان هذا آخر العهد بهما  
الى يومى هذا . فهى والله التى بلغت بى مائتراه من هذا المبلغ ،  
وأحلتنى هذا المحل . قال : فقلت : وأنت والله بيا أبا مسهر - ما استحسن  
الغدر الاهلك . فإذا قد أخضلت لحيته بدموعه . وقال : ما قلت والله لك هذا  
الا مازحا ، ودخلتنى له رقة . فلما انقضى الموسم شددت على ناقتي ،

وشد على ناقته . وحملت غلاما لى على بعير . وحملت عليه قبة آدم خضراء ، كانت لأبى ربيعة ، وأخذت معى ألف دينار ومطرف خز . ثم خرجت حتى أتينا كلبا . فاذا الشيخ فى نادى قومه ، فاتيته ، فسلمت عليه ، فقال : عليك السلام ، من أنت ؟ قلت : عمر بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومي قال . المعروف غير المجهول ، فما الذى جاء بك ؟ فقلت جئت خاطيا . قال : أنت الكفاء لا يرغب عن حسبه ، والرجل لا يرد عن حاجته . قال : قلت : انى لم آتاك فى نفسى ، وان كنت موضع الرغبة ، ولكن أتيتكم لابن اختكم العذرى ، قال : والله أنه لكفى الجنب ، كريم المنصب ، غير أن بناتى لم يقعن الا فى هذا الحى من قريش . قال : فعرف الجزع من ذلك فى وجهى . فقال : أما انى لم أصنع بك شيئا ، لم أصنعه بغيرك ، أخيرها ما اختارت . قال : قلت له : والله ما أنصفتنى . قال : وكيف ذلك ؟ قال كنت تختار لغيرى ، ووليت الخيار لى غيرك . فإوما لى صاحبى أن دعه يخيرها . قلت : خيرها . فأرسل اليها ، أن من الأمر كذا وكذا ، فارتأتى رأيك . قال فأرسلت اليه : ما كنت لأستبد برأى دون القرشى ، فخيرارى ما اختار . قال : قد صيرت الأمر اليك : فحمدت الله تعالى وصليت على نبيه ، وقلت . قد زوجتها الجعد بن مهجع ، وأصدقته هذه الألف دينار ، وجعلت تكرمتهما العبد والقبيلة ، وكسوت الشيخ المطرف ، فقبله ومربه . وسألته أن ينسب بها من ليلته ، فأجابتنى الى ذلك ، وضربت القبة وسط الحى ، وأهديت اليه ليلا ، وبت عند الشيخ خير مبيت : فلما أصبحت ، عدوت فقممت بباب القبة ، فخرج الى ، وقد تبين الجذل فى وجهه . قال : فقلت له : كيف أنت من بعدى ؟ وكيف هى بعدك ؟ فقال : أبدت لى كثيرا مما اخفت يوم رأيته . فقلت : ما حملك على ذلك : فأنشأ يقول :

كتمت الهوى ، انى رأيته جازعا : فقلت : فتى بعض الصديق يريد  
فان تطرحنى ، أو تقول : فتية يضربها برح الهوى ، فتعود  
قوريت عما بى وفى الكبد والحشا من التوجد برح ما علمت شديدا

قال : فقلت : أقسم على أهلك ، بإذنك الله فيك ، وانطلقت إلى أهلى ( ٢٤ ) .

ذكرت هذه القصة كاملة ، لأنها ثرية ، فيها الكثير من صفات القصص العربي التي ساكشف عنها فى فصل مقبل .

ولست أدري : هل اخترع هذه القصة حماد الراوية الذى كان يكذب ويخترع فى روايته ، أو أنها من وحى خيال ابن أبى ربيعة ؟ لست أدري لأن القصة تشف عن مزاج كلا الرجلين ، فقد كان كل منهما مستهترا ماديا . والمخترع يابى هنا إلا أن يلوث قصص العذريين بالخمر والسكر والغناء . ولم يوفق القاص فى رسم هذا الجو الذى يتنافى مع البيئية البدوية ، والنساء البدويات ، فهل فى البادية امرأة ، لها أب غيور ، وأخوه شرسون ، ثم تخرج للصيد ، وتفعل فعل الرجل الفارس ، ثم تلتقى بأجنبى ، فتجلس معه تحت ظل شجرة وتطارحه الغزل ، وتنشده لاشك فى أن مخترع القصة رجل عاش فى الحضرة ، وشاهد الترف ، فتصور أهل البادية ، وكأنه يتصور أهل الحضرة .

ومن مقدمة القصة ، يبدو لنا أن القاص قد اخترعها للتسلية وازجاء الوقت ، فقد اجتمع الناس فى حلقة ، وأخذوا يتذكرون أخبار العذريين وعشقتهم ، فقص عليهم القاص تلك الحكاية ، وقد أنصف ابن عبد ربه ، حين وضعها تحت عنوان « المضحكات » ( ٢٥ ) .

ولكن ابن أبى ربيعة ينتهز هذه الفرصة ، فيدس فى ثنايا القصة حديثا عن نفسه ، واقتخارا بابيه ، وتغنيا بجوده وكرمه ، ودفاعا عن مسلكه ومذهبه . فهو شهيم ، كريم ، يسمع عن مأساة صاحبه ، فيخرج معه ، ويشد على ناقته ، ويحمل معه قبة ابن ربيعة ، ويأخذ معه

( ٢٤ ) مضارع العشاق ص ٥٠ .

( ٢٥ ) العقد الفريد ٥ / ٣٥٥ .

الف دينار ومطرف خز • ويخرج فيستقبله الالب استقبال المعروفين ، ويرحب به ، ويمدح في حسبه وفي شخصه ، وتختاره الفتاة وكيلها ، فينتهي الموضوع كما يحب ويرجع الى أهله ، مفتخرا بنفسه :

كفيت الفتى العذرى ما كان نابه ومثلنى لائقال: النواثب يحمل  
أما استحسننت منى المكارم والعلا اذا صرحت انى اقول وافعل(٢٦)

فهذا الفخر بابن أبى ربيعة وبحسبه ، وتلك الخاتمة التى تنتهى بهذه الابيات ، يرجحان أن القصة من صنع عمر • ويبدو أن عمر كان ذكيا ، فقد أكثر من الدعاية لفنّه ، والترويج لشعره ، مرة برشوة المغنين والمغنيات ، وثانية باشاعة هذا النوع من القصص الذى أكثر من اختلاقه وترويجه •

#### قصص ذات أغراض تعصبية :

ولم تستغل قصص العشق استغلالا شخويا فحسب . بل استغلّت أيضا لأغراض تعصبية .

فقد عرفنا أن العصر الأموي . كان عصر صراع بين السادة والعبيد وعرفنا طرفا من الثورات التي نشبت نتيجة لهذا الصراع . واستخدم كل فريق ما يتيسر له من الأسلحة . فكانوا ينتحلون الشعر ، ويختلقون الأحاديث تدعيما لئزعاتهم وتأييدا لميولهم .

ونال القصص حظها من الانتحال والاختلاق .

كانت عند يزيد بن عبد الملك أم البنين . وكان لها من قلبه موضع فقدم عليه من ناحية مصر جواهر له قدر وقيمة . فدعا خصيا له وقال : اذهب بهذا الى أم البنين ، وقل : أتيت به الساعة ، فجئت به اليك . فاتاها ، فوجد عندها وضاح اليمن ، وكان من أجمل العرب ، وأحسنهم وجها فعشقه أم البنين . فادخلته عليها ، فكان يكون عندها ، فإذا أحست بدخول يزيد أدخلته في صندوق من صناديقها . فلما رأت الغلام قد أقبل ، أدخلته الى الصندوق ، فراه الغلام ، ورأى الصندوق الذي فيه ، فوضع الجواهر بين يديها ، وأبلغها رسالة يزيد ثم قال : ياسيدي هبي لي منه لؤلؤة . قالت . لا ولا كرامة . وغضب وجاء الى مولاه ، وقال : يا أمير المؤمنين : اني دخلت عليها وعندها رجل ، فلما رأتني ، أدخلته صندوقا ، وهو في الصندوق الذي من صفته كذا وكذا .

فقال يزيد . كذبت ، ياعدو الله جثوا عنقه . ثم قام وليس نعله ، ودخل على أم البنين وهي تمتشط في خزانة . فجاء حتى جلس على الصندوق الذي وصفه الخادم ، فقال : يا أم البنين ، ما أحب اليك هذا البيت . قالت : يا أمير المؤمنين أدخله لحاجتي ، وفيه خزانتي . فما أردت من شيء ، أخذته من قريب . قال : فما في هذه الصناديق التي



أراها ؟ قالت . حلى وأثأى قال : فهبى لى منه صندوقا قالت . كلها  
ياأمير المؤمنين لك . قال : لا أريد إلا واحدا ، ولك على أن اعطيك  
زنته وزنة مافيه ذهب . قالت : فخذ ماشئت . قال : هذا الذى تحتى .  
قالت : ياأمير المؤمنين عد عن هذا ، وخذ غيره فإن لى فيه شيئا يقع  
بمحبتى . قال : ما أريد غيره . قالت : هو لك . قال : فأخذه ودعا  
الفراشين ، فحملوا الصندوق فمضى به الى مجلسه ، فجلس ولم يفتحه ،  
ولم ينظر مافيه . فلما جته الليل ، دعا غلاما له أعجميا ، فقال له :  
استاجر اجراء غريبا ليسوا من أهل المصر . قال : فجاءوا بهم وأمرهم  
فحفروا له حفيرة فى مجلسه حتى بلغوا الماء ، ثم قال : قدموا لى  
الصندوق . فالتقى فى الحفيرة ، ثم وضع قمه على شفيره ، فقال :  
يا هذا ، قد بلغنا عنك خبر ، فإن يك حقا فقد قطعنا أثره ، وإن يسك  
باطلا ، فإنما دفنا خشبا . ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى . قال :  
فلم ير الوضاح حتى الساعة . قال : فلا والله ما بان لها فى وجهه ولا فى  
خلاتقه شيء ، حتى فرق الموت بينهما ( ٢٧ ) .

واعتقد أن هذه القصة ، ليس لها صدق واقعى . فهى تناقض خلق  
العربييات القائم على العفة ، أو التستر فى أمثال هذه الموضوعات .  
وتناقى خلق العربى القائم على الغيرة والأنفة والاندفاع فيما يمس  
الشرف . وانظر الى تزيين الحفيرة والاندفاع فيها ، وهو يساومها على أخذ  
الصندوق ويبذل لها زنته وزنة مافيه ذهب . وانظر الى الحوار الهادى  
الذى دار بينهما ، والى الصبر العجيب الذى جعله يضع الصندوق  
ولا يفتحه حتى يجته الليل ، ثم الى هذا الوداع الهادى الرزين الذى  
ودع به الصندوق حين اللقاء فى الحفيرة .

ان هذا ليس من خلق العرب ، بل هذا شيء وضع على العرب .  
وان واضح هذا ليس من العرب أيضا والا كان قد تنبه لأهم شيء

( ٢٧ ) مصارع العشاق ص ٢٧٦ . وانظر : تزيين الاسواق ١ / ١٦٩  
واديوان الصباية ٣ / ودم الهوى ص ٣٧٦ .

عند العربى وهو اضطرابه الشديد ، وانفعالة البين ، فيما يمس العرض ويخدش الشرف ، فمن وضع هذا لم يوفق فى التزوير والتمويه ، فقد وصف العربى هنا وكأنه يصف رجلا اجنبيا .

ولهذا اميل الى أن هذه القصة . قد وضعت بسبب الشعبية . فقد اردوا أن يشهروا بنساء هذا الخليفة الاموى ، فاخترتوا هذه القصة التى تغض منه ومن نسائه ، فهم قد عرفوا أن ابن عبد الملك قد قتل وضاحا هذا . لانه شيب بامراته وباخته ( ٢٨ ) . وهم قد عرفوا أن وضاحا هذا ، كان رائع الحسن وأنه كان يبرقع وجهه خوفا الفتنة بحسنه ( ٢٩ ) ، وخوفا من العين وحذرا على نفسه من النساء . ( ٣٠ ) ، فلا اقل من أن يبنى القصص على هذه العناصر قصة غرامية ، تحط من قدر أم البنين . ولا اقل من أن يختار لها شخصية قيل انها من اولاد الفرس . وقيل : بل انه من حمير . مات أبوه وهو طفل صغير فتزوجت أمه رجلا من أهلها من اولاد الفرس ، وشب وضاح فى حجر زوج أمه ، ولما كبر جاء أهل بيته من حمير يطلبونه ، فادعى زوج أمه أنه ولده فحاكموه فيه ، فحكم به الحاكم للحميريين ، ومسح على رأسه وأعجبه جماله ، وقال له : اذهب ، فانت وضاح اليمى لا من اتباع ذى يزن . يعنى الفرس الذين قدم بهم ابن ذى يزن لنصرته ( ٣٦ ) .

وجد الشعبية اذن عناصر قصة ، فبنوا عليها ما يخدم فكرتهم ، وينصر قضيتهم ، ونسجوا قصة حول غرام أم البنين لرجل جميل من الفرس ، أو تربى فى حجر الفرس .

ولست ادعى أن هذا الراى لى . فقد ذكر أبو الفتوح عن خالده

- 
- ( ٢٨ ) الاغانى ٦٠ / ٣٢ ( ساسى ) .
  - ( ٢٩ ) تزيين الاسواق ١ / ١٦٩ .
  - ( ٣٩ ) ديوان الصباية ٢ / ٧٨ .
  - ( ٣١ ) الاغانى ٦ / ٣١ ( ساسى ) .

ابن كلثوم أن هذه الحكاية قد وضعها بعض الشعوية . لما تلاهى هو  
وبعض ولد الوليد زوج أم البئين . وأن الحق هو الرواية الأولى والتي  
ترى أن الوليد قد قتله ، لأنه شبيب بزوجه أم البئين ( ٣٢ ) .

من المعقول إذن أن أقبل أن عربيا قد قتل رجلا لأنه شبيب بامراته  
وينسائه ، فأمثال هذا كثير فى التاريخ العربى ، وهو يوائم مزاج  
العربى ، ولكن ليس من المعقول أن أقبل هدوء العربى ، وتريته ورزاقته  
أمام مايمس عرضه وشرفه .

### قصص ذات أهداف دينية :

ولم تستغل قصص العشق للمناقع الشخصية ، أو النزعات الشعبية أو الأهواء العصبية فحسب ، بل استخدمت أيضا لأهداف دينية .

« خرج أبو دهبيل الجمحى يريد الغزو . وكان رجلا جميلا صالحا ، فلما جاء بجيرون جاءت امرأة فاعطته كتابا ، فقالت له : اقرأ له : هذا . فقرأه لها . ثم ذهبت ، فدخلت قصرا ، ثم خرجت اليه . فقالت له : لو بلغت معى الى هذا القصر ، فقرأت الكتاب على امرأة فيه ، كان لك اجران ان شاء الله ، فبلغ معها القصر . فلما دخل اذا فيه جوار كثيرة ، فاغلقت عليه باب القصر ، فاذا امرأة جميلة قد اتته فدعته الى نفسها فابى . فامرت به فحبس فى بيت من القصر ، وأطعم واسقى قليلا قليلا حتى ضعف وكاد يموت ، ثم دعت الى نفسها فقال : أما فى الحرام فلا يكون ذلك أبدا ، ولكن أتزوجك . قالت : نعم فتزوجها وأمرت به فاحسن اليه ، حتى رجعت نفسه اليه فاقام معها زمانا طويلا ، لم تدعه يخرج من القصر حتى يئس منه أهله وولده ، وزوج اولاده بناته واقتسموا ميراثه ، واقامت زوجه تبكى ولم تقسمهم ماله ، ولا أخذت من ميراثه شيئا ، وجاءها الخطاب فأبى ، واقامت على الحزن والبكاء عليه ، قال : فقال أبو دهبيل لامراته يوما : انك قد اثمت فى وفى ولدى ، فاذن لى أن اخرج اليهم وارجع اليك ، فأخذت عليه ايمانا الا يقيم سنة حتى يعود اليها ، واعطته مالا كثيرا . فخرج من عندها بذلك المال ، حتى قدم أهله ، فرأى زوجته ، وما صارت اليه من الحزن ونظر الى ولده ممن اقتسم ماله وجاءوه ، فقال : ما بينى وبينكم ، انتم ورثتمونى وأنا حى فهو حظكم ، والله لا يشرك زوجتى أحد فيما قدمت به . وقال لزوجه : شأنك بهذا المال كله ، فهو لك ، ولست أجهل ما كان من وفائك واقام معها ، وقال فى الشامية .

صاح ، حيا الله حيا ودودا      عند أصل القناة من جيرون  
فبتلك اغتربت بالشام حتى      ظن أهلى ، مرجمات البظنون  
وهى زهراء مثل لؤلؤة الغو      اص ، ميزت من لؤلؤ مكنون

( الى آخر الأبيات )

فلما جاء الاجل اراد الخروج اليها ، ففاجأة موتها ، فأقام ( ٣٣ ) .  
وواضح أن هذه القصة تحمل هدفا تربويا دينيا ، وهو الحث على  
العفة والترغيب فيها . فأبو دهيل رجل صالح وشاب جميل ، دعت امرأة  
ذات منصب وجمال . . فقال : اثنى أخاف الله رب العالمين . ومازال  
به وهو يتأبى حتى ضعف وكاد يموت ، ثم تزوجها على كتاب الله  
وسنة رسوله .

والعناصر الدينية كثيرة فى هذه القصة ، كعنصر الاثابة على  
الوفاء ، والمكافاة على الصبر ، فهذه الزوجة المخلصة ، تفى لزوجها  
الغائب ، وترفض الخطاب ، وتقويم على الحزن والبكاء ، فيكافئها الله  
على هذا العمل الصالح ، برجوع زوجها يحمل مالا كثيرا يهبه لها  
وحدها ، وعنصر الوفاء بالوعد ، فهذا الرجل الصالح ، تأخذ عليه  
الشامية ايمانا ألا يقيم الا سنة ، حتى يعود اليها فلما جاء الاجل تذكر  
هذا الرجل وعده ، ولكن القصة تختلق موقفا ، ترضى به الزوجة  
الوفية ، وفى الوقت نفسه يحافظ فيه الرجل الصالح على وعده ، فقد  
تدخل سيف القضاء والقدر ، فاذا هذه الشامية تموت فيقيم الرجل مع  
زوجه فى سرور وسعادة .

العنصر الدينى واضح فى هذه القصة . ولكن هل نستطيع لانفسنا

( ٣٣ ) مصارع العشاق ص ٧ .

أن نفهم هدفا خفيا ، يستتر وراء هذا ، وهو أن أهل الحجاز - وقد عرفنا الخصومات بينهم وبين أهل الشام - يعقدون في هذه القصة مقارنة خفية ، بين امرأة حجازية ، تحافظ على عهد زوجها ، وتحزن لفراقه ، ولا تنشط لماله ، ولا تتطلع لميراثه . بل تنتظر وتنتظر حتى يكافئها الله . وبين شامية خاطفة أزواج تتعرض الرجال ، وتدعوهم الى نفسها ، وتغريهم بالمال وبالتهديد .

قد نستبيح لأنفسنا أن نستشف هذا الهدف ، ولكنه هدف لا يكاد يبين أمام الهدف الدينى الواضح الذى يملأ كل القصة .

\* \* \*

وهكذا نجد أن قصص العشق . قامت بدورها فى هذا المجتمع ، فقامت بدور التفسير والشرح لبعض مواقف شرعية . وأدت وظيفة التسلية والنسرية . واستغلت فى الاعلام والدعاية . واستخدمت فى التربية والهداية .



## الفصل الثاني

### ملامح قصص العشق

الشعبية في قصص العشق :

لعلني لأكون مخطئاً ، لو أنني اعتبرت هذا النوع من الأدب الشعبي .

فقصص العشق شعبية في تاليفها .. شعبية في موضوعها .. شعبية في لغتها .. شعبية في طريقتها .. .. شعبية في أبطالها .. شعبية في انتشارها بين العامة .

فقد انتشرت هذه القصص بين طبقات الشعب انتشاراً شاملاً ، وشاعت على السنة العجائز ، وترددت في أفواه الجوارى والموالي ، وذاعت بين الكادحين والعاملين ، بل لقد بلغ من تعلق الناس بأحاديثها وسيرها أنهم لم يكتفوا بجعل أبطالها من الناس وكفى ، بل بالغوا في ذلك وجعلوا من أبطالها الحيوان ، والجن ، والخور العين .

فقد رويت قصة عن العجوز التي انتقدت أبياتاً لكثير ، وهي تحمل روثاً ، فيها نار ، فاتحفاً بمطرفه حتى تكتم هذا الأمر ، ورويت قصة عن الأحوص الذي كان ذاهباً إلى دمشق وفي طريقه التقى بجارية تحمل جرة ماء ، وكانت تغني بشعر للأحوص فقاسمها الحديث ، فإذا هي بطلقة قصة غرامية (١) ورويت قصة عن فتى ابن نخاس كان في قافلة ،

(١) الاغانى ١٨ / ٣٠٢ « ساس » :



قيها جوار. للخليفة عبد الملك بن مروان ، فعلق احدى الجوارى ،  
وعلقته ، واتفقا على الهرب ، لولا أن تنبه لهما افراد القافلة (٢) .  
ويحكى الاغانى قصة العرجى وقد واعد هوى له ، فخرج على حمساره ،  
ومعه عبده ، فجاءته على اثنائها ومعها جارية ، ومال كل الى شاكلته :  
العرجى الى هواه ، والعبد الى الجارية ، والحصار الى اللتان . فقال  
العرجى « هذا يوم غاب عذائي » (٣) . والتجن أبى إلا أن تعشق من بنى  
عذرة أيضا ، فيحكون أن سعد بن أبى وقاص تزوج امرأة ، قرأى عندها  
ثعبانا ، فهم يقتله فقالت : هذا كان يتبعنى ، وأنا فى بنى عذرة عند  
اهلى ، فقال له سعد : هذه امرأتى تزوجتها على كتاب الله وسنة رسوله .  
فماذا تريد منها ؟ فانساب حتى دخل مسجد النبى ﷺ ، وصعد فى  
السقف فلم ير بعدها (٤) .

وكانت قصص العشق موضوع الساعة ، يتفكه بها أهل الحضر ،  
ويستعين بها أهل البادية على فراغهم ، وقد حفظ لنا التاريخ اعلام  
ابطال امثال عمر بن أبى ربيعة ، وجميل بن معمر ، ولكن بجانب هؤلاء  
تساقط من ذاكرة التاريخ ابطال كثيرون ، أكثر مما امسكته تلك الذاكرة  
فرجل من عذرة يقول لعروة بن الزبير « لقد خلفت فى الحى ثمانين  
مريضا ، دنفا ، عشقا ، ما بهم غير الحب قد خامر قلوبهم » (٥) .

وكانت لهؤلاء الابطال منزلة رائحة فى نفوس النساء ، فيتمنون أن  
تصير لهم احدوثة مثلهم ، وأن يتغنى الركبان بسيرهم ، وقد رويت  
قصة الفتى الذى تمنى على عمه أن تكون له سيرة مثل سيرة المجنون

(٢) التحفة البهية ص ١٩٧ :

(٣) الاغانى ١ / ٣٩٥ « دار الكتب » .

(٤) تزيين الاسواق ٢ / ٣١ .

(٥) الموشى ٨٥ وأنظر تزيين الاسواق ١ / ٩ .

وجميل ، وأقرأ فى الأغاني كيف قابل الناس موت المجنون ، وكيف خرجت فتيات الحى يندبته ، وأنظر الى جنازته الرائعة ، والحزن الذى اعترى القوم اذ ذاك (٦) .

#### قصص العشق شعبية فى تأليفها :

وقد عرف القوم تلك البدعة التى شاعت بين الناس ، فكثرت التأليف ارضاء لتلك الحاجة وابن النديم يورد ثبثا بأسماء تلك الكتب (٧) ، وصاحب الأغاني يذكر أن بين أيدي الناس كتابا عن وضاح اليمى وخبره مع روضه استكبر أن ينقل عنه ، لأنه مصنوع غث الحديث والشعر (٨) . وداود الانطاكى فى تزيين الأسواق ، ينقل عن كتب كثيرة ألقت فى العشق (٩) . وابن أبى حجلة ينقل أيضا عن كتب من هذا

(٦) الاغانى ٢ / ١٣ « ساسى » .

(٧) الفهرست ص ٤٢٥ .

(٨) الاغانى ٦ / ٣٠ « ساسى » .

(٩) اليك طائفة من الكتب التى نقل عنها ، وأمام كل كتاب رقم الصفحة كما هى فى التزيين : ١ - منازل الاحباب ( ١ / ٥٩ ) ٢ - نزهة المشتاق ( ١ / ٦٢ ) ٣ - شرح الشواهد للسيوطى ( ١ / ٥٣ ) ٤ - البدور السافرة ( ١ / ٦٣ ) ٥ - طوابع الازهار ( ١ / ٦٢ ) ٦ - شرح ديوان ابن الفارض ( ١ / ٦٢ ) ٧ - نديم المسامرة ( ١ / ٦٤ ) وكذلك ( ١ / ٩٨ ) ٨ - نزهة العشاق ( ١ / ٦٤ ) ٩ - تسريح النواظر ( ١ / ٨٤ ) ١٠ - بلغة الاشفاق فى ذكر أيام العشاق . وهو - كما يقول - جزء لطيف لابن رشيق ، موضوعه ذكر مدة العشاق ( ١ / ٩١ ) ١١ - ظرائف الاخبار ( ١ / ٩٧ ) ١٢ - جلاء الازدهان فى منتخب شعر قتلى الحصان ( ١ / ٩٧ ) ١٤ - روضة القلوب ( ١ / ١٠٢ ) لابن عبد ربه ( ١ / ٩٧ ) ١٥ - قوت القلوب فى اخبار المحب والمحبيب ( ١ / ١٠٥ ) ١٦ - عجيب الاتفاق فى تطابق احوال العشاق ( ١ / ١٢٤ ) ١٧ - اقتداح زناد الاشواق واسترجاع شوارد العشاق . وهو جزء لطيف للمسعودى ( ١ / ١٢٤ ) ١٨ - امتزاج النفوس ٢ / ٦٢ .

التنوع (١٠) . وقد ضاع كثير من هذا التراث ، وتلك هي البلية التي أصيب بها التراث الشعبي في أدينا العربي فلم تتوافر له العناية ، ولم تبذل لحفظه الجهود إلا في عصرنا الحديث .

وكثير من هذه الكتب مجهولة المؤلف ، بل إن الأسماء التي نعرفها والتي ذكرت أخبار العشق كالكلبي ، والهيثم بن عدى ، لم يكونوا مؤلفين بالمعنى الذي نعرفه ، بل كانوا رواة ينقلون عن الأعراب ، وعن أقواء الناس ، ولا غرو ، فهذه الأحاديث ليست ملكا لشخص معين يبتكرها ويخلقها ، بل هي ملك لكل القوم ، اشتركوا في تأليفها ، وتعاونوا على خلقها ، فقد كانت أحداثها مجالسهم ، وترنيمة فراغهم ، وهذا هو السر في تنوع الروايات ، واختلاف الرواة ، فلم تكن تلك الحكايات وثائق تاريخية ، يحقق فيها القوم ويدققون ، بل كانت مختلطة بالقصص ، يرضون بها حاجة في نفوسهم ، فلا بأس من أن يتزود فيها قوم ، ويتنقص منها آخرون ، ويحور فيها قصاصون .

#### موضوع قصص العشق موضوع شعبي :

وموضوع هذه القصص ، وتلك الحكايات ، موضوع انساني ، يحكى قصة القلب البشرى وما ركب فيه من نوازع وغرائز ، وما خلق الله فيه من دقات وخفقات ، ففي كل زمان نسمع عن أمثال ابن أبي ربيعة ، وفي كل مكان ينجم أشباه قيس ، وهذا الموضوع الفطري محبوب عند العامة ، اثير لديهم ، يجدون لذة في أن يتسامروا به ، ومتعة في أن يلوكوه ، ونظرة الى القصص الشعبي تبين لنا أهمية هذا الموضوع عندهم ، فلا تكاد تخلو قصة أو سيرة منه ، ففي « ألف ليلة وليلة » يمثل هذا الموضوع جانبا مهما ، وفي سيرة الهلالية يضرب بسهم وافر .

(١٠) من الكتب التي نقل عنها ابن أبي حجلة في كتابه « ديوان الصبابة » : ١ - تحفة الظرف ( ١ / ٢٩ ) ٢ - امتزاج الارواح ( ١ / ٢ ) الخ .

### قصص العشاق تحطم الفروق الاجتماعية :

وقد حققت هذه القصص فى خيال الشعب اشتراكية واضحة ، فتغاضت عن الفروق بين الطبقات ، فالخليفة يعشق جارية ، كامر يزيد مع حباية (١١) أو مر يزيد بن معاوية مع عمارة جارية عبد الله بن جعفر (١٢) وابن الخليفة يحب امرأة من عامة الحجاز ، فقد أحب يزيد بن معاوية امرأة عبد الله بن عامر ، ويتدخل معاوية فى هذا الأمر بما عنده من مال وسلطان ، ويكاد يتجح لولا أن يفسد الحسين عليه غرضه (١٣) . والمرأة « الارستقراطية » تتحرش برجل من العامة ، وأقرأ قصة ابنة عبد الملك ، فقد عشقت عاملا حبسه أبوها وطارحته الأشعار ، حتى بلغ عبد الملك أمرهما فزوجها منه (١٤) . وأقرأ قصة أم البنين مع وضاح اليمن التى تدخل فيها يزيد ، أو هو الوليد فواراه التراب (١٥) . أو قصة عاتكة بنت معاوية مع أبى دهبيل الجمحى وقد تدخل معاوية فيها ، فرشا أبى دهبيل بالمال (١٦) .

وألغت أيضا الفروق التى تاتى من المنزلة الاجتماعية ، فالقس الذى لقب بهذا لشدة ورعه ، يحب جارية مغنية تتكشف للناس هى سلامة ، ويقول فيها الأشعار (١٧) . وألغت أيضا الفروق التى يسبب العقيدة ، فالوليد بن يزيد يعشق جارية نصرانية ، وقد تنكر حتى استطاع أن يراها فى بستان ، فجعلت تمازجه وهى لاتعرفه (١٨) .

(١١) الاغانى ٨ / ٣٥١ « دار الكتب » .

(١٢) مصارع العشاق ١٢٥٩

(١٣) مجمع الامثال للميداني ١ / ٢٦٣ .

(١٤) الموشى ص ٥٣ .

(١٥) مصارع العشاق ص ٢٧٦ .

(١٦) الاغانى ٧ / ١٢١ « دار الكتب » .

(١٧) المرجع السابق ٨ / ٣٣٤ .

(١٨) مصارع العشاق ص ٢٦٢ .

### قصص العشق شعبية فى لغتها :

قد كان للفصحى - فى ذلك الحين - ثوبان : ثوب « كلاسيكى » قد نسجه الشعراء من لغة المعلقات ، واصطنعوه من قاموسها ، وهذا الثوب أو هذا الجانب من الفصحى ، يمتاز بالجزالة والفحولة وبضخامة الرنين ، ويطول الجملة ، بل ولا يخلو من الغريب والوحشى ، وهذا الجانب نستطيع ان نلتمسه عند الاخطل أو الغرزدق أو مروان بن أبى حفصة ، أما الثوب الآخر فقد نسجه العامة والموالى والمغنون والمغنيات ، من الألفاظ السهلة السمحة ، والقصيرة الهامسة ، التى يكثر تداولها بين الناس ، وجريانها على الألسنة ، يفهمها العجم والموالى ، وتكون يسيرة على اقواء العجائز والنواهد ، وتبدو فيها السهولة التى تكون مستحبة وقت السمر ، وتتجنب العجرفة التى يضيق بها المتحدثون ويمجها العامة ، وهذا الثوب هو الذى ليست قصص العشق - أو معظمها - فیدت فيه يسيرة يمر الشعب فى حاجاته وسلوكه .

وقد أدرك القدماء أن للعامة لغة وطابعا غير لغة وطابع الخاصة ، ولهذا لو ظهرت نوادر العوام وملح الحشوة ، فى ثوب غير ثوبها لكان هذا مفسدا لها . يقول الجاحظ « وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة الطغام ، فأياك أن تستعمل فيها الاعراب ، أو تتخير لها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ، ويذهب استطابتهم أياها واستملاحهم لها ( ١٩ ) » . ومثل هذا قاله ابن قتيبة « وكذلك اللحن ان مر بك فى حديث من النوادر ، فلا يذهبن عليك أنا تعمدها وأردنا منك ان تتعمده ، لان الاعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها » ( ٢٠ ) .

( ١٩ ) البيان والتبيين ١ / ٨١ .

( ٢٠ ) عيون الاخبار ، مقدمة المؤلف .

#### قصص العشق شعبية في طريقها :

. وتبدو الشعبية في طريقة هذه القصص ومعالجتها لهذا الموضوع ، ففيها شئ من المبالغة التي ترضى العامة وتجذبهم . واقرأ غشيان قيس لأقل سبب ، واقرأ وصفه حين هام في البرية وأنس بالحيوانات والطيء وأنسب به ، بل واقرأ ذلك الموت بين العشاق وكيف يفجؤهم بسرعة ، فشاب يهديه ابن جعفر الجارية التي يحبها فيقع ميءا ( ٢١ ) . وآخر يسمع غناء حبيبته فيلقى بنفسه من القصر ، ثم تلحق به حبيبته وتجا نفسها في حفرة ( ٢٢ ) . بل اقرأ ما يعرف عندهم « بالعشق المسلسل » ، فتجد فيه حكايات يمثل دور الميت فيها أكثر من واحد ، كتلك الحكاية التي رويت عن يونس النحوى ، وقد نزل بصديقه مالك العذرى ، فرأى شابة عاشقا تهق فمات من العشق ، وفى اللحظة نفسها ماتت شابة كانت تهواه ، وشابة أخرى هى ابنة عمه كانت تهواه أيضا ( ٢٣ ) . واقرأ صفات البطولة التي يضيفها القصاص على العشاق فعمر تدس اليه الثريا من يخبره ، أنها عليلة فيسرع اليها ركضا على فرسه ويختار الطريق الشاق ( ٢٤ ) . واقرأ حيله وذكائه فى الوصول الى حبيبته مرة بخديعته بديحا وطلبه أن ينشد بغلة له ضالة ، وكان ذلك آية بينه وبين بنت محمد ابن الأشعث الكندية ، مما جعل بديحا يقول له : يا عمر ، لقد صدقت التي قالت لك .

فهذا سحرك النساء ن ، قد خبرتنى خبرك  
قد سحرتنى وأنا رجل ، فكيف برقة قلوب النساء ، وضعف رأيهن ،

- ( ٢١ ) العقد الفريد ٣ / ١٩٩ .  
( ٢٢ ) المرجع السابق ٢ / ١٩٨ .  
( ٢٣ ) تزيين الأسواق ١ / ١٢٦ .  
( ٢٤ ) الاغانى ١ / ٢٢٢ « دار الكتب »

وما آمنك بعدها ، ولو دخلت الطواف ، ظننت أنك دخلته لبلىة (٢٥)  
ومرة بتنكره في ثياب أعرابي (٢٦) .

أو اقرأ قصة شهاب بن حرقة السعدى ، ولاحظ ما فيها من بطولة  
وشجاعة يظهرها للعاشق ومن ورائه حبيبته تسنده (٢٦) .

إن كل هذا يدل على أن هؤلاء القصاص كانوا يريدون إرضاء عقلية  
العامة التى تميل إلى الاختيار ، والحكايات المبالغ فيها .

#### قصص العشق شعبية في أفكارها ومعتقداتها :

وعقلية العامة تنضح بها هذه القصص في كثير من المعتقدات  
والأفكار ، وبعض هذه المعتقدات نهى عنها الإسلام نهيا صريحا ، ولكن  
أبطال العشق - والعذريون منهم بنوع خاص - مازالوا يعتقدونها ويؤمنون  
بها ، وما زالوا يمثلون - من هذه الناحية - امتدادا لأبائهم من أهل  
الجاهلية .

ولهذا دلالة القيمة .

دلالتة على أن من أراد أن يبحث عن مدى تأثير العقيدة الجديدة  
في حب هؤلاء العذريين ، وفى طريقة تعبيرهم عن هذا الحب ، فلا يبحث  
عنها فقط في أبيات قالها جميل ، يصور فيها أن جهاده لا يكون في غزوة  
يرفع بها من شأن الدين ، أو أبيات قالها غير جميل ، يذكر فيها يوم القيامة  
أو يوم الحشر أو عذاب الآخرة (٢٨) - من أراد أن يبحث عن مخالطة

(٢٥) المرجع السابق ١ / ٨٨ .

(٢٦) المرجع السابق ١ / ١٧٥ .

(٢٧) المعاصم والاضداد ٧١ .

(٢٨) أشير بهذا إلى رأى الدكتور غنيمى ، فقد اعتبر العقيدة  
الجديدة « أقوى العوامل وأبعدها أثرا وأكثرها مظهرا في خلق ذلك  
النوع من الغزل » (الحياة العاطفية ص ٢٤) وقارن مسلك العذريين بمسلك

العقيدة لوجدان هؤلاء ، فلا يبحث عنها فقط في آيات قالها أحدهم في ساعة صحو وأعداد ، ومعرفة إن هذه الآيات سيتناقضها الناس ، ويسمعوها الفقهاء والحكام ، وإنما يبحث عنها أيضا في معتقدات هؤلاء القوم وسلوكهم ، حين يتركون أنفسهم على سجيئتها ، وفيما يقتنصه من وراء السطور ، ومن وراء الآيات من أمور تشكل تصرفهم ، وتفصح عن وجدانهم .

ودلالته أيضا على أن العامة لا يبقون الدين على نقائه وجوهه ، بل يضيفون إليه من عقائدهم وأوهامهم ومتوارثاتهم ، أثياء يمزجونها بالدين الأصلي ، فمثلا في عصرنا كلنا نعرف أن العامة يعتقدون في أمور تخالف كل المخالفة جوهر الدين ، كإيمانهم بتلك السلطة الكبرى التي يصفونها على السيد البدوي ، وتجعل هذا الإنسان الميئ يتدخل في مصائرهم ويتحكم في أقدارهم ، فتلك العقيدة تخالف جوهر الدين الذي يؤمن بالوحدانية ، وينزه الله عن الشريك .

فإذا أراد إنسان أن يتحدث عن عقيدة العامة ، فلا يتحدث عنها ممثلة

الزهاد الاتقياء ( المرجع السابق ٣٣ ) ، ورأى أن للدين تأثيرا في هذا الحب فلم يكن ذلك النوع من الحب لوجود لو لم يغز قلوبا عامرة بالعقيدة مؤمنة بالروح وبالدار الآخرة ، تعتنق فضيلة الزهد ، وتؤمن بجهاد النفس ، وتنتظر الثواب على العفاف في الحب » ( المرجع السابق ص ٣٧ ) . ولست أريد هنا أن أظعن في عقيدة هؤلاء القوم ، أو أن أسلبهم إسلامهم ، فقد كان بعضهم ورعا زاهدا مثل « عروة بن أذينة وعبد الرحمن النفس » وكل ما أعنيه ، أن هؤلاء القوم في عشقهم وفي طريقة تعبيرهم عن هذا العشق ، لم يكونوا يصدر عن دوافع إسلامية ، ولم يكونوا يبيغون الثواب من الله تعالى جزاء وفاقا على صنيعهم ، والا فما الحكم على هؤلاء الذين وجدوا قبل أن توجد العقيدة الجديدة . بل كان هؤلاء القوم يمتاحون في التعبير عن عاطفتهم من وجدانهم ، الذي مازالت فيه رواسب قديمة من معتقدات وأوهام وعادات ، تعيش جنباً إلى جنب مع تلك القيم الجديدة .



فى ذلك الدين النقى ، وانما يتحدث عنها فى هذا الدين الذى يقبح فى وجدانهم ، ويتخذ صورة هى مزاج من الدين الاصلى ، ومن العقائد التى توارثوها عن اجدادهم ، كما توارثوا عنهم دماءهم ، وهذا البحث اكثر دلالة على نفوس هؤلاء ، واشد صدقا على تكوينهم ، واضمن طريق يلجأ اليه الباحث للوصول الى نتائج اقرب الى الصدق والواقع .

واليك طرفا من هذه العقائد الشعبية التى لاترضى روح الاسلام .  
كان العشاق يلجأون الى الكهان او العراف ، يلتمسون عندهم المعونة فى التغلب على عواطفهم ، ويحاولون أن يجدوا عندهم الشفاء من الهوس الذى يحل بهم .

فقد لجأ كثير الى عراف من نهد يستخبره عن حال عزة ، وقد كانت غائبة بمصر ( ٢٩ ) ، وعروة بن حزام ينشد أبياتا فى عراف اليمامة ( ٣٠ )

وكلنا يعرف أنه كانت للعراف منزلة كبيرة فى المجتمع الجاهلى ، فقد كانوا يحتكمون اليه فى أمورهم ، ويأخذون رأيه فيما عسى أن ينزل بهم ، وهو الذى حكم فى النزاع بين هاشم وأمىة ( ٣١ ) . والاسلام قد نهى عن هذه العقيدة الخاطئة ، فلم يبح لمعتنقيه هذا التعلق الكبير بمخلوق ، وليس فى طقوسه كهانة أو احتكار ، وقد نفى أن يكون قول النبى ﷺ قول كاهن ، فقال تعالى : « انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون ( ٣٢ ) » .

وكان هؤلاء العشاق يتطهرون ويتشاءمون من الغريبان ، لما بسغ

---

( ٢٩ ) الموشى ٢ / ١٧٠ .

( ٣٠ ) أخبار عروة بن حزام ص ٧ .

( ٣١ ) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٥٣ « دار المعارف » .

( ٣٢ ) سورة الحاقة الايات ٤٠ و ٤١ و ٤٢ .

كثيرا ان عزة عليلة خرج يريدنها وهي بمصر ، فرأى غرابا ساقطا على  
بانة ، ينتف ريشه ويطائره على رأسه ، فتطير من ذلك ، واتى عرافا  
من نهد ، أخبره بما رأى ، فأيسه من ذلك ، وأخبره بوقاتها ، فلمّا  
وصل الى مصر خبر بموتها فانشأ يقول :

فما أعيف النهدي لأدر دره      وأعلمه بالزجر ، لأعز ناصره  
رأيت غرابا ساقطا فوق بانة      ينتف على ريشه ويطائره  
فأما غراب فاعتراب من الهوى      وبان فبين من حبيب تعاشره (٣٣)  
وروى أن لبنى أمسكت بأربعة غرابان وكتفتهن ، وجعلت تضربهن  
بالموط حتى متن جميعا وهي تقول بأعلى صوتها •

لقد نادى الغراب ببين لبنى      قطار القلب من حذر الغراب  
فقلت غدا تباعد دار لبنى      وتنأى بعد ود واقتراب  
فقلت تعست ويحك من غراب      أكل الدهر سعيك فى تباب  
لقد أولعت لا لاقيت خيرا      بتفريق المحب عن الحباب (٣٤)

وفى قصص العشق تجد اشارة الى عقيدة الهامة ، فيزعمون أن ليلى  
الاخيلية مرت مع زوجها بقبر توبة • فقالت : السلام عليك يا توبة ، ثم  
حولت وجهها الى القوم ، وقالت : ما عرفت له كذبة قط قبل هذه • قالوا :  
كيف ؟ قالت : ليس القائل :

ولو ان ليلى الاخيلية سئمت      على ، ودونى تربية وصفائح

(٣٣) الموثى ٢ / ١٧٥٠ •  
(٣٤) مصارع العشاق ص ٧٧ •

رُفِعَتْ لِمَسْلَمَتِ تَسْلِيمِ الْبَشَائِثَةِ أَوْ رُفِعَتْ  
 إليها صدى (٣٥) من داخل التراب صالح  
 وأهبط من ليلى بمسا لا أنسأله . . . الأكل ماقرت به العيش صالح  
 فما باله لا يسلم على كما قال . ثم خرجت من جانب القبر بومة ،  
 طارت في وجهه الجميل ، فنفر فرمى ليلى على رأسها ، فماتت من  
 وقتها (٣٦) .  
 والتطير والاعتقاد في الهامة من الأوهام التي كانت شائعة بين  
 الجاهليين (٣٧) .

وقد نهى الإسلام عن هذه الأوهام نهياً صريحاً ، فورد قول النبي ﷺ  
 « لاعدوى ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر » (٣٨) . . .  
 وصاحب بلوغ الأرب ذكر تحت عنوان « بيان ما كان عليه العرب  
 في الجاهلية من الأعمال التي أبطلها الإسلام (٣٩) » طائفة من تلك  
 العقائد التي شاعت في أخبار العشاق وشعرهم كتعليق الحلى والجلجل  
 على اللديغ يرون أنه يفيق بذلك . . . وقال بعض بني عذرة :  
 « كأنه سليم نسأله كلم حيسة ترى حوله حلى النساء موضعاً  
 وقال جميل :

إذا مالدغ أبرأ الحلى داءه فحليك أسمى يابثينة دائيا (٤٠)

(٣٥) الصدى : طائر يصيح في هامة المقتول إذا لم يثار له ، وقيل  
 هو طائر يخرج من رأسه إذا بلى ويدعى الهامة ، وإنما كان يزعم ذلك  
 أهل الجاهلية ( لسان العرب « صدى » ) .  
 (٣٦) الاغانى ١١ / ٣٤٤ « دار الكتب » .  
 (٣٧) أنظر لذلك : بلوغ الأرب ٢ / ١٩٩ و ٢ / ٣٣١ ومروج الذهب  
 ١ / ٢٥١ و لسان العرب « صدى » .  
 (٣٨) رواه أبو هريرة أنظر صحيح البخارى ٧ / ١٢١ وأنظر  
 أيضا بلوغ الأرب ٣ / ١٩٩ والعمدة ٢ / ٢٠١ .  
 (٣٩) بلوغ الأرب ٢ / ٣٠١ .  
 (٤٠) المرجع السابق ٢ / ٣٠٥ .

ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان إذا عشق ولم يسلم ، وافترط عليه العشق ، حمطه رجل على ظهره كما يحمل الصبي ، وقام آخر فاحمى حديدته ، وكوى بين اليديه ، فيذهب عشقه فيما يزعمون . عن محمد ابن سليمان بن فليح قال : كنت عند عبد الله بن جعفر ، فدخل عليه كثير ، وعليه أثر علة ، فقال عبد الله : ما هذا بك ؟ قال : هذا ما فعلت بي أم الحويرث ، ثم كشف عن ثوبه وهو مكوى وأنشد :

عفا الله عن أم الحويرث ذنبها      علام تعنيني وتكسي دوائيا  
ولو آذنوني قبل أن يرقموا بها      لقلت لهم أم الحويرث داثيا (٤١)

ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله وذكر من يحب أو دعاه فان الخدر يزول . قال كثير :

إذا خدرت رجلى ذكرك اشتفى بدعواك من مذل بها فيهون  
وقال جميل :

وانت لعيني قرة حنين نلتقى وذكر يشفيني إذا خدرت رجلى (٤٢)

واستنادا الى هذه العقيدة ، لا أوافق العقاد على حكمه في أن جميلا في قوله :

إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها دعاء حبيب ، كنت أنت دعائيا  
قد حاكي عمر بن زبيدة في قوله :

إذا خدرت رجلى أبوح بذكرها ليذهب عن رجلى الخدر ، فيذهب (٤٣)

(٤١) بلوغ الأرب ٢ / ٤٢٢ .

(٤٢) المرجع السابق ٢ / ٣٢ . وانظر أيضا تزيين الأسواق

١ / ٥٣ فانه يشير الى هذه العقيدة الجاهلية .

(٤٣) جميل بثينة ص ٩٢ .

اذ لا محاكاة هنا ، فكل منهما يفتاح من عقيدة شائعة ، عند آباؤهم  
الجاهليين قد توارثوها عنهم .

هذا ويظهر ابطال كعشق - أو معظمهم - فى صورة قريبة من رجل  
العامّة ، بل ربما كان هؤلاء العامّة يصفون عليهم من انفسهم ، ويخلعون  
عليهم من ذواتهم .

ففى كل زمان نجد ان العامّة يميلون الى الاستسلام والتواكل  
والخضوع لما هو مكتوب على النجيب ومسطر فى الألواح .

كذلك كان ابطال العشق جبرية ، يرون انه لا حيلة فيما وقع ،  
ولا يملكون له تحويلا ، وليس بيدهم شيء ، يقول ذلك المجنون حين يلومه  
اللائمون (٤٤) . ويقول ابن ذريح (٤٥) ، ويقول عروة (٤٦) ، بل  
تكاد لاتجد عذريا الا ويستسلم مثل ذلك الاستسلام ، يقول جميل لابن عمه  
روق وقد لامه : « يا اخى ، لو ملكت اختياري لكان ما قلت صوابا ،  
ولكنى لا املك الاختيار ، وما انا الا كالاثير لا يملك لنفسه نفعا » (٤٧) .

وموقف هؤلاء مخالف لجوهر الاسلام ، فالاسلام يعطى المرء شيئا من  
الارادة يجعله مسئولاً عن عمله « وقل اعملوا فتمنوا الله عملكم ورسوله  
والمؤمنون » (٤٨) وانه من اجل ذلك سيحاسب على مقدم ، ان خيرا  
فخير ، وان شرا فشر ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل  
مثقال ذرة شرا يره » (٤٩) . وانظر الى خطاب الله للكافرين يحملهم

- (٤٤) الأغاني ٢ / ١٧٤ « ساسى »
- (٤٥) تزيين الأسواق ١ / ٥٤
- (٤٦) الأغاني ٢٠ / ١٥٣ « ساسى »
- (٤٧) ٨ / ١٤٩ « دار الكتب »
- (٤٨) سورة التوبة من الآية ١٠٥
- (٤٩) سورة الزلزلة الآيتين ٨ و ٧

مسئولية عملهم تمام التحمل ، يقول لهم على لسان نبيه « لكم دينكم ولي دين » ( ٥٠ ) .

ولا اعتقد أنهم متأثرون بما شاع من تيارات ثقافية في هذا العصر ، كمذهب الجبرية الذي يجعل الانسان كريشة في مهب الرياح ( ٥١ ) . فقد كان هؤلاء العشاق - على وجه العموم - في شغل عن الصراع الثقافي ، أو الصراع الحزبي ، بما ابتلوا به من عاطفة لا يستطيعون لها دفعا ، ولا عنها حولا .

ولا اعتقد أنهم متأثرون بما شاع في مسرحيات الاغريق ، من استسلام للقدر واذعان في آخر الامر لحكمه ، فان العرب في ذلك العصر لم يعرفوا مسرحيات الاغريق ، ولم يترجموا شيئا من تراثهم الادبي .

بل كان موقفهم هذا موقفا طبعيا لرجل العامة ، الذي يلقي مقاليدہ لقوة اكبر منه يحملها مسؤولية عمله ، وزاد الطين بلة ما ابتلى به الحجاز في ذلك الحين من اضطهاد وقسوة وارهاب ، جعلت بطل القصة في خيال الشعب انسانا ضعيفا مسلوب الارادة ، عديم الحيلة ، يبكي بصوت كله حزن واستسلام .

فالعامة قد خلقت بطلا متواكلا ، وتلك الظروف أضافت اليه «رتوشا» فيها حزن واستسلام .

وكثير يعتبر مثالا طيبا لعقلية العامة ، فقد كان في معتقداته اقرب الى افكارهم واتجاهاتهم « دخل عبد الله بن حسن على كثير ، يعود في مرضه الذي مات فيه ، فقال له كثير : أبشر ، فكانك بي بعد أربعين ليلة قد طلعت عليك على فرس عتيق . فقال له عبد الله بن حسن : مالك ،

( ٥٠ ) سورة الكافرون من الآية ٦ .

( ٥١ ) الفصل لابن حزم ٣ / ٢٢٠ .

فوالله لئن مت لأشهدك ولا أعودك ولا أكلمك أبدا . وكان ساذجا سريع الاستجابة ، وكان أهل البيت يعرفون ذلك ، ويسخرون منه ، فكان أبو عبد الله محمد يضع عليه الارصاد ينبئونه بخبره ، وقد أخبره أبو هاشم مرة بما حدث بينه وبين رجل ، فقال له كثير : أشهد أنك رسول الله ، وكان يصدق ببلاهة : أما ذا قلت هذا ، فاني لأجد في عيني هذه ألما منذ أيام ( ٥٢ ) .

وهنا أصل الى نقطة مهمة ، ولكنها واضحة في كثير من قصص العشق كل الوضوح ، وهي تشف عن عقلية العامة التي ترتكن الى أمور خارجة عنها تسوق لها السعادة ، أو تجلب عليها الشقاء .

ولا شك أن تدخل أمور خارجية تتحكم في إبطال القصص ، معيب من الناحية الفنية ، فالفنان الحق يجب أن يترك قصته تتطور من داخلها ، وتنمو بما فيها من « جينات » فنية ، إذا سمح لنا علماء الاحياء باستعارة هذه الكلمة . ولا يسمح الفنان الحق بأي دخيل يتحكم في مصير أبطاله ، فيأخذ بيدهم ان شاء أو يأخذ على يدهم ان أراد ، بل يترك قصته بما فيها من « جينات » ، وبما في داخلها من قانون النمو ، تصنع حياتها بنفسها ، وتصل الى أهدافها تلقائيا .

ولكن قصص العشق أقرب الى عقلية العامة منها الى عقلية الفن . فقد أباحت لعناصر خارجية أن تصنع لها حياتها .

والأمور الخارجية في قصص العشق تتمثل في السلطان ، أو في عظيم له قدره وجاهه .

فتدخل السلطان أمر تنجده في كثير من قصص العشق العذرية ، فحين يشيع أمر العاشقين ، يشكو أهل العشيقة الى السلطان ، فيأمر

---

( ٥٢ ) انظر ها الاخبار في الاغاني ٩٠ / ١٦ : ٣٥ « دار الكتب »

باهدار دم العاشق ، وهنا تتازم الأمور ، وتشتد العقبات ، ونشاهد ألوانا من المصاعب ، ومن الحيل ومن البطولات .

يصبح العاشق فى موقف لا يحسد عليه ، فالحاكم قد أهدر دمه ، وأهل العشيقة يتربصون به ، والقاص يابى إلا أن يلتقى بحبيبته ... فماذا يفعل ؟ .

منهم من يتحایل ، فيرجو من أمة أن تجمع بينهما ، كأمر بريكة من ابن ذريح (٥٣) ، ومنهم من تخدمه المصادفة المحضة كزوج لبني الذي اشترى بمحض المصادفة ناقة قيس وواعده منزله ليقيضه (٥٤) . ومنهم من يرسل خاتمه الى حبيبته لتعرف مكانه ، كما فعل جميل اذ أرسل وليده بخاتمه الى بثينة ، فلما رآته جاءت فتحدثا ليلتهما (٥٥) . ومنهم من يطلب مساعدة ابن عمه أو أحد معارفه كما طلب جميل من روق ابن عمه مساعدته ، فهب لذلك وأخفاه عند صديق له من رهط بثينة (٥٦) . وظل عنده ثلاثة أيام وهو يلتقى ببثينة .

ويتيح تدخل السلطان الفرصة للقاص ، لكى يظهر ألوانا من البطولة ، يضعها على بطله فما أكثر المبارزات التى حدثت بين جميل وأهل العشيقة ، وانتصر فيها جميل (٥٧) .

والقاص لم يكن متلائما مع واقعه فى اختلاق هذا الموقف .

فالحاكم لم يكن خاليا من مشاغله حتى يفرغ لأمر العشق ، ويستجيب لأهل البطلة ، ولو تفرغ الحاكم لهذه القصص لما رأى لها أولا ولا آخر ، فهذه القصص فى العصر الأموى كثيرة ، وماعرفناه منها أقل من القليل ،

- (٥٣) الأغاني ٩ / ٢٠٩ « دار الكتب » .
- (٥٤) الأغاني ٩ / ٢٠٤ « دار الكتب » .
- (٥٥) المرجع السابق ٨ / ١٤٩ .
- (٥٦) المرجع السابق ٨ / ١٤٩ .
- (٥٧) المرجع السابق ٨ / ١٤٧ .



فكيف يستقيم هذا مع ما عرف عن العصر الأموي ، وما فيه من اضطراب  
وزلازل كافية لأن تشغل الحاكم عن التدخل في امر العواطف .

على أن هذا الموقف صادق في الدلالة على نفوس الحجازيين .

فهم يعرفون أن السلطان قد سلبهم حقوقهم ، وقد سبب لهم  
اضطرابات وزلازل وحرهم من مطالب كثيرة ، كانوا يتوقون اليها ، ووقف  
هقبة بينهم وبين كثير من الآمال والمطامح ، إذا كان هذا حال السلطان  
والحاكم معهم في واقعهم ، هادم لذات ومفرق جماعات ، فلا أقل من  
أن يكون كذلك في قصصهم ، وأن يمثل العقبة التي تحول بين العاشق  
وآمالهم ، وأن يكون رمزاً لكثير من المتاعب التي يلاقها العاشق ، وسبباً  
في كثير من المصاعب التي تنشأ بين العاشق وأهل العاشقة . ولهذا لم  
يكن عبثاً استخدام كلمة « سلطان » أو « حاكم » بديلاً عن كلمة « خليفة »  
أو « أمير المؤمنين » فهم - شعورياً أو لاشعورياً - استخدموا من الكلمات  
ما يوحي بالسلطة والقسوة والحكم والاستبداد ، ولم يستخدموا الكلمات  
التي فيها دلالة على أن الحاكم خليفة النبي على المسلمين ، وأمير على  
المؤمنين يبغي مصلحتهم والعدل بينهم .

وإذا كانت القوة الخارجية التي تنغص على العاشق ، وتسبب له  
المصاعب والمتاعب ، قد جسدتها تلك القصص في الحاكم أو السلطان ،  
فإن القوة الخارجية التي تتجاوب مع العاشق وتتعاطف مع نفسيته ،  
وتحاول أن تصل بينه وبين هواه ، وأن تحقق له شيئاً من السعادة ،  
قد مثلتها تلك القصص في فريق من الحجازيين يسعون إلى ارضاء العاشق  
وتحقيق رغباته ، فالحسين رضي الله عنه يستجيب لقيس بن ذريح ،  
ويذهب خاطباً لها من أبيها ، فيقول له : لو أرسلت لكفيت ، ولكن ذلك من  
أبيه اليبق كما هو عند العرب . فيذهب إلى أبيه فيطيع الحسين ، ويزوج  
قيسا من لبنى ، ثم يطلقها تحت ضغط أبيه ، فتذهب نفسه حسرات ،  
ولكن يظهر على المسرح ابن أبي عتيق ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله

ابن جعفر ، رضى الله عنهم ، فيجمعون بين قيس ولبنى مرة أخرى (٥٨)  
ولابن أبى عتيق جولات كثيرة ، ذكرها ، يحاول أن يتوسط فيها  
بين عمر والثريا ، وقد مدحه عمر بابيات ، فطلب منه ابن أبى عتيق -  
تظرفا - أن يكف عن مدحه ، لأن من يسمع هذه الابيات يحسبه  
قوادا (٥٩) وابن أبى جعفر يحاول أن يجمع بين جارية وشاب  
يحبها (٦٠) . الخ .

وهذا الموقف صادق من ناحيته الواقعية ، وصادق فى الدلالة على  
نفوس الحجازيين .

فاننى أعتقد أن هؤلاء الشباب ، الذى أصبح يطارد ويحثه على  
العمل ماض لأبائهم مجيد ، فأبائهم قد أسسوا الدولة فى أول أمرها ،  
وأعلوا شأن الدين ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، ثم بين يوم وليلة حيل  
بين هؤلاء الشباب وبين حياة الجد والطموح ، فلا أقل من أن يتجهوا  
الى ميدان آخر يظهرون فيه شخصياتهم ، ويعبرون فيه عن ذواتهم ،  
ويثبتون للحجازيين أنهم ليسوا أقل نفعا لهم من آبائهم ، وأنهم يسعون  
لمصلحتهم ، كما كان أجدادهم يفعلون ، والقارئ لسيرة ابن أبى عتيق  
يخس أنه يحاول أن يستعيز ببطولة عن بطولة ، أو القارئ لأخبار  
الحسن يرى أنه ينتهز الفرص ليدخل السرور على أهل المدينة ، وقد  
أرغم مرة ابن عائشة أن يغنى وقد سال العتيق ، فقال أهل المدينة له :  
« ما اجتمع لأهل المدينة سرور قط الا بكم يا أهل البيت » (٦١) .  
فليس ببعيد إذن هذا الدور الذى أسندته هذه القصص لهؤلاء الشرفاء  
الأجلاء .

وهذا الموقف صادق فى دلالة على نفوس الحجازيين .

(٥٨) الأغاني ٩ / ١٩ « دار الكتب » .

(٥٩) تزيين الاسواق ١ / ٥٣ .

(٦٠) ذم الهوى ص ٥٣٠ .

(٦١) العقد الفريد ٣ / ١٨٩ .

فإن المجازيين قد أرغموا على الخضوع لبني أمية ، وقد أدرك ذلك معاوية فقال عن أهل المدينة ، أنهم اظهروا ذلا تحته حقد (٦٢) ، وقد كانت ميولهم وأهواؤهم مع أهل البيت .

وقد رأيت أن القصاص أسندوا إلى السلطان دور المنقص على المحبين ، وكان هذا منطقيا مع موقفهم وشعورهم النفس تجاه السلطة والحكم ، وهنا ترى أن القاص يستند إلى علماء الحجاز - وخاصة أهل البيت منهم - دور الذي يسعى إلى سعادة المحب ، ويبحث عن مصلحته ، وهذا يتواءم مع شعورهم نحو آل البيت ، فهم يرون أنهم أكثر حرصا على سعادة الحجازيين ، وأشد مراعاة لمصلحة المسلمين .

والخلاصة أن أوضح صفة تظهر في هذه القصص هي شعبيتها ، بما فيها من ميول تحاول ارضاء العامة ، وبما تشف عنه من معتقدات العامة ونفسياتهم الخ .

على أن هذه ليست هي الصفة الوحيدة لهذه القصص ، بل تشاركها صفات أخرى ، ولا أقول « خصائص » ، فإن هذه الصفات يشترك فيها معظم القصص العربي ، وبعض هذه الصفات يدل على الطريقة التي اعتادها العقل العربي في تفكيره .

سجلت في مكتبة جامعة القاهرة - مكتبة المخطوطات

٢٢٦ / ٢ المرجع السابق

الانتقال من موضوع الى موضوع ، وتجاوير الموضوعات :

يظهر فى بعض هذه القصص تجاور الموضوعات ، والانتقال من موضوع الى آخر ، وأحيانا تداخل حكاية فى أخرى .

يعقد ابن أبى ربيعة حلقة ، يتذكر فيها العذريين وعشقم وصبايتهم ، فيحدث حديث أخ له من عذرة ، ويذكر قصة حبه ودعائه فى البيت الحرام ، ثم اذا بصديقه يهمهم بأبيات :

يارب كل غدوة وروحة من محرم يشكو الضحى ولوحه

أنت حبيب الخطب يوم الدوحة

فيسأله عمر عن يوم الدوحة ، فيقص عليه صديقه قصة ذلك اليوم (٦٣) .

والجاحظ خرج مع محمد بن ابراهيم على حراقتة ، متحدين الى مدينة السلام ، فاذا بطنبورية عاشقة تزج نفسها الى الماء ، واذا بسلام يزج نفسه بآثرها . فقال محمد : ياأبا عمرو ، لتحدثنى بحديث يسلىنى عن فعل هذين والا الحقك بهما ، فقص عليه قصة الشاب الذى استمع ثلاثة أصوات ، من مغنية عند سليمان بن عبد الملك ثم صعد على قبة ورمى بنفسه ، ثم اذا بالمغنية تزج بنفسها فى حفرة أعدت للمطر فتموت (٦٤) .

لست أصدق تفصيلات هذه القصة ، وأنه حقيقة قد زجت الطنبورية والغلام بنفسيهما الى الماء ، وأن محمدا قد هدد الجاحظ حتى يذكر له حديثا يسرى عنه ، فذكر له خبر سليمان مع هذا الشاب - لست أصدق هذه التفصيلات ، فلو كانت قصة الطنبورية حقيقة ، لكان محمد فى غنى

عن (٦٣) مصارع العشاق من ٥٠ ص

(٦٤) الزهرة من ٤٥٢ والموشى ١ / ٨٠ وتزيين الاسواق ١ / ٤٢ والعقد الفريد ٣ / ١٨ ومصارع العشاق من ٢٢٧ ص

عن استماع حكايات ، ولكفته الفجاءة والدهشة ثم الحزن عن التفرغ للحكايات ، أو لآتى الجاحظ تسرى وتذهب الهم ، غير تلك القصة التى تزيد الحزن حزنا والنكد نكدا .

وانما اعتقد أن هاتين القصتين من وحى الخيال ، وأن الجاحظ أو الراوى قد اختلق هذا الموقف ورسم ذلك الجو ، حتى يتيسر له الانتقال من حكاية الى أخرى .

وهناك قصة حشرت وسط أخبار المجنون ، حدثت فى سالف الأخبار بين سلطان ووزير ، وقد قصها شيخ على نوفل بن مساحق ، حين أعياء أن يلتقى بالمجنون ، فعسى أن يقيد بما فيها من تجارب تعينه على الوصول الى غرضه ، فقد كان نوفل « متطلبا لأخبار المجنون ، جامعا لأشعاره ، وأنه قدم سنة من السنين ، فقالوا لم نعرف له خيرا ، فركب فى طلبه حتى لاح له وراء أراكه بين قطيع من الغزلان ، وقد غطى شعره . ولكن أتت ظباء فشريت ثم انصرفت وانصرف معها المجنون ، ولم يمكنه الاجتماع به ، فشكا ما به الى شيخ كبير من بنى سعد ، فذله الشيخ على داية ، يالفاها المجنون وتحمل له الطعام ، فأتى الجارية ، ولكن المجنون هرب منهما ، فرجع وأخبر الشيخ . فقال له الشيخ : قد قرأت فى سالف الأخبار أن سلطانا قال لوزيره : أخبرنى عن أعظم راحة وأقوى لذة ، وأشد حافر على الأرض ، وقد أمهلتك ثلاثا ، فن لم تجب جللتك بالسيف ، فمضى مهموما وكانت له ابنة ، قد اتخذت قصرا مفتوحا الى الأربع جهات على قارعة الطريق للنزهة ، فلما رأت ما بأبيها استعطفتها ، حتى أخبرها فاستسهلت الأمر ، وقالت له : إذا عدت له من الغد فأخبره أن أقوى راحة ، راحة الخبز ، وأعظم الأشياء لذة لذة الجماع ، وأشد حافر على الأرض البغال . قال له . أخبرنى من أين لك ذلك ، فصدقته الأمر ، فاستحضر البنت وقال لها : لئن لم تخبرينى عن تعليل ذلك ، ولا ضربت عنقك ، فأنك بكر . ولم تعلمى أحوال النساء ولا لذة الجماع ، فقالت : أريد الله الملك ، أن قصوى مخفص

تلاهووية ، فلم أجد من لدن قطننت به رائحة ، يتكيف بها الهواء أعظم من الخبز ، ولم يتحرك جدار القصر من شيء غير البغال ، وأما الجماع فاننى اخترته من شدة ألم الوضع ، وما شاهدت من مقاساة النساء فيه ، فلو لم يكن الجماع أعظم لذة ما عدن اليه ، والرأى عندى أن تصنع خبزاً وتجعله فى طابق يضم بخاره ، وتفتحه حيث يشمه ، فانه يقف لبعده عهده به ، فتذكر له ليلى فيزداد أنسا . قال الرجل : قمضيت وعملت برأى الشيخ ، وطيببت الخبز بالافاويه حتى اذا أقبل ولحته من خلال الأراكة ، كشفت الخبز ، وصعدت لتشرب الأطباء فشرين وسرن ، ووقف ليشم الرائحة (٦٥) .

والاستطراد وتجاوز المعانى فى هذه القصص . موافق للمعنى القاموسى لمادة « قصص » فتقصص الخير تتبعه ... والقاص الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها والفاظها ... وقص آثارهم ... تتبعها بالليل . قال الأزهري : القص اتباع الأثر . ويقال خرج فلان قصصا فى أثر فلان . وذلك اذا اقتص أثره ، وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر وسوقه الكلام سوقا (٦٦) فالمعنى العام لهذه المادة هو « التتبع » الذى يقتضى تقسيم الشيء الى أجزاء أو آثار ، فقص أثر بمعنى تتبعه خطوة بخطوة ، قال الله تعالى « فارتدا على آثارهما قصصا » (٦٧) أى تتبعا آثار اقدامهما اثرا بعد أثر (٦٨) ، وقص القصة بمعنى تتبعها خبرا بعد خبر كما قال الأزهري .

وربما كان السبب فى هذا الانتقال والاستطراد من موضوع الى آخر ، هو أن تلك القصص كانت تحكى فى مجالس السمر ، وأوقات المنادمة ، ويحلوا الحديث فى تلك الاوقات ، ويترك المتسامرون انفسهم على

- 
- (٦٥) تزيين الاسواق ١ / ٧٤ - ٧٥ .  
 (٦٦) لسان العرب « قصص » .  
 (٦٧) سورة الكهف من الآية ٦٤ .  
 (٦٨) لسان العرب « قصص » .

سجيتها ، فيتتقلون - والحديث ذو شجون - من موضوع الى موضوع ، يجدون لذة في هذا الانتقال وممتعة في ذلك الاستطراد ، وتصور مجلسا من مجالس السمر تر فيه المحدث اللبق ، كيف ينتقل من حديث الى حديث ، ومن موقف الى موقف .

وليست هذه الظاهرة خاصة ببعض قصص العشق ، بل تكاد تجدها في كثير من كتب الأقدمين ، تصفح كتابا في التفسير ، وليكن كتاب الطبري ، وانظر حديثه حين يذكر قصص الانبياء ، أو تصفح كتابا في التاريخ ، وليكن سيرة ابن هشام ، تر كيف ينتقل المؤلف من حديث الى حديث .

بل تجد هذه الظاهرة في كثير من القصائد العربية التي يبدوها الشاعر بالبكاء على أطلال حبيبته والغزل فيها ، ثم اذا به ينتقل الى الحديث عن ناقلته ، وعن الأماكن التي يمر بها ، وعن وصف وحوش البرية وحيوانها ، ثم اذا به يتحدث عن المدح ، وعن صفات الممدوح وعن كرمه .

لقد أراد بعض الباحثين أن يرجع السبب في تركيب أمثال هذه القصائد ، الى أن الشاعر كان يقوم برحلته الى الممدوح ، فيمر على ديار حبيبته ويتغزل بها ، ثم يتحدث الى ناقلته رفيقته في السفر ، ويهون عليها مشاق الرحلة الى أن يصل الى خاتمة المطاف ، فيذكر ممدوحه (٦٩) .

لئن صح هذا الفرض والتخيل ، الذي اعتبره قصة وخيالا ، قد وضع لتفسير وربط موضوعات القصيدة بعضها ببعض ، كما كانوا يضعون القصص في العصر الأموي لتفسير الأبيات ، التي تشيع على السنة المغتربين وربطها بعضها ببعض .

(٦٩) لهذا الموضوع انظر ١ - المصنف والشعراء ١ / ٢٠٦ - العمدة ١ / ١٥١ - أسس النقد الأدبي عند العرب الدكتور أحمد أحمد بدوي ص ٢٩٦ .

لئن صحت هذه القصة في تفسير بناء القصيدة العربية ، فكيف نفسر هذه الظاهرة في قصص العشق ، أو في كتب التاريخ ، أو في كتب المفسرين .

لا أريد أن أفسر هذا المنهج بأمثال تلك القصص ، المتخيلة والمنسوجة من معاني القصيدة ، وإنما أريد أن أفسرها بطريقة من التفكير ، قد اعتادها العقل العربي ، فجعلت تظهر ، لا في الشعر فقط ، بل وفي النثر أيضا .

اعتاد العرب هذه الطريقة ، ورضوا هذا المنهج ، فجعلوا يتبعونه في سائر عصورهم ، وفي شعرهم ونثرهم ، ولم يغيروا هذا المنهج - وفي الشعر بنوع خاص - إلا بعد أن اتصلوا في هذا العصر بالثقافة الأوروبية ، فرضى فريق منهم منهاجا جديدا ، ولم يستطع فريق آخر تغيير تكوينهم ، فقتنوا بهذا المنهج القديم .

وقد كان معاوية رحمه الله يريد من محدثه أن يحافظ على تسلسل الحديث ، وعلى وحدة الموضوع ، فحين كان يحدثه عبيد عن أمر هود وأصحابه ، يأتى على لسانه ذكرا عادات الأخرى فيسأل معاوية : وهل عاد غير هذه ؟ قال : نعم ، يا معاوية فإن أحببت أخذت في الحديث ، حتى أتى بحديثهم . قال : بل خذ في حديثك ( ٧٠ ) وفي أثناء الحديث عن لقمان ، يأتى ذكر الملك المجرد الحارث بن ذى شدد ، فيسأله معاوية عنه . قال عبيد : يا أمير المؤمنين ، هو الرائي ملك من ملوك حمير باليمن ، فإن شئت حدثتك حديثه . قال معاوية : بل أتم حديثك ، حتى أسألك عما أريد أن شاء الله تعالى ( ٧١ ) .

ولكن لم نصل بعد إلى أصل ، فإذا كنا قد سرفطنا القصص المتكويمة حول معاني القصيدة ، والتي تريد أن تفسر هذه الطريقة في الشعر ،

( ٧٠ ) أخبار عبيد ص ٣٥٠ .

( ٧١ ) المرجع السابق ص ٣٦٥ .



ثم تعجز عن تفسيرها فى النثر - اذا رفضنا هذه القصص فكيف نفسر السبب الذى جعل العرب يعتادون هذه الطريقة ، ويلجئون اليها ؟ .

كانت غالبية اهل الجاهلية من الاميين ، كما وصفهم القرآن الكريم (٧٢) ، اى انهم كانوا امة امية ، ليس فيها كتاب يقرءونه ، كما فسر بعض المفسرين هذا الوصف (٧٣) . ويعنى ذلك انهم لم يكونوا يتلقون ثقافتهم من كتب الفها صاحبها فى ساعة اعداد وتمهيد ، ولحظة فراغ يلجأ فيها الى كتبه ينقح ويهذب ، ويحذف ويزيد ، بل كانوا يتلقونها شفاهاً . يفرغ الناس من عملهم فصاحب الغنم فى البادية قد أراح غنمه ، وصاحب التجارة فى الحاضرة قد فرغ من تجارته ، ثم يجلسون الى القاص أو الشاعر ، تحت ضوء القمر ، ينتظرون حكاية لطيفة ، أو قصة مسلية ، أو قصيدة ممتعة . ويتحدث القاص ، أو ينشد الشاعر ، ويستمتع اليه الناس ، وقد يسألونه عن تفسير موقف فيأخذ لهم فى تفسيره ، أو قد يستفسرون عن أبيات لبطل من أبطال القصة فيوردها لهم ، وقد يسأل أحدهم عن يوم الدوحة ، أو ليلة الغيل ، فيذكرها لهم . وقد يسأل ثان عن عاد الأخيرة أو عن لقمان ونسوره ، فيورد لهم ذلك .

طريقة هذه الثقافة التى تاتى عن طريق المجالس والندوات ، تختلف عن الطريقة التى يكون مصدرها الكتب والمؤلفات . لو أردت أن تتبين الفرق عملياً ، فاقراً كتاباً لمفكر معاصر ، ثم اشهد ندوة من ندوات هذا المفكر ، فستلمس الفرق واضحة ، فبينما تجد فى الكتاب وحده الموضوع ، وتجنب الاستطراد والانتقال بحذر وتمهيد ، تجد فى الندوة يجرى الحديث على اعنته ، قد يفتح أحد الحاضرين حديثاً عن السياسة فإذا بالمفكر يتحدث عن السياسة ، وقد ينقل آخر الحديث الى الحب ، فإذا به يتحدث عن الحب ، وكذلك على الليالى العربىة قد يتحدث أحدهم عن

(٧٢) سورة الجمعة الآية ٢

(٧٣) تفسير الطبرى ٨ ، / ٦١ طبعة بولاق ١٣٣٨ هـ

الاطلال والديار ، فاذا القوم يتحدثون عن الاطلال ، وقد يذكر أحدهم ناقته وأصالتها فاذا هم يتحدثون عن النوق وصبرها في الرحلات ، وقد يذكر آخر جود انسان وكرمه فاذا القوم يثنون على هذا الرجل ومناقبه .

انتشرت هذه المجالس في الجزيرة العربية ، والتاريخ يحدثنا انه كان معاوية مجالس سمر وقد ذكر صاحب التحفة البهية المجلس الثامن عشر من مجالسه ( ٧٤ ) . وقد كان يقعد هو وخاصته الى عبيد بن شربة ، يحدثهم عن أيام العرب وتاريخهم ، ولكن معاوية كان أحرص من أسلافه الجاهليين ، فكان يأمر غلمانه بتدوين حديث عبيد ( ٧٥ ) .

انتجت هذه المجالس ، وتلك اليالى ، عقلية من طراز معين ، لا تميل الى الاختصار على موضوع معين ، وتحاشى ما سواه ، بل تنتقل من حديث عن الاطلال ، الى حديث عن المرأة ، الى حديث عن مشاق السفر ، الى حديث عن كرم الممدوح .

وقد ظهرت هذه العقلية التي اعتادت طريقة معينة في التفكير ، في بناء القصيدة العربية وفي تكوين القصة العربية ، بل وظهرت في كثير من المؤلفات التي ألقت في العصر العباسي ، فلو قرأت كتابا للجاحظ ، فستحس أن هذا الرجل يجلس معك في مجلس « ويسامرك » وينتقل بك من حديث الى حديث ، ويطيل عليك وكأنه ينتظر الصباح ، فيسكت عن الكلام المباح .

وتلعب شخصية الراوى في هذه المجالس دورا رئيسيا ، فهو يمثل الكتاب الذى يحرص المفكر على أن يخرج له للأجيال ، لهذا يقره الشاعر أو القاص منه ، ولهذا يسأله الناس عن أخبار هذا الشاعر أو ذلك القاص ، وقد يعقد بدوره مجالس يحدث فيها الناس ويحدثونه ، وقد يأنس الى مستمع فيصطفيه راويا له ، وقد حدثنا التاريخ عن سلاسل روائية ،

( ٧٤ ) التحفة البهية ص ٢١٥ .

( ٧٥ ) أخبار عبيد بن شربة ص ٣ .

أو بتعبير أكثر حداثة « مدارس » يعلم فيها الجيل القديم الجيل الجديد .  
قال أبو محلم : آخر من اجتمع له الشعر والرواية كثير ، وكان رواية  
جميل ، وجميل رواية هدية ، وهدية رواية الحطيثة ، والحطيثة رواية  
زهير (٧٦) .

وهنا أصل الى صفة أخرى من صفات قصص العشق وهى « ظهور  
شخصية الراوى » .

ولكن قبل الحديث عن هذه الصفة أحب أن لاحظ ملاحظة سريعة :

قد عرفنا أن العرب اعتادوا الانتقال من موضوع الى موضوع ، ومن  
حكاية الى حكاية ، ألا يحملنا هذا على إعادة النظر فيما يرى أن تداخل  
الحكايات فى « ألف ليلة وليلة » بسبب عناصر هندية (٧٧) أو بعبارة  
أخرى : هل يحق لنا أن نعتبر قصص العشق مصدرا من مصادر « ألف  
ليلة وليلة » وخاصة أن اسم جميل أو كثير قد ذكر فى هذه الليالى (٧٨)  
وأن حكايات عشقية ترجع الى العصر الأموى قد وردت فى هذه الليالى  
كقصة خالد بن عبد الله القسرى ، مع الشاب الذى ادعى السرقة ليصون  
كرامة محبوبته (٧٩) ، وأن هناك تشابها كبيرا بين حكاية الوزير الذى  
أنقذته ابنته من الملك ، والتي قصها شيخ على نوفل بن مساحق ، وهو  
يتطلب أخبار المجنون ، وبين شهرزاد بنت الوزير التى أنقذت بنات  
جنسها من جور شهريار .

---

(٧٦) الاغانى ٨ / ٩١ « دار الكتب » .

(٧٧) انظر : قصصنا الشعبية ص ١٥٦ ، اذ يعدد ما رآه المستشرقون  
من عناصر هندية فى الليالى مثل تداخل الحكايات وعبارة « وكيف ذلك » -  
(٧٨) ألف ليلة وليلة ١ / ٢٠٦ مطبعة عبد الرحمن رشدى ببولاق -  
(٧٩) ألف ليلة وليلة ٢ / ٣٨ المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

#### ظهور شخصية الراوى :

تلعب شخصية الراوى دورا كبيرا فى الأدب العربى ، فهو الكتاب الذى حوى بين دفتيه آثار هذا الأدب من نثر وشعر .

وكان لكل شاعر راو يقربه ويانس اليه من دون أهله ، فالمجنون حين توحش فى البرية وهام ، ولم يكن أحد من أهله يجرؤ أن يقرب منه ، ولكن كان له صديق يانس به ، ويعرف أحواله ، وياخذ عنه شعره (٨٠) ، وكان عصمة بن مالك الفزارى مقربا الى ذمة الرمة ، وكان يستصحبه فى مقابلاته مع مى المنقرية ، وكان يروى اخبارهما واحاديثهما ، ويروى شعر ذى الرمة لى وصويحياتها (٨١) .

وقصص العشق - شأن غيرها - قد وصلتنا عن طريق الرواة . وانظر الاغانى أو تزيين الاسواق ، تجد سلاسل الرواة ، وتلاحظ « العنعنات » الكثيرة قبل ذكر القصة والاحداث .

وكان ذكر الراوى قد أصبح - بعد ذلك - عنصرا من عناصر القصة العربية وحلية لها ، أو تقليدا يحرض عليه الخلف ، فاصحاب المقامات يجعلون رواية يروون قصصهم ، فالراوى لمقامات بديع الزمان هو عيسى بن هشام ، والراوى لمقامات الحريري هو الحارث بن همام ، بل تجد ذلك التقليد ، وهذه الحلية فى القصص الشعبى المتداول ، فكثيرا ما تجد القاص الشعبى ، يكرر قوله حين ينتقل الى موقف آخر « قال الراوى ياسادة ياكرام » وبذلك فقد اسم « الراوى » المعنى الحقيقى ، وهو الحرص على صحة الخبر ، والرجوع به الى مصادره الحقيقية .

(٨٠) الشعر والشعراء ص ٥٥٠ .

(٨١) المحاسن والاضداد ص ٢١٧ .

وأصبح - كما فى القصص الشعبى - خيالا يـخترع للحلية والتمويه . وهذا يجعلنا نتخرج أشد التحرج فى قبول أسماء كثير من الرواة ، فما أسهل ان يـخترع اسم راو كما يـخترع بطل قصة ، أو كما يـخترع أى عنصر من عناصر القصة ، وإذا كان أحد الشعراء قد سئل عن ليلى التى يشبب بها فقال هى قوسى (٨٢) ، فليس ببعيد ان يسأل رجل عن هذا الراوى الذى ذكره ، فيقول : هو عصاى .

وشخصية الراوى تظهر فى قصص العشاق . تقرأ القصة ، وتتابع أحداثها وإذا بلفظة « قال » تاتى ، تنبهك الى وجود الراوى . مثلا : يحكى أبو مسكين قصة الفتى الذى خرج والتقى بجماعة على جبل ، وبينهم فتى قد تعلقوا به « مديد القامة ، طوال ، أبيض ، جعد الشعر ، أعين ، أحسن من رايت من الرجال ، وإذا هو مصفر ، مهزول ، شاحب اللون » وتشجعك هذه الاوصاف على تتبع القصة ، وإذا بهذا اللفظ يتدخل « قال : فسألت عنه ، فإذا هو المجنون يصنع بنفسه صنيعا يرحمه منه عدوه ، وقد أمسك به القوم وتعلقوا به حتى لايرمى بنفسه من الجبل وهو يصيح بينهم : أخرجونى اتنسم صبا نجد ، ويبكى أحر بكاء وأوجعه للقلب ، ويتنفس تنفسا يكلد يتصدع منه كبده (٨٣) » . ويروى شيخ من بنى مرة أنه توجه الى أرض بنى عامر ، ليلقى المجنون ، فإذا أبوه وأخوته ، ويصف الشيخ اهل المجنون وما فيه من ثراء ، وحزنهم لما أصاب المجنون ويقص عليه أبوه قصة المجنون ، وحببه لليلى وانفراده فى المهامه والقفار . ثم تاتى لفظة « قال » ، ويعددها سؤال الرجل اهل المجنون أن يدلوه عليه ، فيدلوه على فتى من الحى يأنس به قيس ، فيذهب اليه ويسأله عن قيس ، فيخبره عن الطريقة التى يجذب بها قيسا الى الاستئناس

(٨٢) الاغانى ٣ / ٢٨٩ « دار الكتب » .

(٨٣) الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٧ .

به والدنو منه - ثم تأتي لفظة « قال » ، وبعدها يحكى الرجل قصة بحثه عن قيس ، ثم التقائه به وتناشدهما الاشعار ... الخ ( ٨٢ ) .

وتتكرر لفظة « قال » أكثر ما تتكرر ، حين ينتقل المحدث الى فقرة جديدة ومعنى آخر ، فكأنه ينبه السامع الى شىء جديد ، كما رأيت فى حديث شيخ من بنى مرة . وتتكرر ايضا حين الاتيان بحديث شاذ غريب ، كما رأيت فى خبر أبى مسكين . وهنا يبدو الاحساس بالواقع والشعور به ، يحس ان السامع قد ينكر ذلك منه ، فيريد ان يضيف على حديثه شيئا من الواقعية ، وأن يوهم السامع أن هذا خبر قد القى اليه ، وأن راويا قد سمعه ، أو شهده فذكره له .

وهنا يتنازع قصص العشق عاملان متنافران ، يطمح بها احدهما الى ما وراء الواقع ، ويشدها الآخر الى الواقع .

يحاول القاص أو الراوى ان يرضى عقلية السامعين ، ومعظمهم من العامة ، فيذكر الاخبار الغريبة ، والروايات النادرة ، ثم يتدخل شبح « قال » فيحد من هذا الاسراف ، ويذكر القاص بالتاريخ والواقع ، ويوهم السامع بأن هذه النوادر والغرائب من التاريخ المروى .

ولم يكن عنصر الرواة هو الذى يشد القصة الى الواقع والتمويه على السامع ، بل كان هناك عنصر آخر ، لجأ اليه القاص لالباس قصصه ثوب الحقيقة وتمويهها على المستمعين ، وهو الشعر فى احدى وظائفه .

---

( ٨٢ ) الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٧ .

### الشعر في القصص :

كان الشاعر يمثل ضرورة اجتماعية في حياة العرب القبلية ، فلا بد من أن تصطنع كل قبيلة شاعرا لها ، يذب عن أصحابها ويدافع عن مآثرها (٨٣) ، وقد كان لقبيلة بكر شاعرها هو الحارث بن حلزة ، وكان لتغلب شاعرها هو عمرو بن كلثوم . وكانت القبيلة حين ينبغ بينها شاعر تفرح وتهنئها القبائل الأخرى ، وتقيم الولائم ، وتجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعن في الأعراس ، ويتبائر الرجال والولدان (٨٤) .

فالشعر يمثل سلاحا ضروريا من أسلحة الحماية التي تلجأ اليها القبيلة ، ولهذا تعلق العرب به تعلقا لا مزيد عليه ، وقد خبر النبي عليه السلام نفعية العرب حين أخبر فيما نسب اليه ، بأنها لاتدع الشعر حتى تدع الأبل الحفنين (٨٥) .

خالط الشعر حياة العرب ، فهم اذا حاربوا ، أو خرجوا للصيد ، أو أنهمكوا في العمل ، أو فرغوا منه لداعية أطفالهم وترقيصهم ، أنشدوا الشعر ، وهم اذا جلسوا في مجالس الأئس والظرف زينوها بالشعر ، « وأحسن الأخبار عندهم ما كان في أثنائها شعر » (٨٦) . ولعل هذا ما جعل الجاحظ يجزم بأن العربي شاعر بطبعه وسليقته ، يكفي أن يصرف همه إلى القول ، فاذا هو ينثال انثيالا (٨٧) . وانظر إلى شغف معاوية وتعلقه بالشعر ، فهو يمثل الذوق العربي الذي يحن إلى الشعر يقول لعبيد قاصه ومؤنسه « سألتك ألا شددت حديثك ، ببعض ما قالوا من الشعر ولو ثلاثة أبيات » (٨٨) ، وكان يقطع حديث عبید ليسأله عن الشعر .

(٨٣) العمدة ١ / ٣٧ .

(٨٤) المرجع السابق ١ / ٣٧ .

(٨٥) المرجع السابق ١ / ١١١ .

(٨٦) الصناعتين ص ١٠٣ .

(٨٧) البيان والتبيين ٢ / ٥٦ .

(٨٨) أخبار عبید ص ٣١٨ .

فحين كان يحدثه حديث هلاك عاد ، سألته : « فهل تعرف أحدا من شعراء العرب ذكر هودا في شعره ، وإن في كتاب الله لشفاء من العمى ، وبيان من الجهالة ، ونحب أن نزداد فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أن من الشعر لحكمة » . وحين يأنس في عبيد تكاسلا في انشاد الشعر ، يحثه على ذلك : الله أنت يا عبيد . فهل قيل في ذلك شعر ؟ » ومعاوية الذي يظهر هذا التهالك على انشاد الشعر ، يقول لعبيد حين تلا عليه آيات من سورة النمل ، يدعم بها قصة بلقيس والهدد : « لم تقرأ القرآن لهذا الحديث ؟ ألا نأتى بالحديث الذي بلغك » .

لهذا لا نستغرب أن نجد الشعر منبثا في القصة العربية ، وفي قصص العشق بنوع خاص ، فكثير من أبطال قصص العشق من الشعراء ، وقد رأيت أن بعض هذه القصص كانت تختار تفسيراً لأبيات ذاعت وتناشدها المغنون .

على أنه إذا كان الشعر في قصص العشق ، يرضى الذوق العربي الذي يعلق بهذا اللون من الأدب ، فقد كان له إلى جانب ذلك وظائف فنية .

فالقاص أو الراوى يذكر الشعر ليؤيد حديثه ، ويشد كلامه ، ويدعم روايته ، فهو يعرف ثقة العرب بالشعر وحبهم له ، فكان القاص حين يذكر الشعر فقد أورد الدليل على صدق كلامه ، والبرهان على واقعية خبره . ذكر عبيد لمعاوية خبر القحط الذي أصاب عاداً ، ثم أنشده الشعر الذي قيل في هذه المناسبة فقال معاوية : « لقد جئت بالبرهان في حديثك يا عبيد ، فماذا فعلوا ؟ » ( ٨٩ ) ، بل أن معاوية كان يطلب منه الدليل على صحة كلامه ، أبياتاً من الشعر « قال معاوية وأبيك ، لقد أتيت وذكرتك عجباً من حديثك عن عاد ، وقد علمت أن الشعر ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها ، والحاكم بينهم في الجاهلية ، وقد

( ٨٩ ) أخبار عبيد ص ٣٣٠



سمعت رسول الله ﷺ يقول : ان من الشعر لحكمة « (٩٠) . وقد شابه صاحب التزيين في بعض صنيعه علماء الفقه ، يوردون الحكم ، ثم يستدلون عليه بالقرآن أو الحديث ، ليكون مدعماً بالبرهان والدليل . كذلك كان يفعل صاحب التزيين ، يورد الخبر ثم يستدل عليه بأبيات من الشعر ، فمثلاً بعد أن استعدى أهل بثينة مروان بن الحكم ، على جميل ، فر إلى الشام ، وقيل إلى سيد من بني عذرة ، رجا أن يعلق جميل واحدة من بناته - بعد هذا يقول صاحب التزيين : « ويدل للأول قوله :

أتانى عن مروان بالغيب أنه      مقيد دمي ، أو قاطع من لساني  
قفي العيش منجاة ، وفي الأرض مهرب      اذا نحن دافعنا لمن المشائيا  
وقيل مما استدل به على تمكن عشقه لها ، وأنه لا يمكن سلوه عنها ، مع حكاية البنات المذكورة ، قوله فيما رواء الشهاب محمود في منازل الأحباب عنه :

علقت الهوى منها وليدا ، فلم يزل  
وانتت بذاك الدهر ، وهو جديد (٩١)

وأقنيت عمري في انتظار نوالها  
إلى الآن ، ينمى حبها ، ويزيد

وأمر آخر :

لا شك في أن طبيعة الشعر ، تختلف عن طبيعة النثر .  
النثر هادئ متزن ، لا يلجأ - غالباً - إلى الخيال المجنح ، ولا يستعير  
الصور الغريبة ، إذ هو لغة العلم والتفكير ، والأدب الرزين .  
أما الشعر فله جو خاص ، تقرأ الشعر فتحس أنك أزاء عالم غريب ،

(٩٠) المرجع السابق ص ٣٥٢

(٩١) تزيين الاسواق ١ / ٣٩

عالم ملء بالصور ، وملء بالاحاسيس الجياشة ، وتسبح الشاعر  
فاذا به ينقلك الى عالم آخر ، قد ينقلك الى قاع البحار ، فتلمس  
الصدف ، وتشم الاعشاب ، او ينقلك الى اجواز السماء ، فتراقص أشعة  
القمر ، وتغازل الكواكب ، وتعيش مع تجربة الشاعر ، فاذا بك تعيش  
فترة غير عادية ، فترة مليئة بالعواطف ، والاضطراب ، والقلق ،  
والانفعال .

ولهذا كان الشعر أصلح وسيلة للتعبير عن لحظة غير عادية ، لحظة  
ليست جامدة ولا مستقرة ، لحظة ديناميكية ، مليئة بالانفعال ،  
والعواطف .

وقد لمس القاص العربى هذه الطبيعة للشعر ، سواء كان عن شعور  
او لا شعور .

فاذا ما أراد التعبير عن لحظة غير عادية ، وعن موقف غنى  
بالحركة والانفعال فانه لا يلجأ الى النثر ، تلك الاداة الهادئة ، بل يلجأ  
الى وسيلة تستطيع التعبير عن هذا الموقف وشفافيته بكل صدق وامانة .  
تمر بطله القصة بأزمة نفسية ، تجتاحها ، وتهز كيائها ، وتملؤها  
بالانفعال والاثارة ، فلا يكون هنا أصلح من الشعر ، ينقل هذا المشهد  
بكل ما فيه من حرارة واضطراب . لما رأت لبنى أربعة غريبان ، بكت  
وصرخت ، وكتفتن ، وجعلت تضربهن بالسوط حتى متن ، وجعلت  
تصيح بأعلى صوتها :

لقد نادى الغراب ببين لبنى	فطار القلب من حذر الغراب
فقلت غدا تباعد دار لبنى	وتنأى بعدد ود واقتراب
فقلت تعست ويحك من غراب	أكل الدهر سعيك فى تباب
لقد أولعت لا لالقيت خيرا	بتفريق المحب عن الحباب

ويدخل زوجها ، فيراها على تلك الحال ، فيسألها : ما بالها ؟  
وما دعاها الى هذا ؟ فتنفجر فيه وتنشد الشعر في لحظة انفجارها :  
« دعاني أن ابن عمي ، وحبيبي قيسا أمرهن بالوقوع ، فلم يقعن ، حيث  
يقول :

الا ياغراب البين قد طرت بالذي  
أحاذر من لبني ، فهل أنت واقع (٩٢)

ويمر بطل القصة بلحظة قلق ، تتعاوره عدة تيارات ، فيلجأ القاص  
الى الشعر ليجسد ذلك الموقف الداخلي . فالاعرابي ينتظر حبيبته في  
خيمة بالصحراء فتبطيء على عاداتها ، فتجتاحه أزمة من القلق والاضطراب  
ماذا حدث لحبيبته التي من أجلها تنازل عن كل ثروته ، واتي الى تلك  
الخيمة ، بعيدا عن الناس ، مكتفيا بقاء العشيقة كل يوم ؟ . ماذا حدث  
لحبيبته التي تغافل زوجها ، وتركب الأهوال من أجل أن تراه ؟ ايكون  
هذا الأسد الذي يعترض في تلك الغيضة ، قد أصابها بضر ؟ وهنا يطفح  
القلق بنفس الاعرابي ، فيذهب ويجيء وهو يقول :

ما بسال مية لا تأتي كعادتها أعاجها طرب أم صاها شغل  
لكن قلبي عنكم ليس يشغله حتى المات ، ومالي غيركم أمل  
ويعلم أن الأسد قد أصابها ، فيحتاج ، وينتقم من الأسد ، ويقتله ،  
ويجرجه وهو يقول :

الا أيها الليث المضر بنفسه  
هبلت لقد جرت يدك لك الشرا (٩٣) .

ويداعب العاشق معشوقته ، وتابى الأقدار الا أن تموت بسبب تلك  
المداعبة ، فتركب العاشق الاشتجان والحزان . ويلجأ الى الشعر ينفض

(٩٢) مصارع العشاق ص ٧٧ .

(٩٣) مصارع العشاق ص ٢٢٩ .

فيه همومه ويجسد انفعاله ، فقد رمى يزيد حيايه بحية رمان « وهي  
تضحك ، فوقعت في فيها فثرفت ، فماتت ، فاقامت عنده في البيت ،  
حتى جيفت ، أو كادت تجيف ، ثم خرج : عليه الهم باديا ، حتى وقف  
على قبرها ، فقال :

فان تسل عنك النفس أو تدع الصبي فياليس اسلو عنك لا بالتجلد  
وكل عليل لامنى ، فهو قائل من أجلك ، هذا هامة اليوم أو غد  
ثم رجع ، فما خرج من منزله ، حتى خرج بتعشه « (٩٤) .

ويكون في القصة موقف فيه صراع وحيوية ، فيريد القاص أن يجسد  
هذا الصراع ، ويبرز تلك الحيوية فيلجأ الى الشعر .

يغضب فديك بن حنظلة على وحشية بنت أخيه ، لأنها تواعد  
يزيد بن الطثرية ، ثم أمر بزبية فحقرت على الطريق ، وأرقد فيها  
نارا . وفى ليلة خرجت وحشية تنهادى في برودها لميعاد يزيد في  
الزبية ، ويحترق بعضها ، ويسمع يزيد بما حدث لحبيبته ، فيغضب  
ويحتاج ، ويكون بينه وبين فديك معركة ، سلاحها الشعر . قال فديك :

شفى النفس من وحشية اليوم أنها

تهادى ، وقد كانت سريعا عتيقها

فالا تدع خبط الموارد في الدجى

تكن قمنا من غشية لا تفيقها

دواء طبيب كان يعلم أنه

يداوى المجانين المخلى طريقها

فبلغ ذلك يزيد فقال :

ستبرا من بعد الضمنة رجلها

وقأتى الذى تهوى مخلى طريقها

على هدايا البدن ان لم الاقها

وان لم يكن الا فديك يسوقها . الخ (٩٥)

(٩٤) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٩٥) الاغانى ٨ / ١٧ « دار الكتب » .

ويشتد الحب بأحد الأبطال ، ويكاد يذوى به ، وهو يخجل من أن ييوح به ، وأخيرا يطفح الكيل ، فلا يجد ندحة من أن يعبر عن حبه ، فيلجأ الى تلك الوسيلة الشعرية التي تشف عن وجدده ، وإذا بها تكن له أكثر مما يكن لها ، فتجيبه أيضا بالشعر « عشق رجل من ولد سعيد ابن العاص جارية مغنية بالمدينة ، فهم بها دهرا ، وهو لا يعلمها بذلك ، ثم انه ضجر فقال : والله لا يوحن لها ، فاتاها عشية ، فلما خرجت اليه ، قال لها : بابى أنت ، اتغنين :

ان الكريم من جزى الود بالود اتجزون بالود المضاعف مثله قالت : نعم ، وأغنى أحسن منه ، ثم غنت :

للذى ودنا المسودة بالضعف وفضل الياذى به لا يجازى لو بدا ما بنا لكم ملا الأرض واقطار شامها والحجازا فاتصل ما بينهما « (٩٦) .

وهكذا نجد الشعر - فى أمثال تلك الحالات - وسيلة فنية يلجأ اليها القاص - شعوريا أو لا شعوريا - للشفاقية عن موقف غير عادى ، قد يكون صراعا يريد أن يبرزه ، أو حالة وجدانية يريد أن يجسدها ، أو حركة داخلية يريد أن يكشف عنها ... الخ .

وإذا كان الشعر فى أمثال تلك الحالات ، يمثل حركة دافعة للقصة ، فقد كان فى بعض الحالات الأخرى عقبة تقف فى سبيل نمو القصة .

فقد لا يرتفع الشعر الى مستوى التجربة ، ويعجز عن نقلها بكل حرارتها وانفعالها ، وبهذا تضعف تلك الوسيلة ، وتعجز عن القيام بوظيفتها خير قيام ، فيضعف الموقف ، وتهبط حرارته وتحيله الى موقف عادى ، صناعى ، لا حرارة فيه . يموت عروة بن حزام ، ويأتى ركب الى منزل عفراء ، فيصيح صائح منهم :

(٩٦) مصارع العشاق ص ٥٦ .

ألا أيها القصر المغفل أهمله نعيينا اليكم عروة بن حزام

فتشرف عفراء وتقول :

ألا أيها الركب المجنون ويحكم بحق نعيتم عروة بن حزام

فيجيئها رجل من القوم :

نعم ، قد تركناه بارض بعيدة مقيما بها في سبب واكم  
وهنا يتأكد لدى عفراء أن عاشقها قد مات . وهنا تمر أية عاشقة  
بموقف نفسى حاد ، يهز داخلها ويرج وجدنها ، وهنا نتوقع أبياتا من  
الشعر ، فيها حرارة تتناسب مع ذلك الموقف ، وفيها انفعال يرتفع الى  
مستوى تلك الازمة . ولكننا نلاحظ بأبيات ليس فيها حرارة ولا انفعال ،  
بأبيات سطحية تصف حبيبها من الخارج ولا تتعمق جذور تلك الازمة ،  
بأبيات تكتفى بأن تصف العاشق بأنه بدر كل ظلام ، ثم تدعو فيها على  
الفتيان ، ثم تدعو فيها على الناس ، وأخيرا تدعو على الركب بأن ينقش  
لذات كل طعام ، قالت عفراء للركب الذى نعى اليها عروة :

فإن كان حقا ما تقولون فلعلموا بأن قد نعيتم بدر كل ظلام  
فلا لى الفتيان بعدك لذة ولا رجعوا من غيبة بسلام  
ولا وضعت انثى تاما بمثله ولا فرحت من بعده بسلام  
ولا لايغتم حيث وجهتم له ونغصتم لذات كل طعام

لا تتناسب هذه الأبيات ، التى تكتفى بالوصف الخارجى ، وبالنقمة  
على الناس مع ذلك الموقف النفسى الذى وضعت فيه القصة البطلة ، إذ  
تحكى أن عفراء « انسلت الى القبر فانكبت عليه ، فما راعهم الا صوتها ،  
فلما سمعوه بادروا اليها ، فاذا هى ممدودة على القبر ، قد خرجت نفسها  
فى فنوها الى جنبه » ( ٩٧ ) .

( ٩٧ ) الزهرة ص ٣٦٩

كان الشعر هنا عقبة ، اذ لم يأخذ بيد الموقف الى الامام . ويكون أيضا عقبة اذا اقم نفسه ، وفرض ذاته ، دون أن يتطلبه الموقف ، أو تحتاجه القصة ، وانما حشاه القاص حشوا ، واقحمه اقحاما ، والامثلة على ذلك كثيرة في القصص العربي . تصفح مثلا « أخبار عبيد » تجد أن الراوى قد يستطرد أثناء الحكاية ، بابيات من الشعر ، لاتجسد صراعا ، أو تشف عن حالة وجدانية . وقد كاد عبيد ومعاوية أن يقعا على هذا المنهج الذى يحمى القصة من الاستطراد ويصونها من الحشو ، اذ أشار عبيد على معاوية بأن يؤخر الأشعار الى آخر الحديث فانه أصلح ، فأقره معاوية على ذلك ورآه حسنا . لما ذكر عبيد خبر تعلق أبى سعيد المؤمن بالكعبة وتضرعه ، سأل معاوية « أقيل فى ذلك شعر ؟ قال عبيد : نعم يا معاوية ، قد قالت العرب فى ذلك أشعارا ، فان أحببت أنشدتكها ، وإن شئت فى آخر الحديث » فانه أصلح لحديثك . قال معاوية : سمعناها فى آخر الحديث فهو أحسن » ( ٩٨ ) ولكنهما لم يتبعوا هذا المنهج ، اذ بعد ذلك بصفحة واحدة ، يذكر عبيد شعر مهد الجارية فى ربح عاد ، ثم بعد ذلك بصفحة أخرى يسأله معاوية فيما اذا كان قد قيل فى مهد شعر ؟ فيخبره بأن أمية بن أبى الصلت ، أو هو هو النابغة الذبياني ، قد قال فى ذلك شعرا .

وهنا أصل الى الحديث عن لغة قصص العشق .

### لغة قصص العشق :

قد عرفت أن قصص العشق نوع من الادب الشعبي ، الذي يكثر تداوله بين الناس ، ويجرى على أنسنتهم ، ولهذا ظهرت في لغة بعيدة عن التكلف ، هي لغة الحديث المسترسل ، الذي يجري في مجالس السمر وأوقات الانس ، والذي يستعمله العامة ، والخاصة أيضا حين يتجافون عن التكلف ويبتعدون عن الصنعة .

والعوامل التي اكسبت القصص هذه اللغة ليست بخافية . فقد كان للغناء أثره الكبير - كما رأينا - في ازدهار هذه القصص ونموها ، والشعر الذي يغنى ينحاز - عادة - الى السهولة واليسر ، ويجانب الوعورة والثقل . وقد تم ازدهار الغناء على يد الأعاجم والموالى الذين امتلأت بهم الاقطار الحجازية في ذلك الحين . والموالى يؤثرون الالفاظ المتداولة البيسيرة ، التي لا تحتاج منهم الى جهد ومشقة ، وقد عرف الشعراء منهم ذلك ، فكانوا ينشئون لهم القصائد السهلة ، التي يمكن أن تغنى وأن تشيع بين الناس . ولا ننسى السبب الرئيس في اصفاء هذه اللغة على قصص العشق ، وهو شعبية هذه القصص وانتشارها بين العامة ، وتداولها في مجالس الانس والسمر .

وقد كان لهذه الشعبية من ناحية أخرى أثرها السيء على لغة القصة ، ظهر في عصور متأخرة عن العصر الذي نحن بصددده .

ولست هنا في مجال البحث ، فيما اذا كانت العامية حفيذة للهجات عربية ، كانت تعيش جنبا الى جنب مع الفصحى لغة قريش ، أم أنها ابنة ممسوخة قد انفصلت عن تلك الفصحى .

ليس هذا من مجالي ، وكل ما أريد أن أشير اليه هو : أن لغة قصص العشق - ربما كان هذا بسبب انصراف النقاد عنها ، وعدم نظرتهم اليها نظرة فنية خالصة ، تدرسها كجنس لا يقل خطورة عن الشعر والرسائل . لغة هذه القصص ، قد تركت - فيما بعد - لغة القرآن والمكتابة ، واستعارت



فى كثير من الفاظها وتراكيبها ، لهجات أخرى ، مما تجزئ بين الناس ،  
وتشيع على ألسنتهم .

واقرا لتلمس مدى التطور الذى أصاب قصص العشق ، « قصص  
الف ليلة وليلة » التى ترجع الى مصدر عربى : بل يمكن أن نجد أمثلة  
لهذا ، فى المصادر الأدبية المتداولة ، والتى نقلنا منها أخبار العشاق  
والمحبين . « حدثنى سحنون قال : كان فى جيرانى رجل له جارية ،  
وكان شديد الميل اليها ، فاعتلت الجارية علة شديدة ، فجلس يصلح  
لها حساء ، فبينما هو يحرك القدر ، أذ قالت الجارية : أوه . فسقط ما كان  
فى يده ، وجعل يحرك القدر بيده ، حتى سقط لحم أصابعه وهو لا يشعر ،  
فنظرت اليه الجارية ، فقالت : إيش هذا ؟ فقال : هذا موضع قولك :  
أوه » ( ٩٩ ) .

فقول الجارية - وأظنها غير عربية - « إيش هذا » ، يصح أن  
يضرب مثلا ، لبيان زحف اللهجات الى هذه القصص ، هذا الزحف الذى  
فشا فى السير الشعبية ، فأصاب الفاظها وتراكيبها .

لغة هذه القصص فى العصر الاموى ، لغة بعيدة - فى معظمها -  
عن السجع والجناس ، قريبة الى لغة الحديث والاسترسال ، ولم تتحدر  
كثيرا فيصيبها ما أصابها فى العصور المتأخرة .

على أنك تطالع بعض القصص ، فتجد فيها لغة قوية أدبية ، فيها  
رونق واشراق ، ويعد عن الاسفاف والابتذال ، وعن التكلف والتعجرف .  
واقرا قصة يزيد بن الطثرية ( ١٠٠ ) ، وانظر الى ما فيها من لغة  
متينة ، وتعبيرات قوية ، وإلى ما فيها من شعر لمباد وشعر ليزيد يمتاز  
بالماتنة والقوة أيضا ، وسأذكرها فى الفصل الرابع ، أما الآن فاجتزئ  
بعض المواقف « فقال عجائز منهن والله ماندرى أرعيتم جرما المرعى ،  
أم أرعيتموهم نساءكم ؟ » - رجل منذ اليوم ظل مجحرا لنا ، ما يطلع

( ٩٩ ) ذم الهوى ص ٣٥٠

( ١٠٠ ) الاغانى ٨ / ١٥٧ دار الكتب

منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا - فقال بعضهم : بيتوا جرما فاصطلموها  
حتى جاء الى سمرق قريبا الى نصف النهار ، فتوسد يده ، ونام تحتها  
نويمة ، حتى افرجت عنه الظهيرة ، وناعت الاظلال ، وسكن بعض مابه  
من ألم الضرب ... الخ » .

وهذا يجعلنى أميز فى قصص العشق بين نوعين :

نوع قوى رصين ولكنه لا يصل الى حد الاغراق والتكلف والولع  
بالغريب والثأث .

ونوع مسترسل سهل رخو ، ولكنه لا يتحط الى درجة العامية  
والابتذال والتلهل .

النوع الأول يغلب على قصص الشعراء المشهورين ، مثل عمر ،  
ويزید ، وقيس ، فالقصص التى حولهم ، قد تكون من وضعهم واختراعهم ،  
فلا بد من أن تكون من القوة والرصانة ، فى درجة تتواءم أو تقارب  
ماوهبوا من فن وقدرة على القول ، وقد تكون من وضع الرواة ، وضمنوها  
اشعار هؤلاء المشهورين ، فلا بد من أن يحتالوا ويجهدوا ، حتى يجعلوا  
الأسلوب النثرى ، يرتفع الى المستوى الشعرى الذى اوردوه فى قصصهم .

والنوع الثانى - وهو الكثير فى الكتب التى جمعت أخبار العشاق -  
يغلب أن تكون أبطاله من عامة الشعب ، ومن الطبقات الأخرى التى لم  
تؤت حظا من البيان ، يضارع حظ هؤلاء المشهورين ، فقد يكون أعرابيا  
أو أعرابية كما فى قصة « الأعرابى الظريف والحسنة الفاتنة » التى ستأتى  
فى الفصل الرابع ، أو قد تكون جارية غير عربية ، اتخذت العربية أداة  
لها بحكم المولد ، أو بحكم المران ، كقصة يزيد بن الحكم مع الجارية التى  
كان يهواها ( ١٠١ ) ، أو قد يكون رجلا منقطعا عن الناس والعمران ،  
يعيش مع حبيبته يطعم الحشرات والسباع والوحش ، كما فى قصة  
عامر بن حرقة الطائى .

( ١٠١ ) الاغانى ١١ / ١٠٣ ( ساسى ) .

### الشخصية :

لست أبعد لو قلت ان شخصية المحب الحسى ، سواء كان هذا المحب عمر أو غيره ، أو شخصية العاشق العذرى ، سواء كان هذا العاشق جميلا أو غيره - رمز لمجموعة من الصفات الانسانية يشترك فيها كل الحسيين ، أو يشترك فيه كل العذريين ، فالشخصية هنا تمثل « نوعا انسانيا » أكثر مما تمثل فردا بعينه ، فعمر الذى يتحدث عنه الأغاني ليس عمر بن أبى ربيعة ، الذى كان أبوه من أغنى تاجر مكة ، والذى كانت أمة سبية من حضر موت ، والذى تزوج وأنجب ، وكانت له حياته الخاصة ، ومزاجه الخاص ، ليس هذا هو عمر ، بل هو نوع ورمز لمجموعة من الصفات ، فقد تجد عمر هذا تحت اسم آخر هو العرجى ، الذى تشبه به فاجاد كما يقول صاحب الأغاني (١٠٣) ، والذى كل مثل ابن أبى ربيعة ، يطارد النساء ، ويتنكر لهن أحيانا فى ثياب الاعرابى حتى يراهن (١٠٣) .

وقيس ليس هو قيس بن الملوح ، رجل من بنى عامر ، له مزاجه الخاص ، وحياته الخاصة ، وليلى ليست هى ليلى بنت المهدي ، امرأة من بنى عامر ، بل هما رمزان لقصة عشق حدثت وتحدث ، وقد تسمى مرة « روميو وجولييت » وأخرى « حسن ونعيمة » ، وقد يظهر قيس هذا مرة فاذا هو قيس بن ذريح ، أو قيس بن معاذ ، وقد تظهر ليلى ، فاذا هى ليلى الاخيلية ، أو مى المنقرية . بل قد تكون عصا يتغزل فيها شاعر من الشعراء ويسمىها ليلى (١٠٤) . ليلى - اذن - رمز لمعشوقة يتحرق اليها العاشق ويبثها هواه ، وقد تغزل مزاحم العقيلي بمحبوبة تسمى ليلى ، قيل هى ليلى صاحبة قيس ، وقيل هى ليلى أخرى (١٠٥)

(١٠٣) الأغاني ١ / ٣٨٥ ( دار الكتب ) .

(١٠٣) المرجع السابق ١ / ٣٩٦ .

(١٠٤) المرجع السابق ٣ / ٣٨٩ .

(١٠٥) الأغاني ١٧ / ١٥٢ « ساسى » .

والحقيقة أنها ليست هي ، وأنها هي ، ليست هي ليلى بنت المهدي ذات الشكل الخاص ، والتقاطيع الخاصة ، ولكنها هي ليلى المعشوقة التي يتحرق اليها شعراء البادية ، ويبثونها عواطفهم . ليلى هي رمز لشيء ، كما اتخذها الصوفية - فيما بعد - رمزا للحضرة الالهية ، قال سلطان العاشقين :

بها قيس لبني هام ، بل كل عاشق كمجنون ليلى ، أو كثير عزة (١٠٦)  
وقيس ليس هو قيس بن الملوخ ، أو قيس بن ذريح ، بل هو قيس العاشق الذي يملأ البادية ، وينتشر في كل القبائل ، قيس ليس هو عامريا فقط ، بل هو عامري ، وجعدي ، وقشيري . يقول داود الانطاكي : « وقد اختلف في اسمه ، هل هو عامر ، أو المهدي ، أو الأقصر ، أو معاذ ، أو قيس ابنه ، أو ابن الملوخ ، أو البحتري ابن جعد . وفي نسبة عامري ، أو كلابي ، أو جعدي ، أو قشيري . أو المجانين متعددة ، أو هما اثنان في بني عامر ، أو لم يكن أحد وانما امرؤ تعشق واستكبر عن أن يصرح باسمه واسم محبوبته ، فمؤه بالمجنون وليلى » (١٠٧) . ولا داعي لهذا الاختلاف ، فقيس هو عامري وكلابي وجعدي وقشيري ، بل ومنسوب الى كل القبائل الحجازية . بل ان قيسا لم يكن عامريا أو كلابيا ولم يكن أحدا . وانما هو امرؤ تعشق واستكبر عن أن يصرح باسمه واسم محبوبته فمؤه بالمجنون وليلى . وعلى هذا ، فالاستدلال بأن شعر قيس ، يدل على أن شخصا حقيقيا قد عاش ، وقد خاض تلك التجارب ، وعبر عنها بصدق وأمانة ، وأن هذا يؤكد وجود قيس تاريخيا (١٠٨) ، هذا الاستدلال لا يؤكد وجود قيس بن الملوخ الذي ينتسب الى بني عامر ، ولا يدل على هذا الشخص بعينه ، وانما يدل على وجود شخص عذري ، على وجود امرئ بدوي

(١٠٦) تزيين الاسواق ١ / ٦٢ .

(١٠٧) المرجع السابق ١ / ٦٢ .

(١٠٨) الحياة العاطفية ص ٧٠ .

تعشق وموه بالجنون وليلى ، وهذا الاستدلال قد تأخذه من شعر قيس بن ذريح أو من شعر عروة بن حزام . فمن الصعب أن تستنتج من شعر أحد العذريين وجود شخصية منفردة وسمات خاصة ، ولهذا ليس عجيباً أن نجد أبياتاً تنسب مرة إلى قيس بن ذريح ، وتنسب مرة ثانية إلى قيس بن الملوح ، أو خبراً مرة تجده لجميل وثانية لكثير . ليس هذا عجيباً ، لأن هذا الخبر أو هذه الأبيات تنسب لرجل عذرى عاش فى البادية ، وتحت ظروف خاصة ، وله قصة حب تحدث عنها الناس ، وسمروا بأشعارها ، وتفكهاوا بأخبارها .

اذن شخصية العاشق ، نموذج انسانى ، يذكرنى بشخصيات «موليير» فى مسرحياته التى تحصل عناوين كلية ، وتحوى نماذج بشرية ، فالبخيل عند موليير ليس هو بخيلاً بعيته ، بل هو البخيل الذى قد تشاهده فى الشارع ، أو قد تراه فى المنزل ، وهو البخيل الذى يكون فى كل مكان وزمان . والمنافق ليس هو « ترتوف » فحسب ، بل هو المنافق الذى قد تجده فى مصر أو فرنسا ، أو فى أى مكان ، هو نموذج بشرى واطار انسانى .

ومع ذلك أريد أن أحتاط : فلست أزعم أن التشابه بين الشخصيات العاشاق تشابه تام ، أو هو كتشابه الشخص مع صورته ، بل هو تشابه قوى يشبه تشابه التوأم ، أو كتشابه صورتين لشخص معين ، أخذت الصورة الأولى فى سن العشرين ، وأخذت الثانية فى سن الخمسين ، فان التشابه بين هذين التوأم ، أو بين تلك الصورتين قوى وواضح ، ولكن عند النظرة المدققة قد تقع على فروق تفرق بين التوأم ، أو بين الصورتين .

بقى بعد تلك المقدمة أن أرسم صورة لشخصية المحب الحسى ، ثم صورة أخرى لشخصية العاشق العذرى .

\*\*\*

### شخصية المحب الحسى :

عناية هذه القصص بالصفات المادية للمحب ، عناية قليلة ، وتأتى عرضا أثناء الحديث وللأخبار .

والشخصية الأولى البارزة بين شخصيات الحب الحسى ، والتي ملأت زمانها وتغلّت عصرها ، وأصبحت النجم البارز ، تتطلع اليه النسوة ، ويغار منه الفتيان هى شخصية « عمر بن أبى زبيعة » .  
وسينصب حديثى على عمر ، باعتباره نموذجا يمثل دور المحب .

وأستطيع أن أصف عمر من الناحية المادية ، فهو شاب جميل ، أنيق ، يعتنى بمظهره ، ويلبس الثياب الفخمة ، ويهتم بالمواكب والآبهة ، ويسبل لفته (١٠٩) ويختار له فرسا جيدا (١١٠) ، ويخرج فى المواسم فى ركب يجرى الحسان ، ويحرص أن يزينه بالمغنيين (١١١) ، وينتخب له نجايب يخضبها بالحناء (١١٢) ، ويملأ ركبه بالاماء والعبيد (١١٣) . وهو ثرى يستطيع أن ينفق على مغامراته ، وأن يشتري لزوم الصنعة (١١٤) وهو كريم ، يعطى خدم الحببية الرشاوى ، وينفحهم بالخيرات (١١٥) . وهو لا يبالي أن يعتق من الاماء والعبيد ، من يساعده على الوصول الى غرضه (١١٦) ، وهو يحدث لبق يجرى الحسان بالاستماع له (١١٧) . وهو راوية يحفظ أشعار غيره من

(١٠٩) الاغانى ١ / ٨٦ « ساسى »

(١١٠) الاغانى ١ / ٨٣ « ساسى »

(١١١) المرجع السابق ١ / ٨٦

(١١٢) المرجع السابق ١ / ٩٩

(١١٣) المرجع السابق ١ / ٧٥

(١١٤) المرجع السابق ١ / ٩٩

(١١٥) المرجع السابق ١ / ٣٩

(١١٦) المرجع السابق ١ / ٧٤ و ١ / ٢٠٤ دار الكتب

(١١٧) المرجع السابق ١ / ٧١

العشاق (١١٨) ، ويجيد الحديث عن أخبارهم (١١٩) ، وهو من أسرة « أرستقراطية » كريمة المحتد ، وقد ورث عنها المال والجاه (١٢٠) .

تلك أوصاف موفقة في تحديد سمات « الفتى الأول » ، الذي يغري الحسان ويوقعهن في حبائله ، ويفرغ لتلك الحياة التي يكون فيها اما صائدا ، واما مصيدا . وتلك أوصاف ترشحه بحق لهذه البطولة ، وتؤهل له هذا اللقب .

موفقة هذه القصص في إيرادها تلك الصفات ، ولكنها لم تورد لها بتلك الطريقة التي نراها في القصص الحديثة ، التي تحاول أن توضح الشخصية داخلها وخارجها في ذهن القارئ ، وأن تجعل أحداث القصة نتيجة لهذا البناء الذي ابتنته لتلك الشخصية . وانما كانت هذه الصفات تنتشر عرضا في أخبار المحب ، وكان الراوي لا يابى لشيء أكثر من إيرادها وذكرها في القصة . والذي جنى على تطور قصص العشاق هو نظرة الرواة التاريخية لهذه الأخبار ، وعدم وجود حدود فاصلة بين التاريخ والقصص التاريخية . وهذا الخلط ، وعدم الوعي بتلك الحدود ، كانت له جنيته على التاريخ والأدب ، فقد حشا التاريخ بالمبالغات والخيال ، وأوقف الأدب عن التطور والنمو . فربما لو كان واضحا تمام الوضع في وعي الرواة والقراء أنهم يريدون قصة طريفة ، بطلها عمر بن أبي ربيعة مثلا ، لدفعهم هذا إلى العناية بالشخصية وإلى إيراد صفاتها بطريقة جذابة مشوقة ، ولربما عرف التاريخ عملا فنيا . لم يتأخر مولده حتى القرن التاسع عشر .

شخصية عمر شخصية إنسان يحب الجمال ويكلف به (١٢١) . ولكنه لا يريد أن يضيع على نفسه ، فلا يحصر الجمال في ليل فقط .

(١١٨) المرجع السابق ١ / ٧١

(١١٩) مصارع العشاق ص ٥٠

(١٢٠) الأغاني ١ / ٢٩ « ساسي »

(١٢١) الأغاني ١ / ٦٣ « ساسي » .

أو في لبنى فقط ، فقد يراه في الثريا ، وقد يراه في فاطمة ، وقد يراه في زينب . وهو يريد أن يشبع هذا النهم ، ولا يقف عند حد « الارادة » ، بل يحاول ويحاول ، وغالبا ما ينجح ولكنه اذا فشل ، فلن يأسى أو يجزع ، بل يبحث عن مغامرة أخرى ، يشبع بها هذا المينوع المتدفق في داخله . وهو يشعر بالسعادة في داخله ويترنم بتلك السعادة ، بل بالعكس قد تغرى به الحسان . فيحاولن دفعه الى قول الشعر فيهن . والتغزل بهن ، وكان يقول اذا سئل عن شعره « والله ما هو عن قصد منى ، ولا في جارية بعينها ، ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول في النساء » (١٢٢) .

وبعض شخصيات عمر اللاتي يتغزل بهن ، ويذكرهن في مغامراته الغرامية يملن الى البدانة ، فعائشة بنت طلحة كانت ممثلة ، وقد وصفها عزة الميلاء بقولها : « . . . مخطوطة المتنين ، عظيمة العجيزة ، ممثلة التراث ، نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر ، لفاء الفخذين ، ممثلة الصدر ، خميصه البطن ، ذات عكن ، ضخمة السرة ، مسرولة الساق يرتج ما بين أعلاها الى قدميها » (١٢٣) . والثريا بنت على ، قال عنها بعض المكيين : « كانت الثريا تصب عليها جرة ماء ، وهي قائمة ، فلا يصيب ظاهرها فخذيها منه شيء من عظم عجيزتها » (١٢٤) . وقد دافع العقاد عن هذا الذوق ، ورأى أنه ذوق الفطرة السليمة ، « فمما يعيب المرأة عضويا أو فزيولوجيا أن تكون رسحاء ، ضئيلة الردفين ، لأنها خلقت بحوض عريض ملحوظ فيه تكون الجنين » (١٢٥) . وشخصية عمر لم تكن كذلك الشخصيات التي ملأت العصر العباسي ، وكان فيها استهتار وانحراف ، وخروج سافر على التقاليد ، وانتهاك

- 
- (١٢٢) المحاسن والاضداد ص ٢٢٢ .  
 (١٢٣) الاغانى ١١ / ١٧٩ « دار الكتب » .  
 (١٢٤) الاغانى ١ / ٨٧ « ساسى » .  
 (١٢٥) شاعر الغزل ص ٣



لكل حرمة ، بل كانت تلك الشخصية تقول أكثر مما تفعل ، وتتظرف أكثر مما تنهت . وإذا فعلت كان فعلها مميّنا ليها ، فلا تخرج به عن كل حدود الأدب ، ولا تخرج به عن طبيعة العربى ، والذي لم يتأت للحضارة والمدنية فرصة كبيرة ومدة طويلة ، لافساده كل الانفساد ، والخروج به عن الشخصية العربية كل الخروج .

وهنا أصل الى مفتاح تلك الشخصية ، والخصه فى كلمة واحدة ، وهى «الظرف» .

الصفة الوحيدة التى يمكن أن ترجع اليها سلوكه ، وأن ترد اليها آراء الناس فيه هى صفة «الظريف» ، فقد كان ظريفا ، بالمعنى الذى فهمه القدماء من هذه الصفة .

فالظريف مأخوذ من الظرف الذى هو الوعاء ، فكانه وعاء لكل لطيف (١٢٦) وقال الأصمعى وابن الاعرابى : لا يكون الظرف الا فى اللسان ، يقال : فلان ظريف أى هو بليغ جيد المنطق (١٢٧) . ولن يكون الظريف ظريفا ، حتى تجتمع فيه خصال أربع : الفصاحة والبلاغة ، والعفة والنزاهة (١٢٨)

فالظريف عند القدماء هو الانسان «الجنّتلمان» ، الذى يحوى كل لطيف ، والذي هو فصيح ، جيد المنطق ، يقول بلسانه ، ويفيض بفصاحته ، ولكنه عفيف نزيه . ولكن ليست مثل عفة العذريين ، فيها حرمان وشؤم . بل عفة ظريفة لا تسرف فى الحرمان ، اسراف العذريين ، ولا تنتشام تشاؤمهم ، عفة تبيح لنفسها أن تتغزل تغزلا حسيا ، وأن تلهو لهوا خفيفا ، وأن تتفكه تفكها لطيفا .

(١٢٦) اخبار الظراف ص ١٢

(١٢٧) الموشى ١ / ٥٢

(١٢٨) المرجع السابق ١ / ٥١

وبهذا المفتاح أستطيع أن أفتح نفسي ابن أبي ربيعة ، وأن أفهم  
الاقوال التي حيكت حولها ، وأن أردّها الى مصدر واحد .

فمن ناحية يعجب ابن عباس بشعر عمر ، وينشده في المسجد  
الحرام ويحفظه ، ويتشأغل به عن ابن الأزرق وأمثاله ، الذين كانوا  
يضربون اليه من أقاصي البلاد ، يسألونه عن الحرام والحلال ( ١٢٩ ) .  
وقال لابن أبي عتيق : « أترى ما سيرت في الناس من الشعر ورب هذ  
البنية ما قبل منها وما دبر ، ما قولت امرأة قط ما لم تقله ، ولا طالعت  
فرج حرام قط » ( ١٣٠ ) .

ولكن من ناحية ثانية ، يقول ابن جريج : « ما دخل على العواتق  
في مجالسهن شيء أضر عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة ( ١٣١ ) .  
ويقول هشام بن عروة : لا ترووا فتياتكم شعر عمر بن أبي ربيعة ،  
لا يتورطن في الزنا تورطا » ( ١٣٢ ) ، وقد سأل سمرة الدوماني  
ابن أبي ربيعة : أكل ما قلته في شعرك فعلته ؟ قال اليك عنى . قلت :  
أسالك بالله . قال : نعم واستغفر الله » ( ١٣٣ ) .

أقوال مختلفة ، منهم من يرى أن ابن أبي ربيعة ، كان عفا ،  
زاهدا . ومنهم من يرى أنه كان فاسقا ماجنا .

ولا حيلة لي إلا أن أن أرد هذه الآراء الى مصدر واحد ، فقد كان  
عمر ظريفا ولم يكن عذريا محروما ، ولا فاسقا مستهترا .

وقد تنبه بعض القدماء الى هذا ، فبنو مخزوم يزعمون أنه « كان  
في نسيه يذهب الى أخلاق ابن أبي عتيق ، فإن ابن أبي عتيق كان من

- 
- ( ١٢٩ ) الاغانى ١ / ٧١ « دار الكتب »  
( ١٣٠ ) المرجع السابق ١ / ٧١ « دار الكتب »  
( ١٣١ ) الموشى ١ / ٥٧ ( باب سنن الظرف )  
( ١٣٢ ) الاغانى ١ / ٧٤ « دار الكتب »  
( ١٣٣ ) المرجع السابق ١ / ٥٧

أهل الطهارة والعفاف ، وكان من سمع كلامه ، توهم أنه من أجرا الناس  
على الفاحشة (١٣٤) والزبير بن بكار يقول : « لم يذهب على أحد  
من الرواة ، أن عمر كان عفيفا ، يصف ويقف ، ويحوم ولا يرد » (١٣٥)  
وقد وصف أحدهم شعره وصفا ظريفا قال : « هو الفستق المقشر » (١٣٦)  
وقد صرح فريق من النسوة بهذه الصفة حين أقبل عليهن عمر ، متذكرا في  
ثياب اعرابي ، فجعل ينشدن شعر كثير ، وجميل والأحوص ، وغيرهم ،  
« فقلن له : ويحك ، يا اعرابي ، ما أملكك ، وأظرفك » (١٣٧) .  
اذن كان عمر ظريفا ، لسانه أطول من يده ، يصف ويقف ،  
ويحوم ولا يرد . ومن تلك النقطة اختلف حوله المختلفون .  
منهم من نظر الى جانب الفصاحة والبلاغة في الظريف ، وما يتطلبه  
هذا الجانب من سماحة وتظرف ، فأسرفوا في الحكم على عمر بالفسوق ،  
وبأنه مارس كل تجاربه الشعرية في دنيا الواقع .  
ومنهم من نظر الى جانب العفة والنزاهة في الظريف ، فحكموا  
لعمر بأنه كان عفيفا ، وأنه فاز بالدنيا والآخرة « (١٣٨) » .  
والحقيقة أن عمر كان ظريفا ، لسانه أطول من يده كما قلت ، وقد  
اعترف هو بذلك ، فحين أنشد أبياته التي منها :  
ولقد قلت ليلة الجزل لسا أخضلت ريطتي السماء  
قالت له اليفغوم : « ما رأيت أكذب منك ، يا عمر ، أتزعم أنك  
بالجزل ، وأنت في جنيد محمد بن مصعب ، وتزعم أن السماء اخضلت

- (١٣٤) نوادر الجاحظ ص ٨٠  
(١٣٥) الأغاني ١ / ١١٩ « دار الكتب »  
(١٣٦) المرجع السابق ١ / ٧٧  
(١٣٧) المرجع السابق ١٧٥١  
(١٣٨) الشعر والشعراء ٢ / ٥٣٦ .

ويطنتك ، وليس في السماء قرعة • قال : « هكذا يستقيم هذا الشأن » ( ١٣٩ ) ولعللى لا أبعد عن قصده ، لو قلت : هكذا يستقيم هذا الظرف .

\*\*\*

#### شخصية العاشق العذرى :

العاشق العذرى - غالبا - جميل المنظر ، حيوى الشباب « سبط البنان حديد السنان » كما وصفت إحدى المعشوقات عاشقها ( ١٤٠ ) ، وهو « طويل بين المنكبين ، طوال » ( ١٤١ ) يهتم بحسن المنظر ، وجمال البنية ، فيتأنق في زيه وزى راحلته ( ١٤٢ ) ، وهو « من أظرف الناس ، خفيف العارضين ، آدم ، حلو المضحك » كما وصف شيخ من خزاعة ذا الرمة ( ١٤٣ ) . ويبدو على بعضهم التميز عن أخوته من حدائثه والتفوق عليهم ( ١٤٤ ) . ويتوقع الناس أن يكون له مستقبل عظيم ، لولا أن يمسه طائف من الحب ، ولولا أن تدركه تلك العقبات القوية التى لا سبيل الى زحزحتها والتغلب عليها ، فتحول بينه وبين أمنياته ، وإذا به يتبدل خلقا غير خلق ، ويميل الكثير منهم الى الانطواء والوحدة ( ١٤٥ ) ويصاب بالاصفرار والتحول ، وينشد الأشعار ، يظهر نفسه ، ويفرج كربيته ، ويميل الى المزاج السوداوى ، والتشاؤم والاستسلام للقدر ، والزهد فى كل شيء ( ١٤٦ ) ، والبعد عن الطموح الذى يجذب أمثاله من الشباب ، ويضخم مأساته ، ويبالغ فى تجسيد ما وقع به ، وكان مأساته

( ١٣٩ ) الاغانى ١ / ١٦٦ « دار الكتب » .

( ١٤٠ ) تزيين الاسواق ١ / ١٢١ .

( ١٤١ ، ١٤٢ ) الاغانى ٨ / ٩٢ « دار الكتب » .

( ١٤٣ ) المحاسن والاضداد ص ١٧ .

( ١٤٤ ) الاغانى ٢ / ١٥ « دار الكتب » .

( ١٤٥ ) المرجع السابق ٢ / ٤٦ ، ٢ / ٩٣ .

( ١٤٦ ) المرجع السابق ٣ / ٣٥ .

المأساة الوحيدة في العالم ، وكأنه لا يوجد في في الدنيا انسان أصيب  
بمثل ما أصيب به ، فهو شديد التفكير في ذاته ، والتركيز حول  
نفسه ، والتعايش مع لوعيه ، واجترار أحزانه وآلامه وذكرياته ، ولهذا  
تجد في شعره الوجدان الخالص ، والعاطفة الذاتية ، والمأساة الفردية ،  
والبعد عن العالم الخارجي ، وتجنب الحديث عنه الا بمقدار ما يمس  
مشكلتهم ، ويتعلق بمأساتهم ، بل ينتهي الأمر ببعضهم الى رفض الحياة ،  
ونبذ الناس ، فيهم في الطبيعة ، ويتحد مع مظاهرها ، فتألفه الظباء  
وتصادقه (١٤٧) ويخاطب الحمام ويناجيه (١٤٨) ، ويخلق عاطفة  
حوله ، بل ويخلق الحياة عما حوله ، فيحس أن هناك من ينسجيه ،  
ويذكره بليلي (١٤٩) ، ثم ينتهي به الأمر به الى الجثث والاختلاط (١٥٠)  
وقد ينتهي الأمر بالكثيرين الى الموت والانتحار (١٥١) .

شخصية هؤلاء بعد أن يمسم هذا الطائف من العشاق ، تنتهي بهم  
الى شخصية غير سوية ، رافضة للحياة وللعالم الخارجي ، وقد ضاق  
قيس بوضعه ، وتمنى الشفاء من حب ليلي ، وأن يعيش في الناس « سويًا  
مستريحًا » (١٥٢) على حد قوله .

ولعل لا أخطيء لو قلت : ان التباعد بين شخصيات المحبين  
الحسينين وشخصيات العشاق العذريين ، لم يكن ذا حواف عميقة من العيب  
اجتيازها أو تخطيها ، أو لم يكن مثل التباين الذي نشاهده في العطر  
العباسي بين أهل المجون في الحضر ، وبين عشاق أهل البادية .

وكانت هناك مظاهر تقارب بين العذريين والحسينين ، فقد كان

- 
- (١٤٧) المرجع السابق ٣ / ٢٤  
(١٤٨) المرجع السابق ٢ / ٧٢  
(١٤٩) المرجع السابق ٢ / ٥٤  
(١٥٠) الأغاني ٢ / « ساسي »  
(١٥١) تزيين الاسواق ١ / ١٦١  
(١٥٢) الأغاني ٢ / ٨٢ « دار الكتب »

عمر يحب أشعار العذريين وينشدها (١٥٣) ، وله أصدقاء من بني  
عذرة (١٥٤) . وكان يلتقى بجميل ويتناشداً ، وقد شهد له جميل مرة ،  
فقال : « هيهات يا أبا الخطاب ، لا أقول والله مثل هذ سجين الليالي ،  
والله ما يخاطب النساء مخاطبتك أحد » (١٥٥) . ولو رجعت الى شعره  
في الجزء الأول من الأغاني ، لوجدت فيه شعرا كثيرا ، فيه عفة ، وفيه  
أيضا حرقة . وهذا الشعر العفيف لا يقل عن النوع الأول من شعره الخفيف  
الدم ، الواضح الظرف ، ولا أقول شعره الماجن المنحرف . وانظر مثلا  
الى شعره في زينب موسى الجمحية ، فانك تشاهد أبياتا ، فيها حرارة  
ولوعة مثل :

ان قلبي بعد الذي تلت منها كالعمى عن سائر النسوان (١٥٦)  
ان بي داخلا من الحب قد ابى لى عظامى مكنوته وبرالى (١٥٧)

وجميل مثلا كانت له أبيات حسية ، ولم يصدقها سهل بن سعد  
الساعدي ، حين أقسم بعفته في مرض موته ، وقال له : « والله ما سلمت  
وانت منذ عشرين سنة تنسب ببثينة » . وحين ذكر سعد بعض مشايخه  
بهذا ، قال له : اليس هو القائل :

فدنوت مختفيا أجر ببثينة حتى ولجت على خفيف المولج  
قالت وعيش أخى ونعمة والدى لأنيهن الحى ، ان لم تخرج  
فخرجت خيفة أهلها فتبسمت فعلمت أن يمينها لم تلجج

(١٥٣) الأغاني ١ / ٧١ « سامى »

(١٥٤) مضارع العشاق ص ٥٠

(١٥٥) الأغاني ١ / ١١٦ دار الكتب

(١٥٦) الموجع السابق ١ / ١١٦ دار الكتب

(١٥٧) المرجع السابق ١ / ٩٥

قلّمت فأها أخذ بقرونها . فعل النزيغ بردها ما الحشرج (١٥٨)  
بل مما يدل على أن التباعد بين العذريين والحسين ، ليس فيه  
أسراف ، أن تلك الأبيات السابقة التي قد نسبت إلى جميل ، ذكرها  
صاحب الأغاني منسوبة إلى عمر (١٥٩) .

والاحظ تطورا خطيرا في شخصية العاشق . فقد كان في العصر  
الجاهلي - في الاعم الأغلب - فارسا شجاعا - له جولات في الحروب ،  
ومواقع يشهد بها الأفران . فامرؤ القيس كان شجاعا قويا يفتخر بشجاعته  
في الحروب ، وشدة بلائه (١٦٠) . وعنتره يحدث حبيبته عن  
شجاعته (١٦١) ، وكان للمرقشين موقع في حروب بكر من تغلب (١٦٢)  
كانت شخصية الفارس تتكامل في ذلك العصر مع شخصية العاشق ،  
ويظهر من خلالهما انسانا قويا على أعدائه ، ضعيفا أمام رحيبه .

ولكن - للأسف - نجد أن ذلك الجانبين ينفصلان - غالبا - في  
العصر الأموي . فإذا بعشاق هذا العصر ينصرفون عن العالم الخارجي .  
الملى ، بالاضطراب والثورات ، والاشتباكات مع الروم وغيرهم ، وينصرفون  
إلى عاطفتهم أو إلى مغامراتهم . فعمر حماسة من حمامات الحرم .  
لايهمها تحزب سياسي أو تعصب ديني ، أو اتجاه ثقافي ، بل ترك كل  
هذا ، وانصرف إلى شعره ينشده ، ويروج له وينشره بين المغنين ، وإلى  
مغامراته يتحدث عنها ويفتخر بها . وجميل يرى أن غزواته لا تكون  
إلا بين الحسان ، وأنه سيقتل بينهن ، وسينال الشهادة من أجل ذلك .

تفاوت خطير بين تلك الشخصيتين ، فشخصية تتكامل فيها  
الفروسية والعشق ، وشخصية ترى الفروسية في العشق . وربما كان

(١٥٨) الشعر والشعراء ١ / ٤٠٩ / والزهرة ص ٧٣

(١٥٩) الأغاني ١ / ٧٥ « ساسي »

(١٦٠) المغلقات العشر « معلقة امرؤ القيس » ص ٥٣

(١٦١) المرجع السابق « معلقة عنتره » ص ١٠٤

(١٦٢) الأغاني ٥ / ١٧٩ « ساسي »

السبب في هذا ، تلك الظروف القاسية التي مر بها الحجازيون ، وتلك المعاملة المهينة التي لقوها من الأمويين ، والتي أهدرت فيهم روح المقاومة ، والفروسية والشجاعة ، وغرست فيهم الاستسلام ، والتفرغ لحياة القلب والغرام .

ومع أنني ذكرت أن هناك في هذه القصص شيئا من المبالغة ، التي ترضى عقلية العامة ، إلا أنني أذكر هنا ، أن تلك المبالغة لم تكن قوية ، ولم تكن بعيدة بعدا يدنى الشخصية إلى عالم الملاحم ، ويبعدها عن عالم الواقع كل البعد . فلو حذفنا تلك الأشياء التي أضيفت لترضى العامة ، أو أضفنا هؤلاء العامة ، لبقيت لك بعد هذا شخصية معقولة إلى حد ما . فشخصية جميل لو حذفنا فيها الأخبار التي تتعلق بتعبه في سبيل لقاء المعشوقة ، لبقيت لك بعد ذلك شخصية معقولة . وعمر لو قللت شيئا من مغامراته ، لرأيت بعد ذلك شخصية ظريف معقولة . ويوضح هذا أكثر لو قارنت بين شخصية جميل أو عمر ، أو حتى شخصية المجنون ، وبين شخصية ذي القرنين كما يصورها صاحب التيجان ، فأنك تجد المبالغة الواضحة في شخصية ذي القرنين ، والبعد بها عن العرف المألوف ، مما يجعلها شخصية أسطورية ، مبالغ فيها مبالغة مسرفة .

وقصص العشق فقيرة في الشخصيات . فالأضواء فيها لاتسلط في - الغالب - إلا على شخصيتين : العاشق والمعشوقة ، أما الشخصيات الأخرى فباهتة ، ذات دور ثانوي ، لاتظهر إلا لمدة قصيرة ، تلقى فيها نصيحة للعاشق ، أو تلومه على أمر ، أو تضع له عقبة ، ثم تختفى . وهذا يجعل العلاقات بين الشخصيات فقيرة غير ثرية . فليست هناك علاقات مركبة ، ولاتشابه بين شخصيات متعددة ، وإنما هي علاقات مسطحة ، غير قوية . لا يبدو فيها تضارب المصالح ، ولاتصارع العواطف ، وإن كانت قصة « قيس وليلى » فيها شيء من تعدد الشخصيات ، وفيها من ثم شيء من تعدد العلاقات داخل القصة .

\*\*\*



### شخصية العاشقة :

وتلعب شخصية المرأة في قصص العشاق دوراً هاماً ، إذ تمثل الطرف الثاني في هذه القصص . وقد تلعب أدواراً أخرى ثانوية كان تكون أما ، أو تكون عجوزاً ، أو جارية تقوم بدور الوسيط بين العاشقين . والصفات الحسية للمعشوقة ، أنها تتميز بالجمال ، فقد تكرر في تلك القصص وصفها بأنها « كفلقة قمر » وصفت بذلك مرة ليلى ( ١٦٣ ) ، وثانية عقيلة بنت النعمان ( ١٦٤ ) . وثالثة عمارة جارية ابن جعفر ( ١٦٥ ) الخ .

ويصف الراوى لبنى بأنها « مديدة القامة ، بهية الطلعة ، عذبة للكلام ، سهلة المنطق ( ١٦٦ ) » . . . . . فللعاشقة من الصفات الحسية ما يؤهلها لهذا الدور . جمال وحسن منظر ، واستواء قامه ، وظرف ، عذوبة منطق .

أما صفاتها المعنوية ، وتكوينها النفسى ، فائتأ نجد أنفسنا ازاء نموذجين مختلفين :

شخصية لا حول لها ولا طول ، ولا حساب لعواطفها ، ولا أهمية لرغباتها ، وهى شخصية الجارية ، فانها منطوية على أمرها مستسلمة . وخذ مثلاً « عمارة » يحملها التاجر العراقى ، وكانت طرفه من طرفه الى الشام ، ثم يعود بها الى المدينة . وخلال تلك الرحلة الطويلة ، لاتظهر القصة شيئاً من عواطفها ، أو تبدى رغباتها . ولكنها فى آخر القصة يبدو لنا أنها تحب مولاها ، ولاتعبر عن ذلك صراحة بل تظهر ذلك بالاعتماد عليها حين الالتقاء به .

( ١٦٣ ) الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٨

( ١٦٤ ) الزهرة ص ١٦١

( ١٦٥ ) مصارع العشاق ص ٢٣٩

( ١٦٦ ) مصارع العشاق ٢٣٠

واعتقد أن تلك نتيجة الوضع الاجتماعي لطبقة الجوارى ، فقد كن أسيرات غير عربيات ، مغلوبات على أمرهن ، ينظر اليهن العربى نظرة انسان-هيئن لخدمته ، والمهر على راحته ، وكن ميسورات ، يسهل الحصول عليهن ، بل لامانع من خطفهن ، فقد خطف ابن الطرية جارية كان قد اغتصبها المقدم بن عمرو بن همام ، لصديق له شكا اليه أنه يهواها (١٦٧) . والاسلام قد اباح العلاقات الجنسية بملك اليمين ، فقال : « والذين هم لفروجهم حافظون ... الا على أزواجهم ، أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين » (١٦٨) ، وأود أن نتأمل التعبير القرآنى « ما ملكت أيمانهم » فانه يوحى بالوضع الاجتماعى لهذه الطبقة .

أما الشخصية الأخرى ، فلها قدرها ومميزاتها ، واعتبارها وحسابها ، وهى شخصية العاشقة العربية .

وهى شخصية تعبر عن عواطفها ، ولكن فى حرص العربيات وتحذرن . فليلى ترسل الى قيس : « بنفى أنت ، والله لوجدى بك فوق ما تجد . ولكن لا حيلة لى فيك » (١٦٩) ولبنى تعلن عن حبها لابن ذريح (١٧٠) الخ .

وتكشف القصص عن عزة العربيات وانفتحن ، وثورتن لكل ما يمس كرامتهن ، ويخدش سمعتهن . فليلى تغضب على قيس لتعرضه بها ، وأشارته الى « ليلة الغيل » ، لولا أن اعتذر لها ابن ذريح عنه بسان « الناس تأولوا كلامه على غير ما أراد . فلا تكونى مثلهم . وانمنا أخير أنه رآك ليلة الغيل وذهبت بقلبه . لا أنه عناك بسوء » (١٧١) . وليلى الأخيلية أمسكت عن كلام توبة ، حين وقفت على قوله :

(١٦٧) الاغانى ٨ / ١٧٤ « دار الكتب »

(١٦٨) سورة المؤمنون الايات ٥ ، ٦

(١٦٩) الاغانى ٣ / ٩٣ « دار الكتب »

(١٧٠) مصارع العشاق ص ٧٧

(١٧١) الاغانى ٢ / ٩٣ « دار الكتب »

فلما دخلت الخدر أطت نسوعه وأطراف عيدان ، شديد سيورها

حتى هدهدا بأنه سيمقى نفسه السم أن لم تكلمه . فجمعت ثلاثة من أهلها ، بحيث يخفون عليه واستحضرته ، فلما آنسته قالت : أى خدر دخلت معى ، حتى تقول ما تقول ، فقال : هذا أسترسل الشعراء ، ثم ذكر لها أمثال ذلك وتنزل ، ففرحت بسماع أهلها ذلك ( ١٧٢ ) .

وتكشف بعض القصص عن وفاء العربيات وخلصهن لحيهن . فلبنى سلمت جسدها لزوجها ، ولكنها ظلت وفية لعاطفتها ، مقدسة لحبها « ( ١٧٣ ) . وكذلك كانت ليلى بنت المهدي ( ١٧٤ ) . وتتحدث القصص عن شعور العاشقات ، حين يجيئهن النعى بموت العاشق ، حديثاً مؤثراً ، فبيئته لما جاءها النعى بموت جميل فى مصر ، خرجت « ناشرة شعرها . شاقة جبينها . لاطمة وجهها . وهى تقول « ياأيها الناعى . بفيك الحجر . أما والله لئن كذبتنى ، لقد فضحتنى ، ولئن كنت قد صدقتنى . لقد قتلتنى » ( ١٧٥ ) . ويعبر الأغاني عن هذا الموقف نفسه فتقول بيئته :

فصرخت صرخة ، آذنت منها الحى . وسقطت لوجهى ، فاعمى على . فكان صوتى لم يسمعه أحد ، وبقيت سائر ليلتى ، وافقت عند طلوع الفجر ، وأهلى يطلبوننى ، فلا يقعون على موضعى ، ورفعت صوتى بالعويل والبكاء . . . واجتمع نساء الحى ، وأنشدتهن فأسعدتنى بالبكاء ، فاقمن كذلك لا يفارقننى ثلاثاً . . . فلم أكتحل بعد بأئمد . ولا فرقت راسى بمخيط ولا مشط ، ولا دهنته إلا من صداع « ( ١٧٦ ) .

ويبلغ الوفاء ببعضهن حداً ، تحافظ فيه على عهد عشيقها بعد

( ١٧٢ ) تزيين الأسواق ١ / ١١٧

( ١٧٣ ) المرجع السابق ١ / ٦٢

( ١٧٤ ) الأغاني ٢ / ١٣ « ساسى »

( ١٧٥ ) الزهرة ص ٣٦٩ :

( ١٧٦ ) انظر : أخبار النساء ص ٧٤

موتها ، وتشعر أنها مسئولة أمامه كما لو كان حيا ، ويتسلل هذا  
الاحساس الى ضميرها فيجعلها تتصرف تصرفا ، يثير الاعجاب .  
فقد كانت أم عقبة بنت عمرو ، تحب ابن عم لها ، يقال له : غسان ،  
ويحبها ، ثم مات غسان ، وجعل الخطاب يردون على أم عقبة ، وهي  
ترفضهم ، الى أن أجابت يوما المقدام بن حابس ، فلما كانت الليلة التي  
أراد بها الدخول ، أتاها في منامها زوجها الأول ، وجعل ينشد لها شعرا  
يتهمها فيه بالغدر ، فانتبهت مرتاعة ، مستحيية منه كأنه يراها أو تراه  
كأنه في جانب البيت ، وانتهى بها الأمر الى أن خنقت نفسها  
بسوط (١٧٧) .

وتضيف هذه القصص الى بعض العاشقات ، « صفة البلاغة  
والفصاحة » فقد كانت ليلي الأخيلى ، بليغة فصيحة ، ولها مواقف أدبية  
إمام الحجاج ، تتكلم فيها بلغة رصينة وأسلوب فصيح ، يثيران  
الاعجاب (١٧٨) . وقد قال عنها ابن قتيبة : « هي أشعر النساء لاتقدم  
عليها غير خنساء » ثم روى شيئا من شعرها (١٧٩) . ويليى تقسول  
بيتين من الشعر ، تطمئن فيهما قيسا على حبها له (١٨٠) . وثينة  
تنشد بيتين من الشعر ، حين جاءها النعى بموت جميل فى مضر (١٨١)  
وكانت بثينة ناقدة حصيفة متذوقة لشعر جميل ، فقد لقيته بعد تهاجر  
بينهما ، فتعائبا طويلا ، فقالت له : ويحك يا جميل . أتزعم أنك تهوانى ،  
وأنت الذى تقول :

- 
- (١٧٧) الاغانى ٨ / ٢٠٣ « دار الكتب »  
(١٧٨) انظر : مصارع العشاق ص ١٥ ، وتزيين الاسواق ١ / ١١٩ .  
ومروج الذهب ٢ / ١٥٩ وزهرة الاداب ٣ / ٣٤٥ .  
(١٧٩) الشعر والشعراء ١ / ٤١٩ .  
(١٨٠) الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٧ .  
(١٨١) مصارع العشاق ص ٢٠٤ والزهرة ص ٣٦٩ والشعر  
والشعراء ١ / ٤٠٩ .

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفى الغر من أنيابها بالقوادح  
فأطرق طويلا يبكي ، ثم قال :  
« لا ليتنى أعم أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كسلامها  
فقلت له : « ويحك . ما حملك على هذه المنى ، أو ليس فى شدة  
العافية ما كفانا جميعا » ( ١٨٢ ) .

شخصية العائقة الحرة فى هذه القصص ، شخصية امرأة ذات عزة  
وانفة وكرامة ، ولكنها تذلل أمام عاطفتها ، فتخلص لحبيبها وتبكيه ،  
وتنشد الشعر فى رثائه .

وتلك الصورة ، تكشف عن العربية ، وتبرز مزاجها ، على عكس  
قصص أخرى ، تقف على طرفى نقيض ، وتصور المرأة فى صورة إعتقد  
أنها بعيدة عن صورة المرأة العربية .

فمثلا صورة بلقيس فى كتاب وهب ، صورة رهيبة ، تقود الجيوش ،  
وتحكم الرجال ، ولها من الحيلة والمكر والدهاء ، والقوة والأيدي ، ما يثير  
الرعب والهول ، رأى عمر بن عباد ، جد جاد ابنة جعفر بن لوط ،  
فهويها ، ثم أسقى جعفر خمرًا ، وسلب سيفه ، وضرب به رأسه ، ثم  
أراد أن يخلو بابنته جاد فقلت بلقيس للنساء جعفر : « ويلكن ، انى  
أيدى ، ليس فى الرجال مثلى ، ولا من يدافعنى ، وقد أعددت مديحة  
خصوصية ، للملك عمرو ذى الأذعار . . . وهى أول ما عملت من  
الخصوصيات باليمن مكرا ، ثم زينت بلقيس ، وأتت الى عمرو ، فأخذت  
بيديه جميعا ، بيد واحدة ، فأمسكته فلم يستطيع معها حراكا ، ثم مدت  
يدها الى قرونها ، فسلت المديحة ، فضربت بها نحره ، وأخذت برجليه  
تجره فى الحى » ( ١٨٣ ) فهى شخصية رهيبة . تثير الرعب والخوف .

( ١٨٢ ) الاغانى ٨ / ١٤ « دار الكتب »

( ١٨٣ ) أنظر قصتها فى : التيجان ص ١٤٧

ولامر ما نسبتها القصة الى انها بنت جنية . فقد تزوج أبوها امرأة من الجن . أنجبت له بلقيس ، التي يظهر أن عنصر الجن فيها قد غلب على عنصر الانس .

وعلى طرف آخر ، تقف شخصية المرأة في قصص « ألف ليلة وليلة » . فهي أقرب الى النموذج الاول ( شخصية الجارية ) ، منها الى شخصية العربية الأتفة المتمتعة ، والمرأة في كل صور هذا الدور جارية ، سواء أكانت ملكة ، أم جارية مشتراة من السوق « تكون بنت ملك تحارب وحبيبها خائف . ومع هذا تناديه « ياسيدى » وتخدمه ، كما تخدم مريم الزنارية نور الدين . وتباع وتشتري في أكثر القصص ، فتكون صفات الجارية وتصرفاتها ، أقرب الى واقعها « ( ١٨٤ ) .

قصص العشق - اذن - اصدق في الكشف عن شخصية العربية ، وابرار تكوينها النفسى ومزاجها الخلقى ، في صورة أقرب الى فطرتها العربية ، قبل أن تفسدها عوامل أخرى ، تدخلت في رسم صورة المرأة في « ألف ليلة وليلة » .

---

( ١٨٤ ) « ألف ليلة وليلة » للدكتورة سهير القلماوى ص ٣٠٠

#### الحادثة :

وأعنى بها تلك المادة « الخام » ، التي تصنع منها القصة ، أو ذلك المعنى الأول الذى يضيف اليه القاص ، عناصر ممزوجة من خيال ، وصراع وتشويق ، وعقدة ، محاولا أن يوائم بين مقادير تلك العناصر ، حتى تكون لنا فى النهاية تلك القصة التى تحرك وجداننا ، وتداعب خيالنا ، وتؤثر فى تفكيرنا .

واعتقد أن الفنان حر فى التقاط الحادثة التى تستهويه ، له أن يلتقطها من مواد شريرة ، أو من عناصر خيرة ، وله أن يستمدّها من واقع الحياة ، أو من تحف التاريخ . ولكنه مسئول - بعد ذلك - عن الشكل النهائى الذى ارتضاه لهذه الحادثة . هل يستحق أن يدخل نطاق الفن . فيرضى أذواق المتذوقين ، وترضى عنه حاسة النقد ، أو أن صاحبه قد قعد به عن ذلك المستوى ، فأخرج لنا شكلا ممسوخا ، قد يكون فيه فقر فى عنصر من العنصر ، أو استكمل عناصره ، ولكن به تنافر بين تلك العناصر ، ونشاز فى علاقاتها .

وأتكلم - الآن - عن تلك المادة « الخام » فى قصص العشق ، أما شكلها النهائى ، فقد ذكرت أول هذا الباب ، أن تلك القصص لم ترق إلى درجة الفن ، فقد كانت مجرد أخبار تلقى ، وأحاديث تقذف . ولم تكن الحدود فاصلة فيها بين التاريخ كتاريخ ، وبين الأدب كادب ، بل اختلط فيها الأمران اختلاطا كانت له جنايته على التاريخ ، وعلى الأدب على حد سواء ، فقد حشى التاريخ بالكاذب ومبالغات ، وتعرقل الأدب ، فلم ينم نموه الطبيعى .

والحادثة فى حكايات الحب الحسى ، تختلف عنها فى قصص العشق العذرى .

فهى فى حكايات الحب الحسى ، رجل يميل إلى امرأة قد أعجبت به ، فتوقظ فيه غرائز ونوازع وتحرك فيه عواطف . ولكنه لا يكبت تلك

الغرائز ، أو يحبس هذه العواطف ، فيكتفى بتقليبها ، ومناجاتها ووصف قوتها ، واليكاء بسبب تغلبها عليه وقهرها له ، بل بدلا من أن يطلقها في داخله وعلى ذاته ، يطلقها الى الخارج ، فيحاول أن يصل الى جسد محبوبته ، وإلى عينيها ، وإلى قمها ، وإلى جديدها ، فيشبع غرائزه ويرضى ميوله ، وقد ينال ذلك من هند مثلا ، حتى اذا صادف فاطمة تاق الى جسدها ، وإلى عينيها ، فينال منها ما ناله من صوابياتها . فينطلق الى غيره ( ١٨٥ ) . وقد تصادفه عقبة ، ولكنها عقبة هينة ، اذ هو تمنع من الحبيبة ، سرعان ما يتغلب عليه ، بالحاحه ومدامته ، فتستجيب ( ١٨٦ ) . أو يستعين بعجوز داهية تستحق لحيلتها أن تكون خليفة تلى أمور الناس ، كما وصف ابن أبي عتيق ، عجوزا استعان بها عمر وتحاللت حتى أوصلته الى مناه ( ١٨٧ ) . أو يستعين بصاحب له ظريف ، يتوسط بينه ، وبين حبيبته ، فتجيب واسطته ، وتظهر البشاشة لهذا الوسيط ( ١٨٨ ) . ولكنه قد لا يصل الى مراده . فلا يشكو القدر ومدى تسلطه على الناس ، ولا يتشاعم ويقتل الغربان ، أو يبكي بكاء يقطع الأكباد ، أو يهيم في الجبال ، ناديا حظه لاهيا عن عمله ، أو يستعطف حبيبته بحسرة وحرقة ، بل يطرح هذا الميل ، ويدفع تلك العاطفة ، باحثا عن أخرى ، تشبع ميله ، وترضى عاطفته ، فالنساء كثيرات ، بل ماله لا يفعل ، وهن أحيانا يطاردنه ، ويتحايثن للقاته ، ويرسلن اليه . وقد يتمنع عليهن ، وقد لا يتمنع ، ولكنه يلتقى بهن ، ويلتقين به ، ويعتدها ينصرف كل الى عمله ، ويضطرب في حياته .

( ١٨٥ ) انظر مغامرات ابن أبي ربيعة - في الاغانى - مع هند بنت الحارث المري ( ١ / ١٧٥ دار الكتب ) ومع الثريا ( ١ / ٢٠٩ ) ومع فاطمة بنت محمد بن الأشعث ( ١ / ٨٥ ) ومع زينب بنت موسى الجمحية ( ١ / ٩١ ) .

( ١٨٦ ) الاغانى ١ / ٢٠٤ « دار الكتب »

( ١٨٧ ) المرجع السابق ١ / ١٢٤

( ١٨٨ ) المحاسن والاضداد ص ٢٠٣



أما الحادثة في قصص العشق العذري ، فقد تكون غلاما صغيرا ، نشأ مع جارية صغيرة يرعيان البهيم سويا (١٨٩) ، وتظللهما تلك السماء الصافية ، وتباركهما أشعة القمر الحانية . ومن حولهما الطبيعة تجرى على سجيتهما ، فالحمام يتناجى ، واليمام يتناغى ، والابن تحن ، والاعنام تتعاطف . فينشأ بينهما شيء من الألفة ، ينمو مع نموها ، ولكن الصغيرة قد كبرت ، فيحول أهلها بينها وبين ألفها (١٩٠) فتضطرم العاطفة في نفسه ، وتشتعل في داخله ، فتنتطق لسانه بالأشعار ، يحن فيها إلى ألفه ويعبر عن وجدانه . وإذا هو يحفر حثقه بظلفه ، وإذا تلك الأشعار تتحول إلى عقبة كاداء ، لاسبيل إلى تذليلها ، تحول بينه وبين الوصول إلى معشوقته ، فالعرب لاتزوج بناتها من رجل تغزل بهن قبل الخطبة (١٩١) ، وبذلك أصبح الوصال عسيرا ، والزواج مستحيلا . ولكن العاطفة هنا شيء لا يمكن أسكاته ، وقدر محتوم لا يمكن التغلب عليه . فيحاول العاشق الوصول إلى معشوقته ، ويجد في ذلك أهوالا ومشقات . وقد ينال نجاحا فيلتقي في إحدى المرات بمعشوقته (١٩٢) . ولكنه نجاح يسير اذا قيس بتلك الأهوال المهولة (١٩٣) . وإزاء هذا يزوجه أهل الفتاة بأى طارئ ، فتقبّل الفتاة ارضا لأهلها ، وخضوعا لتقليدهم (١٩٤) . ولكنها تحتفظ بعاطفتها ، ويحملها زوجها إلى الشام أو غيرها ، فيضيق العاشق ، ولايملو . ويرسل العبرات ، ويسح الدموع . ويحاول أهله علاجه مما به يذهبون إلى عراف ، أو طبيب (١٩٥) ، أو يحجون به إلى بيت الله

- (١٨٩) المرجع السابق ٢ / ١٢ .  
 (١٩٠) الاغانى ٢ / ١٢ « دار الكتب »  
 (١٩١) المرجع السابق ١ / ١٦٨ « ساسى »  
 (١٩٢) مصارع العشاق ص ٣٢٨  
 (١٩٣) تزيين الاسواق ١ / ٤٦ والشعر والشعراء ١ / ٤٠٦  
 (١٩٤) مصارع العشاق ص ٧٧  
 (١٩٥) الموشى ٢ / ١٧٥

الحرام ، سائلين الله أن ينزل السكينة على قلبه (١٩٦) ، ولكن هيهات ، وينصحونه ، أو يعدلونه (١٩٧) ، أو يدرسون عليه من يخبره أن هذه العشيقة تذكره بسوء (١٩٨) ، أو يحاولون أن يزوجوه (١٩٩) ، ولكنه لا يسلو . وقد تتدخل أمه وتتوسل إلى الحبيبة أن تزوره (٢٠٠) . أو يتدخل أحد الناس ، فيعرض عليه بناته السبع ، ليختار منهن من يحب (٢٠١) ولكنه لا يرضى بشيء ، دون تلك الحبيبة التي تمثل له بكل سبيل . . . وتدفعه العاطفة . فيتعقب عشيقته عند أهلها ، أو يتبعها عند زوجها فيضيّقون به ، ويشكونه للسلطان . وهنا تتدخل تلك السلطة الرهيبة ، فتهدر لهم دمه (٢٠٢) . ويزداد موقف العاشق سوءا إلى سوء ، فاهل العشيقة يترصبون به ليقتلوه ، والعاطفة في داخله تكاد تقتله . ويشعل الصراع في داخله ، ويظهر آثاره في اصفرار وجهه ، ونحول جسمه ، وانشغال باله ، وينظر العاشق إلى الحياة بمنظار اسود ، فيتشائم ، ويسب الغربان ، ويلعن العذال ، ويكى ويضرع . وقد يرحمة أحدهم ، فيحاول التوسط ، وقد تكرر الوساطة مرة واثنين ولكنها تفشل (٢٠٣) . ولا تنتهي الحادثة - غالبا - نهاية سعيدة . بل قد يموت العاشق هائما في واد كثير الحجرة (٢٠٤) أو يلقي حتفه بعيدا في غربة (٢٠٥) فيغتم بذلك الطرف الآخر . وقد لاتكون أيام حتى

- 
- (١٩٦) الشعر والشعراء ٢ / ٥٥٠  
 (١٩٧) الاغانى ٢ / ٧١ « دار الكتب »  
 (١٩٨) المرجع السابق ٢ / ٨٤  
 (١٩٩) تزيين الاسواق ١ / ٥٣  
 (٢٠٠) الاغانى ٢ / ٣٥ « دار الكتب »  
 (٢٠١) تزيين الاسواق ١ / ٨٣  
 (٢٠٢) الاغانى ٢ / ١٧ « دار الكتب »  
 (٢٠٣) المرجع السابق ٢ / ١٧  
 (٢٠٤) الشعر والشعراء ٥٥٤  
 (٢٠٥) تزيين الاسواق ١ / ٤٧

يلحق به . ثم تصير قصتهما ملكا للجيل . يتناقضونها ، مترحمين عليهما ، راثين لحالهما .

تلك هي المادة « الخام » في قصص العشق العذرى . ظهرت لنا مرة في صورة « قيس وليلى » ، وثانية في صورة « قيس وليلى » ، وثالثة في صورة « جميل وبثينة » . . . الخ .

ظهرت لنا هذه المادة تحت أسماء كثيرة . ولكن - للأسف - لم يكن ما يميز القصة عن الأخرى واضحا ، فلم تتوسع إحدى هذه القصص في تفصيلات ، توضح شخصيتها ، وأنها كائن له سماته الخاصة وحياته الخاصة .

تشابهت هذه القصص في تلك « الخام » ، ولم يكن الاختلاف بين قصة وأخرى واضحا . وهذا يدل على جذب القاص في هذه الناحية ، فهو اكتفى بتلك « الخام » مضيفا إليها شيئا يسيرا ، ثم يسميها « قصة المجنون » . أو يضيف إليها شيئا آخر ، ولكنه حين أيضا ، ثم يسميها قصة « قيس وليلى » . وهكذا . . . فكان القاص قد أعياه الجهد على أن يضيف أشياء كثيرة إلى هذه « الخام » ، وأن يضيف عليها من نفسه وفنه ، ما يجعلها في النهاية خلقا جديدا ، يعجبك بذاته ، ويرضيك بشخصيته ، وكان تلك « الخام » قد أصبحت عند القصاص تقليدا ، لا يتجاوزها إلا تجاوزا يسيرا ضئيلا . ويدل أيضا على الأضرار التي جناها اختلاط مفاهيم التاريخ ، بحدود الحكايات المسلية في ذهن الراوى أو القاص .

تختلف الحكاية في قصص الحب الحسى ، عنها في قصص العشق العذرى ، كما تختلف الحاضرة عن البادية .

فهى في قصص الحب الحسى ، قصيرة ، طائفة ، سريعة ، لا تكاد تجد الوقت لكى تمتد وتتسع ، وتقرأ مغامرات ابن أبى ربيعة في موسم الحج ، فتراها ينتقل من مغامرة إلى أخرى ، بسرعة وتعجل ، وكأنه يريد أن يستهلك فى يوم واحد ، كل لذائذ الدنيا ، ورغائب الحياة .

يسرع الى ذات عرق ليلتقى بالعراقيات ، ثم يجرى الى الجحفة ليلتقى  
بالمصريات والشاميات ، ويطير الى ذى الحليفة ليلتقى بالحجازيات ،  
ثم ينتقل الى يلملم ليلتقى باليمنيات . وفى كل مكان يمارس مغامراته ،  
ويتغزل بنسوة ويتغزلن به .

اما الحادثة فى قصص العشق العذرى ، فهي طويلة - نسبيا -  
ممتدة ، يريد أن يشغل بها الأعرابى وقته ، وأن يملأ فراغه ، ويريد أن  
يقطع بها ذلك اليوم الذى يقضيه ، وهو جالس بجوار خيمته ، تاركاً غنمه  
ترعى الكلا أو ترقد بجواره . ويريد أن يستعين بها على ذلك الليل  
الطويل ، الذى لا يقصر منه مغنون أو تستهلكه حانات .

الحادثة فى قصص الحب الحسى ذات جو سعيد ، لا ينقصه الحرمان ،  
أو تفسده التقاليد ، ولهذا يكثر فيها اللقاء بين المحبين ، وقد ينتهى الأمر  
بهما الى زواج ، ولكنه لا ينتهى الى موت العاشقين . وليس فيها ذلك  
النوع من العشق المسلسل ، الذى يكثر فيه الموت والانتحار .

ولكنها فى قصص العشق العذرى ، ذات جو مظلم ، قد عكسته  
التقاليد ، وسوده الحرمان ، ولذا يكثر فيه التشاؤم ، والنواح ، والهيّاج ،  
والاضطراب ، بل والجنون ، والموت ، والانتحار .

ولهذا اعتقد أن الحادثة فى قصص الحب الحسى ، سوية ، طبيعية ،  
تأتى من قوم لا يفسدون حياتهم ، بهذا المزاج السوداوى المعتكر .

ولكنها فى قصص العشق العذرى ، قد تخرج عن السوية ، وتلحق  
بالمريض النفسى الذى يجر على صاحبه الاضطراب والهيّاج ، ويفسد عليه  
حياته ، فاذا به ينظر الى الدنيا ، نظرة تشاؤمية سوداء وقد ينتهى به  
الأمر الى « البيمارستان » أو الانتحار .

وقد تنبه القدماء أيضا الى أن هذا العشق المفرط ، الذى يكثر فيه  
العاشق من التفكير فى معشوقته ، والتعلق بها تعلقا شديدا ، سببه اختلال  
جسدى ، واضطراب فكرى « فالذى قال عليه الأطباء أنه مريض وسواسى ،

شبيه « بالمالخيوليا » ، يجلبه المرء الى نفسه ، بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والمثائل .. وسببه البدنى ارتفاع بخار ردىء عن منى محتقن ، ولذلك أكثر مايعتري العزاب « (٢٠٦) » . أو هو يكون عند « احتراق الدم ، واستحالتة الى السوداء . والتهاب الصفراء وانقلابها الى السوداء ، ومن طغيان السوداء فساد الفكر ، ومع فساد الفكر يكون نقصان العقل ، ورجاء مالا يكون ، وتمنى مالا يتم ، حتى يؤدي ذلك الى الجنون » (٢٠٧) .

قد لا أوافق القدماء على تلك الشروح الطبية . ولكنى معهم فى الفكرة العامة وهى أن العشق سببه اختلال الداخل ، واضطراب النفس . ولكن من قال أن الفن ينشأ مع الصحة فقط ، وأن الابتكار يصدر عن الشخص السوى فقط ؟ .

إن الفن قد ينمو فى تربة غير عادية ، وقد يتزعزع بين قوم « عصابيين » ، غير سويين ، وتاريخ الفنانين يدل على ذلك ، فكم من فنان انتهى به الأمر الى الجنون . وكم من فنان ختم حياته بالانتحار . وكم من فنان كان يحيا حياة كلها شذوذ وانحراف وخروج عن المألوف . أخلص من هذا الى أن قصص العشق العذرى ، أكثر فنية ، وسموا ، وإنسانية من قصص الحب الحسى .

قصص الحب الحسى ، حكايات طائفة ، فارغة ، لا تكاد تجد فيها صراعا يدور فى نفوس أبطالها ، أو عقبة قوية ، يحاولون تخطيها والتغلب عليها . أو عاطفة قوية تحترق فى داخلهم . وإنما هى تعبر عن نزوة طائفة ، مما يشارك فيه البشر غيرهم من الموجودات الأخرى ، لاتجد فيها سموا إنسانيا ، أو ارتفاعا عن مستوى الحياة العادية .

(٢٠٦) روضة المحبين ص ١٣٧

(٢٠٧) الزهرة ص ١٧

ولكن قصص العشق العذرى قد تطول ، وقد تقع فيها على صراع .  
تشفق من اجله على البطل ، أو تدهش لتلك العقبات التى تضعها  
« السلطة العليا » أمام العاشقين . وتجد فيها العاطفة القوية التى تشب  
فى قلوبهم . وفيها سمو عن الغرائز ، وإيمان بخيال المعشوقة ، وتشبت  
بهذا الخيال .

ان الباحث قد يجد فى قصص العشق العذرى مايرضيه ، وما يملأ  
عليه الورق الذى يريد أن يسوده . ويجد فيها نتائج يعتز بها ، ويحرص  
عليها ، ويتشوق الى اظهارها للناس ، فهى مجال خصب للدراسة ،  
وتربة صالحة لان يحرقها الدارسون . بخلاف تلك الحكايات الفارغة  
التي تحدث بين الناس كل يوم . وتشبه أى نشاط انسانى لايد للحياة منه  
يجوع الجائع فيأكل ثم ينصرف الى أموره ، ويميل المحب فيشبع  
ميله ثم يضطرب فى حياته . دون أن يحدث من الأمور ما يستحق  
التخليد ، وما ينبغى أن تحرص عليه الاجيال .

ان الأدب العربى من حقه أن يفخر بهذا التراث ، الذى احترق  
أصحابه وذوى أبطاله ، وتعرضوا لكثير من التيارات والانحرافات ،  
حتى استطاعوا أن يتركوا آدابا تفتخر بها الانسانية ، وتحرص عليها  
الاجيال .

## العقبة :

تلعب المصاعب التي تقابلها شخصيات القصة ، دورا كبيرا في بنائها ، فهي تستطيع أن تكشف عن حظوظ هذه الشخصية ، وتتيح الفرصة للقاص ، لكي يرسم شخصياتها رسما ، أراد به أن تكون الشخصية قوية، صامدة ، تتحدى المصاعب ، وتقاوم العقبات . أو رسما أراد به أن تكون الشخصية متهافئة خائفة ، تضعف أمام المصاعب ، وتنهار أمام العقبات .

وخير الأدب هو الذي يغرس في نفوسنا الاقدام ، ومقاومة الصعاب ، وكفاح الحياة ، لا الأدب الذي يشجع فينا الميول الرخوة ، ويميت العزيمة المتطلعة ، ويخمد الطموح المتوثب .

واقرا قصة « العجوز والبحر » للكاتب الأمريكي « ارنست هيمنجواي » تركيف تحدى هذا العجوز البحر ، والعواصف ، والأمطار وهو يدافع عن سمكه الكبيرة التي اصطادها ، ويذود عنها حيوانات البحر التي تريد أن تلتهمها ، وبعد ذلك استطاع أن يصل الى المرفأ ، ولكن السمكة الكبيرة كانت قد تحولت الى هيكل عظمي ، فوضعت في المرفأ يتعجب الناس من حجمها . ويذكرون عناء هذا العجوز .

والعقبة تساعد على إثراء القصة ، فهي منطلق ينطلق منه القاص لتجسيد ألوان من الصراع ، وإبراز صور من احتدام العواطف ، فله أن يتحدث عن الحالة النفسية والصراع الداخلي لبطل القصة ازاء هذه العقبة ، وله أن يتكلم عن صراع بين نفسيتين . نفسية تحول بناء هذه العقبة ، وتقويتها وترميمها لو أصابها شيء ، ونفسية تحاول هدم هذه العقبة ، وتحطيمها والقضاء عليها .

وللقاص أن ينتقى ما شاء من العقبات ، له أن يبني عقبته من العادات والتقاليد ، وله أن يقيمها من النزاع بين الطبقات الاجتماعية ،

وله أن يجعلها في صورة نزاع بين أهل الحبيبة وأهل الحبيب ، وله أن ينشئها من شخص داخل القصة له مصلحة في إقامة هذه العقبة وتشييدها .

ولكن كلما كانت العقبة من داخل القصة ، وتساعد على نموها ، وعلى إثرائها ، وعلى تعدد العلاقات فيها ، كان ذلك أجمل فنيا ، وادل على قوة القصة .

وأبرز العقبات ظهورا في موضوعنا ، تلك العقبة التي يقيمها الرواة من العادات والتقاليد ، فبعد أن يشيع العشق ، يصطدم العاشق بتلك العقبة التقليدية التي تمنع أن يتزوج العاشق بامرأة كان قد تغزل بها .

ولكن لم تستغل هذه العقبة استغلالا حسنا ، ولم تساعد بعد ذلك على بناء القصة بناء فنيا . فكانها شيء قد ظهر ، وقد سد الطريق أمام العاشق ، ليتفنن في إيذائه ، وإظهار آلامه . وقد جعل هذا الشيء العاشق يقف في مكانه ، ويتحرك في دائرته المحدودة ، لا يستطيع أن يتخطى هذا الشيء فينتقل إلى عالم رحب . ولا أن هذا الشيء يحاوره ويداوره ، ويكون له مصلحة في هذه المحاورة وتلك المداورة ، فيزيد هذا في نماء القصة ، وبهذا اشبهت هذه العقبة شيئا خارجيا ، قد اجتلب لغرض ولم يكن له بعد ذلك تأثيره في انماء القصة وتعريضها .

ولو أن كاتبنا حديثا استطاع استغلال هذه العقبة ، فيخرج لنا قصة من قصص العادات والتقاليد ، ويختار لنا بطلا ثوريا ، يجمع الناس حوله ، ويحارب العادات والتقاليد ، فينتصر عليها ، وينتقل إلى عالم أرحب - لكان هذا جميلا وتقدما ، ولكن هذا البطل الشائر ، سيكون بعيدا عن نفسية هؤلاء العذريين التي تميل إلى الاستسلام والخنوع .

ابن ذريح استطاع أن يفلت من هذه العقبة ، وأتيح له قدر من المساعدة بفضل تدخل الحسين رضي الله عنه ، ولكن لم يلبث أن قابلته عقبة من نوع آخر وهي الكراهية التقليدية بين الأم وزوج ابنها .



وقد بنيت هذه العقبة بناء لا بأس به ، فقيس وحيد لها ، وقد بلغ بها الكبر عتيا ، فهي تؤثره وتحبه . وهو أيضا كان بها برا وفيا لا ينشغل عنها . ولبنى امرأة غريبة أحبها قيس ، وقد مانعت الأم في أن يتزوجها ، وأيضا أبوه قد مانع في ذلك ، لولا أنهما خضعا لشفاعة الحسين .

وهذه العقبة كانت من داخل القصة ، وظلت حية متحركة ، تعمل عملها وتساعد في بناء الصراع ونموه ، وأغنت القصة بشخصيات آخر ، لها علاقاتها ، ولها مصالحها المترابطة ، ولها نوازعها المتشابكة .

لم تقف أم قيس ساكنة جامدة ، بل راحت تعمل عملها ، وخاصة أن وحيدها قد شغل عنها ، وأن تلك الغريبة قد ملكت عليه وقته ، وشغلت عليه حياته ، فاشتعلت فيها نار هي مزيج من عواطف مختلفة : الغيرة ، والاثرة ، والحب لابنها ، والكراهية لتلك التي ما كانوا يقبلونها ، لولا تدخل رجل من آل البيت .

تزن تلك العقبة في أذن زوجها ، وتختار زنيها يؤثر على زوجها ، فهو رجل سلى ، قد بلغت به السن الحد الذي لا يستطيع معه أن ينجب ابنا آخر . ولبنى امرأة عقيم . فهل سيترك الدنيا بدون ذرية تحمل اسمه ، وتخلد ذكراه .

وهنا يقع قيس بين شقي الرحا ، فالوالدان من جانب ، والزوجة من جانب ، يشده الواجب إلى ناحية ، وتجذبه العاطفة إلى ناحية أخرى .

يقترح مختلف الحلول ، فلم يوفق . يعرض على والده أن يتزوج أخرى غير أمه ، ولكن والده يخبره ألا خير يرجى منه . فيقترح عليه أن يتركهم إلى بلد آخر ، ويعتبرونه كأنه قد مات في مرضه هذا الذي مر به أو أي حل آخر ، فأبوا إلا أن يطلق الكعبية (٢٠٨) .

فهذه العقبة قد أوجدت في القصة شيئا من الشراء ، وظهر -

بسببها - موقف آخر ، كان يمكن أن يكون فيه الكثير من التيارات النفسية المتضاربة ، وهو موقف والد قيس ، فقد لأمه أهل الحى على موقفه ، فجزع وندم (٢٠٩) . ولكن القصة لم تفصل هذا الموقف ، واكتفت بتلك الإشارة الهينة . وهذا الموقف شبيه بموقف والد ليلى ، فقد حزن أيضا وأصابه الندم بعد وفاة المجنون (٢١٠) ولكن موقف ذريح كان يمكن أن يكون أكثر ثراء ، فهو قد قضى على سعادة وحيدة بيديه ، وسبب له كل هذه الآلام . أما المهدي ، فمن الممكن أن يعطل ضميره آراء موت المجنون - الذى لم يكن ابنه - بأنه قد فعل هذا خضوعا لعادات قومه وتقاليدهم . وهناك عقبة أيضا يمكن أن تتيح للقصة شيئا من الثراء ، وأن تمدّها بشخصيات أخرى ، وأن تضيف إليها علاقات وتعقيدات جديدة . وهى عقبة الوشاة ، الذين لهم مصلحة فى تلك الوشاية ، كان يكون أحدهم محبا للفتاة ، ولكنها لا تحبه ، فيختلق أكذوبة ، ويزين للفتاة أن حبيبها الذى تخلص له يحب أخرى ، أو يدخل فى روع الفتى أن معشوقته تكرهه ولا تحبه . فينتج عن هذا ألوان من الصراع ومن تضارب العواطف .

ولكن للأسف ، لم تستغل هذه القصص هذه العقبة ، استغلالات كافية . ومن النادر أن تجد القصة التى تهتم بهذه العقبة ، وتجعلها مصدرا للمصاعب والصراع .

وأود أن أضرب المثل بقصة رائعة لم تحدث فى العصر الأموى ، وأن كان راويها ممن عاشوا فى هذا العصر ، ولكنها - على أى حال - كافية فى بيان الثراء ، الذى يمكن أن تجرّه هذه العقبة ، لو استغلت الاستغلال الحسن ، لأنها عقبة حية ، تظل تعمل عملها فى داخل القصة ، ولها مبرراتها الكافية ، التى تدفعها إلى هذا الصنيع ، وأعنى

(٢٠٩) تزيين الأسواق ١ / ٥٣ .

(٢١٠) الأغاني ٢ / ١٦ « ساسى » .

بذلك قصة « مضاض ومى » فقد كان مضاض ومى ، يعيشان فى سعادة ، فهما عاشقان ، ومنزلتهما الاجتماعية متكافئة . وقد وافق أهلهما على زواجهما . ولكن يدخل بينهما واث خبيث يقلب الأمور ، يحب « ميا » ولكنها لا تلتفت اليه . هذا الواثى يمويه على « مى » أن مضاضا يحب أخرى ويضع الأشعار على لسان مضاض . وإذا بتلك الوشاية تقلب السعادة الى مأساة تنتهى بنهاية سيئة للبطلين . وأما الواثى فحين انكشف أمره ، ابتلعتة الأرض فلم يظهر ( ٢١١ ) .

وفى قصة ابن الطثرية مع وحشية عقبة من نوع جديد ، فيزيد فتى غزل جميل ، عشق وحشية وهى من قبيلة جرم . والغزل فى هذه القبيلة جائز . ونساؤها يرحبن بالغزليين ويدعوهم الى منازلهن ، فتتوقع أن تختفى تلك العقبة ، التى تأتى من خارج القصة ، لتسبب للعاشق المصاعب ، بحجة العادات والتقاليد . وبالفعل اختفت لتظهر مكانها عقبة من نوع جديد ، وهى الحروب التى كانت بين جرم وقشير ، وعدواتهما التى زامها اشتغالا كسب يزيد للرهان . فغضب جرم ، وقالوا : انها مكيدة ، وعادت بينهما الحروب ، بعد أن هدأت . وبهذا وجدت المصاعب بين العاشقين .

لو أتيح لهذه القصة عناية النقاد ، ولو نظر إليها الرواة نظرة فنية خالصة ، وتركوا التاريخ لأهل التاريخ - لكان من الجائز أن تتطور الى قصة خالدة ، ولكان من الجائز أن يعرف العالم قصة « يزيد وحشية » . قبل أن يعرف قصة « روميو وجولييت » التى استغل فيها شكسبير العداوة التى كانت بين قوم روميو وقوم جولييت ، استغلالا أنتج لنا هذه الرائعة الخالدة .

والفقر - أحيانا - يقف عقبة فى تلك القصص ، وهنا نرى سطوة المال وقوته ، وتغلبه على العواطف ، بل وعلى علاقة اللحم والدم . ومن العجيب أن هذه العقبة ، كثيرا ما تظهر بين ابن العم وابنة.

عمة ، فقد يكون ابن العم فقيرا ، فيفضل عليه أهل العشيقه رجلا ثريا ، ويستطيع المال أن يتغلب على اعتبار القرابة ، مع أن هذه القرابة كانت ذات اعتبار في ذلك المجتمع العربي القبلى .

يعشق عروة ابنة عمه عفراء ، ويعدده عمه بالزواج ، ثم يخرج عروة عسى أن يجمع مالا يستعين به على مهر المعشوقة ، وفى غيابه يدلف إلى المدينة رجل من أهل الشام ثرى ، فيرى عفراء فتعجبه ، فيخطبها من أبيها فيمتنع فى أول الأمر ، ثم يعدل إلى أمها ، الذى ينسبها رئين الذهب أى اعتبار ، فتجيبه ، ثم تلج على الأب حتى يوافق (٢١٢) ، ومأساة العاشق والسبع ، كانت بسبب حيلولة العم بين ابنته وبين ابن عمها لقله ذات يده ، فزوجهها رجلا من بنى كلاب (٢١٣) . وقصة « الاعرابى الظريف » مثل واضح ، ولنترك يشرح مأساته بأسلوبه المؤثر . يشكو إلى معاوية « اننى رجل من بنى عذرة ، تزوجت ابنة عم لى ، وكانت لى صرمة من الابل وشويهات فانفقت ذلك عليها ، فلما أصابتى نائبات الزمان وحادثات الدهر ، رغب عنى أبوها ... الخ » (٢١٤) .

تلك هى أشهر العقبات التى تصادفها فى قصص العشق ، وبعض هذه العقبات ينبع من ظروف الحياة العربية ، كالعقبة التى تكون بسبب العادات والتقاليد ، أو التى تكون بسبب الحروب بين القبائل ، ولكن من النادر جدا أن تجد عقبة ترجع إلى التفاوت بين الطبقات ، كان يحب الشريف جارية ، أو تحب المرأة العلية من هو أقل منها طبقة ، ثم تحول تلك الطليقة بين العاشقين . بل بالعكس نجد عشقا من هذا النوع ، كعشق يزيد لحبابة ، أو عشق ابنة عبد الملك أميرا لأبيها ، وهذا يؤكد ما سبق أن ذكرته من أن هذه القصص قد حققت اشتراكية

(٢١٢) الأغاني ١ / ١٥٦ « ساسى » .

(٢١٣) تزيين الاسواق ١ / ١٢٩ والموشى ١ / ٨٣ .

(٢١٤) مصارع العشاق ص ١٧٨ .

تامة ، وألغت الفروق بين الطبقات ، قبل أن تلغيها الحياة الواقعية ، ويظهر أن العواطف بين الناس فيها شيء من الجبرية ، على الأقل في تلك الفترة المبكرة ، وبين هؤلاء القوم ، وفي تلك القصص الأموية .

والعقبة في تلك القصص عقبة كؤود ، لا يستطيع زحزحتها ، فالعادات والتقاليد تظل تحول بين العاشق والمعشوقة ، والحروب تظل تعمل عملها ، ولا يمكن التغلب عليها ، أو الصلح بين القبيلتين . والصراع بين الأم والزوجة ، لا يستطيع قيس أن يتغلب عليه ، وأن يعيد الوثام بينهما - ولو كان شكليا - كما يحدث في كثير من الأسر . والواشي لا يمكن إبعاده أو كشف مؤامراته إلا بعد أن تقع المأساة . حتى عقبة الفقر ، يبدو للعشق أنه قد تغلب عليها . وأنه تحصل على المال بما يحقق له مناه ، ولكن الأقدار تكون أقوى منه ، فهناك من سبقه وأغرى أهل الفتاة ، فستطاع أن يحصل عليها في غيابه ، ولهذا انطبع كثير من هذه القصص ، بطابع المأساة التي تنتهي بشقاء البطل واخفاقه أمام العقبات .

قليل جدا من يتيح له الحظ فرصة سعيدة ، فيتغلب على عقباته ، كما في قصة « الأعرابي الظريف » الذي ساعده الحظ ، فظفر بمعشوقته ، وظفرت به ، وانتهت قصتهما نهاية سعيدة ضحك لها معاوية ( ٢١٥ ) .

ويختلف حظوظ العاشق من العقبات ، فبعض العشاق يتعرض لعقبات أقوى وأكثر ، والبعض الآخر قد تكون عقباته هينة ، أو قليلة نمبيا .

ففي قصص الحب الحمى ، نجد العقبات التي يتعرض لها المحب هينة ، لا تحتاج منه إلى صراع هائل ، ولا تطبع حياته بطابع المأساة .

---

( ٢١٥ ) مصارع العشاق ص ١٧٨ .

وابن ذريح تعرض لشقاء أقل مما تعرض له ابن الملوح . ولهذا نجد في قصته فترة أتيح له فيها ان ينهل من السعادة . أما المجنون فقد وقفت عقبته دون أن تتيح له ولو قدرا يسيرا من الراحة ، وفشلت كل الجهود في زلزلتها والتغلب عليها . وقد لعبت الأقدار بعواطفه لعبا مؤثرا . فكم من مرة يبدو أن قيسا في سبيله إلى التغلب على عقبته ، فينعم بشيء من الراحة ، وإذا بهذا الأمل سراب ، فيرتد أكثر انفعالا واضطرابا ، رآه مرة عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، فأعجب به ، وسأله أن يخرج معه فاجاب ونشط ، ولكن لما علم أن السلطان قد أهدر دمه ، أضرب عما وعده ، وأمر له بقلانس . ولكن قيسا غضب ورد عليه قلائصه ( ٢١٦ )

وفي السنة الثانية جاء نوفل بن مساحق ، فاشفق على حال المجنون ، واعطاه عهدا أن يزوجه من ليلي ، فهبىء للمجنون أنه قد أصبح قريبا من أمله ، وراح معه « كاصح أصحابه يحدثه وينشده » ولكن انظر إلى خيبت الأقدار . كيف تلعب بعواطفه ، فقد بلغ ذلك رهط ليلي ، قنلقوه بالسلاح ، « وقلوا له : يابن مساحق ، لا والله لا يدخل المجنون منازلنا أبدا أو يموت » فاقبل بهم وأدبر ، فأبوا . فقال للمجنون : أنصرف . فأصيب بخيبة وجعل ينشد الأشعار معبرا عن خيبته ، فقال : أياويح من أمسى ، تحلس عقله فأصبح مذهوبا به كل مذهب خليسا من الخلان إلا معذرا يضحكنى من كان يهوى تجنبي ( ٢١٧ )

قيس - اذن - لعبت به الأقدار لعبا مؤثرا ، وجعلت تترواح به بين الأمل والياس ، تدنيه مرة إلى أمله ، وتزيين له أنه قد أصبح قريبا منه ، ولكنها تدنيه ، لتبعده ، وتهز نفسه . وربما كان لهذا الترواح وهذا التردد ، أثره في افساد نفسيته ، واضطرابها ، ودفعها إلى الهيام والجنون .

( ٢١٦ ) الأغاني ٢ / ١٦ « دار الكتب » .

( ٢١٧ ) الأغاني ٢ / ١٧ « دار الكتب » .

### الصراع :

الصراع من أهم العناصر التي تكسب القصة أو المسرحية ، حيوية ونشاطاً ، فهو يستغله الفنان في الكشف عن نفسية الشخصية ، وتنميتها ، وتطورها ، ولجذب القارئ أو السامع وشده الى أحداث القصة ومتابعتها ، ولأحداث مؤثر في القصة يكسبها حياة وحركة .

والصراع قد يكون بين جبهتين متعارضتين ، كل جبهة تتعصب لراى ، وتدافع عنه ، وتحاول أن تتغلب على الجبهة الأخرى . وقد يكون بين تيارين في داخل نفسية واحدة ، فتتار يحاول أن يثبـد الشخصية الى جانبهِ ، والأخر يريد أن يجذبها الى ناحيته . وقد يكون التياران عبارة عن عاطفتين متصارعتين ، أو عبارة عن عاطفة تتصارع مع واجب يحكم به العقل .

وفي الأدب الكلاسيكى الذى غلب على عصر النهضة ، كان الصراع غالباً ما ينتهى بغلبة الواجب ، وانتصار الاخلاق ، والقيم المتعارف عليها . ثم انعكس الأمر فى الأدب الرومانتيكى الذى أعقبه ، والذى كان يمجّد العاطفة ، ويعتبرها أرقى من العقل وتحكماته .

وقصص العشق لم تحرم من عنصر الصراع ، الذى يكسبها حيوية الى حد ما ، ومن خير الأمثلة التى أستطيع أن أسوقها ، قصة « قيس ولبنى » ، فهى من القصص العربية الغنية بالصراع ، فكل شخصية من شخصياتها الرئيسية ، تكاد لاتخلو من صراع داخلى ، وقد كانت فيها جبهتان متعارضتان مما أكسب القصة حياة وحيوية ، فهناك صراع فى نفس قيس بين عاطفته وحبهِ للبنى ، وبين واجبه نحو أمه وبره بها . وهناك صراع بين الأم وزوج ابنها . وهناك صراع فى نفس ذريح ، الذى ندم على فعله ، حين رأى ما حل بوحيدة بسبب الحاحه عليه أن يطلق لبنى .

وحتى فى قصص ابن أبى ربيعة ، قد تلبقى بنماذج من الصراع ،

قيبدو صراع في نفس فاطمة بنت محمد بن الأشعث ، فقد وقع في قلبها عمر ، ووقعت في قلبه . ولما جاءها خاطبها ، وأرسل إلى أمها بخمسائة دينار ، أبت أمها وحجبتها ، وقالت للرسول : لاتعود إلينا ، وكان الغتلة غمها ذلك ، فقالت لها أمها : قد قتلك الوجد فتزوجيه (٢١٨) . والعراقية التي أحبها عمر ، فخطبها ، ولكنها قالت له : « ان هذا لا يصلح هاهنا ، ولكن ان جئتني إلى بلدي ، وخطبتني إلى أهلي تزوجتك » فتبعها إلى العراق ، وجعل ينجزها وعدها . ولكنها كانت متردة محتارة ، بسبب صراع يدور في داخلها ، فهي تميل إلى عمر . ولكنها من ناحية أخرى كانت - كما تعبر عن نفسها - « متزوجة ابن عم لها ، وولدت منه أولادا ، ثم مات ، وأوصى بهم ويماله إليها ، مالم تتزوج ، وأنها تتخاف فرقة أولادها وزوال النعمة » (٢١٩) .

وقصص العشق في الفصل بين التيارين المتصارعين ، تختلف عن القصص الرومانتيكية وتتشابه مع القصص الكلاسيكية ، فهي - في أكثر الحالات - تنهى الصراع بانتصار الواجب ، وغلبة العادات والتقاليد ، فابن ذريح - بالرغم من حبه للبني ، الذي أذاقه صراعا عنيفا وحادا - ينهى الأمر بظاعة والديه ، والسماع لهما ، فيطلق لبني . وفاطمة بنت الأشعث ترد على أمها ، حين أشفقت عليها من الصراع ، وعرضت عليها ان تتزوج عمر ، فتقول لها : « لا والله لا يتحدث أهل العراق عني ، اني جئت ابن أبي ربيعة أخطبه ، ولكن ان أتاني إلى العراق تزوجته » والعراقية تنتصر لأولادها وتحرص على وصية زوجها ، فتعتذر لعمر ، وتبعث إليه بخمسة آلاف درهم ، فيردها عليها ويرحل إلى مكة . وابن أم الحكم حين اشتكاه الأعرابي إلى معاوية ، فأرسل إليه معاوية كتابا غليظا ، يأمره فيه بأن يطلق الأعرابية الحسناء « تنفس

(٢١٨) الاغنى ١ / ٨٩ « دار الكتب »

(٢١٩) المرجع السابق ١ / ١٧٢



الصعداء ، وقال : وددت أن أمير المؤمنين خلى بينى وبينها سنة ، ثم عرضنى على السيف ، فجعل يؤامر نفسه فى طلاقها ، ولا يقدر ، فلما ازعجه الوفد طلقها « ( ٢٢٠ ) . ويعبر ابن قيم الجوزية عن هذا الموقف تعبيراً آخر ، فحين ورد عليه كتاب معاوية « جعل يقرؤه ويردده ، ثم قام ودخل على سعدى ، وهوباك ، فلما نظرت اليه قالت له : سيدى ، ما الذى يبكيك ؟ قال : كتاب أمير المؤمنين ورد على فى أمرى ، يأمرنى فيه أن أطلقك ، وأجهزك وأبعث بك اليه . وكنت أود أن يتركنى معك حولين ، ثم يقتلنى ، لكان ذلك أحب الى ، فطلقها ... » ( ٢٢١ )

وهذا الصنيع تغليب للجانب الخلقى عند العرب ، فالعرب كانت لهم أخلاق وعادات يؤثرونها ، ويكتبون لأجلها هواهم ، وإذا رجعت الى الكتب التى فلسفت جانب العاطفة العربية ، فإنك واجد فيها أبواباً عديدة تتحدث عن قوة الإرادة ، وقمع الهوى والشهوات وتحكيم العقل . ونخذ مثلاً « ذم الهوى » لابن الجوزى ، فالباب الأول عقده فى ذكر العقل ، وفضله وذكر ماهيته . والباب الثانى فى ذم الهوى والشهوات . والباب الثالث فى ذكر مجاهدة النفس ومحاسبتها وتوبيخها . والباب الرابع فى مدح الصبر والحث عليه . والباب الخامس فى حراسة القلب من التعرض للشواغل والفتن ..... الخ .

ولكن القاص لم يستغل مواقف الصراع فى هذه القصص استغلالاً كافياً ، ولم يتخذها نقطة انطلاق : تنمى القصة ، وتزيد من حيويتها ، بل اكتفى بتسجيل هذا الصراع بإشارات مقتضبة ، وتلميحات خفيفة ، فقد يمر بموقف ثرى ، وتحس أن الأمر يحتاج الى إفاضة وشرح ، ولكن القاص يمر به مروراً سريعاً ، مسجلاً له فى جملة أو جملتين . وقد تشاهد دمة تترقرق فى عين عاشق ، وتحس أنها تخفى وراءها تياراً

( ٢٢٠ ) مصارع العشاق ص ١٧٨

( ٢٢١ ) أخبار النساء ص ٧

عنيفا . ولكن القاص يسجل الدمعة ، ثم يمر ، لا يتبطن ما تحتها ، ولا يعتيه ما وراءها .

ومن العجيب ن القصص الشعبية الأخرى ، كقصة عنتره ، أو قصة سيف ابن ذى يزن ، تجد فيها الصراع أكثر ثراء وتفصيلا . وربما كان السبب أن قصة عنتره مثلا كان يضمها كتاب واحد ، يقتصر عليها ويتوسع في جزئياتها وتفصيلاتها ، أما قصص العشق ، فإنها متفرقة في ثنايا الكتب ، ومختلطة بالأخبار التاريخية والروايات الأخرى . ولهذا كانت في الغالب قصيرة ، تشبه خيرا تاريخيا يأتي في ثنايا الكتاب ، ثم ينصرف عنه الكاتب إلى غيره .

ثم إن الحدود الدقيقة الفاصلة بين التاريخ والقصة ، لم تكن واضحة في ذهن الراوى لقصص العشق . بخلاف قصة عنتره وما شابهها ، فإنه يبدو لى أن الراوى أو المنشد ، كان على إحساس بأن هذه القصص يقصد بها امتاع العامة وتشويقهم ، وأنه في حل من ذكر الغرائب والخوارق ، التي يحرص عليها العامة ، وينجذبون إليها . أن قصة عنتره مثلا اتضحت فيها الحدود الفاصلة بين التاريخ والتسلية ، أن التاريخ يحدثنا فقط عن نسبه ، وعن موقف أبيه منه ، ويذكر شيئا من شعره ، ويستدل بقول النبی علیه السلام « ما وصف لى اعرابى قط ، فأحببت أن أراء ، الا عنتره » ثم ينهى ذلك بخبر مقتله ( ٢٢٢ ) . وهذه الاخبار لا تكاد تذكر الى جانب تلك القصة الشعبية الطويلة ، التي بلغت فى احدى طبعاتها ( المطبعة الأدبية ببيروت ١٨٨٣ - ١٨٨٥ م ) خمسة وخمسين كتابا تضمها ستة مجلدات . وفى احدى الطبعات الأخرى ( القاهرة ١٨٨٨ - ١٨٩٣ م ) بلغت اثنين وثلاثين جزءا . فعنتره بعيت فى تلك القصة الطويلة عن الاخبار التاريخية ، حتى أنك تجد أحيانا صورة عنتره ، أقرب الى بطل اسلامى منها الى بطل عاش فى عصر

( ٢٢٢ ) انظر الاغانى ٨ / ٢٣٧ ٢٤٦ دار الكتب .

قبل عصر الرسول عليه السلام ، ولا يتاح لك أن تجد هذه الفواصل في قصص العشق فكلها مطروحة في كتب الأدب ، يختلط فيها التساريخ بالخيال ، اختلاطا لا يبين عن شخصية لكل منهما . حتى أن الكتاب المستقل الذي جمع أخبار عروة بن حزام ، فيما لا يزيد عن إحدى عشرة صفحة ، لا يختلف فيما ذكره ، عما رواه صاحب الأغاني .

وقصص العشق في البادية أكثر احتفاء بالصراع ، من قصص الحب التي تحدث في الحاضرة ، فانك لاتجد قصة يكون بطلها عمر ، أو العرجي ، ثم يتوافر لها من الصراع مثل ما توافر لقصة ابن ذريح ، ولا تجد محبا في الحاضرة يمر بأزمة نفسية حادة ، كنتك الأزمة التي مر بها المجنون .

وتعليل ذلك يسير يرجع الى طبيعة العشق في كل . والعشق في البادية - كما عرفنا - صادفته عقبات كثيرة ، اتاحت للصراع أن ينمو في نفس ذلك البدوي . أما الحب في الحضر ، فهو حب لاه عايت ، لا يجد صاحبه الوقت الذي يهيء له فرصة الصراع النفسي ، ولا يصادف الحرمان الذي يشعل الصراع ويلهبه .

والأحظ أن قصص العشق تعتنى باظهار الصراع في نفسية العاشق ، أكثر من اعتنائها بالكشف عن الصراع في نفسية المعشوقة ، فالمجنون يتحدث الأغاني كثيرا عن الأزمات النفسية التي يمر بها ، والفشيان الذي يعتريه ، ثم لايهتم كثيرا بمشاعر ليلى وأحاسيسها ، وقيس ابن ذريح تتحدث الكتب عن الصراع الذي يشب في داخله مدة عشر سنين على إحدى الروايات ، ولاتشير الى لبنى الا اشارات عابرة ، كان تشجع قيسا على رفضه لأوامر والديه ، وتقول له : لاتطع أباك ، فتهلك ، وتهلكنى . وبعد الطلاق تشير الكتب الى الأزمات العنيفة التي كان يمر بها قيس ، اثر رحيل لبنى ، أو اثر رؤيته غرابا ، أو اثر رؤيته خف

بعيرها ، أو اثر نظرة الى آثارها ، أو اثر انفراده بالليل ، أو زيارة الطبيب له ، أو بعد لوم أبيه له . الخ ( ٢٢٣ ) .

وتحترم تلك الكتب أيضا علاقة الزوجية بين المعشوقة ، وبين الزوج الذى ارتضاه أهلها بدلا من عاشقها ، فلا تصرف فى الحديث عن مشاعر الزوجة تجاه عاشقها . الذى حالت التقاليد بينهما ولا تكاد تشير الى هذه العاطفة ، الا حين ينعى العاشق لها ناع ، حينئذ تستأذن من زوجها وتجمع الحى ، وتندب العاشق الذى غالبا مايكون ابن عمها .

وهذا المسلك يتفق مع نفسية العربية الحرة « فالعادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، والعادة عند العجم ن يجعلوا المرأة هى الطالبة ، والراغبة المخاطبة » ( ٢٢٤ ) .

وربما كان هذا هو السبب الذى جعل شوقى ، لم يسرف فى الكشف عن الصراع فى داخل نفسية « ليلى » فى روايته « مجنون ليلى » . وربما يقوم هذا كحجة للدفاع عنه ، أمام من عاب عليه ، بأنه أظهر الصراع فى نفسية « ليلى » قصيرا ، وكان ينبغى أن يطيل ، وأن يستغل هذا الموقف أحسن استغلال .

وقد كان الدكتور نعيم حسن اليافى ، موفقا فى نقده لقصة « حاذر وليلى » ، للأستاذ سليم البستاني ، التى تدور حوادثها فى العصر الجاهلى ، اثناء حرب اليمسوس ، فقد كان موقف حاذر سلبيا للغاية ، أما موقف ليلى ، فقد كان ايجابيا ، فهى التى تتجشم المشاق ، وهى التى تعرض على حبيبها فكرة الهرب . الخ ( ٢٢٥ ) . وهذا المسلك ، كما قلت ، لا ترضيه العربية الحرة ، ولا يرضى عنه العربى الاصيل . وقد كان خير للقاص مادام يريد الحديث بمثل هذه الطريقة ، أن يرحل بحوادث قصته الى أرض غير عربية ، وأن يختار اقليما أوربيا ، أو بتعبير أقرب الى تعبير ابن رشيق « اقليما أعجميا » .

( ٢٢٣ ) الاغانى ٩ / ١٨١ « دار الكتب » .

( ٢٢٤ ) لابن رشيق ٢ / ١٤٨ .

( ٢٢٥ ) القصة القصيرة فى الادب الشامى الحديث ص ٤٩ .

#### التشويق :

القاص الذكى يلجأ الى التشويق ، الذى يضمن له كسب القارئ ، وعدم انصرافه عن بضاعته ، ويتخذ لذلك وسائل عديدة ، فاحيانا يبدأ من نهاية القصة ، ومرة يخبىء بعض أوراقه ، ولا يظهر كل ما يريد للقارئ ، فيجعله يتشوق الى معرفة ذلك الشيء المجهول ، ومحاولة الكشف عنه ، وثالثة يشير اشارات تمهيدية ، قبل الكشف عن شخصية من شخصياته ، مما يجعل القارئ يتشوق اليها ، وينتظر ظهورها ، ورابعة ينثر فى خلال قصته امورا تثير الضحك ، او وسائل يرتاح اليها القارئ ... الخ .

ولكن قصص العشق تلجأ الى التصريح باشياء ينبغى اخفاؤها ، وكان رواتها يفترضون فى السامع الغباء ، فلا يلصحون له بشيء ، ويتركون محاولة فهمه له ، ولا يحذفون شيئا اعتمادا على ذكاء السامع وتنبهه له .

ولو رجعت الى أية قصة من هذا النوع ، لهالك التصريح فيها بكل شيء ، والاكتار من « أى » ، ومن تدخل الراوى بالشرح ، والاشارات ، وبياز المقصود . واذا كان لابد من المثل ، فانتنى اذكر قصه « ابن الطثرية » فحين اشرف به عشق وحشية على الموت ، توسل الى ابن عمه ان يحملها اليها ، فصارا الى حى وحشية ، وجعل خليفة ابن عمه ، يسأل عن راعى وحشية ، حتى لقيه ، فسأله عن حال وحشية ، فقال الغلام : « هى والله بشر ، لاحفظ الله بنى قشير ، ولايوما رأيناها فيه ، فما زالت عليلة منذ رأيناها » وكان من الممكن ان يكتفى الراوى بهذا الكلام ، معتمدا على ذكاء السامع ، الذى يستطيع ان يفهم من كلام الراعى ، ومن سياق القصة ، ان وحشية تحب ابن الطثرية أيضا ، وانها مريضة بسبب هذا الحب ، ولكن الراوى يابى الا ان يشك فى ذكاء السامع ، فيصرح بهذه القضية ، ويقول : « وكان بها طرفه

مما بابتن الطثرية « ( ٢٢٦ ) .

وبالاضافة الى السبب البدهى ، وهو أن العقلية القديمة ، غير العقلية المعاصرة ، التى تفهم بالتلميح ، وتكتفى بالاشارة . وتدرك ما وراء السطور . بالاضافة الى هذا فان القصص المعاصر انشء ليقرا . اما القصص العربى القديم ، فقد الف - فى مبدا الامر - ليسمع ، والقارىء يميل الى التركيز ، وعصر الذهن ، وفى استطاعته اعادة الجملة وتقليبها مرة واثنين ، حتى يفهمها . اما السامع ، فان المتكلم يفصل له ، ويشرح حتى يفهم عنه مايريد أن يقوله ( ٢٢٧ ) .

ومع ذلك ، فان هذه القصص لاتخلو من وسائل تشويقية ، ساذجة وعقوية . فجميل يطلب منه عبد الملك أن يحدثه ببعض احاديث عذرة ، فانهم اصحاب ادب وغزل ، فيقص عليه قصة الاعرابى مع السبع الذى افترس معشوقته ، ولم يهجم على القصة هجوما . بل مهد لها بتلك المقدمة المشوقة « نعم ، يا أمير المؤمنين ، أن آل بثينة انتجعوا الحى ، وقطعوا بلد آخر ، فخرجت أريدهم ، فغلطت الطريق ، وجئنى الليل ، ولاحت لى نار ، فقصدتها ، حتى دنوت ، ووردت على راع فى

( ٢٢٦ ) الاغانى ٨ / ١٠ « دار الكتب » .

( ٢٢٧ ) وقد أدرك مفسرو القرآن هذا الميل الذى تربى عند العرب ، فكان اذا مرت بهم آيات فى قصة قرآنية ، وحذفت فيها الفاظ ، اعتمادا على أنها تدرك بسهولة . فان المفسر مثلا يذكر أن الفاء حرف عطف ، وأن المعطوف عليه أو المعطوفات عليها قد حذفت ، ثم يأخذ فى تقديرها ، وأنها كذا وكذا . فمثلا فى قصة موسى مع قومه يقول تعالى « وإذا استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » ( البقرة من الآية ٦٠ ) وكان رائعا من القرآن أن يحذف هنا شيئا ، اعتمادا على أنه مما يدرك بسهولة ، ولكن أحد المفسرين ، بدلا من أن يبين قيمة الحذف وبلاغته ، يقول : « الفاء متعلقة بمحذوف ، أى فاضرب ، فانفجرت ، أى سألت بكثرة ، أو فان ضربت فقد انفجرت » ( تفسير النسفى ١ / ٥٤ ) .

أصل جبل ، قد ألجا غنمه الى كهف فى الجبل ، فسلمت ، فرد على السلام ، وقال : أحسبك قد ضللت الطريق ، قلت : قد كان ذلك فأرشدني . قال : بل أنزل حتى تريح ظهرك ، وتبيت ليلتك ، فإذا أصبحت دللتك على الطريق ، فنزلت ، فرحب بى وأكرمنى ، وعمد الى شاة ، فذبحها ، وأجج ناراً ، وجعل يشوى ، ويلقى بين يدى ، ويحدثنى فى خلال ذلك ، ثم قام بأزار كان معه ، ففقطع به جانب الخباء ، ومهد لى جانباً ، خالياً ، فلما كان فى الليل سمعته يبكى ، ويشكو الى شخص كان معه ، فارتقت له ليلتى « . . . ( ٢٢٨ )

فهذه المقدمة تثير الشوق الى القصة ، هذا الاعرابى الذى انتحى مكاناً خالياً فى الصحراء ، وتلك النار التى يؤججها ، واللحم الذى يشويه ، ويلقيه الى ضيفه ، والحديث الذى يتخلل ذلك ، والجانب الخالى الذى مهده ، وكأوه فى الليل ، وشكواه الى شخص كان معه ، كل هذا يستجمع الحواس ، ويثير التلهف لاستماع قصته ، واكتشاف أمره ، مما جعل جميلاً يسأله بعد تلك المقدمة : يا هذا ، وما الذى أحلك هذا الموضوع ؟ .

وحين ذكر صاحب المصارع هذه القصة ، عن أحمد بن عمر الزهرى عن عمه عن أبيه ، ذكرها بطريقة فيها تشويق ، فالاعرابى لم يقص أمره ، ويكشف عن حاله من أوله الى منتهاه ، كما فعل أمام سؤال جميل ، بل أرجأ أمره الى نهاية القصة ، فهذا الرجل الذى خرج فى نشدان ضالته ، يلتقى بهذا الاعرابى فيستضيفه ، وفى ليلة يكون الضيف بين النائم واليقظان ، اذا بفتاة جميلة تقبل وتحادث الاعرابى ، ويحدثها حتى مطلع الفجر . وفى ليلة أخرى يكون الضيف فيها بين النائم واليقظان ، اذا بالاعرابى يقلق ويذهب ويجيء وينشد الأشعار .

( ٢٢٨ ) الموشى ١ / ٨٣ وقد وردت مع تغييرات لفظية يسيرة فى ذم الهوى ص ٥٧٦ ، وأيضاً فى اخبار النساء ص ٣٣

ثم يذبح الضيف بأنه يخشى على خليلته من أسد فى غيضة قريبة ، ثم يترك صاحبه ويجيء بعد فترة قصيرة ، حاملا حبيبته وقد أصابها السبع « ثم يأخذ سيفه ويجيء بالأسد مقتولا وهو ينشد الأشعار ، ثم يقص بعد ذلك أمره ، ويكشف عن قصته ( ٢٢٩ ) .

والقصة التى قصها ابن أبى ربيعة ، فى حلقة تذاكر فيها العذريين وعشقم وصبايتهم ( ٢٣٠ ) ، ذكرها بأسلوب يشوق الى البطلة ، فابو مسهر يجلس الى دوحة عظيمة ، متبردا ، ويشد فرسه الى غصن من اغصانها ، واذا بغبار قد سطع ، ثم تبين له فارس ، يطرد مسحلا وآتانا . ولما دنا منه ، اذا عليه درع صفر ، وعمامة خز سوداء ، واذا هو تنال فروع شعره كتفيه ، ثم ما لبث أن لحق الفارس بالمسحل ، فصرعه ، ثم ثنى طعنة للأتان ، فصرعها ، ثم أقبل وهو ينشد الأشعار ، فجلس مع أبى مسهر ، وجعل يحدثه حديثا ، كأنه جنى النحل ، ثم حك بالسوط على ثنيتيه ، فبدا ظله بينهما ثم رفع عقيرته ، وجعل يغنى ، ثم شرب الشراب مع أبى مسهر ، حتى بدت عيناه ، كأنهما عينا مهابة قد اضلت ولدا أو ذعرها قانص ، ثم جر العمامة عن رأسه فبدا كأنه الدينار المنقوش ، الى أن قام الى فرسه ، فبرقت لأبى مسهر بارقة الدرع ، واذا بثدى كأنه حق ، وهنا يتكشف له أن هذا الفارس ماهو الا امرأة جميلة .

وشبيه بهذا قصة عمر مع صاحبة المضرب ، فبينما كان فى طريقه اذ اعترضته جارية ، « كأنهما دمية فى صفاء اللجين ، فى ثوب قصب ، كقضيبي على كتيب » . قالت له : « أنت عمر بن أبى ربيعة ، فتى قریش وشاعرها ؟ . . فهل لك فى أن أريك أحسن الناس وجها . . ؟ ثم استخرجت معجرا من قصب ، فجعرت به ، وقادته ، حتى اذا فتحت

( ٢٢٩ ) مصارع العشاق ص ٢٢٩ .

( ٢٣٠ ) المرجع السابق ص ٥٠ وايضا فى أخبار النساء ص ١٢٠ .



العجاجة عن عيني ، اذا بمضرب ، ديباج أبيض ، مزرر بحمرة ، مفروش  
 بوشى كوفى . وفى المضرب ستارة مضروبة من الديباج الأحمر ، عليها  
 تماثيل ذهب ، ومن ورائها وجه ما أحسب أن الشمس وقعت على مثله  
 حسنا وجمالا ، فقامت كالخجلة ، وقعدت قبالتى ، وسلمت على ، فخيل  
 الى أن الشمس تطلع من جبينها ، وتغرب فى شقائق خدها « كما يقول  
 ابن أبى ربيعة ، قالت له الحساء : « أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قریش  
 وشاعرها ؟ » ثم أنشدته من شعره فى النساء . ثم قالت : « ياعدوا الله ،  
 يا فاضح الحرائر أنت قد فشا شعرك بالحجاز ، وأنشده الخليفة والامراء ،  
 ولم يكن فى جارية بعينها ، يا جوارى أخرجه » . ثم جاءت فى اليوم  
 الثانى . . . « فلما توسطت المضرب ، فتحت العصابة عن وجهى ،  
 فاذا انا بمضرب ديباج أحمر مدثر ببياض ، مفروش بغرش أرمنى ،  
 فقعدت على نمرقة من تلك النمارق فاذا انا بالشمس الضاحية قد أقبلت  
 من وراء الستر ، تتمايل من غير سكر ، فقعدت كالخجلة ، وسلمت على  
 وقالت : أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قریش وشاعرها . . ياعدوا الله ،  
 أنت قد فشا شعرك بالحجاز ، ورواه الخليفة ، وتزعم أنه لم يكن فى  
 جارية بعينها ، يا جوارى أرفعه » . . . ولما كان اليوم الثالث ، قادت  
 الجارية معتجرا الى المضرب . يقول عمر : « فلما توسطته ، فتحت  
 العصابة عن عيني ، فاذا انا فى مضرب ديباج أخضر ، مدثر بحمرة ،  
 مفروش بخز أحمر ، واذا انا بالشمس الضاحية ، وقد أقبلت من وراء  
 الستر ، كحور الجنان ، وسلمت على وقالت : أنت عمر فتى قریش  
 وشاعرها » ثم أنشدته من شعره ، وقالت له : « ياعدوا الله ، أنت الذى  
 فضحتنا ونفسك ، وجهى من وجهك حرام ، ان عدت الى ، يا جوارى  
 أخرجه » . وبعد تلك المقدمة المشوقة تنكشف لنا شخصية الحساء  
 الظريفة ، صاحبه المضرب الفخم ، فاذا هى رملة أخت عبد الملك  
 ابن مروان ( ٢٣١ ) .

( ٢٣١ ) انظر القصة كاملة فى المحاسن والاضداد ص ٢٢٢ .

وقصة عمر مع هند بنت الحارث المريّة ، ذكر لها صاحب الاغانى تمهيدا مشوقا ، فقد روى عثمان بن ابراهيم الخاطبى ، قال : « اتيت عمر بن ابي ربيعة ، بعد ان نكح بستين ، وهو فى مجلس قومسه من بنى مخزوم ، فانتظرت حتى تفرق الناس ، ثم دنوت منه ، ومعى صاحب لى ظريف وكان قد قال لى : تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل ، فننظر هل يبقّى فى نفسه منه شيء ، فقال له صاحبي : يا ابا الخطاب ، لقد احسن العذرى واجاد فيما قال ، ثم جعل ينشد له شعرا ولشعراء عذريين ، مما جعل عمر يقول : « وابيك . لقد احسن واجاد وما اساء . ولقد هيجتما على ماكننا ، وفكرتمانى ما كان عنى غائبا ، ولاحدثكما حديثا حلوا » وجعل بعد تلك المقدمة يقص حديثه الحلوم مع هند ( ٢٣٢ )

وقصة الاعرابى الذى اغتصب مروان بن الحكم امراته ، ذكرت لها مقدمة ترفع من اهميتها وتثير الشوق الى معرفتها ، فقد كان معاوية ذات يوم بمجلس له بدمشق ، على قارعة الطريق ، وكان المجلس مفتوح الجوانب لدخول النسيم ، فبينما هو على فراشه واهل مملكته ، اذ نظر الى رجل يمشى نحوه ، وهو يسرع فى مشيته راجلا حافيا وكان ذلك اليوم شديد الحر . . . . . ولاشك فى ان هذا المنظر يثير الدهشة ، فمناظر هذا الرجل الذى يسرع فى مشيته راجلا حافيا ، لايعبأ بالحر ، ولا يهيمه القيظ ، هذا المنظر يثير التساؤل ، ولهذا قال معاوية لغلامه : « يا غلام ، سر اليه ، واكنف عن حاله وقصته ، فوالله لئن كان فقيرا لاغنيتيه ، ولئن كان شاكيا لا تنصفتيه ، ولئن كان مظلوما لا نصرنه » ( ٢٣٣ ) .

ويحكى مسهم بن عبد الحميد الحنفى ، قصة يمهّد لها بمقدمة ، تضيف عليها جوا مناسباً وتستجمع اشتات السامع ، لكى يتابعه فى هذا الحديث ، يقول : « خرجت من الكوفة اريد بغداد ، فلما نزلت بسط

( ٢٣٢ ) الاغانى ١ / ١٧٥ دار الكتب .

( ٢٣٣ ) اخبار النساء ص ٣ .

غلماننا ، وهيئوا غداءنا ، فاذا نحن برجل حسن الوجه والهيئة ، على يردون فاره فصحت بالغلمان ، فآخذوا دابته ، فدعوت بالغداء ، فبسط يده غير محتشم وما أكرمته بشيء ، لا قبله ، وبينما كذلك اذ جاء غلماناه بثقل كثير ، وهيئة جميلة ، فتناسينا فاذا هو طريح بن اسعاعيل الثقفي ، فارتحلنا في قافلة منا لا يدرك طرفاها ، فقال طريح : ما حاجتنا الى هذا الزحام ، وليست بنا اليهم وحشة ، ولا علينا خوف ، فاذا ختلونا بالحنانات والطرق كان أروح لأبداننا ، قلت : ذلك اليك ، فنزلنا من الغد الخان ، وتعدينا ، والى جانبنا نهر ظليل بالشجر ، فقال : هل لك أن نستنقع فيه ، فمررتنا اليه ، فلما تزع ثيابه ، اذ بين جنبيه آثار ضرب كثير ، فوقع في نفسى منه شر ، فنظر الى ، ففطن ، وتبسّم وقال : « قد رأينا ذعرك بما ترى ، وحديث ذلك يجرى اذا سرتنا بالعشية .. » . فهذا التمهيد يثير فضول القارئ وشوقه الى معرفة القصة ، كما اثار فضول الراوى ، اذ لما كان الماء وأخذوا في السير ، قال لطريح : الحديث . فقص عليه خبره (٢٣٤) .

وهكذا نجد أن تلك القصص لم تحرم من عنصر « التشويق » . ولكن القاص كان يلجأ الى هذا التشويق ، بدافع من غريزة القصة ، ان صح هذا التعبير ، أى أنه كنان يلجأ الى هذا عفوياً فلم تكن أمامه دراسات توجهه الى أهمية هذا العنصر ، ولم يصادف من النقد من لفت نظره الى أمر كهذا ، بل كان هم القاص أن يستجمع ذهن السامع لمتابعة حكاياته ، فكان يلجأ غرضاً الى هذه الوسائل الساذجة البدائية .

(٢٣٤) انظر القصة كاملة في المحاسن والاضداد ص ١٩٧ .

#### الفكاهة :

ولم تخل قصص العشاق من لقطات فكاهية ، توقظ الضحك ، أو تروح النفس ، أو تثير الشوق الى متابعة القصة ، كمنظر يزيد ابن الطرية . وقد سار بين الغنم على أربع ، وتجلل شملة سوداء بلون شاة من الغنم ( ٢٣٥ ) . أو منظر وحشية وقد سقطت فى حفرة فيها نار ( ٢٣٦ ) ، أو منظر طريح بن اسماعيل الثقفى وهو فى ثياب امرأة يتلقى ضربات سوط من رجل يحسبه امرأة ( ٢٣٧ ) ، أو كمنظر تابع جميل ، وقد أجهده الجوع والعطش ، فحين يقع نظره على قدر لبن يدخل رأسه فيها ويعب ما فى داخلها ، حتى اذا ما ارتوى ، يحاول أن يخرج رأسه من القدر فلا يستطيع ، واذا هى عليه قلنسية ، مما جعل النسوة يضحكن منه ( ٢٣٨ ) ، أو منظر الثريا حين أتت لوعدها مع عمر ، فوجدته نائما فالقت بنفسها عليه ثقيلة ، ولكنها فوجئت بمن يصرخ فيها : أغربى عنى فلست بالفاسق ، ثم يتبين لها أنه الحارث وكان قد نام صدفة مكان أخيه عمر ، الذى علق على هذا بقوله : « أما والله لا تمسك النار أبدا ، وقد ألفت نفسها عليك » ( ٢٣٩ ) ، أو منظر كثير حين ضاق به بنو جدى لتسببه فى عزة فأخذوه « وعدلوا به عن الطريق الى جيف حمار كانوا يعرفونها من النهار فأدخلوه فيها ، وربطوا يديه ورجليه ، ثم أوثقوا بطن الحمار ، فجعل يضطرب فيه . ويستغيث ، ومضوا عنه ، فاجتاز به خندق الأمدى فسمع استغاثته ، فعدل الى الصوت حين سمعه ، فوجد فى الجيفة انسانا . فسأله ما هو ؟ وما خبره ؟ فأطلقه .. » ( ٢٤٠ ) . أو منظر الأعرابى وهو يسحب حبيبته ويزيح الناس من حوله ، قائلا :

( ٢٣٥ ) الاغانى ٨ / ١٥٧ دار الكتب

( ٢٣٦ ) المرجع السابق ٨ / ١٧١ .

( ٢٣٧ ) المحاسن والاضداد ص ١٩٧ .

( ٢٣٨ ) الاغانى ٨ / ١٤٧ . « دار الكتب » .

( ٢٣٩ ) الاغانى ١ / ٢٧٢ .

( ٢٤٠ ) الاغانى ١١ / ٤٧ « ساسى » .

خلوا عن الطريق للأعرابي      ان لم ترقوا ويحكم لمابى (٢٤١)  
أو منظر ذلك الاعرابى الذى كان ضيقا على خالد بن عبد الله ،  
فاتى امرا منكرا مع جارية لخالد ، وكان قد اقتص الله منه فاصابته  
عقرب ، مما جعل خالدا يقول :

ودارى اذا نسام سكانها      تقيم الحدود بها العقرب  
اذا غفل الناس عن دينهم      فان عقاربنا تغضب (٢٤٢)

والفكاهة - كما رأيت فى تلك المناظر - ساذجة لا تعبر عن غرض  
فى ذهن القاص ، أو تكشف عن نفسية لشخصية من الشخصيات ، وإنما  
هى عبارة عن حركة بهلوانية ، أو منظر يخالف المألوف ، أو مطلب يقع  
فيه شخص ، وهذا النوع من الفكاهة قد يرضى العامة ، ولكنه من الناحية  
الفنية ، أردا الوسائل ، وأقلها نضجا وثراء .

على أن بعض القصص قد تهيأ له من الفكاهة بذرة فنية الى حد  
ما ، اذ تكشف عن جانب من جوانب الشخصية ، وتظهر ما فيها من تصلب  
فى الطباع ، وتلك هى قصة ابن السائب المخزومى ، وتولاه بشعر  
العرجى . « ذكر بعضهم فقال : أتى أبو السائب المخزومى ليلة ، بعد  
ما رقد السامر ، فإثرفت عليه ، فقال سهرت وذكرتك أخا استمتع به  
فلم أجد سواك ، فلو مضينا الى العقيق ، فتناشدنا وتحدثنا ، فمضينا ،  
فأنشدته قول العرجى :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا      صبح تلوح كالأغمر الأشقر  
فتلازما عند الفسراق صباية      أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر  
فقال : أعدده على . فاعدته ، فقال : أحسن والله ، امراته طالق ان

- 
- (٢٤١) مصارع العشاق ص ١٧٨ .  
(٢٤٢) المحاسن والأضداد ص ٢٢٨ .

نطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته . قال : فلقينا عبد الله بن حسن ابن حسن ، فلما صرنا اليه ، وقف بنا ، وهو منصرف من ماله يريد المدينة فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت الى ، فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ فقلت : منذ الليلة . فقال : انا لله ، وأى كهل أصيبت منه قريش . ثم مضينا ، فلقينا محمد ابن عمران التيمي ، قاضي المدينة ، يريد مالا له ، على بغلة له ، ومعه غلام ، على عنقه مخلاة ، فيها قيد البغلة ، فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ، فقال :

فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فالتفت الى ، فقال ، متى أنكرت صاحبك ؟ قلت : أنفا . فلما أراد المضي قلت : أفتدعه هكذا ، والله ما آمن أن يتهور في بغض أبار العقيق . قال : صدقت ، يا غلام قيد البغلة ، فأخذ القيد ، فوضعه في رجله وهو ينشد البيت ، ويشير بيده الى ، يرى أنه يفهم القصة ، ثم نزل الشيخ وقال لغلامه : يا غلام احمله على بغلتى والحقه بأهلى . فلما كان بحيث علمت أنه قد فات ، أخبرته بخبره . فقال : قبحك الله ماجنا ، فضحت رجلا من قريش ، وغررتنى « ( ٢٤٣ ) » .

ففى هذه القصة بذرة من الضحك الراقى ، الذى يثير السخرية ، ويكشف عن جانب من جوانب الشخصية . ولم أبلغ من السذاجة حدا أقارن فيه بين هذه القصة ، وبين ملهاة الطباع التى انتشرت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر ، والتى كانت ترسم شخصية تثير السخرية ، أو تشير الى صفة تنتزع الضحك . لا أريد أن أقارن بين هذين ، وإنما

( ٢٤٣ ) الأغاني ١ / ١٥٣ « ساسى » .

يكفى أن أشير إلى ما فى هذه القصة من سخرية ، أرقى من الضحك الذى الذى تسببه الحركات والأشكال . وإذا كان للضحك وظيفة اجتماعية ، وهى معاقبة من يسير فى طريقه آلياً ، ولا يعنيه الالتفات للآخرين ، فيكون الضحك حينئذ وسيلة لانتشاله من ذهوله ، والحد من تصلبه (٢٤٤) ، فأننى أعتقد أن القصة السابقة تسخر من تصلب أبى السائب ، وآليته فى تصرفه ، وعناده ، وحرقته ، مما أوقعه فى أمور لا تحمد عقباها . وأتاح للظرفاء أن يسخروا منه .

على أن الضحك أو السخرية فى هذه القصص لم تخرج عن حدود الأدب والظرف ، إلى الخلاعة والمجون ، والتطاحن بالمسائل الجنسية ، والتفوه بالأمور المكشوفة ، مما بلغ مداه فى العصر العباسى ، عصر الانحراف عن الذوق العربى الأصيل .

على أننا نجد أرماسات لهذا الانحراف فى قصص الحب الحسى ، كقصة عمر والصندوق الذى أهدها إليه نسوة من جوارى بنى أمية (٢٤٥) أو كقصته مع هند وصواحبها ، فقد التقى بهن ، ودار بينهن حديث ، تدولت فيه الفاظ مكشوفة (٢٤٦) .

(٢٤٤) الضحك ص ٩٣ .

(٢٤٥) الأغاني ١ / ١٦٩ « دار الكتب » .

(٢٤٦) أرجع إلى القصة فى المحاسن والاضداد ص ٣١٤ .

## الخيال :

من الخيال خيال يكتفى بذكر الشيء وشبيهه ، كان يرى شيئا أحمر ، فيستحضر ذهنه أشياء آخر تشابهه في الحمرة . أو يحس بارتياح لدى رؤية حبيبته ، فيجعله يتخيل النشوة التي يحسها عند سكره .

وهناك خيال ابتكاري ، يخلق أمورا من العدم ، وينشئ أشياء من صناعته ، ويحدث جوا وشخصيات ومشكلات ، تحاكي الطبيعة ، وتشابه الحياة ، بل يتفوق على الطبيعة ، فيكملها ، ويرقى على الحياة ، فيحسنها ويزينها ( ٢٤٧ ) .

وهنا تبدو وظيفة الفن ، فلا يقتصر على محاكاة الواقع ، ولا يكتفى بمشابهة الطبيعة ، بل هو عصا سحرية ، تجعل الواقع يبدو في صورة أكثر كمالا ، وفي النظر أكثر بهاء ورونقا . وهنا يكمن سر جاذبيته ، ومسر هرب الناس اليه من دنيا الواقع والحقيقة .

ومأساة « بجماليون » - كما تصورها الأساطير الإغريقية - تتمثل في أن فنه كان صورة مثالية ، تتسامى عن الحياة في تفاهتها وسخفها ، فتعلق بجماليون بتمثاله ، وأحبه حبا أفسد عليه واقعه وحياته ، واضطر في آخر أمره إلى أن يثور على عبوديته لفنه ، وأن يتخلص من الأسر ، فحطم تمثاله ، وجلس - مع ذلك - يبكي عند انقاضه .

ولاشك في أن الخيال الخلاق أرقى من خيال المشابهة ، فهو لا يحتاج إلى تكاة تنقله من شبيه إلى شبيه ، ولا إلى شيء يذكره بشيء آخر ، بل هو خيال خلاق ، يبتكر كيف يشاء ، ويخلق كيف أراد ، ويخلق مواد من العدم ، وينشئ وسائله من لا شيء .

وقد عنى القدماء بالكشف عن الخيال التفسيري عند العرب ،

( ٢٤٧ ) لبيان الفرق بين الفن والحقيقة انظر : فن الشعر لارسطو ، مثلا في ص ٢٦ .



واهتموا به اهتماما ملحوظا ، ففي كتبهم التي قعدوا فيها للفصاحة والبلاغة ، اهتموا كثيرا بعلم سموه « علم البيان » ، وعنوا به عناية جعلتهم احيانا يطلقون « علم البيان » على كل الأمور التي تبحث في البلاغة ( ٢٤٨ ) ، من باب تغليب الجزء على الكل .

وعلم البيان هو العلم الذي يبحث في التشبيه والاستعارة والكناية ، في الأمور التي تظهر الحقيقة في صور مختلفة ، فاذا كان ممدوحك كريما ، وأردت ان تلجأ للخيال البياني للتعبير عن هذا المعنى ، فلك ان تقول : فلان كالبحر ، او تقول : رايت بحرا عم موجه الانام ، او تقول : فلان كثير الرماد .

وعناية القدماء بهذا اللون من الخيال ، ربما كان نتيجة لاحتفائهم بالشعر ، والخطابة ، والكتابة والرسائل ، والحكم ، والأمثال ، وغير ذلك من الأمور التي تهتم بهذا النوع من البلاغة ، وتزدحم بهذه الألوان من الخيال .

وربما كانت هذه العناية بالخيال التفسيري ، أكثر من العناية بالخيال الابتكاري ، هي التي جعلت كثيرا من الدارسين ، يرمون العرب بالعقم في الخيال ، والمجدب في الابتكار ( ٢٤٩ ) .

على ان هناك جانبا واسعا يشف عن الخيال الخلاق عند العرب ، ويحتاج الى الكشف والعناية والاهتمام ، فلو رجعت الى احاديث العرب واساطيرهم حول الجن ، وقد ذكر الجاحظ كثيرا من هذا فيما يزيد

( ٢٤٨ ) الايضاح ص ١٠ ( طبعة صبيح سنة ١٣٤٨ هـ )  
( ٢٤٩ ) انظر : ( ١ ) The Modern Arabic Shcr., Story p. 23.

( ب ) مقالا لي بعنوان « القصة عند العرب »  
( الرسالة العدد ١٠٤٢ )  
( ج ) فجر الاسلام ص ٧٧ .

عن خمسين ومائة صفحة ٢٥٠) . أو الى ما ذكره العلماء عن أكاذيب العرب ( ٢٥٢ ) . والى القصص الخيالية عن عشاق الحور العين (٢٥٢) . الخ . لرايت ثراء فى هذا الجانب .

وكل ما هنالك أن الدارسين اهتموا كثيرا بخيال المشابهة ، فى الشعر والكتابة . ولم ينشطوا للخيال الخلاق فى القصص والاساطير ، ولهذا تطور ونما خيال المشابهة ، وأصبح أنيقا لدى الشعراء والكتاب ، تشعر باللذة والصنعة الفنية فى أثناء قراءته ، وبقى الخيال الخلاق محشورا فى بطون الكتب ، يختلط بالأخبار التاريخية ، ويزاحم فيه الغث الثمين ، ولهذا تلاحظ عليه المذاجة ، ولا تجد فيه تأنق الفن ، واشراق الصنعة ، وكل ما فيه من بذور فنية ، جاءت تلقائية وعفوية . لم ينمها نقد الناقدين أو ينر لها السبيل دراسة الدارسين .

وقصص العشق تنهض دليلا على ثراء الخيال العربى وغناه . ففيها الخيال التقليدى الذى وجد من علم البيان نصيرا ومساعدة . ولن أطيل فى هذه الناحية ، إذ هى وسيلة ثانوية فى القصص ، بينما هى فى الشعر ، والنثر الفنى المقصود لذاته ، تمثل جانبا رئيسيا - لن أطيل ويكفى أن ترجع الى القصة التى قصها ابن أبى ربيعة عن أبى مسهر . فستجد فيها ألوانا من البيان . مثل تشبيهه الحبيبة بالدينار المنقوش ، وعينيها بعينى المهابة ، وثديها بالحق . وثناياها بالنبات المطور .. الخ (٢٥٣) .

(٢٥٠) انظر : الحيوان ٦ / ١٧١ - ٣٥١ « طبع الحلبي » .

(٢٥١) انظر : ( ١ ) المزهرة للسيوطى ٢ / ٣١٤ .

(ب) الكامل للمبرد ص ٣٤٧ .

(ج) الشعر والشعراء ٢ / ٧٤٩ .

(٢٥٢) مصارع العشاق ص ٩٤ .

(٢٥٣) مصارع العشاق ص ٥٠ .

وتقرأ كتب الأدب مثل الأغاني ، ومصارع العشاق ، وتزيين الأسواق ، وأخبار النساء - فتحس أن قصص العذريين ، قد أصبحت نوعاً من السمر ، يتحدث به الناس في مجالسهم ، التي يتناشدون فيها الأشعار ، ويتطارحون الغناء . ومجالس السمر والشعر والغناء ، لا يتقيد الناس فيها بالحقيقة ، ولا يتزمتون فيها تزمّت العلماء والمحققين . بل يتركون أنفسهم على سجيبتها ، ويمتعونها بالقول الكاذب ، والأشياء المخترعة . وإذا كان الناس في ذلك الحين يسلون أنفسهم في مجالسهم بين أصدقائهم وخاصتهم ، وحين يفرغون من الأمور الجادة ، ومن ثقل الحياة ، يتناشد الأشعار التي يحسن فيها الكذب ، ولا يحمّد فيها الاقتصاد كما يقول ابن رشيق (٢٥٤) . أو بسماع الغناء الذي تطيب به المجالس ويحسن به السمر . فقد كان بجانب ذلك نوع من القصص ، تحكى في تلك المجالس ، فيلهو بها الناس ، ويشغلون بها فراغهم ، ويتناسون فيه همومهم وحياتهم الجادة . ولهذا لا تعجب حين يظهر فريق من القصص يزاخمون الشعراء ، ويقصون الحكايات في تلك المجالس ، يخترعون شخصياتها اختراعاً ، أو يختارون شخصية مشهورة ، ويضعون عليها الأحاديث المسلية وينسبون إليها القصص ، لا يقصدون التاريخ أو التحقيق بل همهم بهم الشعراء . وكهم المغنين ، أن يمتعوا الناس بالحديث ، وأن يسلوهم بالقصص .

فقد كان الناس في مجالسهم - العامة أو الخاصة - يتذكرون أخبار العشاق ، ويتحدثون بقصصهم ، فابن أبي ربيعة يجلس في حلقة يتذاكر فيها العذريين وعشقهم وصبابتهم (٢٥٥) . وخالد بن عبد الله القسري ، يجلس ذات ليلة مع فقهاء أهل الكوفة ، فيقول بعضهم « حدثونا حديثاً لبعض العشاق » ، فيقص أحدهم قصة ذكرت في مجلس هشام بن عبد الملك ، فقد ذكر هشام غدر النساء ، فحدثه بعض جلسائه

(٢٥٤) العمدة ١ / ١٦ / ٠  
(٢٥٥) مصارع العشاق ص ٥٠ .

حديث أم عقبة ووفائها لابن عمها بعد موته (٢٥٦) . وعبد الملك يطلب من جميل أن يحدثه ببعض أحاديث عذرة ، فانهم أصحاب أدب وغزل (٢٥٧) وعروة بن الزبير يسأل رجلاً من بنى عذرة « يا عذرى ، بلغنى أن فيكم رقة وغزلاً فأخبرنى ببعض ذلك » (٢٥٨) . وخالد ابن عبد الله القسرى يسأل : من يحدثنى بحديث يستريح اليه قلبى ؟ فيقص عليه أبو حمزة الكنانى قصة لزوجين من بنى عذرة ، تكشف عن وفاء المرأة لحبيبها وزوجها (٢٥٩) . والحجاج يارق ذات ليلة ، فيستدعى ابن القرية ، ويطلب منه حديثاً ، يقصر ليله وأن يكون فى مكر النساء ، فيقص عليه قصة امرأة ، استطاعت أن تحتال على الناسك والقاضى والحاجب وصاحب الشرطة ، واستردت حقها . وقد أعجب الحجاج بمهارة هذه المرأة ، وعقب على قول ابن القرية : ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها (٢٦٠) .

أخلص من كل هذا الى أنه كان يصاحب مجلس السمر والمناذمة ، فن ينافس الشعر والغناء ، ويحرص عليه الخلفاء والأمراء والقيادة والعامّة . وكان هناك قصاص مهرة فى هذا الفن ، مثل عمر ، وجميل ، وأبو حمزة ، وابن القرية . يستدعيهم النس ، وقت الأرق ، وفى المجالس الخاصة ، يطلبون منهم حديثاً يستريح اليه القلب ، كما يقول خالد ، أو يقصر الليل كما يعبر الحجاج . أو فيه أدب وغزل على حد قول عبد الملك ، أو رقة وغزل كما يريد عروة . ولم يطلبوا فى هذا الحديث الصحة التاريخية أو الدقة العلمية .

وفى تلك القصص مظاهر شتى من الخيال المبتكر الطريف ، كنثر

- (٢٥٦) أخبار النساء ص ٧٤ .
- (٢٥٧) المرجع السابق ص ٣٤ .
- (٢٥٨) المرجع السابق ص ٣٥ .
- (٢٥٩) المرجع السابق ص ٧٢ .
- (٢٦٠) المحاسن والأضداد ص ١٧٤ .

أشياء طريفة مشوقة ، أو الرمز بأشور مبتكرة رائعة ، أو تصوير الشخصيات أو المواقف تصويراً معبراً مثيراً ، أو خلق أجواء تؤثر على السامع تأثيراً بليغاً .

واقرا قصة وضاح اليمن مع أم البنين ، ولاحظ فيها ذلك الخيال الذى يجذب السامع ، فمنظر الجواهر واللؤلؤ يحمله الخصى ثم ينثره بين يديها . ومنظر العاشق وهو يسحب نفسه الى الصندوق ليختبئ فيه ، ومنظر أم البنين وهي تمتشط فى خزانة وقد دخل عليها يزيد ، ومنظر الفراشين وقد حملوا الصندوق يمن فيه ، ومنظر الأجراء الغرباء وهم يحفرون بالليل حفيرة يبلغون بها الماء ، ومنظر يزيد وهو يسار الصندوق ، ومنظر القوم وهم يهيلون التراب عليه ، ومنظر الخادم وقد ألغوه فوق الصندوق ، ومنظر أم البنين وهي تاتى الى ذلك المكان تبكى ، ومنظرها وهي مكبوبة على وجهها ميتة ( ٢٦١ ) . فكل هذه أمور طريفة تجذب القارئ وتثير خياله .

وانظر الى قصة ابن أبى ربيعة عن صاحبه أبى مسهر ، كيف أقبل وقد تغير لونه وساءت هيئته . . وكيف جعل يدعو ، حتى اذا هم الناس أن يفيضوا ، سمعه يهمهم ويقول :

يارب كل غدوة وروحة . . . . الخ .

ثم يقص عليه ما جرى يوم الدوحة ، حين التقى بذلك الفارس الذى يطرد عنزا وإتانا ، وكيف جلس معه تحت الدوحة يحدثه حديثا ، ذكر به قول الشاعر :

( ٢٦١ ) انظر القصة كاملة فى :

( ١ ) أخبار النساء ص ٨٧ .

( ٢ ) مصارع العشاق ص ٢٧٦ .

( ٣ ) تزيين الأسواق ١ / ١٦٩ .

( ٤ ) ديوان الصبابة ص ٢ / ٧٨ .

وان حديثا منك لوتبذلته جنى التحل في البان عود مطاقل

وكيف جعلنا يشربان الخمر في ظل الدوحة ، والفارس يرفيع  
عقيرته ويغنى « ان العيون التي في طرفها حور . الخ » ، ثم يتبين  
له ان هذا الفارس امرأة ، تكره العهر وتحب الغزل . ثم تجلس معه  
وهي تتمايل على الدوحة مكري ، حتى اذا انتبهت مرعوبة . لاثت  
عمامتها براسها واخذت رمحها . وجالت في متن فرسها . ثم تترك  
للذكرى ثوبا من ثيابها وتنصرف ( ٢٦٢ ) . ارجع الى هذه القصة ،  
فستجد فيها كثيرا من لمسات الخيال الجذاب الرائع .

وفي قصة عروة وعفراء ، بطالعنا الخيال القصصى بنهاية ترمز الى  
ان جيهما خالك باق ، يتحدى الموت ، ويقاوم الاقدار . فقد مات عروة  
محروما من عفراء ، ثم لحقت به ، ولا ينتهي الامر عند هذا الحد ،  
بل تدفن في قبره . « فتتبت من القبر شجرتان ، حتى اذا صارتا  
على حد قامة التففتا ، فكانت المارة تنظر اليهما ، ولا يعرفان من اى  
ضرب من النبات ، وكثيرا ما انشدت فيهما الناس ، قال صاحب  
الاصل .

غصنان من دوحة طال اثتلافهما فيها ، فجالت صروف الدهر ، فافترقا  
فصار ذا في يد تحويه ليس له منها براح ، وهذا في القلاة لقا  
حتى اذا ذويا يوما وضمهما بعد التفرق بطن الارض واتفقا  
حفا على العهد في ارجائها ، فحنا كل على الفه في الترب واعتنقا ( ٢٦٣ )

فهاتان الشجرتان المتعانقتان اللتان لا تنسبان الى اى ضرب من  
النبات ، ما هما الا رمزان يثبتان للأجيال خلود الحب ، وتحديد  
للأقدار والعقبات ، وانتصاره على المال والطغيان .

( ٢٦٢ ) أخبار النساء ص ١١٧ .

( ٢٦٣ ) تزيين الاسواق ١ / ٨٦ .

وفى احدى القصص خيال شبيه بهذا ، ولكنه لم يكن شجرتين ، بل كان شجرة واحدة ، يتناسب حالها مع حال الحبيبين ، فقد كانا عروسين لم تتج لهما الظروف فرصة التمتع ، وتبادل الحب . فقد احب عتبة بن الحباب ريا بنت الغطريف السلمى ، فاضناه الحب ، وراق بحالته عبد الله بن معمر القيسى ، فخرج معه الى أبيها خاطيا لها ، فلما عرف أبوها أمره معها ، أقسم ألا يزوجها له . ولكن ابنته احتالت عليه بأن الانصار لا يردون ، وأن من الأفضل ن يبالغ فى المهر حتى يعجزه ذلك ، فينصرف . ولكن عتبة وعبد الله أديا اليه ما سماء من المهر ، فزوجها اياه مرغما ، وخرج العروسان الى منزلهما ، ولكن لحقهما فى الطريق فرسان من قبل أبيها ، ثم قتلوا عتبة ، فانكبت عليه ، وشهقت شهقة حتى ماتت . وتابى القصة الا أن تقيم الأفراح بعد موتها وأن تتحدى جور أبيها وقومها بخيال رائع ، فاذا بشجرة عليها ألوان من الورق ، قد نبتت على القبر « فسالت عنها . فقالوا شجرة العروسين ( ٢٦٤ ) » . فشجرة العروسين ذات الأوراق الملونة ، ما هى الا رمز للسعادة التى حرم منها العروسان .

وهناك من أحاط « العاشق » بشيء من الخيال ، فزعم أن العاشق « سعى عاشقا لأنه يذبل من شدة الهوى ، كما تذبل العشقة اذا قطعت ، والعشقة شجرة تخضر ثم تدق وتصفى عن الزجاج ، وزعم أن اشتقاق العاشق منه » ( ٢٦٥ ) .

وقصة وفاة ليلى الأخيلىة ، يحوطها أيضا ضرب من الخيال الرائع يابى الا أن يحقق أبياتا لتوبة ، ويابى الا أن تدفن الى جنب قبره ، فتوبة قال أبياتا ، ذكر فيها أنه لو كان فى قبره ، ثم سلمت عليه ليلى ، لرد عليها « فلما مات توبة مر زوج ليلى ليلى على قبره ، فقال

( ٢٦٤ ) تزيين الاسواق ١ / ١٠٣ .

( ٢٦٥ ) لسان العرب « عشق » .

لها : سلمى على توبة ، فإنه زعم فى شعره أنه يسلم عليك تسليم البشاشة ، فقالت : ما تريد الى من بليت عظامه . فقال : والله لتفعلن . فقالت وهى عنى البعير : سلام عليك يا توبة فتى الفتيان ، وكانت قطاة مستظلة فى ثقب من ثقوب القبر ، فلما سمعت الصوت ، طارت وصاحت . فنفر البعير ، ورمى بليلى فماتت ، فدفنت الى جنب قبر توبة « ( ٢٦٦ )

والمدائنى فى روايته يعدل عن هذا الخيال ، ويرى أن ليلى مرت على قبر توبة ، فعدلت عنه ولما سألها الحجاج أجابت : بأنه كان معها نسوة ، فكرهت أن تكذب قوله « ولو أن ليلى الاخيلية سلمت . الخ ( ٢٦٧ )

وتصور بعض الشخصيات فى هذه القصص تصورا حيا مؤثرا . يحكى نوفل ابن مساحق خبر توحش قيس « فخرجت يوما أتصيد الأروى ، ومعى جماعة من أصحابى حتى اذا كنت بناحية الحمى ، اذا نحن بأراكة عظيمة ، قد بدا فيها قطيع من الظباء ، فيها شخص انسان ، يرى من خلل تلك الأراكة ، فعجب أصحابى من ذلك ، فعرفته وأثبته ، وعرفت أنه المجنون الذى أخبرت عنه ، فنزلت عن دابتي وتخففت من ثيابى ، وخرجت أمشى رويدا حتى أتيت الأراكة ، فارتقيت حتى صرت على أعلاها ، وأشرفت عليه وعلى الظباء ، فاذا به ، وقد تدلى الشعر على وجهه فلم أكد اعرفه الا بتأمل شديد ، وهو يرتعى فى ثمر تلك الأراكة ، فرفع رأسه ، فتمثلت ببيت من شعره :

أتبكي على ليلى ونفسك باعدت مزارك من ليلى وشعبا كما معا فنفرت الظباء ، واندفع فى باقى القصيدة ينشدها ، فما أنسى حسن نغمته وحسن صوته « ( ٢٦٨ ) .

( ٢٦٦ ) المحاسن والاضداد ص ١٢٥ وتزيين الاسواق ١ / ١٨ .  
 ( ٢٦٧ ) مروج الذهب ٢ / ١٤١ « طبع عبد الرحمن محمد بمصر »  
 ( ٢٦٨ ) الاغانى ٣ / ٦٧ « دار الكتب » .



ويصور شيخ من بنى مرة ، شخصية قيس تصويرا جذابا « فخرجت  
فطلبت يومى الى العصر ، فوجدته جالسا على رمل ، خط فيه بأصبعه  
خطوطا ، قد نوت منه غير منقبض ، فنفر منى نفور الوحش من الانس ،  
والى جانبه أحجار ، فتناول حجرا ، فأعرضت عنه ، فمكث ساعة كأنه  
نافر يريد القيام ، فلما طال جلوسه سكن ، وأقبل يخط بأصبعه ، فأقبلت  
عليه وقلت : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

الا يا غراب البين ، ويحك نبئى      بعلمك فى لبئى ، وأنت خبير  
فأقبل على وهو يبكى ، فقال : أحسن والله ، أنا أحسن منه قولا  
حيث أقول :

كان القلب ليلة قيل يغدى      بليلى العامرية أو يسراج  
قطاة عزها شرك فباتت      تجاذبه وقد علق الجناح (٢٦٩)

ويخلق القاص مواقف حية متحركة ، ويصورها تصويرا قويا  
جذابا ، وأود أن تقرأ معنى هذا الموقف عن موت المجنون ، فى واد  
كثير الحجارة خشن « انه لم تبق فتاة من بنى جعدة ، ولا بنى الحريش ،  
الا خرجت حاسرة صارخة عليه تنديه ، واجتمع فتيان الحى ، ييكون  
عليه أحر بكاء وينشجون أشد نسيج ، وحضرهم حى ليلى معزين وأبوها  
معهم ، فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه ، وجعل يقول : ما علمت أن  
الأمر يبلغ كل هذا . ولكنى كنت امرا عربيا أخاف العار وقبح الاحدثة  
وما يخافه مثلى ، فزوجتها وخرجت عن يدى . ولو علمت أن أمره  
يجرى على هذا ، ما أخرجتها عن يده ، ولاحتملت ما كان فى ذلك .  
فما رثى يوم كان أكثر باكيا وبكائية على ميت منه . وذكر أنه لما قلبوه ،  
وجدوا خرقة فيها مكتوب :

الا أيها الشيخ الذى ما بنا يرضى  
شقيت ، ولا هنيئ من عيشك الجفضا

شقيت ، كما أشقيتنى وتركتنى  
أهيم مع الهلاك لا أطعم الغمضا ( ٢٧٠ )

ويصل الخيال حدا فى تصور أشياء غير منظورة • تضى خيالا  
غامضا جذابا يتناسب والمعنى الذى تدور عليه القصة • وأقرأ خبر وفاة  
جميل فستجد خيالا عجيبا ، يشد القارىء اليه •

تكون بثينة فى هودجها ، فتسمع هاتفاً ينشد بأبيات لجميل ،  
فتنادى الهاتف ولكنه لا يجيب ، فتسخر منها صواحباتها • ثم تكون الليلة  
الثانية ، فتسمع ذلك الهاتف ، فتخاطبه ، ولكنه لا يرد • حتى اذا كانت  
الليلة القابلة ، وأخذ الحى مضاجعهم ، اذا بالهاتف يهتف ، واذا به شيخ  
كأنه من رجال الحى ، ينبئها بوقوع الكارثة وموت جميل « حدثت  
بثينة ، فقالت : ان الحى انتجعوا موضعا ، وانى لقى هودج لى  
إسير ، اذا أنا بالهاتف ينشد أبياتا ، فلم أتمالك أن رميت بنفسى ، وأهل  
الحى ينظرون ، فبقيت أطلب المنشد ، فلم أقف عليه • فناديت ثلاثا : أيها  
الهاتف بشعر جميل ما وراءك منه ؟ وانى أحسبه قد قضى نحبه ومضى  
لسبيله • فلم يجبنى مجيب ، فناديت ثلاثا ، وفى كل ذلك لا يرد على  
أحد شيئا ، ففالت صواحباتى : أصابك يا بثينة طائف من الشيطان •  
فقلت : كلا • لقد سمعت قائلا يقول • قلن : نحن معك ، ولم نسمع •  
فرجعت فركبت مطيتى وأنا حيرى والهة العقل كاسفة البال • ثم  
سرنا فلما كان فى الليل ، سمعت ذلك الهاتف يهتف بذلك الشعر  
بعينه فرميت بنفسى وسعيت الى الصوت ، فلما قربت منه انقطع •  
فقلت : أيها الهاتف ، ارحم حيرتى وسكن عبرتى بخبر هذه الأبيات ،  
فان لها شانا ، فلم يرد على شيئا • فرجعت الى رحلى فركبت وسرت

( ٢٧٠ ) المرجع السابق ٢ / ٩٠ •

وأنا ذاهبة العقل . وفى كل ذلك لا تخبرننى صواحباتى أن سمعن شيئا .  
فلما كانت الليلة القابلة نزلنا وأخذ الحى مضاجعهم ، وثامت كل عين .  
وإذا الهاتف يهتف بى ويقول : يا بئينة ، أقبلى الى أنبيك عما تريددين .  
فأقبلت نحو الصوت ، فإذا شيخ كأنه من رجال الحى ، فسألته عن اسمه  
وبيته ، فقال : دعى هذا وخذى فيما هو أهم عليك . فقلت له : وإن هذا  
لما يهمنى . قال : اقنعى بما قلت لك . فقلت له : أنت المنشد الأبيات .  
قال : نعم . قلت : فما خبر جميل ؟ قال : نعم فارقتة وقد قضى نحبه ،  
وصار الى حفرتة رحمة الله عليه . قصرخت صرخة أذيت منها الحى  
وسقطت لوجهى ( ٢٧١ ) .

إن هذا الخيال يشد الأعصاب ويمهد لوقوع الكارثة ، ولم  
يكن داود الانطاكى موفقا فى ادراك مثل هذا الخيال وطبق عليه مقاييس  
الواقع ، فعلق على هاتف للمجنون بقوله : « وهذا امر يتعذر الوصول  
الى تحقيقه » ( ٢٧٢ ) .

وهكذا تقدم قصص العشق دليلا واقعيا وعمليا على أن الخيال عند  
العرب ، لم يكن قاصرا فى خلق الأحداث ، وتصوير الشخصيات ،  
واختراع المواقف الحية المتحركة ، ورسم الأجواء المعبرة الموحية .

---

( ٢٧١ ) الاغانى ٨ / ٢٠٢ .

( ٢٧٢ ) تزيين الاسواق ١ / ٧٨ .

#### اللون المحلى :

اللون المحلى فى هذه القصص حائل يكاد لا يبين ، ويتعب الباحث فى التعرف على سماته وملامحه .

#### المكان :

فلا ارضية مكانية تفرش ، ولا بيئة تحدد ، نقرأ أن جميلا قد ذهب الى مصر ، وأنه قد مات هناك (٢٧٣) ، وأن كثيرا قد ارتحل اليها ، وأنه التقى فى طريقه فى الصحراء ببثينه (٢٧٤) . ومع ذلك لا يعنى القاص برسم شيء من البيئة المصرية ، ولا يهتم الراوى بالاشارة الى ملامح هذا المكان . وإنما هو جميل قد امتطى ناقته ، وقد ازمع على الرحيل الى مصر ، ويمر هذا الامر مرورا هينا ، وكأنه رحلة من رحلات البادية ، ينتقلون فيها من مكان الى مكان آخر فى طلب الغيث والكلأ . ونقرأ أن عروة قد تبع حبيبته الى الشام (٢٧٥) ، وكان الشام مكان فى البادية ، ليس فيه شيء جديد يغرى العاشق بالحديث عنه ، وليس فيه امر مختلف طريف يحرص الراوى على ذكره . ونقرأ أن قصة المجنون قد حدثت فى بادية نجد (٢٧٦) . وأن قصة ابن الطثرية قد وقعت فى بادية اليمامة (٢٧٧) . وأن كثيرا من قصص العذريين قد حدثت فى بادية الحجاز (٢٧٨) . وتحاول أن تجد فروقا مكانية ، أو اشارات بيئية تقول على أساسها : ان هذه القصة قد حدثت فى بادية اليمامة وأن تلك الأخرى قد وقعت فى بادية الحجاز - فلا توفق .

(٢٧٣) الاغانى ٨ / ١٥٢ « دار الكتب » .

(٢٧٤) المرجع السابق ٩ / ٣٣ .

(٢٧٥) الاغانى ٣٠ / ١٥٤ « ساسى » .

(٢٧٦) المرجع السابق ١ / ١٦٥ .

(٢٧٧) الاغانى ٨ / ١٦٣ « دار الكتب » .

(٢٧٨) الموشى ص ٨٥ يقول رجل من بنى عذرة « لقد خلفت فى

الحى ثمانين مريضا دنفا عشقا ، ما بهم غير الحب قد خامر قلوبهم » .

وربما كان السبب في هذا أن الرواي كان يهتم بجوهر الحادثة ، ويرى من العبث أن يتحدث عن بيئة مصر ، أو الشام ، أو يرسم شيئا عن نجد أو الحجاز أو اليمامة . وفي المثل السائر قصة تدل على أنهم كانوا يرون أمثال هذا من التطويل الذي لا فائدة منه . فقد ضرب ابن الأثير مثلا للتطويل بقصة حصلت بمحضر منه ، فقال : « وذلك أنه جلس إلى في بعض الأيام جماعة من الاخوان ، وأخذوا في مقاضة الأحاديث ، وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التي تقع في العالم ، فذكر كل من الجماعة شيئا . فقال شخص منهم : انى كنت بالجزيرة العمرية ، في زمن الملك فلان ، وكنت إذ ذاك صبيا صغيرا ، فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان في الحارة الفلانية . وصعدنا إلى سطح طاحون لبنى فلان ، فاخذنا نلعب على السطح ، فوقع منا صبي إلى أرض الطاحون ، فوطئه بغل من بغال الطاحون ، فختنه ختانة صحيحة حسنة ، لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيرا منها . فقال له شخص من الحاضرين . والله إن هذا عى فاحش ، وتطويل كثير لا حاجة إليه ، فانك بصد أن تذكر أنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح طاحون فوقع صبي منكم إلى أرض الطاحون ، فوطئه بغل من بغال الطاحون فختنه ولم يؤذه ، ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة في بلد تعرفه أو في بلد لا تعرفه ، ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب ، ولم يكن ذلك قدحا في غرابتها ، وأما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية ، في الحارة الفلانية ، في طاحون بنى فلان ، وكانت زمن الملك فلان ، فإن مثل هذا كله تطويل لا حاجة إليه ، والمعنى المقصود يفهم بدونه » ( ٢٧٩ )

#### الزمن :

والزمن في هذه القصص غير محدد تحديدا دقيقا ، فمثلا بنت الضحاك بن النعمان ، توجد روايات تنسب قصتها الى العصر الجاهلي ( ٢٨٠ ) . وتوجد روايات أخرى تزعم أن الفرزدق قد شاهدها بعينه ، وأنها أنشدته شعرا في حبيبها ( ٢٨١ ) . وقصة عروة يتأرجح فيها الزمن تأرجحا واضحا ، فهو من المخضرمين الذين أدركوا الدولة الإسلامية والدولة الأموية ( ٢٨٢ ) . أو هو توفي في عهد عمر رضي الله عنه ( ٢٨٣ ) . أو في خلافة عثمان ( ٢٨٤ ) . أو أن عمر لما بلغه خبر موت عروة وعفراء قال : « لو علمت بحال هذين الحرين الكريمين لجمعت بينهما » ( ٢٨٥ ) . أو أن القائل هذا هو معاوية ابن أبي سفيان ( ٢٨٦ ) .

وتقرأ أخبار المجنون ، وابن ذريح ، وجميل ، وكثير ، وعمر ابن أبي ربيعة ، وعروة بن حزام ، وعروة بن قيس . فتجد الزمن مضطربا ، وأحيانا متناقضا . فتقرأ أن المجنون قد التقى بابن ذريح ( ٢٨٧ ) وأن كثيرا قد التقى بالمجنون ، وهو يطلق الظباء ( ٢٨٨ ) . وأن كثيرا كان يلتقي بجميل ، ويتحدثان في أمر حبيهما ( ٢٨٩ ) . وأن جميلا

( ٢٨٠ ) تزيين الاسواق ١ / ١٢٣ .

( ٢٨١ ) الزهرة ص ١١٣ .

( ٢٨٢ ) تزيين الاسواق ١ / ٨٤ .

( ٢٨٣ ) المرجع السابق ١ / ٨٦ .

( ٢٨٤ ) المرجع السابق ١ / ٨٧ .

( ٢٨٥ ) المرجع السابق ١ / ٨٦ .

( ٢٨٦ ) الاغانى ٢٠ / ١٧٥ « ساسى » .

( ٢٨٧ ) تزيين الاسواق ١ / ٦٤ .

( ٢٨٨ ) المرجع السابق ١ / ٤٩ .

( ٢٨٩ ) الاغانى ٨ / ١٠٦ « دار الكتب » .

كان يلتقى بأبن أبي ربيعة (٢٩٠) ، وكان عمر يساله عن بئينة ثم يذهب اليها ليحادثها (٢٩١) - فتحنس. أن. هؤلاء العشاق - وقد كانوا يلتقون ويتحدثون في أمر حبهم - كانوا في سن واحدة أو متقاربة . ولكنك تقر: ما يناقض هذا ، فهناك روايات تدل على أن جميلا لم يدرك عهد عبد الملك بن مروان ، أو أنه كان شيخا كبيرا - إن كان قد أدركه - فقد دخلت بئينة على عبد الملك ، فرأى منها امرأة مولية (٢٩٢) ، وقد أخلقها الدهر (٢٩٣) . فإذا ما عرفت أن جميلا كان أكبر من بئينة ، إذ أن أول ما عشق بئينة كانت جويرية صغيرة رآهسا وهو يرد المساء بابل (٢٩٤) - أدركت أن جميلا في عهد عبد الملك كان رجلا موليا - أو هو قد ولى - أنخلقه الدهر . ولكنك تقر أيضا أن جميلا كان في عهد الوليد بن عبد الملك ، وأنه كان في سن تسمح له بالسفر معه ، ويأمره الوليد بأن ينزل ليرجز وهو يريد بذلك أن يمدحه جميل (٢٩٥) . وتقرأ أيضا أن الوالي الذي استعداه أهل بئينة على جميل كان من قبل عبد الملك (٢٩٦) . وعمر بن أبي ربيعة تقر أنه ولد ليلة قتل ابن الخطاب (٢٩٧) . وأن يزيد بن معاوية كان يضرب المثل به وهو يستعرض جيش الحرة (٢٩٨) . وأنه التقى بالوليد بن عبد الملك وكان شيخا كبيرا (٢٩٩) وأن الثريا التي كان يشبب بها هي - كما قال

- (٢٩٠) تزيين الاسواق ١ / ٤١ .
- (٢٩١) الاغانى ٨ / ١٤٥ « دار الكتب » .
- (٢٩٢) المرجع السابق ٨ / ١٢٢ .
- (٢٩٣) تزيين الاسواق ١ / ٤٠ .
- (٢٩٤) الاغانى ٨ / ٩٨ دار الكتب .
- (٢٩٥) المرجع السابق ٨ / ١٣٣ .
- (٢٩٦) تزيين الاسواق ١ / ٣٩ .
- (٢٩٧) الاغانى ١ / ٣٢ « ساسى » .
- (٢٩٨) المرجع السابق ١ / ٣٤ .
- (٢٩٩) المرجع السابق ١ / ٣٣ .

الزبير - أخت محمد بن عبد الله الذي قتله داود بن علي (٣٠٠) في آخر الدولة الأموية ، وغير ذلك من الأخبار التي تجعل حياة الرجل تمتد من قتل ابن الخطاب رضي الله عنه (٥٣هـ) إلى نهاية الدولة الأموية (١٣٢هـ) . وتقرأ أن الذي أهدر دم قيس بن ذريح هو معاوية ابن أبي سفيان (٣٠١) ، وكان قيس بن ذريح معاصراً للمجنون وكان المجنون يجتمع به ويأنس إليه ، بل في تزيين الأسواق ما يدل على أن المجنون كان سابقاً على جميل وكثير وابن ذريح (٣٠٢) ، ولكنك تقرأ أن الذي تشفع للمجنون هو نوفل بن مساحق ، وكان والياً من قبل مروان أو عبد الملك (٣٠٣) ، وتقرأ أن كثيراً حكى أمام عبد الملك قصته حين التقى بالمجنون وهو يطلق الطباء ، وأن كثيراً قد مات عام ١٠٥هـ في ولاية يزيد بن عبد الملك (٣٠٤) ، وغير ذلك من الروايات التي تدل على اضطراب وتناقض .

ولعل السبب في هذا أن هذه القصص حين شاعت بين العامة ، ودارت على الألسنة ، لم يعد الاهتمام موجهاً إلى تحديد التاريخ ، وضبط الوقت ، بل اهتموا بالأدوار التي يسندونها إلى الشخصيات ، فهناك شخصية ظريفة تساعد المحبين وتعطف عليهم هي شخصية ابن بس عتيق ، ولذلك أسند إليها القصص هذا الدور في معظم قصص الحب ، فهو يلتقي بعمر (٣٠٥) ، ويابن ذريح (٣٠٦) ويعسرة

- (٣٠٠) الاغانى ١ / ٨٢ وأن كان أبو الفرج ضعف رواية الزبير هذه لأن بين حياة معاوية وبين من قتله داود بن علي نحو ثمانين سنة .  
 (٣٠١) الاغانى ٩ / ٢٠ دار الكتب .  
 (٣٠٢) تزيين الأسواق ١ / ٣٨ .  
 (٣٠٣) المرجع السابق ١ / ٧٤ .  
 (٣٠٤) الاغانى ٩ / ٤ « دار الكتب » وتزيين الأسواق ١ / ٥٠ .  
 (٣٠٥) الاغانى ١ / ٥٨ « ساسى » .  
 (٣٠٦) الاغانى ٩ / ٢١٣ « دار الكتب » وتزيين الأسواق ١ / ٥٨ .



ابن حزام (٣٠٧) . ويكتير (٣٠٨) . وهناك شخصية دينية تدعو للمحبين وتتوسل الى الله ليشفيهم هي شخصية ابن عباس ، وقد أسند اليها الرواه هذا الدور في معظم هذه القصص ، فهو يلتقى بعروة ابن قيس (٣٠٩) ، وعروة بن حزام (٣١٠) ، وقيس بن ذريح (٣١١) . ويعمر بن أبي ربيعة (٣١٣) . وهناك شخصيات المحبين التي تتقابل وتلتقى وتتعاطف .

العناية اذن كانت موجهة الى الادوار والى المهام الرئيسية التي تقوم بها هذه الشخصيات ، ولو نظرت الى القصص الشعبي المتداول ، لوجدت أنها تجمع حوادث متباعدة زمنا ، أو شخصيات سبق بعضها البعض قرونا ، وأنها تحطم الحاجز الزمني ، وتلغى المسافات البعيدة ، وتهتم بالتجربة وبالادوار الرئيسية ، فمثلا قصة سيف بن ذي يزن ، ذلك الرجل الذي قد عاش في القرن السادس الميلادي ، تجعله القصة الشعبية ندا « لسيف أرعذ » الملك الحبشي الذي عاش بعده بقرون ، ومثلا عنثرة ذلك الشاعر الجاهلي ، تنسب اليه السيرة الشعبية المعروفة باسمه ، أحداثا جاهلية وأخرى اسلامية ، بل وتمتد له بأحداث وقعت أثناء الحروب الصليبية .

#### الطبيعة :

والطبيعة في هذه القصص لايهتم القاص بها كثيرا ، فلا يعنى القاص برسم الجو الذي يحيط به ، الا مجرد اشارات سريعة وعامة ،

- ٣٠٧) الاغانى ٢٠ / ١٥٨ « سامى » وتزيين الاسواق ١ / ٨٥ .
- ٣٠٨) الاغانى ٩ / ١٠ دار الكتب .
- ٣٠٩) تزيين الاسواق ١ / ٣٦ .
- ٣١٠) الاغانى ٢٠ / ١٥٨ « سامى » .
- ٣١١) تزيين الاسواق ١ / ٥٨ .
- ٣١٢) تزيين الاسواق ١ / ٤٣ .

كان يذكر أن قيساً علق بلبنى وقد احتدم الحر (٣١٣) ، وأن الفرزدق قد عدل إلى دار عقيلة بنت النعمان ، بعد أن ارتفعت له سحابة فرعدت وبرقت وأرخت عزاليها (٣١٤) ، وأن جميلاً قد التقى ببثينة جلست في ليلة ذات غيم ورعد وريح (٣١٥) ، وأنه جلس معها « وأن بينهما لثمامة عظيمة وهى من ورائها جالسة » (٣١٦) .

وربما كان السبب فى هذا أن الناس فى ذلك الحين ، لم تكن لديهم دقة الملاحظة ، والتفطن للأمور الصغيرة ، فتلك الدقة وهذه العناية بالأمور الصغيرة والجزئيات المتناهية ، والتنبيه للدقائق الصغيرة ، والفروق بين الأشياء ، لم تتم - بدرجة واضحة - إلا فى العصر الحديث . إن العناية بكل تفاصيل البيئة ، ورسم كل دقائق المكان قد ظهرت بوضوح فى المذهب الواقعى ، وفى المذهب الطبيعى الذى يثبت الباحثون تأثيره بالحركات العلمية فى العصر الحديث . فكيف إذا كان هؤلاء القوم عرباً رحلاً سريعى الانتقال من مكان إلى مكان ، فلا يمكنون مدة مديدة فى مكان يتيح لهم أن يتعايشوا معه ، وأن يقيموا علاقة بينهم وبين ما فيه من أجزاء ، وكيف إذا عرفنا أن معظم أبطال هذه القصص من عامة الشعب الذين لم يرزقوا حظاً كبيراً من الثقافة ولونا واضحاً من التعليم .

وربما كان السبب أيضاً أنهم لم يكونوا يعمدون إلى عمل أدبى ، يحققون فيه رسم الجو ، وتحديد البيئة ، وضبط الزمان ، بل كانت الأمور مختلطة لديهم بين الحقائق التاريخية والأشياء الأدبية ، فقد كان الرواى يحكى أمراً تاريخياً قد وقع ، أو قيل له أنه وقع ، ويحيطه بكثير من الخيال والأوهام بصورة ساذجة ، لانتوقع أن يتحقق منها ما يتحقق

(٣١٣) تزيين الأسواق ١ / ٥٣ .

(٣١٤) الزهرة ص ٦١ .

(٣١٥) الاغانى ٨ / ١١٥ دار الكتب .

(٣١٦) المرجع السابق ٩ / ٣١ .

في العمل الأدبي الخالص ، الذي يعيد اليه المؤلف ، وهو على بيعة  
من نفسه ، وحقيقة من شعوره ، وأنه ينشئ عملاً فنياً ، ينبغي أن  
تتحقق له الجاذبية والتأنيق والتأثير .

#### العصر :

والعصر الأموي بكل ما فيه من اضطراب واهتياج ، وبكل ما فيه من  
تيارات ثقافية ومذاهب فقهية ، ومنازعات كلامية ، وبكل ما فيه من  
حركات سياسية وفتوحات خارجية ..

هذا العصر - بكل ما فيه - غير ممثل في قصص العشق .

وتفسير ذلك سهل ، فمعظم قصص العشق جحازي ، وقد عرفنا  
أن الجحاز في ذلك الحين ، قد أرغم على البعد عن الحياة الجادة ،  
وأن الاغراء مرة والارهاب ثانية قد اضطراه الى أن يقبع على نفسه ،  
ويلتف على ذاته ، يحلل عواطفها ويشرح تياراتها .

ولكنني مع ذلك أستطيع أن أستشف من قصص العشق أمورا . منها  
ما يدل على نفسياتهم واتجاههم ، ومنها ما يدل على عاداتهم وخلقهم .

فكثير من هذه القصص تعتبر صورة منعكسة للمجتمع الجحازي  
في ذلك الحين ، فالمجتمع الجحازي في ذلك الحين قد أصيب باليأس  
والعزوف عن الحياة ، وأبعد عن تيار النشاط والكفاح ، وقد عكست  
القصص هذه الحالة اليائسة الزاهدة ، فتشم فيها رائحة الموت قسوة  
غالبة ، أو ترى فيها صورة « الهستيرية » والتشنج .

فالموت بين العشاق قد أصبح بدعة منتشرة ، فرجل من ولد  
عبد الرحمن بن عوف ضاق حاله شدة انشغاله بحبيبته عن تدبير أمر  
حياته ، ثم عرضت عليه أن يخرج الى هشام بن عبد الملك يسأله شيئا ،  
فلما كان قرب الرصافة أغمى عليه ، ثم رجع قبل أن يصل الى سليمان ،  
فأخبر أز وجته قد ماتت ، فلم يسمع منه الا شهقة وفارقت

نفسه (٣١٧) . وشاب يحب جارية عبد الله بن جعفر ، فلما أهداها له وأظفره ببغيته ، دهش وأخذ الخبل ولبط به ثم غارق الدنيا (٣١٨) . وعاشقة يغضب منها حبيبها . فتجعل في عنقها أنشودة وتختنق نفسها ، ثم يلزم الشاب قبرها ويلحق بها (٣١٩) . وشاب من المدينة يحب مغنية عند يزيد بن عبد الملك ، ثم بعد أن يسمع منها ثلاثة أصوات في حضرة يزيد ، يلقي بنفسه من مكان عال فيموت ، ثم تلحق هي به (٣٢٠) . والأمثلة على ذلك كثيرة . بل وجد ما يسمى ، بالعشق المسلسل (٣٢١) الذي يكثر فيه العشاق وبالتالي يكثر فيه الموت ... الخ .

وبدعة أخرى شاعت بين العشاق ، فيها « هستيرية » وتشنج وهي غشيانهم عند سماع اسم المعشوقة ، فعروة بن حزام يسمع ولدا يخبر أباه ، بأنه يحمل الماء على الناقة المسماة « بعفراء » فيغمى عليه ساعة (٣٢٢) . وبثينة سارت جميلا بشيء فخر مغشيا ، وظل كذلك حتى طلعت الشمس عليه (٣٢٣) . والمجنون يسمع من ينادى باسم « ليلي » وهي غير حبيبته ، فيغمى عليه وينشد الأشعار (٣٢٤) .

فكل هذا انعكاس للمجتمع الحجازي في ذلك الحين ، الذي أصيب « بالهستيريا » والتشنج ، وكان مدفوعا نحو الموت والانتحار .

(٣١٧) تزيين الاسواق ١ / ١٣١ .

(٣١٨) العقد الفريد ٣ / ١٩٩ .

(٣١٩) تزيين الاسواق ١ / ١٨٠ .

(٣٢٠) العقد الفريد ٣ / ١٩٨ على أن صاحب التزيين (١٤٦/١)

يذكر أن هذا الشاب من البصرة واشترى هذه الجارية ثم استولى الحجاج عليها وبعث بها إلى الشام ، فسار وراءها . ولكن الأنسب والأوفق أن يكون الشاب من المدينة كما ذكر ابن عبد ربه .

(٣٢١) تزيين الاسواق ١ / ١٥٦ .

(٣٢٢) المرجع السابق ١ / ٨٥ .

(٣٢٣) الشعر والشعراء ١ / ٤٠٥ .

(٣٢٤) الاغانى ١ / ١٦٨ « ساسى » .

وتقرأ قصص العشاق ، فتلاحظ أن بعض العذريين ، يتعلقون بصوت الهديل (٣٢٥) ، يناجونه ويبتونهم شكواهم ، ويتعاطفون معه ، وربما كان السبب في هذا ما في صوت الحمام من شجن وشجو وحزن ، تدفع النفوس الخزينة الى التعلق به . وهناك أسطورة ، تفسر ما في صوت الحمام من رقة وشجو ، ويأس وتفجع ، فقد زعموا أن الهديل فرخ على عهد نوح عليه السلام ، فصاده جرح من الطير ، فليس من حمامة الا وتبكي عليه الى يوم القيامة (٣٢٦) .

ماساة أهل الحجاز ترجع الى الشاميين ، فقد كان الحجار في صولجان وقوة ، يملك دفة الامور ويدبر زمامها من المدينة ، ولكن سعادتهم لم تتم ، اذ انقض عليهم أهل الشام ، فنقلوا دفة الامور الى بلادهم ، وحرّموا الحجازيين من متعة الرياسة ولذة القيادة . ولهذا لا تعجب حين نرى أن « هادم اللذات ومفرق الجماعات » في قصص العشاق هو شامي . يقرب عروة من هدفه ، ويوشك أن يرجع محملا بالمال ، فيضم اليه عشيقته ويسعدان . ولكن رجلا من أنساب بني أمية ، يرى عفراء ، فتعجبه ويرتحل بها الى الشام ، ويترك لعروة الحمرات والندم (٣٢٧) . والرماح بن مالك القيسي يعشق أم جحدر ، ولكن سعادته لم تدم ، وانذرهم الغراب بالحصرات ، وما أن يصبح النهار حتى تخبره امرأة أخيه أن شاميا خطبها الى أهلها ، ويكمل الرماح ماساته فجئت بالقرب من خبائها مترددا أياما الى أن مضى بها ، فكنت أنشد :

اجارتنا ان الخطوب تنوب

على ، وبعض الأمنين تصيب

(٣٢٥) الأغاني ١ / ١٨١ ، ١٨٣ « سامي » .

(٣٢٦) بلوغ الارب ٢ / ٣٦٤ .

(٣٢٧) أخبار عروة بن حزام ص ٤

#### اجارتنا لست الغداه ببارح

ولكن مقيم بها ما اقام عسيب (٣٢٨)

واذا كان « هادم اللذات » ينقض من الشام في أغلب الأحوال ، فان الحجازيين يضمرون الحب والعطف على أهل البيت ، وقد جاءت القصص تشف عن هذا الوضع ، الذي عبر عنه عبد الرحمن بن أبي عمار ، خير تعبير ، حين قال لابن جعفر « يا أهل البيت ، قد خصكم الله بأشرف ما خص به أحدا من صلب آدم ، فلتهنكم هذه النعمة وبارك لكم فيها » . وذلك أن عبد الرحمن أحب جارية ملكت عليه نفسه ، ولامه فيها عطاء ومجاهد ، فلما علم عبد الله بهذا بعث الى مولى الجارية ، واشتراها منه باريعين ألفا ، وأمر قيمة جواريه فحلتها وزينتها ، ثم سأل عبد الرحمن : ما فعل حب فلانة ؟ قال : « مشوب باللحم والدم ، والمخ والعصب » فأخرجها اليه ، وأمر له بمائة درهم (٣٢٩) .

وقصة « قيس وليلى » (٣٣٠) ، تكشف عن مدى المكانة التي يحتلها هؤلاء في قلوب الحجازيين ، مضى الحسين الى أبي لبني ، فاجاب بالطاعة . ثم مضى الى أبي قيس ، فقام ذريح ومرغ وجهه على اقدامه ومضى معه خاطبا لبني . وأكثر من هذا أن زوج لبني يطلق امراته ، ويبين عنها لعاشقها ، ويخالف ما جبل عليه الرجل من عناد وصلف ازاء هذه الامور ، يفعل هذا ارضاء للحسن وللحسين ولابن أبي عتيق .

وقد تعرضت إحدى القصص للمنافسة بين يزيد بن معاوية ، والحسين ابن علي ، وانتهت بانتصار الحسين والفوز على يزيد ، فقد أحب يزيد أم خالد امرأة عبد الله بن عامر ، وشكا لآبيه جبهها فاستقدم معاوية

(٣٢٨) تزيين الاسواق ١ / ٣٧ .

(٣٢٩) اخبار النساء ص ٢٨ .

(٣٣٠) تزيين الاسواق ١ / ٥٣ .

ابن عامر ، وساله طلاق أم خالد ، على أن يطعمه فارس خمس سنين ، فاجابه الى ذلك ، ثم دعا أبا هريرة فقال له : ارحل الى المدينة ، حتى تأتي أم خالد ، فتخطبها الى يزيد ، وتخبرها أنه ولي عهد المسلمين ، وأن مهرها عشرون ألف دينار ، ولما قدم أبو هريرة الى المدينة ، التقى بالحسن والحسين ، ويعبد الله بن العباس ، ويعبد الله بن جعفر ويعبد الله بن الزبير ، ويعبد الله بن المطيع بن الأسود . ولما علم كل منهم بالقصة قاله له : اذكرني لها ، فلما دخل عليها خيرها بين هؤلاء ، فطلبت منه أن يختار لها ، فقال لها : « أما أنا فقد اخترت سيد شباب أهل الجنة » . فقال : « قد رضيت بالحسين بن علي » ( ٣٣١ ) .

وعلى هذا ، فقد كان شوقي موفقا في تصوير ما يضمرة الحجازيون لأهل البيت ، من محبة واحترام وتقدير ، وذلك في روايته « مجنون ليلى » ( ٣٣٢ ) .

وفي تلك القصص ترى تصويرا لبعض عادات العرب وخلقهم . فالشهامه ، والكرم العربى ، وتوقير الضيف ، وحق المالمحة ، واحترام الكبير ، والحرص على تقاليد العرب - تبدو في أكثر من قصة .

يضل جميل ، فتلوح له نار فيقصدھا ، فاذا هو براع يرحب به ويكرمه ، ويذبح له شاة ويشوى اللحم ، ويلقيه بين يديه ، ويأبى إلا أن يضيفه ثلاثا ( ٣٣٣ ) . وابن ذريح يمر ببني كعب وقد احتدم الحر ، فيستقى ماء عن خيمة ، فتبرز له لبنى وتمهد له وطاء ، وتستحضر له ما يحتاج اليه ، ثم يتى أبوها ، فيرحب به وينحر له جزورا ( ٣٣٤ ) .

( ٣٣١ ) مجمع الأمثال ١ / ٢٦٣ .

( ٣٣٢ ) انظر رواية ( مجنون ليلى ) مثلا في ص ١٣٩ .

( ٣٣٣ ) الموشى ١ / ٨٣ .

( ٣٣٤ ) تزيين الاسواق ١ / ٦٢ .

والفرزدق خرج يريد اليمامة ، فإذا برعيد ويرق وسحب ، فيعدل إلى بعض الديار ، ويطلب القرى فيجيبوه ( ٣٣٥ ) . وشهاب بن حرقلة السعدي يكون في قفر ، ثم يعدل إلى خيمة في جوفها نعيمة ، ويسألها القرى فتجيب ثم يأتي زوجها فيرحب به ويطلعهم من لحم الأسد ، ويلوح في عين حرقه الغدر ، فيستحلفه عامر بنحق الممالحة ، وحين سمع الحجج هذه القصة ، أصعب بالفتى عامر ، وكاد أن يبطش بحرقه لخيانته حق الممالحة ( ٣٣٦ ) . وقيس لبنى يحترم والديه ، ويذعن لطاعتها ، فيتغلب على عواطفه ويطلق لبنى ( ٣٣٧ ) . ووالد لبنى يجيئه الحسين مستشفعا ، فيكبر حفيد النبي ﷺ ، ويقول له : « لو ارسلت لكفيت » ، ولكنه مع ذلك يحرص على تقليد العرب ، فيستدرك قائلا ، « بيد أن هذا من أبيه اليق كما هو عند العرب » ( ٣٣٨ )

ومن هذه القصص ، أستطيع أن استشف صورة العلاقات بين الرجال والنساء في مجتمع البادية ، إذ يبدو أنه كان فيها شيء من الحرية ( ٣٣٩ ) ، فقد كان قيس قبل أن يعشق ليلى صاحب غزل

( ٣٣٥ ) الزهرة ص ١٦١ .

( ٣٣٦ ) المحاسن والاضداد ص ٧٤ .

( ٣٣٧ ) تزيين الاسواق ١ / ٥٤ .

( ٣٣٨ ) تزيين الاسواق ١ / ٥٣ .

( ٣٣٩ ) عرض الدكتور الحوفي للعلاقة بين الرجال والنساء في العصر الجاهلي عرضا وافيا ومدعما بالنصوص ، فيبين أن هناك اختلاطا بين الأقرباء ، وأن هناك اختلاطا كان بين غير الأقرباء ، على أنه إذا خشي أهل الفتاة مغية الاختلاط فانهم يحاولون منعهم . ثم بين دواعي هذا الاختلاط في ظروف الحياة والبيئة ، ومن التعرض لذلك في الطواف حول الاصنام واجتماع القوم في الاسواق الكبرى ومواسم الحج ( انظر في العصر الجاهلي ١٣٦ - ١٤٧ ) . ويبين من هذا العرض المدعم بالنصوص أنه لا يوجد اختلاف كبير بين تلك العلاقات في العصر الجاهلي ، وبينها كما تظهر في قصص العشق الأموية ، وهذا



ومجالسة للنساء ، فمر على نسوة ، فدعونه الى النزول والحديث فأجاب ، وجعل يحدثهن ، الى ان أقبل شاب حسن الوجه ، يقال له « منازل » فأقبلن عليه بوجوههن ( ٣٤٠ ) . وقد صرح رياح العامري بهذا حين تحدث عن تردد قيس على ليلى فى أول عشقه لها « والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان الى الفتيات » ( ٣٤١ ) . وقد دافع ابن قيم الجوزية عن هذه العادة « وانما أطلقت العرب حديث الرجال الى النساء لما كانوا يرون من النقص فى المريب ، ويأخذون انفسهم بحفظ الجار ، وما يعرف بعضهم من بعض من استعمال الوفاء والتحرز من العار ، لأن الرجل منهم كان يصون حرمة جاره وصاحبه ، كصيانة الابنة والاخت والزوجة » ( ٣٤٢ ) .

فالعرب كانوا يبيحون شيئا من الحرية فى العلاقات بين الرجال والنساء ، اعتمادا منهم على حسن النية وثقة بالخلق العربى ، ولكن اذا تبين لهم أن بين فتى وفتاة علاقة خاصة ، غير تلك العلاقة العامة ، فانهم حينئذ يتشددون ويحافظون على سمعتهم . وقد عرفنا العقبة الكثود التى كانت تقابل العشاق ، وهى أن أهل الفتاة يحولون بينهما ، لأنه شيب بها وذاع أمرهما بين الناس ، ومن عادة العرب ألا يتزوج الرجل امرأة شيب بها قبل خطبته . ذكر رياح العامري مكملا حديثه السابق « أن قيسا أول ما علق ليلى كان يتردد عليها ، فلما علم أهلها بعشقه لها منعوه من آتيانها وتقدموا اليه » ( ٣٤٣ ) .

يؤكد ماسبق أن قلته ، ومازلت أقوله ، من أن هذه القصص ذات بذور جاهلية ، وان تأثرها بالتيارات الدينية والفلسفية والفكرية المعاصرة كان ضئيلا .

- ( ٣٤٠ ) الاغانى ١ / ١٦٥ « ساسى »
- ( ٣٤١ ) الاغانى ٣ / ٤٣ دار الكتب
- ( ٣٤٢ ) اخبار النساء ص ٩٨
- ( ٣٤٣ ) الاغانى ٢ / ٤٢ دار الكتب

### النهاية :

القصة القصيرة المعاصرة ، تعتبر النهاية أهم عنصر من عناصرها ، فهي الشيء الذى يلوح فى ذهن القاص فى كل حركة من حركات القصة ، اذ يستجمع كل خيوط القصة ، ويعقد فيها ما شاء له التعقيد ، ويضع علاقات ، ثم اذا بتلك الخيوط تصل الى النهاية وصولا ، فتفك كل عقدها ، وتمنطق كل علاقاتها ، ولهذا سماها البعض « لحظة التنوير » (٣٤٥) . Moment of Illumination أى اللحظة التى تبرز كل معنى سبقها ، وتلقى الضوء عليه .

فالنهاية ، مع أنها آخر شيء فى القصة ، الا أنها عند الفنان الناجح سيف وصلت على أجزاء القصة ، يبتز منها مالا أهمية له ولا فائدة منه ، ويبارك ما يخدم النهاية ويحرق البخور فى محرابها . وهذا يعنى ان النهاية التى عى فى ذهن القاص ، تتحكم فى بناء القصة ونسجها نسجا معينا لاترضى الا به ، أو بعبارة أخرى ، ان النهاية نتيجة حتمية لبناء خاص ، فهي ليست من اختيار القاص ، له ان يضع نهاية ، أو يحذف أخرى ، بل هو أمر مكتوب عليه ، فرضته أحداث القصة ، ومنطقها الخاص .

ولم يكن ذلك المعنى الفنى للنهاية ، مفهوما لدى القاص القديم بوجه عام ، فقد كان يترك قصته تدير بدون رقابة ، حتى تحط رحالها وتختار النهاية التى ترضى السامعين ، أو يرتضيها له السامعون ، ولعلكم قرأتم خبر ذلك الرجل الذى كان يستمع الى مسيرة عنتره ، ثم وقف به القاص عند أسر عنتره ، وانقض السامر ، ولكن الرجل لم يهدأ له بال ، وذهب الى منزله مغضبا ، وقدمت له زوجه الطعام فرفضه ، ولم يهدأ ، حتى رجع الى منزل القاص ، وخطب على بابيه بالليل .

(٣٤٥) فن القصة القصيرة ص ٩٣ .

فوجده نائما فابقظه ، وقال له : تنام وقد سجت الرجل ، وما زال به ، حتى قرأ له القصة ، وخرج له عنتره من السجن ، ووقف به عند نهاية ارتضاها ، مما أسعد الرجل ، وجعله ينفخ القاص الدراهم ، ويعود الى منزله راضيا (٣٤٦) .

انما عرفت تلك الاهمية للنهاية في الغرض التحديث ، عند اكتشاف القالب الفني للقصة القصيرة . والسيد الأول للقصة القصيرة الحديثة «Poe» يقول : « يجب ألا تكتب أية عبارة - بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة - متبثقة عن ميل لم يكن موجودا في التخطيط المبدئي ، فتقدم الفكرة ، كما هي مرتسمة في ذهن ، واضحة المعالم ، غير مهزوزة (٣٤٧) . وعلى ذلك ، فلا ينبغي أن نتوقع في قصص العشق إلا أن تكون نهايتها مرتجلة ، تخضع لمزاج القاص ومزاج المستمع ، ولم تكن تتحكم في بناء القصة ، فالقصة التي تنتهي نهاية سعيدة ، لا تختلف في بنائها وأحداثها ونفسيات شخصياتها ، عن القصة التي تنتهي نهاية قاتمة ، ولا تحتاج في هذا الى شيء ، أكثر من أن يقول الراوي « وغدونا في اليوم الرابع نستعدى أثره ، حتى وجدناه في واد كثير الحجازة خشن ، وهو ميت بين تلك الحجارة ، فاحتمله أهله ، فغسلوه وكفنوه ودفنوه » (٣٤٨) أو أن يقول : « وضربت القبة وسط الحى ، وأهديت اليه ليلا ، وبث عند الشيخ خير مبيت ، فلما أصبحت ، غدوت ، فقامت بباب القبة ، فخرج الى ، وقد تبين الجذل في وجهه » (٣٤٩) .

(٣٤٦) انظر مقدمة ديوان ( منية النفس في أشعار عنتره عبس )

ص ٥ .  
Encyclopaedia Britannica «short story»

(٣٤٧)

(٣٤٨) نهاية قصة المجنون « أنظر : الاغانى ٢ / ١٣ « ساسى » -

(٣٤٩) نهاية القصة التي حكاها ابن أبى ربيعة عن صاحبه

أبى مسهر ، وتلك النهاية تتفق مع مزاج عمر وميله الى التجانب السار في الحياة ، انظر مصارع العقاق ص ٥٠ .

ومن الطريف أن بعض القصص يختار لها راو نهاية ، ثم يختار لها راو آخر نهاية مخالفة ، وذلك مثل قصة « قيس وليلى » . فمنهم من ينهيها نهاية سعيدة وأن ليلى قد طلقت من زوجها ، وأنها تزوجت قيسا ، وأقاما معا حتى الموت ، وأن هذا سر مدحه لابن أبي عتيق :

جزى الرحمن أفضل ما يجازى	على الاحسان خيرا من صديق
فقد جريت اخوانى جميعا	فما ألفيت كابن أبى عتيق
سعى فى جمع شملى بعد صدى	ورأى حسدت فيه عن الطريق
وأطفأ لوعة كانت بقلبي	أغصتني حسراراتها برقيق

ومنهم - وهم أكثر الرواة - من ينهيها نهاية حزينة ، فليلى ماتت فى العدة ، وحين بلغ قيسا ذلك خرج حتى وقف على قبرها ، وأشد :

ماتت لبيلى ، فموتها موتى	هل ينفعن حسرة على الفوت
انى سابكى بكاء مكتئب	قضى حياة وجدا على ميت

ثم بكى حتى أغشى عليه ، فحمل ومات بعد ثلاث ، ودفن الى جانبها ( ٣٥٠ ) .

والاستاذ عزيز اباضه فى مسرحيته الشعرية « قيس وليلى » ارتضى ان ينهيها نهاية سعيدة .

والقصص التى تنتهى نهاية سعيدة ، كانوا يضعونها تحت عناوين توحى بذلك ، فابن الجوزى يعنون بقوله « سياق ذكر جماعة حصل لهم مرادهم من تزوج النساء المحبوبات أو ملك الجوراء » ( ٣٥١ ) ، ثم يورد القصص التى تنتهى نهاية سعيدة ، كقصة عمارة جارية عبيد الله ابن جعفر . وداود الانطاكى يعنون « ذكر من حظى بالطلاق » ، بعسد

( ٣٥٠ ) تزيين الاسواق ١ / ٥٣ .

( ٣٥١ ) ذم الهوى ص ٦٠٤ .

تجرع كأس الفراق ، وهذا القسم هو الذى ترجمه صاحب الأصل بمن ساعده الزمان بمطلوبه ، حتى ظفر بمحبوبه ، وذلك اما بشفاعه او جاء او حيلة او عناية ازلية .» (٣٥٢) ثم يورد القصص التى تنتهى نهاية سعيدة ، كالقصة التى يقصها معبد المغنى عن شاب « خرج وقد سال العقيق ، مع فتية للتنزه فاذا هم بنسوة ، بينهن فتاة ، قد فضحت الشمس ، بعينين لا يرتدان الا باقتناص النفس » فعلقها ثم خطبها الى اهلها فابوا . فلما علم ابن جعفر بقصته ، ركب الى الخليفة ، وقص عليه القصة فكتب الى عامله بالحجاز ، بأن يسيرهم اليه ، ثم امهرها الخليفة وزوجها منه (٣٥٣) . او كقصة الاعرابية الحسناء مع الاعرابى النظريف وابن ام الحكم ومعاوية (٣٥٤) . او كقصة الغلام الذى تسور ليلا الى حبيبته فقيض عليه ابوها ، واتهمه بالسرقة ، واقر الغلام حتى لايفضحها ، وكاد خالد بن عبد الله القسرى أن يقطع يده ، لولا أن أخا الفتاة ، أرسل اليه يخبره حقيقة الأمر ، ثم أحضر خالد أباهها وأمره أن يزوجه من الغلام ، ثم ساق المهر من عنده (٣٥٥) .

على أنك اذا رجعت الى المصادر التى تحدثت عن قصص العشاق ، فانك ستجد الكثرة الكثيرة من هذه القصص ، تنتهى بمأساة ، ويكفى أن تشير الى المجنون ، وعروة بن حزام ، وعروة بن قيس ، والاعرابى الذى اقترب السبع معشوقته ، وستجد أمثلة من هذا فى الفصل المقبل . ورائحة الموت ، والخنق ، والحزن ، والاعضاء والغشيان ، والياس والانطواء ، تشيع فى هذه القصص أكثر من رائحة اللقاء ، والزواج والسعادة ، والتفاؤل والاقبال على الحياة .

وهذا موافق لنفسية الحجازيين ، وأهل البادية فى ذلك الحين ، فقد كان يمر بظروف سوداء ، تجعل ميل القصص الى جانب الحزن ،

- (٣٥٢) تزيين الاسواق ١ / ٥٣ .
- (٣٥٣) تزيين الاسواق ١ / ١٥٠ .
- (٣٥٤) المرجع السابق ١ / ١٥١ .
- (٣٥٥) المرجع السابق ١ / ١٥٣ .

والموت ، والتشاؤم ، أقرب صدقا ، وأقرب الى نفوسهم وأمزجتهم ،  
وأقوى دلالة وشفافية لتلك المرحلة .

وهذا يجعلنى أعاود النظر فى النهاية التى ارتضاها الاستاذ  
عزيز أباطة لمسرحيته ، على الرغم من أن الأستاذ العقاد قد دافع عن  
هذه النهاية فى المقدمة التى كتبها لهذه المسرحية .

فلو أردت أن أنقده ، كما يفعل أهل المذاهب الفقهية ، ثقلت أنه  
اتبع القول الضعيف وخالف القول المشهور ، فإن أكثر الرواة على أنها  
ماتت فى العدة ، وأن مدحه لابن أبى عتيق ، حين لم يشك فى عودها  
إليه ( ٣٥٦ ) . ولكننى سأنقده نقدا فنيا ، وهو أن الأدب الذى يتخذ من  
التاريخ مادة له ، ينبغي أن يحى الفترة التى يتخذها ميدانا له ،  
فينقل القارئ الى جوها ، ويجعله يتشرب روحها ، ويختلط بجوهرها ،  
فالفرق بينه وبين المؤرخ ، أن الأخير يتعامل مع وثائق جامدة ، أما  
الفنان فإن نجاحه يكمن فى احياء تلك الفترة ، وبث الحياة فى  
الوثائق ، وبعث العصر يفج بعاداته وجوهره ، فلو أن الأستاذ أباطة ،  
اختار لمسرحيته اتجاه أكثر الرواة وانهاها نهاية حزينة سوداء ، لكان  
أقرب الى روح الحجاز فى ذلك الحين ، وأكثر دلالة على نفسيته  
ومزاجه ، وداود الانطاكي وضع أخبار قيس لبنى مع مات من العشاق ،  
وقد دافع عن هذا بقوله : « وكانى بغى يعترض على نقلى له من  
حظى بالتلاقى ، الى مراتب من مات دونه من العشاق ، ولم يدر أن  
الحيثيات توجب بالتأمل الصائب ، والفهم الذكى الثاقب ، ما لم يدركه  
الغافل الغبى » ( ٣٥٧ ) .

( ٣٥٦ ) تزيين الأسواق ١ / ٥٣ .

( ٣٥٧ ) المرجع السابق ١ / ٦٢ .



## الفصل الثالث

### تطور قصص العشق

تتابعت قصص العشق على مختلف العصور العربية ، واتخذت اشكالا واللوانا مختلفة ، فلو رجعت الى كتاب « تزيين الاسواق » لرأيت فيه اخبارا عن ألوان من العشق ، فالباب الأول عقده « فيمن استشهد من المحبين ، شوقا الى حضرة رب العالمين » . والثاني في « ذكر أحوال عشاق الجوارى والكواعب ، وذكر ماصدر لهم من العجائب » . والثالث في « ذكر عشاق القلمان ، وأحوال من عدل الى الذكور عن النسوان ، وتفصيل ما جرى عليهم من تصاريف الزمان » . والرابع في « ذكر ما سوى البشر ، وما لاقوا من العبر » . وفي هذا الباب ، أورد اخبارا عن حب بين حمامتين ، وبين غراب وخطافين يشبه العشق المسلسل ، وبين كلب وملاك من أقيال اليمن ، وبين نخلتين ، كانت أحدهما تزهر وتسقط قبل الانعقاد فراها حاذق ، فعرف انها عاشقة ، فدعا برصاص ، فصنع شريطا ، وربط منها الى النخلة الاخرى ، فحسن ثمرها ، وقد قطع صاحب البستان الشريط ، فاسقطت الزهر ، فأعاده ، فصلحت .

\*\*\*

والمتتبع لتطور قصص العشق ، يستطيع أن يتحدث عن ذلك من نواح .

ناحية ينبع فيها الباحث حكاية معينة ، وينظرها في مختلفة المراجع ، ويراقب التطور والفروق بين هذه المراجع .



فمثلا حكاية الشاب الذي أدخل قصته على الخليفة ، وفيها « ان  
 رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة أن تغنى ثلاثة أصوات ، ثم  
 يتغنى في ما شاء من حكمه ، فعل » - هذه الحكاية قد ذكرت في  
 الزهرة ، وفي الموشى ، وفي تزيين الأسواق ، وفي العقد الفريد ،  
 وفي مصارع العشاق ، وفي ذم الهوى ، وفي المستطرف . ومن الممكن  
 مراقبة الفروق بين صنيع كل كتاب ، ولكننا نجد فروقا شكلية ، فهي  
 اختلاف على اسم الخليفة الذي رفعت اليه القصة ، فهو مسليمان  
 في الزهرة وفي المحاسن والاضداد وفي الموشى . أو هو عبد الملك  
 ابن مروان في ذم الهوى وفي تزيين الأسواق وفي مصارع العشاق .  
 أو هو يزيد بن عبد الملك في العقد الفريد وفي المستطرف . أو فروق  
 في الشعر الذي طلبه الشاب . أو في موطن الشاب وهل هو من البصرة  
 كما في تزيين الأسواق . أو هو من المدينة كما في العقد الفريد . أو فروق  
 يسيرة كان يذكر الحاجظ مقدمة ، يبين فيها أنه خرج مع محمد بن ابراهيم  
 على حراقتة ، فزجت عواده بنفسها الى الماء ، ثم تبعها غلام وزج بنفسه  
 في أثرها ، وأدار الملاح الحراقة ، فاذا بهما معتنقان وميتان . ويستفزع  
 ذلك محمد ، ويقول للحاجظ « ... لتحدثني بحديث يسليني عن  
 فعل هذين ، والا الحقتك بهما » فيقص عليه خبر الشاب مع مسليمان  
 ابن عبد الملك (١) . أو يفصل صاحب التزيين في أول هذه القصة ،  
 فيذكر ان هذا الشاب اسمه ظريف بن نعيم ، وكان بأعظم حالة من  
 الجمال ، وأمكن رتبة من المال ، وكان أبوه من أكابر تجار البصرة .  
 ثم رحل الشاب يوما الى بغداد ، وحضر يوما الدكة ، فرأى الجارية ،  
 فاعجبته ، وسامم مولاها ، حتى أخذها وانطلق الى منزله . فلما  
 كان الليل جاء صاحب شرطة الحجاج فأخذ منه الجارية ، ووجه بها  
 الى عبد الملك ، فتبعها الفتى الى دمشق ، ثم كانت قصته السابقة (٢) .

(١) الزهرة ص ٣٥٢ .

(٢) أنظر تزيين الأسواق ١ : ١٤ .

أو أن يذكر ابن عبد ربه أن مغنية من المدينة وقعت في قلب يزيد ، فسألها أن كان لها أقارب بالمدينة ، ليكرمهم من أجلها ، وأخبرته ألا أقارب لها ، ولكن ثلاثة نفر . كانوا أصدقاء مولاتها ، وأنها تحب أن ينالهم ، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يسيرهم إليه ، فلما وصلوا عنده سألهم حوائجهم ، فأما الاثنان فذكرا حوائجهما . وأما الثالث ، فبعد أن أخذ الأمان ، طلب ثلاثة أصوات من الجارية ، يشرب عليها ثلاثة أرطال ( ٣ ) .

وقد أتاح لنا ابن الجوزي فرصة للمقارنة جميلة ، إذ ذكر ثلاث روايات لهذه القصة ، رواية في عهد الملك بن مروان ، والثانية في عهد سليمان ، والثالثة في عهد الرشيد ( ٤ ) والفروق بين هذه الروايات ضئيلة ، فالرواية الأولى تنتهي بأن عبد الملك ، بعد أن رمى الفتى بنفسه ، سأل عنه ، فقالوا : « غريب ، لا يعرف إلا أنه منذ ثلاث ليال ينادي في الأسواق ، ويده على رأسه :

غدا يكثر الواشون منا ومنكم وتزداد داري عن دياركم بعدا والرواية الثانية تنتهي بأن سليمان ، قال بعد أن زج الفتى بنفسه على دماغه « أنا لله وأنا إليه راجعون ، أترأه توهم الجاهل أنني أخرج إليه جاريتي ، وأردها إلى ملكي . يا غلام ، خذ بيدها ، فأنطلق بها إلى أهله ، فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفيرة في دار سليمان ، قد أعدت للمطر ، فجذبت يديها من أيديهم ، وجعلت تقول :

من مات عشقا فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت فزجت نفسها في الحفيرة على دماغها ، فماتت » .

( ٣ ) انظر : العقد الفريد ٣ : ٩٨ .

( ٤ ) انظر : ذم الهوى ٣٥٥ - ٣٦٠ .

والرواية الثالثة تنتهى بان الرشيد قال بعد ان القى بنفسه « عجل الفتى ، ولو لم يعجل لوهبناها له » .

وارجع ايضا الى قصة الشاب الذى ادعى السرقة امام خبالد ابن عبد الله القسرى ، فاننا نجد الفروق يسيرة بين بعض هذه الكتب ، كان يكون الذى قد كشف الامر هو أخو العاشق (٥) أو يكون ابن عم للفتاة (٦) .

وقصة العاشق الذى افترس السبع معشوقته ، ذكرت فى كثير من الكتب العربية القديمة وكان هناك تقارب بين بعض الكتب ، وتباعد بين البعض الآخر .

فرواية ابن السراج (٧) ، وداود الانطاكي تقتريان ، وكذلك رواية الوشاء (٩) وابن الجوزى (١٠) . وهناك تباعد الى حد ما بين الروايتين الاوليين ، وبين الروايتين الاخيريين . فالاوليان تذكران خبر السبع أولا ، وتؤخران كشف حقيقة الاعرابى وحقيقة فتاته . اما الاخيريان فتبدآن بذكر خبر ذلك الاعرابى مع ابنة عمه ، وبعد ذلك تذكران خبر السبع وماساته . والابشيهى فى كتابه يضيف ماساة اخرى لم تذكر فى تلك الكتب السابقة ، وينسب الشعر الذى اوصى العاشق ضيفه بان يكتبه على قبرهما الى هاتف ، فيقول بعد ان ذكر دفن العاشقين فى قبر واحد : « فلما كان الصباح ، اقبلت امرأة عجوز ، وهى كالولہانة ، فقالت لى : هل رايت شابا يرعى غنما ؟ فقلت لها : نعم . وجعلت اتلطف بها ، ثم حدثتها بحديثه ، وماكان من خبره ، فاخذت تصيح وتبكي ، وانا

- (٥) ذم الهوى ص ٣٥٠ .
- (٦) أخبار النساء ص ١٣١ .
- (٧) مصارع العشاق ص ٢٩٩ .
- (٨) تزيين الاسواق ١ : ١٢٩ .
- (٩) الموئى ١ : ٨٣ .
- (١٠) ذم الهوى ص ٥٧٦ .

الاطفها الى أن أقبل الليل ، وما زالت تبكى بحرقة ، الى أن مضى من الليل برهة ، ففقدت نحوها ، فإذا هي مكبة على وجهها ، وليس لها نفس يصعد ، ولا جارحة تتحرك ، فحركتها ، فإذا هي ميتة فغسلتها ، وصليت عليها ، ودفنتها الى جانب قبر ولدها . وبت الليلة الرابعة ، فلما كان الفجر قمّت ، فشددت فرسي ، وجمعت الغنم وسقتها ، فإذا أنا بصوت هاتف يقول :

كنا على ظهرها والدهر ..... الخ (١١) .

وقصة الاعرابي الطريف ، الذي أراد معاوية أن يستأثر بمعشوقته الحناء فابت ، لو قارنت بين هذه القصة كما هي في مصارع العشاق (١٢) ، وبينها كما هي في أخبار النساء (١٣) ، لوجدت قروقا بينهما . فان هذه القصة كما هي في الاخبار أكثر تشويقا الى حد ما ، منها كما هي في المصارع اذ قدم لها بوصف للاعرابي ، وصفا مشوقا ، جعل معاوية يقول لجلسائه : « لم يخلق الله من احتاج الى نفسه في مثل هذا اليوم . . . يا غلام ، سر اليه ، واكشف عن حاله وقصته ، فوالله لئن كان فقيرا لاغنيتة . . . . الخ »

\*\*\*

وناحية يتتبع فيها الباحث ، القصص المتشابهة ، ويراقب الفروق بينها :

فقصة عروة (١٤) ، لها قصة مشابهة حدثت في العصر الجاهلي ، وهي قصة المرقش وأسماء ، فبينهما تشابه في كثير من التفاصيل والأحداث ، وان كان في قصة المرقش ، يرد موقف ليس له ما يشابهه

(١١) المستطرف ٢ : ٢٠٤ .

(١٢) ص ١٧٨ .

(١٣) ص ٣ .

(١٤) الأغاني ٢٠ : ١٥٧ « سامي » .

فى قصة عروة ، وذلك أن المرقش حين علم حقيقة الأمر من غلامين يلعبان ، وإن القبر الذى كان يحج إليه لم يكن يضم إلا عظام كبش ، دعا وليدة له ، وزوجها الذى كان عسيفا له ، وركبوا جميعا فى طلب المرادى ، وفى الطريق مرض المرقش حتى كان لا يحمل إلا معروضا ، حتى نزلوا كهفا بأسفل نجران ، فسمع المرقش زوج الوليدة يقول لها « أتركه فقد هلك سقما ، وهلكنا معه ضرا وجوعا » . فجعلت الوليدة تبكى من ذلك ، فصمم على رايه ، حتى أذعنت له ، فلما سمع المرقش ذلك كتب على مؤخرة الرجل أبياتا من الشعر الى أخويه أنس بن سعد وحرملة ، يخبرهما فيها بحقيقة الأمر . وحين رجعت الوليدة وزوجها ، أخبرا القوم أن المرقش قد مات . ولكن ملة قرأ الآيات ، فدعاهما ، وخوفهما ، وأمرهما أن يصدقاه ، فلما عرف منهما الحقيقة قتلها ، وركب فى طلب أخيه ، فلما وصل الى الكهف عرف أن أخاه قد احتمل الى منزل زوج أسماء (١٥) .

وقصة قيس وليلى (١٦) لها قصة تشبهها ، حدثت أيضا فى العصر الجاهلى ، وهى قصة عبد الله بن العجلان وصاحبته هند (١٧) . وإن كانت قصة قيس قد ورد فى خلالها موقف ، ليس له ما يشبهه فى قصة ابن العجلان ، وهو زواج قيس بعد أن طلق معشوقته ، بأخرى تسمى على اسم محبوبته . وهناك قصة حدثت فى عهد ابن عباس ، تشبه هذه القصة فى كثير من التفاصيل ، وهى قصة عروة بن قيس (١٨) . وفى ظنى أن الحادثة واحدة ، وهى أن رجلا أحب امرأة فتزوجها ، ثم تدخل أهله بالتفريق بينهما ، فنجحوا فى ذلك ، وإن كانوا لم ينجحوا فى إطفاء لوعة الحب ، الحادثة واحدة ، كان القوم يتسامرون بها فى

(١٥) الأغاني ٥ : ١٨٠ .

(١٦) تزيين الأسواق ١ : ٥٩ والأغاني ٩ : ١٨٣ « دار المکتب » .

(١٧) تزيين الأسواق ١ : ٩١ والأغاني ١٩ : ١٠٢ ساسى .

(١٨) تزيين الأسواق ١ : ٣٦ .

المجالس . ويختارون لها من الاسماء التي يختارونها ، أو يستعبرونها من التاريخ ، فالعاشق قد يكون اسمه عبد الله ، أو قد يكون اسمه قيسا ، أو قد يكون اسمه عروة . وقد تكون هناك بذور تاريخية لهذه الحادثة ، ولكن القوم نقلوها الى مجالس التفكه والمسامرة ، فجعلوا يزيدون عليها بعض التفاصيل ، وبعض الأشياء المشوقة .

ومن الطريف أن نقارن بين القصة التي قصها طريح بن اسماعيل الثقفي في عصر الوليد بن يزيد (١٩) ، وبين القصة التي قصها محمد ابن صالح بن عبد الله بن الحسن في عصر المتوكل (٢٠) ، وبينهما أكثر من مائة سنة ، فإن القصة الثانية تزيد على الاولى في أن صاحب الاشر ، بعد أن لبس ثياب جيداء ودخل الزوج ، وجعل يضربه ، ظنا منه أنها جيداء ، بعد ذلك تذكر القصة الثانية أن أمها دخلت وجعلت تعاتب الرجل ظنا منها أنه ابنتها ، ثم قالت له : سارسل اليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك ، فجاءت أختها ونامت بجانبه . فلمسا استمكن منها شد على فمها ، وأخبرها بالحقيقة ، وأنها أولى من ستر عليها ، ثم بات معها يتحدثان ، ويضحكان ، حتى برق النور . القصة الاولى تكتفى بتلك اللام التي لقيها طريح ، والقصة الثانية تكافئ صاحب الاشر بتلك النهاية .

وقد ذكرت هذه القصة في مصارع العشاق ، في سلسلة من الرواة ، منها « ٠٠٠ حدثنا محمد بن صالح الحسني ، حدثني أبي ، عن نمير ابن قحيف الهلالي ، قال ٠٠٠ » (٢١) والروايتان ( في المصارع ، وفي المحاسن ) تتشابهان الى حد كبير ، حتى في استعمال بعض التشبيهات ، وليس بينهما فروق الا في الفاظ قليلة . وقد ذكرت هذه القصة في تزيين الاسواق ، الا أنها ختمت بتلك النهاية الحزينة ، والتي

( ١٩ و ٢٠ ) أنظر المحاسن والاضداد ١٩٧ - ٢٠٠ .  
( ٢١ ) مصارع العشاق ص ٢٥٢ .

لم تذكر في المصارع « قال ابن طاهر ، : فلم يقم بعدها بشير إلا دون شهر وجاءه شخص ... فقال له ، وهو يتناول عذبا : انتفكه وجيداء قد قضت الساعة ، فلم يسمع منه إلا شهقة ، وحرك ، فإذا هو ميت ، فبلغ الخبر الجارية فهتكت سترها ، وجزت شعرها ، وألقت نفسها في بئر هناك ، فماتت ( ٢٢ ) . ويغض النظر عن هذه النهاية ، فإننا نجد الفرق بين ابن السراج والانطاكى ، ينحصر في أن الأول يتوسع في حين أن الثاني يميل إلى الاختصار . فمثلا يصف الأول بشرا ، فيقول : « وكان سيذا ، حسن الوجه ، شديد القلب ، سخي النفس » . والثاني لا يصف بشيرا بشيء . وبينما يقول الأول : « وضرب بيده إلى مقدم البيت ، فاستخرج منه سوطا مفتولا ، كمتن الثعبان المطوق » أو « فاهتزت الجارية كما تهتز القصبة من الروح » أو « وكشفت عن ظهرى ، فإذا فيه ما غرس الله من ضربة إلى جنب أخرى ، كل ضربة تخرج الدم وحدها » - بينما يقول الأول هذا ، مستعملا التشبيهات والصور ، إذا بالثاني يقول - « ثم عمد إلى سوط مفتول » أو « فارتعدت ساعة » أو « فلما رأى تأثير السوط في بدنى وخروج الدم ، قال » .

وفي ظنى أن الحادثة واحدة ، وأنها تدور حول رجل أحب امرأة وأحبته ، وقامت بينهما عقبات ، والتمسا من صديق له أن يلبس ثياب المرأة ، وأن ينام مكانها ، حتى يخدع زوجها بذلك ، ففعل . ثم إن الزوج أتى ، وحدث ما أغضبه فتناول السوط ، وجعل يضرب الرجل وهو يحسبه امرأته - في ظنى أن الحادثة واحدة وأنها مادة طيبة للسمر ، ظل الناس يتفكهون بها في مجالسهم ، أيام الوليد ، وأيام المتوكل وغيرهما . وأخذ الراوية يروونها بتغييرات طفيفة وزيادات هينة .

ولعلنا نلاحظ من هذه الأمثلة أن التطور في القصة الواحدة ، وبين القصص المتشابهة ، ضئيل . لا يعدو الاختلاف في الأسماء ،

\* وزيادات في بعض الروايات ، بل ان التقارب يصل في بعض الروايات الى حد استعارة التشبيهات والالفاظ .

وربما كان السبب في هذا ان الرواة لم يكونوا ينظرون الى هذه القصص ، نظرة أدبية خالصة ، ولم يكن في وعيهم انشاء قصة تتخذ من التاريخ مادة ، ولها بعد ذلك الحرية في التأثير والوصف والاضافة . فكانت هذه القصص مختلطة عندهم بمفاهيم التاريخ ، وكانوا ينقلونها عن الاعراب وغيرهم ، وكانهم ينقلون روايات تاريخية ، ينبغي ان يحرصوا فيها على الالفاظ والترتيب ، بل وعلى ذكر الاسانيد .

ومن الطريف ان « سيرة الاميرة ذات الهمة » التي لا يشك احد في بعدها عن التاريخ ، اذ ان روايتها قد اباحوا لانفسهم الحرية في التصرف ، والمبالغة وخلق الاحداث ، واختراع الشخصيات ، والجمع بين شخصيات متباعدة زمنا ، ومخالفة التاريخ في الوقائع المعروفة - من الطريف ان جامع هذه السيرة على الرغم من كل ما ذكرت ، كانت مفاهيم التاريخ مختلطة عنده بمفاهيم الحكايات الشعبية ، اذ وصف هذه السيرة على غلافها بانها « اكبر تاريخ للعرب ، وخلقاء بنى أمية ، والخلفاء العباسيين . جمعت هذه السيرة اخبار العرب وحروبهم وملك مصر والشام وبغداد وغيرها من بلاد الاسلام وبلاد الافرنج ، وفيها من الفتوحات ما يبهر العقول » .

لم ينظر الرواة - اذن - الى هذه القصص « نظرة أدبية خالصة ، وكذلك النقاد لم ينظروا اليها نظرة جدية ، تقوم منها ، وتنير لها السبيل ، وتركوها للعامة ، يحكونها في مجالسهم ، ويتصرفون فيها تصرفا فطريا . بل كانوا ينظرون اليها - كما رأينا في التمهيد - نظرة فيها سخرية واستهزاء .

\*\*\*



وناحية يتتبع فيها الباحث تطور هذه القصص ، مع تطور ظروف العصر ، وتأثرها بالتيارات الثقافية والاجتماعية .

( ١ ) فحكايات الحب الحسية التي رويت حول ابن بس ربيعة وغيرها من شخصيات العصر الأموي ، كانت حكايات من النوع الظريف ، التي لم تبتعد كثيرا عن لون من ألوان الحياة العربية المترفة .

ولكن بعد هذا العصر ، وبعد أن أتى الاتصال العميق بالأمم المجاورة بثمرته ، وبعد أن عرف العرب فلسفة ماني وإباحية مزدك . بعد هذا كثرت القصص الماجنة والحكايات المنحرفة والحب الشاذ ، فمثلا يشار بن برد يروي عنه أبو الفرج قصة ماجنة ، مع امرأة هويها فكادت له بالانفاق مع زوجها . وقد أنشد في هذه القصة أبياتا مكشوفة ( ٢٣ ) .

وذاعت قصص عشق الغلمان ، وقد عقد داود الانطاكي بابا لهذه القصص سماه « في ذكر عشاق الغلمان » وحول من عدل الى الذكور عن النسوان ، وتفصيل ما جرى عليهم من تصاريف الزمان » ، وأورد كثيرا من هذه الحكايات ، التي كن بعضها يبلغ فيها العاشق درجة الجنون والتوله ، كاخبار مدرك مع صاحبه عمرو ، اذ توله في حبه حتى اختلط عقله ( ٢٤ ) .

( ب ) وقصص العشق العذرية ، كانت تدور في العصر الأموي ، حول عشق فتى لفتاة عشقا لا يشرك معها فيه غيرها .

ولكن بعد ذلك نجد قصصا صوفية ، يتجاوز فيها العاشق حب البشر الى حب الذات العليا ، حبا يملك عليه كل جوارحه ، ويصيبه بالتوله والجنون ، ويجعله ينشد الأشعار الغرامية في محبوبه ، الذي لا يشرك في حبه غيره .

( ٢٣ ) الاغانى ٣ : ٦٣ سامي .

( ٢٤ ) تزيين الاسواق ٢ : ٧ .

ولكن - وقد نفيت قبلا أن يكون للحب الأفلاطوني أثر على الحب العذري في العصر الأموي - ولكن هنا وفي تلك المرحلة من فصوص العشق ، يمكننا أن نتحدث عن تأثيرات أفلاطونية وأفلوطينية ، فقد عرف الكثير من آراء أفلاطون ، وأتيح لها الوقت الكافي لأن تفعل فعلها ، وعلى هذا لا أبعد لو قلت : أن الفكرة الجديدة التي قال بها بعض الصوفية من أن العشق العذري وسيلة إلى العشق الإلهي ، إذ قد يتوصل العاشق من عشقه إلى معرفة مبدعهم ، لأن المقدمات الصريحة ، تنتج الاغراض الصحيحة ، وبالحرى من أمعن النظر في مخلوق زائل ، ترقى عند معرفة غايته إلى دائم فاعل ، ( ٢٥ ) - هذه الفكرة متأثرة بما طرأ على المجتمع الإسلامي من آراء فلسفية .

والرابط بين العشق العذري وبين أمور دينية ، كان موجودا في بعض الأذهان منذ العصر الأموي . فقد عشق رجل من ولد سعيد بن العاص جارية مغنية ، فابتاعها له عمر بن عبد العزيز ، وأهداها إليه ، فمكثت عنده سنة ثم ماتت ، فبقى مولاهما شهرا أو أقل ، ثم مات كمدا عليها . فقال أبو السائب المخزومي : حمزة سيد الشهداء ، وهذا سيد العشاق . فامضوا بنا حتى ننحدر على قبره سبعين نحرة ، كما كبر النبي ( ﷺ ) على قبره حمزة سبعين تكبيرة . وبلغ أبا حازم الخبر ، فقال : أما من محب في الله يبلغ هذا ولي ، ( ٢٦ ) . وقيس كانت تشغله ليلى عن تبين القبلة ، فكان إذا صلى يمم نحوها ، كما يولى العابد وجهه نحو القبلة :

أرأى إذا صليت يمتت نحوها

بوجهي ، وإن كان المصلى وراثيا ( ٢٧ )

وقد اهتم الصوفية بالعشاق العذريين ، فكان الشبلي يضرب لجلسائه

( ٢٥ ) تزيين الاسواق ١ : ٥٣ .

( ٢٦ ) مصارع العشاق ص ٥٦ .

( ٢٧ ) تزيين الاسواق ١ : ٨٢ والاعاني ٢ : ٥ ساسي .

المثل بالمجنون ، فيقول : « يا قوم هذا مجنون بنى عامر ، كان اذا سئل عن ليلى ، يقول : انا ليلى . فكان يغيب عن ليلى ، فكيف من يدعى محبته ، وهو صحيح مميز » ( ٢٨ ) . وكان ابن الفارض سلطان العاشقين يشبه حالته بحالة العذريين ، فيقول :

بها قيس لبنى هام بل كل عاشق

كجنون ليلى أو كثير عزة

فكل صبا منهم الى وصف لبسها

بصورة حسن لاح فى حسن صورة ( ٢٩ )

وقد عقد صاحب التزيين بابا « فيمن استشهد من المحبين ، شوقا الى حضرة رب العلين » ، وقص فيه حكايات صوفية عن ابن المبارك ، وعن أبى الفيض ذى النون المصرى ، وعن أبى الفتح بن سحنون ، وعن عتبة المعروف بالغلام .... الخ ( ٣٠ ) .

وعلى أى حال ، فقصص العشق حين عبرت عن المجون والشذوذ ، أو شفت عن الوجد الصوفى ، لم تتطور من الناحية الادبية عن قصص الظرفاء والعذريين وكل الفرق الذى حدث ، انه بدل الظرف حل المجون ، وبديل العشق العذرى ، حل العشق الصوفى . اما من الناحية الادبية ، فما زالت القصة فقيرة ، فيها بذور فنية جساءت بمحض المصادفة ، وما زالت خبرا قصيرا سريعا ، متناثرا فى بطون الكتب ، تختلط فيه الحقيقة بالوهم ، والتاريخ بالخيال ، اختلاطا لا يبين عن شخصية التاريخ المحققة ، ولا عن شخصية الخيال المنطلقة .

\*\*\*

انما اتيح لهذه القصص أن تنمو ، وأن تتوسع فى الاحداث ، وفى

( ٢٨ ) اللوح ص ٤٣٧ .

( ٢٩ ) المدد الفائض ص ٤٧ .

( ٣٠ ) تزيين الاسواق ١ : ٢١ - ٢٨ .

اثارة التشويق ، وفي جذب السامع ، وفي اضافة الجو القصصى ، حين استطاعت أن تتخلص من تلك النظرة التاريخية ، وأن تنتقل الى مجال الادب ، انتقالا واضحا ، واعيا ، وذلك حين : -

( ١ ) انتقلت هذه القصص الى السير الشعبية ، اذ يبدو انه قد أصبح واضحا لدى رواة هذه السير ، انهم يذكرون حكايات يراد منها التأثير والجذب ، ولا يراد منها التاريخ وحقائقه ، على الرغم من أن بعضهم قد حاول أن يصدر سيرته بما يوهم انها تاريخ للعرب ووقائعهم .

فمثلا قصة السارق الذي ادعى السرقة امام خالده بن عبد الله القسري ، لينقذ معشوقته من الفضيحة ، قد رأينا فيها أن الفروق بين الكتب العربية التي ذكرتها ضئيلة ، لا تعدو الاختلاف على اشياء شكلية ، وكان الراوى يخشى أن يتوسع وأن يفصل ، لأنه يخشى أن يخالف التاريخ ، وأن يثير الخاصة . ولكن حين انتقلت هذه القصة الى « الف ليلة وليلة » ، أضفى عليها جو قصصى ، وتوسع الراوى فى شرح أحداثها ، والتركيز على النقاط المؤثرة ، ومحاولة جذب القارئ ، فتبدأ القصة بوصف العاشق بأوصاف تجعل السامع يتعاطف معه ، فهو « ذو جمال باهر ، وأدب ظاهر ، وعقل وافر ، وهو حسن الصورة ، وعليه سكينه ووقار » . وبالفعل تعاطف خالد مع هذا الشاب ، حين قدم اليه على انه لص ، ودار بينهما حوار ، حاول فيه أن يسبر أمر هذا الفتى ، ثم دنا منه وسأله عن قصته ، فقال : « ان القوم صادقون فيما قالوه ، والأمر على ما ذكروه ، فقال له خالد : ما حملك على ذلك وانت فى هيئة جميلة وصورة حسنة ؟ قال : حملنى على ذلك الطمع فى الدنيا وقضاء الله سبحانه وتعالى . فقال له خالد : ثكلتك أمك ، أما كان لك فى جمال وجهك ، وكمال عقلك ، وحسن أدبك ، زاجر يزعرك عن السرقة . قال : دع عنك هذا أيها الأمير ، ، وامض الى ما أمر الله تعالى به ، فذلك بما كسبت يداى ، وما الله بظلام للعبيد . فسكت خالد ساعة يفكر فى أمر الفتى ، ثم أدناه منه وقال له : ان اعترافك على

رؤس الاشهاد قد رابنى ، وأنا ما أظنك سارقا ، ولعل لك قصة غير  
السرقه ، فأخبرنى بها . قال : أيها الأمير ، لا يقع فى نفسك شيء سوى  
ما اعترفت به عندك ، وليس لى قصة أشرحها ، الا انى دخلت دار هؤلاء  
فسرقت ما أمكننى .. « فامر خالد بحبسه ، ووكل به قوما يراقبونه ،  
ويستمعون أخباره ، وإذا به يفضح نفسه ، اذ أنه حين استقر فى الحبس  
وافاض العبرات ، وإنشد هذه الابيات .

هددنى خالد بقطع يـدى	اذ لم أبح عنده بقصتها
فقلت هيهات أن أبوح بما	تضمن القلب من محبتها
قطع يدى بالذى اعترفت به	أهـون للقلب من فضيحتها

وينقل لموكلون به ذلك الى خالد ، فيأمر باحضار ذلك الفتى  
الغريب الأطوار ، وياكل معه ويتحدث ، محاولا أن يصل الى حل  
اللغز ، ولكنه لا يستطيع ، فلا يجد مناصا من أن يعرض على الفتى بأن  
ينكر السرقه أمام القاضى ، وأن يذكر من الشبهات ما يدرا عنه حد  
القطع . وفى اليوم المحدد لعقوبة الفتى ، حضرت الناس . وهنا تصف  
القصة موقفا مؤثرا ، « اذ لم يبق أحد فى البصرة من رجل ولا امرأة ،  
الا وقد حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى . وركب خالد ، ومعه وجوه أهل  
لبصرة وغيرهم ، ثم استدعى القضاة وأمر باحضار الفتى ، فاقبل يحجل  
نى قيوده ، ولم يره أحد من الناس الا بكى عليه ، وارتفعت أصوات  
النساء بالنحيب ، فأمر القاضى بتسكين النساء » . ويتعاطف القاضى  
أيضا مع هذا الفتى الجميل ، فيسأله أسئلة يحاول فيها أن يبرىء الفتى  
« قال له ان هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهـم ،  
لعلك سرقت دون النصاب ؟ قال : بل سرقت نصابا كاملا . قال : لعلك  
شريك القوم فى شيء منه ؟ قال : بل هو جميعه لهم لاحق لى فيه »  
وهنا يثور خالد على هذا الفتى العجيب ، فيقوم اليه ، ويضربه على  
وجهه بالسوط ، متمثلا بهذا البيت :

يريد المرء أن يعطى مناءً ويأبى الله إلا ما يريد  
ثم دعا بالجزار ليقطع يده ، وهنا تحدث مفاجأة ، أذهلت  
القوم ، إذ « بدرت جارية من وسط النساء ، عليها أطمار وسخة ،  
فصرخت ورمت بنفسها عليه ، ثم أسفرت عن وجه كأنه القمر . وارتفع  
للناس ضجة عظيمة ، وكاد أن يقع بسبب ذلك فتنة طائفة الشرر . ثم  
نادت الجارية بأعلى صوتها : ناشدتك الله أيها الأمير ، لاتعجل بالقطع  
حتى تعرف حقيقة الأمر » وتكشف لخالد الغموض الذى أحاط بموقف  
الفتى . وتنتهى القصة بزواجهما على يد خالد « قال الراوى : فما  
رأيت يوم أعجب من ذلك اليوم ، أو له بكاء وشور ، وآخره فرح  
وسرور » ( ٣١ ) .

هذه القصة - كما هى فى ألف ليلة وليلة - تتوسع فى نثر الأمور  
القصصية الجذابة ، فهى تجعل القارئ يتعاطف مع العاشق الجميل  
الغريب الأطوار ، وهى تحاول أن تثير الشوق . وانظر الى صنييعها  
حين تقف بالقارئ عند نقطة مؤثرة ، لتفاجئه بأن الصباح قد فاجأ  
القاص ، فمثلا حين يستدعى خالد الفتى من السجن ، ويعرض عليه أن  
ينكر السرقة ، حتى ينقذ نفسه من القطع ، وهنا يتشوق القارئ الى  
معرفة موقف هذا الشاب الغامض ، ولكن الصباح يأتى ، فلا يكشف  
القاص عن موقف الفتى ، وإنما يفعل ذلك فى الليلة الثامنة والتسعين  
بعد المائتين .

وأظن أن جامع التحفة البهية قد نقل هذه القصة من ألف ليلة  
وليلة ، إذ أن قصته تشبه القصة كما وردت فى ألف ليلة وليلة . وفى  
بدايتها ، وفى تعليق الراوى على نهاية القصة ، وفى الشعر الذى ورد  
على لسان الفتى وهو فى حبسه ، بل حتى فى استعمال الأسلوب

---

( ٣١ ) أنظر القصة كاملة فى ( ألف ليلة وليلة ) ٢ : ٣٨٨ ( المطبعة  
الكاثوليكية ببيروت ) .

المسجوع والكلمات ، وإى مقارنة تثبت هذا . موقف واحد فقط يتوسع فيه جامع التحفة ، ويذكر فيه أبياتاً لم تذكر فى ألف ليلة وليلة ، وهو موقف الفتاة حين كشفت عن الغموض « فلما حضر الجلال ، وأخرج السكين .. بدرت جارية من صف النساء ، وعليها أزار وسخ ، وصرخت صرخة عظيمة ، ورمت نفسها عليه ، وأسفرت عن وجهه كأنه القمر إذا أبدر ، والصبح إذا أسفر ، بطرف كحيل ، وخد أصيل ، وثغر أفلج ، وحاجب أبلج ، وقد كالقضب ، وردف كالكتيب .. ثم نادى بأعلى صوتها ، ناشدتك الله أيها الأمير ، لا تعجل عليه حتى تقرأ هذه القصة ، ثم دفعت إليه رقعة ، ففحصها خالد ، فاذا فيها مكتوب :

أخالد هذا مستهام متيسم

رمته لحاظى عن قسى الحمالق (٣٢)

ومثال آخر .. فإنا نقرأ قصة مجنون ليلى فى كثير من الكتب العربية القديمة ، فاذا بها قصة مهلهلة ، مكتظة بالأسانيد والحشو ، ليس فيها ترتيب ، وإنما هى مجموعة من الأخبار ، ضم بعضها الى بعض كيفما اتفق ، وقد وصف الدكتور طه حسين هذه القصة بأنها سخيطة متكلفة (٣٣) .

ولكن وقع فى يدى كتاب مكون من خمس وخمسين صفحة ، يحمل عنوان « قصة قيس بن الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى » . ولم يعلم جامع هذا الكتاب ، ولكنى أظن أنه ألف فى فترة متأخرة حين شاع تأليف السير الشعبية ، فإن أسلوبه يشبه أسلوب تلك السير فى استعمال السجع ، وفى مبالغاته ، وفى ترديد كلمة « قال الراوى » ، وفى الاتيان بأشعار سخيطة ، قريبة الى الأشعار العامية السهلة .

مثل :

(٣٢) التحفة البهية ص ٢٠١ .

(٣٣) حديث الاربعاء ١ : ٢٢٤ .

يامنيتي أنت مقصودى ومطلوبى      وأنت رغما عن الأعداء محبوبى  
 أن تحتجب عن عيون الصبيا أملئ      ماأنت عن قلبى المضى بمحبوب  
 قصة قيس - كما جمعها مجهول - تعتبر أكثر نموا ، وأقرب إلى  
 الناحية القصصية : فهي قد مالت إلى الإفاضة والاطالة ، وشرح المواقف  
 المؤثرة ، ومحاولة غرس العطف فى قلب القارئ على قيس المسكين ،  
 وبدت ذات ترتيب من بدء ونهاية ، وتخلصت من النظرة التاريخية ،  
 ومن العنعنات والاسانيد ، بل كانت تذكر من الأسماء ما لم ترد فى كتب  
 التاريخ ، والتي كانت موافقة لاسلوب السجع ، أو تحرف من الأسماء  
 التاريخية ما يناسب هذا الاسلوب ، مثل :

« وكان قد عشق جارية فى هذه الأيام ، يقال لها ليلى بنت مهدى.  
 ابن عصام » (٣٤) ويذكر الأغاني نسب ليلى هذه فيقول : « بنت مهدى.  
 ابن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة » (٣٥)  
 ومثل « ثم انه سار به الى طبيب فى تلك الاطراف ، يقال له علقمة.  
 ابن عساف » (٣٦) . ومثل « وكان من جملتهم رجل من بنى ثقيف ،  
 يقال له سعد بن النيف » (٣٧) . والأغاني لا يذكر اسم هذا الزوج وانما  
 يكتفى بأنه « رجل من بنى ثقيف موثر » (٣٨) . ومثل « وما زال  
 يجول من مكان الى مكان ، حتى وصل الى جبل يقل له ثوبان . .  
 فأنشد وقال :

وأجهشت للثوبان حين رأيته

ونادى بأعلى صوته ودعائى

(٣٤) ص ٢٩ .

(٣٥) الأغاني ١ : ١٦٤ مسمى .

(٣٦) قصة قيس بن الملوح ص ٢٦ .

(٣٧) المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣٨) الأغاني ١ : ١٧٧ مسمى .



فقلت له أين الذين عهدتهم  
حوالك في خصب وطيب زمان

فقال مضوا واستودعوني بلادهم  
ومن ذا الذي يبقى على الحدثان (٣٩)

والأغاني يذكر أن هذا الجبل اسمه توباد ، ويورد شعرا مثل هذا  
الشعر ، وإن كان يختلف عنه في بعض الألفاظ (٤٠) . والقصة نفسها  
تذكر هذا الاسم في موضع آخر ، حين تجد أنه يسعفا في أسلوب  
السجع « فسار وهو منزعج الفؤاد ، حتى أقبل على جبل توباد » (٤١)  
قصة قيس هذه جمعت أخبار المجنون وصاحبته المتناثرة في الكتب  
العربية ، جمعا لا كصنيع الجامع لأخبار عروة بن حزام ، الذي يكاد  
لا يختلف عن الأغاني في شيء ، في تلك الصفحات إحدى عشرة التي  
جمع فيها أخبار عروة . إذ أن الجامع لقصة قيس قد ظهرت شخصيته في  
ترتيب هذه الأخبار ، وفي إضفاء الأسلوب القصصي عليها ، وملء  
الفجوات بين هذه الأخبار ، وفي التوسع في المواقف المؤثرة ، وفي  
شرح مشاعر ليلي التي تحدثت عنها الأخبار العربية حديثا مقتضيا ،  
وفي التحدث عن مشاعر الزوج التي تجاهلتها الأخبار العربية ، وفي  
نثر الخطابات المؤثرة المتبادلة بين قيس وليلى ، وفي الاهتمام  
بالوصف ، ولا تنسى أن تصف الطبيعة ، وترسم الجو ، كان تقول : « إلى  
أن انتصف ظلام الليل ، وعلا نجم سهيل » . وهي في وصف الطبيعة :  
لا تبالغ فتخرج عن وصف طبيعة صحراء نجد المقفرة ، إلا في حالات  
نادرة ، مثل حديث رجل من بني أسد ، التقى بالمجنون . فيقول :  
« إلى أن توصلت إلى روضة كثيرة الأزهار والرياحين والأنوار ،

(٣٩) قصة قيس ص ٧٧

(٤٠) الأغاني ١ : ١٧٩ ساسي

(٤١) قصة قيس ص ٨

فحدثتني نفسى أن أقيم فيها ، وأنزله فى بعض نواحيها . فنزلت فى  
إرجاء تلك الأزهار الموقنة ، والأنوار الديدعة المورقة ، وأنخت ناقتى  
الى قنوان شجرة صغيرة ، وجلست برهة يسيرة ، فبينما أنا أتأمل  
فى تلك الروضة المرج الطويلة العريضة ، اذ سقط رجل من الجراد ،  
كثيرة الأعداد ، على ذلك الواد ، فافتششت جنباتها وأرضها ، واخذت  
طولها وعرضها ، فتعجبت من تلك المناظر البهية ، والروائح  
الزكية ... الخ » . فان هذا الوصف اقرب الى الطائف ، أو غوطة  
دمشق ، منه الى صحراء نجد .

تبدأ هذه القصة فتذكر أنه كان فى زمن عبد الملك بن مروان ،  
رجل يقال له الملوح بن حزام ، كان له ثلاثة أولاد ذكور ، كانهم  
البدور . منهم قيس « وكان أصغر أخوته عمرا ، وأعلامهم همة وقدر ،  
وأجودهم نظما ونثرا » وصاحبه ليلى « سمراء اللون ، قصيرة القامة ،  
قصيدة الكلام ، وعلى خدها الأيمن شامة » . ولما شاع حبهما ،  
« استعظم أبوها ذلك الأمر ، وطارت من عينيه شرار الجمر ، ثم منعها  
الزيارة فى الليل والنهار ، وحجبتها عنه خوف الفضيحة والعار » .  
وزاد الجوى بقلب قيس ، فجعل أهله ينصحونه ويعذلونه ، ولما لم  
يجدوا نفعا ، تقدموا الى أبيها خاطبين ليلى فابى ، فزاد الأمر بقيس .  
وتوله ، وانطلق الى الغلوات . وهنا تصف القصة موقفه من صائد الظباء ،  
وصفا مفصلا تبغى به التأثير على المستمع . ويحج به أبوه الى الكعبة  
ملتصبا بالعون من الله ، ولكن دون جدوى ، « اذ ترك أباه والحرم ، وقصد  
البرارى والأكم » . وجعل أبوه يطمئنه ، ويقول له « فعد معى الى  
بنى عامر ، وكن منشرح الصدر مطمئن خاطر ، وأنا أتلافى هذه القصة  
وأزورك بليلى ، وأزيل عنك هذه القصة » وما زال حتى رجع معه  
الى الأوطان ، أما ما كان من أمر ليلى ، فقد تحولت الى شيء يتمتع  
الجميع ، ويجدون فى طلبه والفوز به ، وكأنها المجد الذى يسعى  
الطامحون الى التعلق به ، أو مقام التجريد الذى يجد الصوفية فى

مطلبه . ولنتترك الراوى يشرح تأثير ليلى على قلوب الخلق « وأما ما كان من ليلى فانه قد شاع ذكرها بالافاق . وتحدث فيها الناس فى العجاز ، وبلاد نجد والعراق ، وتناشدوا ما قال قيس فيها من الأشعار الرقاق ، التى لم يسبقه اليها أحد من فحول الشعراء والعشاق ، فكان كل واحد يود أن ينظرها ، ويتمنى أن يراها ويبصرها ، فترادفت عليها الخطاب ، وكثرت عليها الطلاب ، ودخلوا على أبيها فى ذلك من كل باب » . حتى وافق أبوها على أن يزوجه رجلًا من ثقيف . وهنـب تصفـه القصة موقف ليلى إزاء هذا الزوج ، وصفا واضحا مفصلا ، فتقول « فلما سمعت ليلى من أبيها ذلك الخطاب ، أظهرت الكدر والاكتئاب ، وعظم عليها ذلك الأمر ، واكتوى قلبها بلهيب الجمر ، لأن هذا الخبر كان لا يوافق غرضها ، ولا يشفى علتها ومريضها ، لأنها كانت تحب قيسا وتميل اليه ، ولا يستقر خاطرها الا عليه ، نظرا لما بينهما من المحبة القديمة ، والصداقة القويمة ، فابت ولم تقبل ، وفضلت حلول الأجل . وقالت : هذا أمر لا يتم أبدا ، ولومت قهرا وكمدا ، فلما سمع أبوها كلامها وعلم ما فى ضميرها ومرامها ، تهددها بالكلام فشتها ، ودار به الغيظ فلطمها ، فاجتمع عليها الجيران والأهل والخلان ، فلما رأت ما حل بها من الهوان ، وأن موج البلايا أحاط بها من كل مكان ، أجابت سؤاله بالكره والاجبار ، لا بالطوع والاختيار ، ثم ندمت على زواجها غاية الندم ، وجرى قلم القضاء بما حكم ، وصارت محبتها له تكلفا ، ورؤيتها آياه تعسفا . فكان لا يقر لها قرار ، ولا يطيب لها عيش لا بالليل ولا بالنهار » . نتحدث هذه القصة هنا عن مشاعر ليلى ولا تمر مروراً عابراً كما تفعل الكتب العربية . وتذكر بعد ذلك صدمة قيس من هذا الزواج وانه خرج يطوف فى الغلوات وقلل الجبال ، واعتراء الشحوب والهزال . وتذكر أن رجلا من بنى بارق ، يقال له نوفل ابن مساحق ، التقى به وهو على هذا الحال ، وتحدث عن هذا الموقف حديثا مؤثرا ، ولكنها تخالف الكتب العربية ، التى تجعل اللقاء الأول

بين قيس ونوفل قبل زواجها ، وانه حاول أن يشفع له عند أبيها فسنم  
ينجح . ولكن هذه القصة حين جعلت اللقاء الاول بينهما قد تم بعد  
زواجها ، كانت منطقية في أنها لم تجعل نوفلا يتشفع لقيس في امرأة  
متزوجة ، واكتفت بأن نوفلا حين رثى لحاله ، قال له : « أيها الحبيب ،  
والشاعر اللبيب . انه يعز علي ، ويعظم لدى ، اني أراك في هذا  
الحال ، تقاسي العذاب والنكال . فهل لك أن تسير معي الى الديار ،  
وانا أزوجك ببعض البنات الأكار ، من هي أحلى وأحسن من ابنة  
عمك ليلى » . فتركة قيس وانصرف . وتتحدث القصة عن الرسائل  
التي كان يتبادلها قيس وليلى . وهنا تطلعنا على نماذج رقيقة من  
الخطابات الغرامية المؤثرة التي يختلط فيها الشعر بالنثر . وكنت أود  
أن يتسع المقام لنقل نموذج لهذه الخطابات الغرامية . واكنى ساكتفى  
بمطلع خطابات فقط « من قيس بن الملوح الهائم الوامق ، والحبيب  
الصادق ، الى سيدة الملاح ، ركوب الصباح ، در الصدف ، ويقاوت  
الشرف ، من قد اتصفت بالمحاسن البهية ، والصفات العلية ، والآداب  
السنية ، ليلى العامرية اننى بينما كنت متشوقا الى استماع أخبارك ،  
واكتشاف آثارك ... اذ ورد لى عزيز رسالتك الموسومة بسماء المحبة  
الفائقة ، المسفرة عن ازدياد المحبة الصادقة ... الخ . » وتظل القصة  
تتحدث عن عذاب ليلى وهيام قيس ، وتسند الى ليلى بعض مواقف  
استدتها الكتب العربية الى لبنى ، كموقفها من الغربان الخمسة التي  
اشتريتها وجعلت تضربها وتقطعها وهي تنشد الشعر ، ولما لامها زوجها  
على هذا الامر انفجرت فيه . وتتحدث القصة عن مشاعر الزوج وأستياحه  
من موقف ليلى ، وشكواه الى أبيها الذى يحاول أن يطمئنه ، ويتحدث  
عن موقف لقيس يقربه من اهل الكشف ، الذين يتنبئون بالغيب . وذلك ان  
الزوج حين حذر قيسا من عبد الملك قال له قيس « والله انه منذ ثلاثة أيام ،  
بينما كنت أطوف فى بعض الأكام ، زارنى طائران ، وقال لى : وحق  
الملك الديان ، لقد قضى الرحمن بالقضاء أيام عبد الملك بن مروان . ثم  
أطرق مليا وأقام مدة لا يتكلم شيئا . ثم أمعن فيه النظر ، وأجال قداج  
الفكر ، وقد أقسم بجامع الشتات ومخرج النبات ، أنها سوف تصلكم

الأخبار قد مات « . وبالفعل تتحقق نبوءة قيس إذ يموت عبد الملك بعد ثلاثة أيام . ثم تنتهى هذه القصة ، فتجعل ليلى تموت قبل قيس ، وهى موفقة فى هذا الناحية الأدبية ، إذ أن موت ليلى قبله قد زاد من فظاعة المأساة وأتاح للقصة خاتمة مؤثرة ، إذ أن قيسا أظهر الاكتئاب ، واستعظم المصاب ، واتخذته الرعدة والاضطراب ... وكان يأوى الى قبر ليلى ، يدور بالنهار ، وهو يرثيها بالأشعار ، حتى انتهى به الأمر « الى واد كثير الحجارة » وإذا به ميت تعلق بين حجرين ، وقد كان خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين ... واحتمله القوم وغسلوه وكفنوه ، والى جانب ليلى دفنوه ، وكان ذلك فى سنة الثمانين من الهجرة الحميرية ، الموافقة سبعمائة مسيحية » .

وانتقل الى قصة شعبية أخرى ، وهى سيرة الأميرة ذات الهممة ، فاختار منها بعض قصص العشق التى جعلت مسرحها العصر الأموى ، فأرى كيف يكون النماء فى هذه القصص ، والثراء ، والتشابك ، والانتقال من حكاية الى حكاية ، والمفاجآت وحسن الوصف ومحاولة التأثير على القارئ وجذبه .. الخ .

فحين نقرأ فى الكتب العربية ، نجد أنها تذكر أخبار العشاق متناثرة متقطعة ، كل موقف - فى الأعم الأغلب - منفصل عن الموقف الآخر . ليس هناك رباط واحد يربطها ، وإنما هى أخبار متقطعة تختلط فيها الحقيقة بالخيال . فمثلا خبر يتحدث عن تبشير كاهن لهند بأنها سوف تلد مولودا عظيم الشأن ، وخبر يتحدث عن امرأة فى ثياب رجل . وخبر يتحدث عن محاولة اغتصاب خلفاء أمويين لنساء غيرهم ، كما فعل يزيد مع امرأة عمر ، أو مع عمارة جارية عبد الله بن جعفر ، وخبر يتحدث عن إطلاق قيس للظباء ، وخبر أو أخبار يتحدث عن ابن أبى ربيعة وفاطمة بنت عبد الملك ، حين حجت ، وخبر يتحدث عن غرام قيس بلبنى الكعبية من النظرة الأولى ، حين التقى بها فى يوم حار ، فاستقأها فسقته ، ومهدت له وطاء وجاء أبوها فأكرمه ،

وخبر يتحدث عن عروة وموقف عمه منه ، وخبر يتحدث عن دور  
الوشاة ... الخ .

ولكن سيرة الاميرة ذات الهمه لا تذكر هذه الاخبار متناثرة ،  
بل تضمها في سيرة شعبية طويلة ، وتملا الفجوات بينها ، وتجعل  
الاخبار يخدم بعضها بعضا .

تزوج الحارث من رباب بعد أن هام بها حيا ، ثم « رأت في  
منامها ولذيذ أحلامها ، كأنها في صحرة من الصحرات ، وحولها فسيح  
البراري المقفرات ... وخرج من تحتها نار متاججة ، ولها السوان  
متوهجة » ثم أحرقت جميع ما على الأرض ، وبعد ذلك استدارت  
واستنارت ، قتلجا إلى كاهن فيبشرها بمولود له شأن ، وأن والدته  
سوف تموت حين يخرج إلى الدنيا (٤٢) . ثم يموت الحارث ، فتلحق  
بقومها ، وتستصحب معها في الطريق غلاما لها ، فيراودها عن نفسها ،  
فتأبى ويدور بينهما صراع ، كان من شدته أن « دقق عليها الدم ، ولحقها  
الطلق ، باذن خالق الخلق (٤٣) » . فيثور العبد ويضربها بالحسام ،  
ويتركها مجندلة في البرية ، ويجوارها ذلك الرضيع . وتسوق الاقدار  
اميرا يقال له دارما ، فيدفن المرأة ويحمل الطفل ويشتهر بالشجاعة  
واللباس . وفي يوم تقوم معركة بين الأمير دارم ، وامرأة يقال لها  
الشمطاء ، فتأسره وتأسر أولاده فيهب جنديهم لنجدتهم وينقذهم من  
الامر ، ويشيع ذلك الخبر ، ويشتهر أمر جنديهم ، فيأكل الحسد قلب  
دارم ، ويعزم على اخراج جنديهم من بينهم . فخرج جنديهم ، حتى  
لاح له خباء مضروب ، فقصده ، فخرج له منه « انسان تام الطول ،  
كانه فحل من الفحول فتأمله جنديهم ، قرأه على ذلك الطول شابا أجرد  
أمرد عليه درع من الزرد ، وهو مضاعف العدد (٤٤) » . ويدور بينهما  
قتال ، ينتصر فيه جنديهم ، ويكشف الفارس عن نفسه فاذا هو فتاة

• ٢٤ / ١ (٤٣)

• ٤ / ١ (٤٢)

• ٩ / ١ (٤٤)

تسمى « قتالة الشجعان » كانت قد حلفت ألا تتزوج إلا صديداً يقهرها .  
 فرضيت بجندبة زوجا . ثم تصادف أن استخلص جندبة رجل الخليفة  
 من يدى غاصبين ، وحمل ذلك الرجل إلى الخليفة بالشام ومعه زوجته  
 « قتالة الشجعان » ، التي ما أن يراها هشام بن عبد الملك ، حتى يقع  
 فى حبها ، ويرسل إليها دأيتة ، فتغضب قتالة ، ويغضب زوجها ،  
 ويخرجان من دمشق « ألا أنه ( ياسادة ) ما سار عن دمشق قدر ميل .  
 أو فرسخ طويل ، ولم يشعروا إلا وقد خرج عليهم كمين ، وهو قسدر  
 خمسمائة فارس وهشام فى مقدمتهم » ( ٤٥ ) . فيغتصبون قتالة ويسيرونها  
 نحو الشام ، ولا يستطيع جندبه أن يطاول يد الخلافة ، فيتسلى  
 بزوجة جديدة ، أما قتاله فأنها امتنعت عن هشام حتى اغتاز منها فقتلها .  
 ويعلو شأن جندبة ، ثم يلحقه الموت ، ويترك زوجه حاملا ، التي تلجأ إلى  
 عطاى أخى جندبة وكانت زوج عطاى حاملا أيضا ، فتضع بنتا سموها  
 ليلى « بوجه مثل القمر الوضاح ، لو بدت فى الليل المظلم لصار  
 صباح ، كأنها تتبسم عن ثغر منظوم ، قد سرقت قدها من قضيب ،  
 واستوهبت ردفها من كتيب » ، وفى اليوم نفسه تضع زوجة جندبه ولدا  
 سموه الصحصاح « بوجه صبيح ، وقد مليح ، ولسان فصيح ، تبيان  
 النجابة من عينيه ، والشجاعة من كفيه » ( ٤٦ ) . وهنا تبدأ السيرة ،  
 فتتحدث عن قصة غرامية ، بطلاها « ليلى والصحصاح » ، وتتشابه هذه  
 القصة فى أولها مع قصص العذريين ، فقد أحب الصحصاح ابنة عمه  
 وأحبته ، وأنشده فيها الأشعار ، فلما شاعت وقف عمه عطاى فى وجهه ،  
 ومنعه من رؤية ليلى ، فزاد به الوجد ، وازداد النصح واللوم له . ثم  
 اعتزل وأمه المضارب ، وكانت ليلى تبكى ، وترسل إلى الصحصاح تبثه  
 الغرام ، وتنشد فيه الأشعار . ولكن الصحصاح لا يكتفى بهذا الموقف  
 السلبي ، فيخطو خطوة ايجابية فقد « خلا فى بعض الأيام بنفسه  
 وقال : مالى أرى جسدى يذوب ذوب الرصاص ، فلم لا أسرع إلى

الخلاص ، من ضيق الانفاس ، فالى متى اكون فى موضع لا أقدر فيه على ليلى ، ولا أنظر اليها . وأنا ما فى عيب الا فقرى ، ومالى لا أخرج عن أرض بنى كلاب وأتغرب ، فان مقامى عندهم سواء ، فان غيابى وحضورى سواء ، ومالى لا أهج فى البرارى والقفار » ( ٤٧ ) . ويعزم الصحصاح على الاغارة على القبائل ، ويكتب له النجاح ، ويسوق الغنائم ، ويشتهر أمره ، فياكل الحسد قلب عمه ، ويخشى من منافسة الصحصاح على رئاسة القبيلة ، فيدبر المؤامرات الكثيرة لقتله ، والصحصاح - تعاونه ليلى - يتغلب على كل المؤامرات ، ولكنه لا يحقد على عمه من أجل ليلى ، بل إنقذ فى إحدى المرات العم من مخالفب أسد ، فتنزل المحبة بدل العداوة فى قلب العم ، ويوافق على زواج الصحصاح من ليلى ، ولكن الصحصاح يعزم على أن يسوق مهر ليلى الكثير من الاموال ، ويخرج فى طلب ذلك المهر ، ومعه عبده نجاح يقطعان الروابى والبطاح ، حتى وصلا الى واد كثير الغدران ، واذا « بصياح عال ، وسيوف مجذبة بأيدي رجال ، وقد قبضوا على شاب ظاهر الجمال ، وقد ظهرت جارية مليحة القوام ، وفى يدها سيف أبتى وهى تقول : وحق الركن والحجر ، لئن لم تطلقوا ابن عمى لأحطن هذا السيف فى بطنى ، أخرجته من ظهري ( ٣٨ ) » . ويستطلع الصحصاح الخبر واذا بقصة حب طريفة ، بطلاها ( لبني وغانم ) وملخصها أن غانما قد نشأ مع لبني ابنة عمه ، فأحبها وأحبتة ، وكان يعرف انها له لأن أباه قبل أن يموت أوصى عمه بذلك وترك له المهر ، ولكن العم كان شريرا فاستولى على المال ، وأخذ يعد غانما الوعود ، حتى طلب غانم من عمه أن يبر بوعده ، فقال له ( يا ولدى حتى تغنم لنا غنيمة ) . وهو يريد أن يخرج غانما الى الغارات حتى يلقي حتفه ، فيزوج ابنته لبعض الملوك . وخرج غانما وأخذ يغير على القبائل ، حتى غنم الكثير .

• ٨٨ / ١ ( ٤٧ )

• ٢٨ / ٢ ( ٤٨ )



وعاد محملاً بالمال . ولكنه فوجئ بأن عمه قد زوج في غيبه لبني الملك  
حضر موت ، بعد أن أخبر ابنته بأن غانما قد قتل في إحدى الغارات .  
ويرتاع غانم لهذه الأخبار ، ولكنه يعزم على أمر ، فيتنكر في ثياب  
راع ، ويدخل على لبني خيمتها ، فتلب إليه فيعتقان ، وتعرض عليه  
فكرة الهرب ، فيحملها خلفه على فرسه ، ولكن القوم ينهضون ،  
فيحيطون بغانم ، ويدور قتال ، يتكاثرون فيه على غانم ، ويأسرونه .  
ولما عرف الصحاح سر هذا الصياح ، هب لنجدة عاشق مثله ، فتقدم  
سيفه ، وقتل الزوج والعم وزوج غانما من لبني . ثم سار في طريقه ،  
حتى يسمع صياح نسوة ، وإذا بقطاع طرق يهجمون على حجاج بيت الله  
الحرام ، فيسارع الصحاح لانتقاذهم ، لأنه كما يقول عن نفسه « ولقد  
سلوت حب ليلي بأصطناع المعروف وأغاة الملهوف (٤٩) » . ويتبين  
له أنه أنقذ مروة بنت عبد الملك ، التي تخلفت عن الركب مخافة من  
شاعر يقال له عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، كان يتعرض للنساء  
ويصف محاسنهن . وتعزم عليه أن يسير معها إلى دمشق لينال جازئته ،  
ويتلقاه أهل دمشق بالحفاوة والترحيب . ومن الطريف أنه في غمرة  
هذه الأحداث لم تغب ليلي عن باله ، فحين يفتح له الخليفة باب  
التمنى ، فإنه ، يقول : « ما أتمنى إلا مهر ليلي » ، وحين يطلب منه مسلمة  
ابن عبد الملك أن يطلب من أبيه ملك العرب ، يرد على مسلمة :  
« يا مولاي ، ومهر ليلي أين يكون » . ويجعله الخليفة ملكاً على  
العرب ، ويجعل مشيره ابنه مسلمة . ثم يحمله الاشتياق على العودة  
إلى ليلي وفي طريقه يمر بمضارب الحرث بن الحجاج ، وإذا به يفاجئ  
بأن ليلي في هذه المضرب تنتظر أن تزف إلى الحرث ، وأن غانما  
صديقه أسير عند الحرث . ويتكشف له الأمر بأن الحرث في غيابه  
قد أغار على قومه ، فلما رأى ليلي هويها ، فخطبها من أبيها فوافق .

ثم سار بها الى محلته ، وفى طريقه مر على ابن خالته غانم ، ولما عرف غانم امر ليلى صاحبة صديقه الصحصاح ، الذى اصطنع معه ومع ليلى معروفا ، طلب من الحريث أن يرد ليلى الى قومها ، فأجابها : « يابن الخالة ، ان أردت أن تطاع فأطلب ما يستطاع ، ليلى الكلابية مثل ليلى العامرية ، وقد أصبحت أنا فى هواها ، مثل قيس بن الملوح من بلواها ، والوصل اليها أصلح ، ومن وصل اليها فقد أفلح ، فأعرض عن هذا النصح ولا تنصح » (٥٠) . ثم يسوء الأمر بينهما ، ويدور قتال ، ينتصر فيه الحريث ، ويأسر غانما ويأخذ ليلى . ولما علم الصحصاح بهذه الاخبار قتل الحريث وانتصر عليه ، واستخرج غانما ، واستخلص ليلاه . ومازال شأن الصحصاح يعلو ويستدعيه الخليفة لحرب الروم ، فيسير الى بلاد الروم ومعه مسلمة . وفى بلاد الروم أتى الى « جانب النهر » فرأى عشر جوار نهد أبكار كأنهن الاقمار .. وكانت بينهما جارية مليحة القوام ، حلوة الابتسام .. الخ وهى تقول للجوارى : تقدموا حتى أتصارع أنا وأياكم قبل أن يغيب اليدر (٥١) » . وكانت تنتصر على كل جارية ، ثم دخل معها الصحصاح فى صراع انتصرت فيه عليه ، وتبين له أن هذه الفتاة الرومية ، هى الملكة الوف ، وتأخذها الى قاعتها ، وتسمعه من الغناء ، ما يدهشه ، ويعود فيخبر مسلمة بذلك . ويتوله بها مسلمة على السماع ، وتنتهى الحكاية بإسلام الملكة الوف وزواجها من مسلمة . وتمضى السيرة فتتحدث عن قصة حب أخرى للصحصاح . فقد خرج ذات يوم للصيد ، فتبع ظبية جميلة ، ولحقها بقرب حلة من حلل العرب ، ثم خرجت من تلك الحلة فتاة « لم ير الصحصاح مثلها ، ولا فى بنات الروم شكلها (٥٢) » فتوله بها ، ودعته الجارية للنزول فأجاب ، وبسطت له بساطا ، ثم حضر أبوها فبالغ

٥٠ / ٣ / ١١

٥١ / ٣ / ٧٩

٥٢ / ٥ / ٤٦

فى اكرام الصحصاح . ولما طلبها منه اجاب ، فتزوجها ومكث عندهم مدة ، ركبت ليلى فيها الهواجس لغياب زوجها ، ثم عاد الى ليلى فاخبرها انه كان فى ضيافة بعض العرب ، وظل على علاقته مع امانة يرسل اليها الهدايا ، ويذهب اليها دون ان تعلم ليلى . حتى وضعت له امانة ولدا اسمته ( مظلوما ) فى اليوم الذى وضعت فيه ليلى ولدا اسمته ( ظالما ) ولكن رجلا يقال له عامر كان يهوى امانة ويطمح فى ان يتزوجها ، فخبىب الصحصاح آماله . فانتهاز هذا الرجل فرصة وجود الصحصاح عند امانة ، فجاء الى ليلى فاخبرها بكل شئ . وفى اثناء عودة الصحصاح من عند امانة علم بما فعله عامر ، فحجل ان يرجع الى ليلى ، وعزم ان يقصد الى الامير غانم . وهنا تبدأ السيرة ، فتحدثنا عن قصة التقائه فى طريقه بجنية ، تمثلت له فى صورة « جارية حسنة القوام ، مليحة الابتسام » ( ٥٣ ) . فيحبها الصحصاح ويلاقى فى ذلك الصعاب الجمّة ، فقد كنت الجنية تحب بنتا مثلها من الانس ، فى الوقت الذى يحب فيه هذه الجنية ابن عمها ولا تحبه لانه يأتى بنسات الانس ، واستطاع الصحصاح التغلب على هذه العقبات والتزوج من الجنية ست الغزلان .

وهكذا تسلمنا السيرة من قصة الى قصة ، وكل قصه تتشابك مع الأخرى ، وتتشبك مع حكايات عن المكر والشجاعة والجن ، والاحتياال وهذه السيرة تخلصت من النظرة التاريخية ، وأصبح هدفها جذب القارئ والتأثير عليه ، بل لا تجد حرجا فى مخالفة التاريخ فى أشياء معروفة ومشهورة ، فمثلا تجعل عمر بن أبى ربيعة شاعرا من أهل الشام ( ٥٤ ) ، وتحدث عن علاقة طيبة بين عبد الله بن الزبير أمير مكة ، وبين الخليفة عبد الملك بن مروان ( ٥٥ ) مع أن التاريخ يفيض فى الحروب التى دارت

• ٥٦ / ٥ ( ٥٣ )

• ٤٨ / ٢ ( ٥٤ )

• ٤٩ / ٢ ( ٥٥ )

بينهما ، والتي انتهت بقتل ابن الزبير ، ومن الدلائل على أن السيرة تبغى التأثير على القارىء ، وتؤثر الأسلوب القصصى ، هي استغلالها لعنصر الطبيعة فى تهئية الجو ، ومحاولتها خلق مجال يؤثر على القارىء ، وينمى السيرة ، فهي تكثر فى مواقفها من وصف الطبيعة التى تحيط بالعاشقين ، وصفا ينمى الموقف ويبرزه ، وإن كانت فى بعض هذه الأوصاف تخرج عن المعهود فى البيئة العربية ، والطبيعة الصحراوية (٥٦) .

وتتشابه بعض هذه القصص فى بدايتها ببعض القصص العذرية . ف قصة « ليلى والصحاح » تشبه فى مبدأ أمرها قصة « ليلى وقيس » ، ولكن الصحاح يتطور بشخصيته ، فيجعل من حبه دافعا لأن يتغلب على واقعه ، ويعلو فقره ، فيسير فى البلاد طالبا الغنى والثراء ، يدفعه الحب إلى اتیان المعجزات وإلى الوصول إلى المجد . بل يصل به الأمر إلى حب الفضائل ، أو كما يقول « ولقد سلوت حب ليلى بأصطناع المعروف واغائة الملهوف » ، كما يحدث للصوفى الذى ينتقل من حبه لمعشوقة إلى حب الذات الالهية .

وقصة « امامة والصحاح » تشبه قصة « لبنى وقيس » فى بدايتها ، فقد خرج الصحاح يوما إلى الصحراء ، ثم يصل إلى خيام بنى الوحيد ، ويقع نظره على امامة ، فيوله بها ، وتتوله به وتكرمه ، ويأتى أبوها فيكرمه أيضا . ولكن القصة هنا لا تقف عند هذا الحد . فهناك عاشق آخر لامامة ، يحقد على الصحاح فيوشى به إلى ليلى . وهنا تتشابك هذه القصة مع قصة « ليلى والصحاح » ويستمر هذا التشابك ، فقد أنجبت امامة « المظلوم » وأنجبت ليلى « الظالم » ، وتتحدث السيرة بعد ذلك عن الصراع بين المظلوم والظالم الذى يحاول فيه مظلوم تثبيت حقه ..

(٥٦) ٥ / ٥٦ .

وتتشابه قصة « لبنى وغانم » مع قصة « عفراء وعروة » في بدايتها . فغانم مثل عروة ينشأ مع ابنة عمه ، فيحبها وتحبه ، ويعدده عمه بالزواج ثم يخرج - تحقيقاً لرغبة عمه - للغنيمة وكسب الاموال ، وينتهرز العم فرصة غيابه ، فيزوج ابنته من رجل ثرى ، ولكن القصة هنا تتطور أكثر ، فقد حضر غانم قبل أن تزف لبنى ، وتكر حتى اختطفها وحملها على فرسه . ولكن القوم يتنبهون له فيقبضون عليه . وهنا يتشابك أمر غانم مع أمر الصحصاح ، اذ يهب الصحصاح لمعاونة هذا العاشق . ولا يكون موقف التعاون بين العاشقين موقفاً فقيراً صغيراً ، كهذا الموقف الذى نقرؤه عن التعاون بين القيسين ، او التعاون بين جميل وكثير . بل أن الموقف فى هذه السيرة يزيدنا ثراء . فقد زرع المحبة بين هذين العاشقين ، وجعل منهما قوة واحدة متأثرة فحين يرى غانم ليلى عند الحريث يحاول خلاصها ، ويدخل من أجل ذلك فى قتال ينتهى بأسره ، ولا ينقذه من الأسر الا صديقه الصحصاح .

ومن الطريف أن نقارن بين الحكايات الحسية التى كان بطلها ابن أبى ربيعة ، وبين الحكاية مثلاً التى ذكرتها السيرة عن الصحصاح والأمير مسلمة من جانب ، والملكه الوفاء من جانب آخر . فإن القصة الأخيرة تتوسع فى شرح الجو ، وفى حسن الوصف ، وفى التشابك مع الأحداث ، وفى تأثير هذه العلاقة على الحروب التى دارت بين العرب والروم ، وفى التعبير عن نظرة العرب الى بنات الروم .

وان اردنا مثلاً صغيراً نقارن فيه بين صنيع هذه الكتب وصنيع السير الشعبية ، فإننى اذكر موقفاً متشابهاً ، وهو موقف العاشق من الظباء . فإن الكتب تكتفى بذكر أن قيساً كان يتعاطف مع الظباء لأنها شبيهة بليلى ، وأنه كان يطلقها من شراكها . ولكن هذه السيرة تتوسع فى هذا ، وتصفه وصفاً يثير الشوق والانتباه وتتحدث عن مواقف جذابة للصحصاح مع الغزلان ، فى قصته مع ليلى ، ومع أمامة ، ومع مسكت الغزلان .

( ب ) وتتطور هذه القصص أكثر وأكثر حين تنتقل إلى الأدب الفارسي والأدب التركي ، إذ ألف الأدباء بين شتيت الأخبار التي روتها الكتب العربية ، وأضافوا إليها أشياء من مبتكراتهم ، ولحموا بين كل ذلك ، من أجل غاية واحدة تسيطر على جميع أحداث القصة ، وأخرجوا قصصا ذات طابع فلسفي وفكري ، وجعلوا الحب العذري مرحلة مجازية إلى حب آخر أبقي وأرقى وهو الحب الإلهي .

وقد عقد الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه « الحياة العطفية » بابا ، عرض فيه أشهر النصوص الأدبية لكتاب الفرس وشعرائهم ، الذين ألفوا في موضوع ليلى والمجنون ، مثل نظامي ، وسعدى الشيرازي ، وأمير خسرو ، وعبد الرحمن الجامي ، وهاتفى .

ومن التجنى أن تطبق قواعد القصة الحديثة التي عرفت في القرن التاسع عشر على هؤلاء الكتاب الذين عاشوا قبل أن تعرف هذه القواعد . ولهذا لن نشور على ما نراه مخالفا لهذه القواعد ، كتدخل الكاتب في أثناء القصة لبحث أفكاره وفلسفته ( ٥٧ ) ، أو التعقيب على فصول القصة بالشرح وبيان المغزى ( ٥٨ ) ، أو حشر قصص أخرى في سياق الكلام ( ٥٩ ) .

ولكن لا شك في أن هذه القصص أرقى بكثير من أخبار العذريين العرب ، فهي وحدة منسقة مؤلفة لغرض ، تحمل أفكارا فلسفية ذات تيارات عالمية ، وشخصياتها يصعدون عن موقف فلسفي ، ولهم نظرتهم نحو العالم ، والملوك والحكام . ولا غرو فقد كان مؤلفوها من خاصة الناس . ومن تتقوا ثقافة رفيعة ، وتقلدوا مناصب راقية ، ومن وهبوا مشاعر خاصة .

( ٥٧ ) ليلى والمجنون للجامي ، مثلا ص ٢٠٦ .

( ٥٨ ) المرجع السابق مثلا ص : ٢٧ .

( ٥٩ ) المرجع السابق مثلا ص : ١٥٥ .

وقصة عيد الرحمن الجامي ( ١٤١٤ - ١٤٩٢ م ) تعتبر خير القصص الفارسية في هذا الموضوع وأكثرها ابتكارا (٦٠) ، واعمقها وأروعها تصويرا (٦١) .

والقارئ لهذه القصة يجد تشابها الى حد كبير بينها ، وبين ما روى من أخبار العشاق العذريين في الأدب العربي .

فهيكल هذه القصة يتفق مع ما هو معروف عند العرب ، من أن شابا حساسا من قبيلة بني هاجر ببلاد نجد ، يسمى « قيسا » عشق فتاة تسمى « ليلى » عشقا عذريا ، ملك عليه كل حواسه ، وعشقه ، ثم خطبها من أبيها ، فرفض ، فاشتد به الوجد ، ثم زوجت ليلى من شاب من بني ثقيف ، فصعب الأمر ، وانتهت القصة بوفاتهما بسبب الحرمان والعشق .

وقد تأثر المؤلف بالأخبار التي روتها الكتب العربية ، وبخاصة الأغاني ، عن قيس وعن غيره من العذريين . وكان جميلا من الدكتور محمد غنيمي هلال أنه ذكر في هوامش هذه القصة التي ترجمها من الفارسية ، الأخبار العربية التي تأثر بها المؤلف .

ولكن الجامي اختار من هذه الأخبار ما يخدم فنه القصصى ، وسبكها بطريقة مثوقة ، ووسع في مواقفها توسيعا جذابا ، وأقرأ موقفه مع صائد الطيلاء والكلام الذى وجهه لهذا الصائد حتى « ذاب شمع قلبه رقة » فرمى بسيفه من يده « . وكان الجامي موفقا فى خلق الجو القصصى ، ووصف الطبيعة والبيئة وصفا رائعا يخرج به أحيانا عن البيئة والطبيعة العربية (٩٢) . وكان يورد فى قصته الخطابات المتبادلة بين قيس وليلى . ومن الطريف أن نقارن بين هذه

(٦٠) الحياة العاطفية ص : ١٦٢ .

(٦١) المرجع السابق ص : ٢٣٨ .

(٦٢) مثلا ص ٢٥ .

الخطابات (٦٣) ، وبين الرسائل التي تضمنتها قصة قيس كما جمعها مجهول (٦٤) ، فإن الخطابات عند الجامي مفصلة عميقة ، تخدم الغاية ، على حين تكنفى - عند الأديب الشعبي - بالشكوى من العاطفة ، وهذا الفرق بين الرسائل ، كذلك الفرق الذي لابد أن يكون بين رجل كالجامي مثقف يهدف الى غاية من قصته ، وبين رجل من عامة الناس يهدف الى التأثير على السامعين . واقرأ - بصفة خاصة - الفصل الذى يتحدث عن وفاة ليلى (٦٥) ، فانه مؤثر رائع ، وقد ربط المؤلف بين مظاهر الطبيعة وبين نفسية ليلى وهى على فراش الموت « أقبل الخريف بريجه ، فخلعت الأشجار على مهب ريجه ثيابها ، وتعت من خلعتها الخضر ، وفارقها رونق الربيع وبهائها أوراقه ... كما أن العالم من الخريف مقبوض الأركان ، كانت ليلى - تلك الوردة ربيبة المروج - طريحة على الأشواك ، أشواك الموت » . وجعلت ليلى تلقى بوصيتها الى أمها بطريقة مؤثرة تثير الدموع « وحين تشد الروح رحلها ، متمدين من أجلى بساط الماتم ، فانظرى مقامى غريقة فى دم الأشجان ، واغسلى جسمى من مسيل الأجفان ، واجعلى كفنى من خلعة طهرى وعفتى ، وليكن فى لون ياقوت دموى ، ولغى به وجهى الأبيض ، ففى ذلك دليل أنى شهيدة الحب .... ولست فى حاجة الى عصاية على الرأس ، فأتريكنى مرفوعة الرأس بالعشق .... وانزلىنى من ضريحه الطاهر ، وليكن مكانى فى حفرة دون قدميه . واجعلى رأسى تحت كف قدمه ، لتكون لرأسى تاجسا . وسلقيم على الوفاء له حتى الممثر . ويومذاك أنفض طيبة الخاطر من شراب قدميه » .

وفوق هذا ، فإن الجامي لم يقف عند حد الحب العذرى كما هو

(٦٣) انظر مثلا ص ١٦٠ .

(٦٤) انظر مثلا ص ٣٧ .

(٦٥) ليلى والمجنون للجامي ص ٢١٥ .



وارد في الأخبار العربية ، بل جعل هذا الحب مجازا لحب أسمى هو الحب الإلهي « حذار أن تظن المجنون قد فتن بحسن المجاز ... فعلى الرغم من أنه صبا أولا لنيل جرعة من جام ليلى ، فقد رمى أخيرا بالجام من يده فتحطم ، . فتفتحت في بستان سره من أزهار المجاز أزهار الحقيقة » (٦٦) . وقد كانت هذه الغاية هي التي تسير أحداث القصة عند الجامي ، وجعلها تلون بعض شخصيات القصة ، فقيس معد لهذا منذ البداية ، لأنه كما يقول الجامي « من عجنت طينته بالعشق ، وخطت على لوح قلبه كلمته ، فلن تمحى تلك الكلمة من لوحه ، ولو مضى عمره في غسله منها ومحوه » (٦٧) . وزوج ليلى ، وقسع في حبها ، وعاش من أجلها ، ولم يجعله هذا الحب يحقق على قيس أو ليلى « ولم يجد بدا من العيش على حرقه الوجد واكتفى من تلك الحديقة بعطر زهرها ... وقضى نحبه يوم أن قضى في ذلك الأسي متخذا منه زاد الاخراه (٦٨) » .

\*\*\*

( ج ) وفي لأدب العربي الحديث ، دخلت هذه القصص الى مجال الفن الخالص ، ورواية مجنون ليلى لأحمد شوقي تعتبر رائدة في هذا المجال .

وقد اعتمد في روايته تلك على الأخبار التي روتها الكتب العربية ، وبخاصة الأغاني . ولكنه ألف بين تلك الأخبار بطريقة فنية ، وأضاف إليها أشياء من عنده كمنظر الجن في الفصل الرابع ، وخالف التاريخ في بعض الأحيان وذلك كإسناده دور الوساطة الفعلية الى ابن عوف ، والتاريخ يذكر أن ابن عوف هم بهذه الوساطة ولما يفعل ، إنما السذى فعل ذلك هو نوفل بن مباحق . ثم خرج لنا بعد ذلك بمسرحية فنية ،

(٦٦) ليلى والمجنون ص ٢٠٦ .

(٦٧) المرجع السابق ص ٢٤ .

(٦٨) المرجع السابق ص : ١٤٥ .

فيها أدوار متعددة كدور الصديق الذي يقوم به زياد ، ودور الغريم الذي يقوم به منازل ، ودور المناق الذي يقوم به نصيب ، وفيها صراع ، وفيها تحليل ، وفيها قوة ، وغير ذلك من أمور تتطور بهذه القصة من مرحلة السذاجة والشعبية ، الى مرحلة العمق والفن .

وقد وقف بمسرحيته عند حد الحب العذري كما روت الكتب العربية ، ولم يصنع صنيع شعراء الفرس والترك ، فيتحدث عن حب آخر وهو الحب الصوفي ، وان كان شوقى يصف ليلى وصفا فيه مثالية ، ويظهرها بصورة فيها هيبة وجلال . استمع الى حديث ورد الزوج الى قيس بشرح له مأساته مع ليلى :

فشعرك يا قيس أصل البلاء . لقيت به ويليلى الضلالة  
كساها جمالا فعلقته . فلما التقينا كساها جلالة  
إذا جثتها لأنال الحقوق . نهتنى قداستها ن أنالا (٦٩)

وخلاصة الفصل أن تطور قصص العشق كن ضئيلا ، لأن الراوى لم يكن على وعى بالعمل الأدبى الذى لا ينبغي أن يختلط بالتاريخ اختلاطا يضيع شخصية كل منهما . وانما ظهر التطور بوضوح فى السير الشعبية ، ثم بصورة أوضح عند شعراء الفرس والترك ، ثم بصورة أكثر وضوحا فى الادب العربى الحديث .

(٦٩) مثلا ص ١٠١ .



## الفصل الرابع

### نماذج من قصص العشاق

#### عروة بن حزام

هو من الذين ادركوا الدولة الاسلامية والدولة الاموية (١) ، وله احداث مع بعض شخصيات في العصر الاموي ، كابن ابي عتيق (٢) ، وابن عباس (٣) . وقصته من خير القصص التي يفتخر بها الادب العربي ، لما فيها من طرافه وخيال وثناء ، وقد ضرب الاقدمون بحبه الامثال (٤) . وقد اوقف حياته وفنه على العشاق « فهو احد المتييمين الذي قتلهم الهوى ولا يعرف له شعر الا في عفراء » (٥) . ولهذا شاع بين الناس « كتحصية قصصية » تتناقض الاخبار التي دارت حوله ، اذا نظرنا اليها من العدة التاريخية ، ولكنها تلتقى في أن عروة قد انتقل من مجال التاريخ وأصبح ملك الشعب ، يحكون حوله القصص ويؤلفون الاخبار . فمن ذاهب الى أن عروة خرج يطلب مالا فجاء في غيابه شامي ففزوج عفراء ، ثم رجع عروة الى الحى فلما عرف القصة تبعها الى الشام (٦) ، وقيل أنه التقى بالرفقة التي هي فيها فلمسا رأها وقف دهشا (٧) . ومن ذاهب الى أن الذي تزوجها لم يكن شاميا وانما هو ابن عم له يقال له اثلة ، وإن عروة أقبل مع الصير وقه حمل

(١) تزيين الاسواق ١ / ٨٤ .

(٢) الاغانى ٢٠ / ١٠٦ ( ساسى ) .

(٣) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٨ .

(٤) الموشى ٢ / ٦٩ .

(٥) ( ٦٥ ر ) الاغانى ٢٠ / ١٥٢ « ساسى » .

(٦) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٥ .

أثالة عفراء على جمل أحمر فعرقها من بعد وبهت (٨) ، ومن ذاهبه  
الى أن عفراء كانت يتيمة في حجر عمها وعمه ، فعرضها عليه فأبأها ،  
الى أن رآها في يوم عيد وقد زينت فوقعت في قلبه ، فخطبها الى عمه  
فأبى لما كان من كراهته لها لما عرضها عليه ، وزوجها رجلا غيره  
خرج بها الى الشام (٩) ، حتى طريفة وفاته نوع فيها خيال الرواة .  
فمن قائل الى أنه بعد أن ترك عفراء وزوجها ورجع الى أهله ، نكس  
في الطريق ثم مات قبل أن يصل الى حيه بثلاث ليال ، وبلغ عفراء  
خبر وفاته فجزعت جزعا شديدا ثم ماتت بعد أيام قلائل (١٠) . وهناك  
روايات تشير الى أنه لم يمض في سفرته هذه ، ولكنه مات في أرض  
عذرة كما يروي ابن أبي عتيق (١١) ، أو في عرقه كما يروي  
أبو صالح (١٢) ، وقيل أنه توفي في خلافة عثمان (١٣) ، وقيل لما  
بلغ معاوية بن أبي سفيان خير موتها قال « لو علمت بحال هذين  
الحرين الكريمين لجمعت بينهما » (١٤) .

تضاربت الأخبار حول عروة ، وبعض هذه الأخبار بلغ حد الاحالة  
التي تناقض المعقول ، كخبر ابن أبي عتيق « والله أنى لاسير في أرض  
عذرة ، اذا بامرأة تحمل غلاما جزلا ليس يحمل مثله ، فعجبت لذلك  
حتى اقبلت به ، فاذا له لحية فدعوته ، فجاءت ، فقلت لها : ويحك  
ما هذا ! فقالت : هل سمعت بعروة بن حزام ؟ فقلت : نعم . قالت .

- 
- (٨) تزيين الاسواق ١ / ٨٤ .  
(٩) الاغانى ٢٠ / ١٥٧ « ساسى » .  
(١٠) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٥ .  
(١١) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٦ .  
(١١) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٦ .  
(١٢) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٨ .  
(١٣) تزيين الاسواق ١ / ٨٧ .  
(١٤) الاغانى ٣٠ / ١٥٧ « ساسى » .

هذا والله عروة . فقلت له : أنت عروة فكلمني وعيناه تذرفان وتدوران  
في رأسه « (١٥) أو كخبر أبي صالح قال : « كنت مع ابن عباس بعرفة  
فاتاه فتیان يحملون بينهم فتى ، لم يبق منه الا خياله ، فقالوا له :  
يا بن عم رسول الله ، ادع له : فقال وما به ؟ فقال الفتى :

بنامن جوى الاحزان فى الصدر لوعة تكاد لها نفس الشقيق تسدوب  
ولكنما أبقى حشاشة مقلول على ما به عود هناك صليب

ثم خفت فى أيديهم فاذا هو قد مات (١٦) » . وقد سخر عبد الملك  
ابن عبد العزيز بن المجاشون من هذه الاخبار المتطرفة فقال لأبى السائب  
بعد أن روى حديث ابن أبى عتيق « ومن أى شيء مات ؟ أظنه شرق .  
فقال : سخنت عيناك . بأى شيء شرق : قلت : بريقه ، وأنا أريد العبث  
بأبى السائب » (١٧) .

وبعض هذه الاخبار يخالف به الراوى الصدق الواقعى ، فهو مناقض  
لخلق الرجل العربى ، ومخالف للتقاليد العربية المتوارثة ، كهذا الخبر  
الذى ذكره عمر بن شبة من أن عروة نزل ضيفا على زوج عفراء وهسو  
لا يعرفه ، فجاءه ابن عم له فقال : أتركتم هذا الكلب الذى قد نزل بكم  
هكذا فى داركم يعضكم ! وعنى بذلك عروه . فقال : أو انه لعروة ، بل  
أنت والله الكلب وهو الكريم القريب ، ثم دعاه وعاتبه على كتمان  
نفسه إياه ، قال له بالرحب والسعة ، نشدتك الله إن رمت هذا المكان  
أيدا ، وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان . بل حين عرف أنه سيزمغ  
على الرحيل أبى له ذلك وقال : « يا أخى ، اتق الله فى نفسك ، فقد

(١٥) المرجع السابق ٢ / ١٥٦ .

(١٦) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٨ .

(١٧) الاغانى ٢٠ / ١٥٦ « ساسى » .

عرفت خبرك وأنتك أن رحلت تلتفت ، والله لا أمتنعك من الاجتماع معها أبدا ، ولئن شئت لأفارقنّها ، ولا نزلن عنها لك » (١٨) .

من الصعب إذن النظر الى هذه الاخبار المتشابهة المتضاربة نظرة تاريخية ، واسهل تفسير أن شخصية عروة انتقلت الى مجال القص ، فآخذ الناس يحوكون حولها الاخبار ، فمنهم من تعثر وخرج باخباره عن مجال المعقول ، أو عن مجال الصدق الواقعي ، ومنهم من وفسق وكان في روايته اقرب الى طبيعة الفن كرواية أسباط بن عيسى التي ساعتمد عليها في تحليل هذه القصة ، لأنها من أغنى الروايات وإثراها ، أو كما قال عنها أبو الفرج « وروايته كأنها أتم الروايات ، وأشدّها اتساقا » (١٩) .

مات حزام وترك ابنه عروة صغيرا ، فضمه اليه عمه عقال . وكان لعقال هذا ابنة صغيرة تسمى « عفراء » ، نشأت مع عروة في منزل واحد ، يلعبان سويا ويكونان معا ، حتى ألفت كل واحد منهما صاحبه ألفا شديدا ، وكان الشيخ يبارك هذه الألفة فكان يقول لابن أخيه : أبشر ، فإن عفراء أمتك ، إن شاء الله .

ثم كبرا فلحققت عفراء بالنساء ، ولحق عروة بالرجال . وأراد عروة أن يطمئن على حبه وأن يستوثق له ، فأتى عمه له تسمى هذا وقال لها :

— « يا عمّة ، انى لمكلمك ، وانى منك لمستحي ، ولكن لم أفعل هذا حتى ضقت ذرعا بما أنا فيه » .

فذهبت عمته الى أخيها فقالت له :

— يا أخى ، قد أتيتك في حاجة ، أحب أن تحسن فيها الرد ، فإن الله ياجررك لصلّة رحمتك بى ما أسألك » .

(١٨) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٤ .

(١٩) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٢ .

فقال لها :

— « قولى ، فلن تسالى الا رددتك بها » .

قالت :

— « تزوج عروة ابن أخيك ، بابنتك عفراء » .

فقال :

— « ما عنه مذهب ، ولا هو دون رجل يرغب عنه ، ولا بنا عفيه

رغبة ، ولكنه ليس بذى مال ، وليست عليه عجلة » .

قطابت نفس عروة وسكن بعض السكون .

ولكن عقبة جديدة بدأت تلوح له ، فقد كانت أمها سيئة الراى فيه

« تريد لا بنتها ذا مال ووفر ، وكانت عرضه ذلك كمالا وجمالا » .

وأخذت العقبة تقترب منه ، فقد بلغه أن رجلا من قومه ذا يسار

ومال كثير يخطبها .

فأخذت هواجسه تتحرك ، وهو يعلم رآى أمها فيه ، وطموحها الى

حياة الغنى واليسر ، ونهض يدافع عن حبه ويستوثق له ، فأتى عمه

فقال :

— « يا عم ، قد عرفت حقى وقرابتى وانى ولكى وريبت فى حرك »

وقد بلغنى أن رجلا خطب عفراء ، فإن أسعفته بطيبته فقتلتنى

وسفكت دمنى ، فأنشدتك الله ورحمى وحقى » .

فرق له وقال :

— « يا بنى ، أنت معدم ، وحالنا قريبة من حالك ، ولست مخرجها

الى سواك ، وأمها قد أبت أن تزوجها الا بمهر غال ، فاضطرب »

واسترزق الله تعالى » . ثم جاء الى أمها فالطفها وداراها ، « فأبت

أن تجيبه الا بما تحتكمه من المهر ويعد أن يسوق شطره اليها » .

المال . لقد عرف كما يقول الراوى « أنه لا ينفعه قرابة ولا غيرها

الا المال الذى يطلبونه » .



شد عروة على راحلته ، وودع الحب ، بعد أن تعاهد مع حبيبته .  
ومع أهلها ، بأنهم لا يحدثون حدثا حتى يعود ، ثم انصرف في طلب  
المال الى ابن عم له موسر بالرى .

ولكن رجلا من أنساب بنى أمية يحط في حى عفراء ، وجعل  
ينحر الابل ويهب المال ، ويطعم الناس .

رأى هذا الرجل عفراء ، فأعجبته ، وخطبها الى أبيها ، ولكن  
الشيخ يتذكر عهد ابن أخيه الذى ربه فى حجره ، فاعتذر للشامى ،  
— « قد سميتها الى ابن أخ لى يعدلها عندي ، وما اليها لغيره سبيل » .

فقال :

— « انى أرغبك فى المهر » :

قال :

— « لا حاجة لى بذلك » .

وهنا تلوح الفرصة للام ، ويبدو لها ان حلمها اوشك ان يحقق ،  
فتسعى جاهدة الى تزويجه من ابنتها ، وتعمل على ألا تضع هذه  
الفرصة منها ، فتلح على الشيخ وتلتزم اذنه ، وتقول له :

— « أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى عليه ، وقد جاءها الفتى  
يطرق عليها بابها ، والله ما تدري أعروة حى أم ميت ؟ وهل ينقلب  
اليك بخير أم لا ؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيرا حاضرا ، ورزقا  
سنيا » .

ولم تنزل به حتى لان ، وقال :

— « فان عاد لى خاطبا أجبته » .

وجهت الام الى الشامى أن عد اليه خاطبا

« فلما كان من الغد نحر الشامى جذورا ، وأطعم ، ووهب ،  
وجمع الحى على طعامه ، وبينهم أبو عفراء ، فلما طعموا أعاد القول

في الخطبة ، فاجابه وزوجه وساق اليه المهر ، وخولت اليه عفراء ...  
ثم ارتحل بها الى الشام » .

انتصر المال على الحب ، وعلى القرابة ، وهزم المواثيق والعهود ،  
وما ان يبلغ الامر هذا الحد ، حتى تكشف عفراء عن عواطفها وتعبّر  
عن ذلك في أبيات طويلة ، ذكر ابو الفرج منها هذا البيت .

يا عرو ان الحى قد نقضوا عهد الاله وحاولوا الغدرا  
حمل العم هم ابن اخيه حين يعود ، فسأل الحى كتمان امر  
عفراء ، وعمد الي عتيق فجدهه وسواء .

عاد عروة محملا بالمال ، يسوق من عند ابن عمه مائة من الابل  
مهرا لحبيبتة ، ولكن اباها نعاها اليه وذهب به الى قبرها الموهوم ،  
فبكى عروة ، وجعل يختلف الى ذلك القبر اياما وهو مضنى هالك ،  
وظل على ذلك الوهم ، حتى جاءتته جارية من الحى ، فأخبرته الخير .  
تبع عروة حبه ورحل الى الشام ، وسأل عن الرجل حتى اهتدى  
اليه فقصده ، وانتسب له فى عدنان ونزل ضيفا عنده ، فأكرمه وأحسن  
ضيافته .

مكث عندهم اياما انسوا به ، وفى يوم قال لجارية لهم :

« هل لك فى يد تولينها ؟ »

قالت :

« نعم » .

قال :

« تدفعين خاتمي هذا الى مولتك » .

فقالت :

« سواء لك ، اما تستحيى لهذا القول » .

فامسك عنها ، ثم أعاد عليها وقال لها :

— « ويحك هي والله بنت عمى ، وما أحد منا إلا وهو أعز على صاحبه من الناس ، فاطرحى هذا الخاتم فى صحنها ! فان أنكرت عليك ، فقولى لها اصطحب ضيفك قبلك ، ولعله سقط منه » .

فرقت الخادم ، وفعلت ما أمرها به ، فلما شربت عفراء اللبن ، رأت الخاتم فعرفته ، فشبهت ، ثم قالت :

— « أصدقينى الخير » .

فصدقته .

وهنا ينكشف خلق المرأة العربية ووقاؤها لزوجها ، مهما كان شعورها نحوه فلم تخف الخير عنه ، بل قالت له :

— « اتدرى من ضيفك هذا » ؟

قال :

— « نعم فلان بن فلان ( للنسب الذى انتسبه له عروة ) .

فقالت :

— كلا ، والله ، بل هو عروة بن حزام ابن عمى ، وقد كتلك نفسه حياء منك » .

\*\*\*

قصة سياح بن عيسى قصة انسانية ، يلعب فيها المال دورا خطيرا ، وينتصر على كل العقبات ، كما يحدث بين كل البشر ، وفى كل مجتمع . والشخصيات فيها متسقة منطقية .

فعروة ينشأ مع بنت عمه طفلين فيتعلق بها ، ويزيده تعلقا بها أن أباهما كان يمتيه بزواجها ، ثم يكبر ويدافع عن حبه ، ويتخذ لذلك كل الوسائل ، مرة يلجأ الى عمته لتتوسل اليه عند أخيها ، وحين يلوح له خطر يسرع الى عمه يستشفع اليه ، بما له من حق وقراية ورحم ، فيخبره أبوها أم الأم أبت إلا أن تزوجهما بمهر عال وهذه خلة شائعة فى

الأمهات ، فيلجأ عروة الى الأم يلاطفها ، ويداريها ولكن لا حيلة ، فلا بد من المال فيرحل الى الري ثم يأتى ومعه مائة من الابل ، فيفاجأ بابيها وقد نعاها فيظل وفيها يختلف الى قبرها أياما ، حتى اذا زال عنه الوهم يتبع حبه الى الشام ، وما زال يتلطف ويتحاييل حتى يلتقى بحبيبتة .

وعفراء محبة ايضا ووفية ، ولكنها كئيبان العربية تفصح عن عواطفها في جرس وحذر . فلا تظهر القصة عواطفها ، الا حين تبليغ المساة ذروتها ، وينقض أبوها عهد الاله ، أو حين يبلغها وفاة عروة ، تستأذن من زوجها ، وتقيم ماتما ، وتظل تندبه ثلاثا ، ثم تلحق به في اليوم الرابع ( ٢٠ ) .

وعقال تطهره القصة بمظهر المرغم على أمره ، فهو يحب ابن أخيه وتربطه به صلة دم ، وقد وعد أخته بأن عفراء لعروة ، ولهذا حين أقبل الشامي خاطبا رده ، متعللا بأن عفراء قد سماها لابن أخ له ، ومالغيره اليها سبيل . وحاول الشامي أن يرغبه في المهر ، ولكنه رفض . ولكن ماذا يفعل أزاء الحاج زوجه ، التي أخذت تضرب له على عاطفة البنوة ، ومستقبل ابنته أمام حاضريه مضمون ، ومستقبل لا يدري ماذا تخبىء الأيام فيه . وأزاء هذا اللجاج ، وإمام اغراء المال والجاه يخضع ويحبب رغبة زوجه .

والأم امرأة طموح ، تبغى سعادة ابنتها ، وترى فيها من الكمال والجمال ، ما يجعلها أهلا لرجل مرموق . وهى فى كل القصة مدفوعة بتلك العاطفة التي ملكت عليها كل سبيل . يأتيتها عروة يلاطفها ، فتأبى أن تجيبه ، الا بما تحتكمه من المهر ، ويعد أن يسوق شطره . وتلوح لها الفرصة فى الشامي ، الذي يوافق عندها قبولا ، « ولهذا عملت جهدها على اقناع زوجها بتغيير موقفه ، فأى خير فى أن يحبس ابنته على عروة ، وقد جاءها الغنى يطرق عليها بابها » .

( ٢٠ ) الاغانى ٢٠ / ١٧ « ساسى » .

على أن تلك الرواية لم تتوسع في الكشف عن الصراع في نفس عروة ، مع أنها قد مهدت لذلك تمهيدا طيبا ، فقد جعلت عروة يعيش على وهم أياما عدة ، فكان يختلف إلى قبر يحسبه قبر عفراء ، وهو مضمّن هالك . ثم زال الوهم ، وتبينت الحقيقة ، وأنه خدع من قبل عمه الذي ربي في حجره ، والذي كان يمنيّه الأمانى ، ويقول له : « ابشر ، فإن عفراء أمّك أن شاء الله » ، ويتبين له أن المواثيق التي أخذها في ليلة رحيله مع عمه وامراته ، قد ذهبت هباء . ويتبين له أن تعبهِ وسفره ، وأن المال الذي حصل عليه ، وشقى من أجل أن يصل إلى هدفه . كل ذلك كان سرايا في سراب ، ووهما في وهم .

كنا نتوقع بعد هذا الخداع ، أن نلتقى بصراع عنيف في نفسه عروة ، يكسب القصة حركة وحيوية ، ولكن القصة تمر بذلك بسرعة . وكأنها حادثة في حياة عروة لا تستحق الاهتمام ، فلم تزد على أن قالت : « فأخبرته الخبر ، فتركهم وركب بعض ابله ، وأخذ معه زادا ، ورحل إلى الشام » .

وبعض الكتب - ليس فيها الأغاني - تنهى هذه القصة بخيال طريف ، يابى إلا أن ينتصر الحب على المال . أذ يبدو أن بعض القصاصين هالهم انتصار المادة على الحب ، وراوا في ذلك امتهانا لتلك العاطفة التي يقدها العرب ويشيدون بها ، فأبوا إلا أن يضيفوا للقصة خيالا ينتصر فيه الحب في الدار الآخرة ويتغلب على عقبات المادة فإذا بهم يتخيلون أن شجرتين تخرجان ، أحدهما من قبر عروة ، والآخرى من قبر عفراء ، ثم تتعانقان وتتلفان ، فيراهما المارة ، ويمرون عليهما ولا يدرون أى ضرب من النبات هو ؟ .. « قال معاذ ابن يحيى الصنعاني : خرجت من مكة إلى صنعاء ، فلما كان بيننا وبين صنعاء خمس ، رأيت الناس ينزلون عن محاملهم ، ويركبون دوابهم ، فقلت أين تريدون ؟ قالوا : نريد ننظر إلى قبر عفراء وعروة ، فنزلت

عن محملى ، وركبت حمارى ، واتصلت بهم ، فانتهيت الى قبرين متلاصقين ، قد خرج من هذا القبر ساق شجرة ، ومن هذا ساق شجرة ، حتى اذا صارا على قمة التقيا ، فكان الناس يقولون : تالفا فى الحياة وفى الموت « (٢١) » .

وهناك قصة شبيهة بقصة عروة فى كثير من التفاصيل والخيال ، حدثت فى العصر الجاهلى ، وهى قصة المرقش الاكبر ، فقد احب المرقش ابنة عمه أسماء ، كما احب عروة عفراء ، ثم خطبها الى أبيها ، فقال له : لا أزوجك حتى تعرف بالبأس ، فانتقل المرقش الى ملك من الملوك يريد الغنى ، كما انتقل عروة الى ابن عم له . وفى غياب المرقش زوجت أسماء من رجل من مراد على مائة من الابل ، كما زوجت عفراء من رجل من الشام ، وأصاب المرقش مالا ، فعاد منتصرا مزهوا ، وخشى أخوته عليه ، فآخبروه أن أسماء قد ماتت ودلوه على قبر موهوم نها ، كما حدث مع عروة . ثم ينكشف الأمر ، فيزعم المرقش السفر فى طلب المرادى ، ويستصحب معه وليدة له وزوجها . ولكنه يمرض فى الطريق ، فيتركه فى كهف بأسفل نجران ، ويرجعان . ويظل المرقش فى الكهف ، حتى تسوق اليه الصدق راعى زوج أسماء ، فيعطيه خاتمه ، ويعطى الراعى الخاتم الى جارية أسماء ، فتلقيه فى قدح اللبن الذى تشرب منه أسماء ، فتتعرّف على الخاتم ، وتدعو زوجها وتطلعه على خاتم المرقش ، فيستدعى العبد ، فيخبرهما بالحقيقة ، فيركبان فى طلب المرقش ، حتى طرقاه من ليلتهما ، فاحتملاه الى أهلها .

تشبه قصة المرقش (٢٢) قصة عروة فى كثير من التفاصيل . وهذا يدل - كما ذكرت فى الفصل الاول من الباب الاول - على أن هذه

---

(٢١) ذم الهوى ص ٤١٨ .

(٢٢) الأغاني ٥ / ١٨٠ « ساسى » .

القصص لها خيوط جاهلية ، ويؤكد فكرتي في أن مصدر هذه القصص ، مصدر عربي ، عرفها العرب قبل أن تشتد صلتهم بالفرس أو بالروم . ويدل من ناحية ثانية على أن الحب العذري قديم عند العرب ، ولا ترجع نشأته إلى العصر الاسلامي ، كما يرى بعض الباحثين ، مثل الدكتور طه حسين ( ٢٣ ) والدكتور محمد غنيمي هلال ( ٢٤ ) . وقد دلت على نشأة الحب العذري والغزل في العصر الجاهلي الدكتور أحمد الحوفي ، وقد آراء ما سيئون وجب والدكتور طه حسين ( ٢٥ ) .

---

( ٢٣ ) حديث الأربعاء ١ / ٣٢٧ .

( ٢٤ ) الحياة العاطفية ص ٢٤ .

( ٢٥ ) الغزل في العصر الجاهلي ص ١٤٨ .

### مجنون ليلى :

قصة المجنون أشهر القصص العذرية ، ويكاد لا يخلو منها كتاب من الكتب العربية القديمة ، التي تحدثت عن العشق .

والهيكل العام لهذه القصة يدور حول فتى شاعر ، نبت فى بسادية نجد وعاش فى العصر الأموى . وقد أحب فتاة ، تسمى « ليلى » وتمكن حبها من قلبه ، ثم حالت التقاليد بينهما ، وحاول هو من جانبه أن يسترخص التقاليد ، وأن يذلل العقبات بالشفاعات والتوسلات ، ففشل . وتنازمت الأمور بتزويج الفتاة من رجل آخر فيذهل العاشق ، ويصاب بالغشيان ، ويعتزل الناس ، ويهيم فى الوديان . وهو فى كل ذلك يلجأ الى الأشعار ، يبتثها مأساته ، ويظهر بها عن نفسه ، وينتهى به الأمر الى الموت وحيدا فى واد كنير الحجارة .

أما فتاته فقد كانت تبادلها حبا بحب ، ولكن لأحيلة لها أمام رغبات أهلها فتدعن لهم ، وتتزوج بمن لا تحب . ولكنها تسلم جسدها فقط ، أما عواطفها فقد ظلت محتفظة بها لعاشقها ، الذى يهيم فى القفار والوديان .

ولكن الكتب العربية تختلف فى طريقة عرض هذه الأحداث ، فبعضها تذكر هذه الأحداث متناثرة . وبعضها تكتفى بحدث أو حدثين . وبعضها تزدهم بهذه الأخبار وتلك الروايات ، وتمتلئ بالأسانيد « والعنعنات » . وبعضها تجد فيه ترتيبا وتنظيما الى حد ما .

ففى مصارع العشاق ، تتناثر أحداث قيس ، وتحت عناوين مختلفة ، ففى « باب فى أصل العشق » يذكر خبر ليلى ، وانتحابها ، حين سمعت بما آل اليه قيس من جنون وتشرد . وفى « باب آخر من مصارع العشاق » يذكر قصة ليلى وقد رجتها أم قيس أن تزوره . ثم يكرر هذا الخبر تحت « باب من مصارع العشاق » . وفى « باب يلحق بمصارع محبى الله » ، ذكر خبر قيس ، وقد بلغه ما عليه ليلى من أدب



وكمال ، فذهب اليها وأعجب بها وفي الباب نفسه ، وبعد ذلك  
بصفحات ، يذكر خبر قيس وحجه الى البيت الحرام وبعد ذلك  
بصفحات أيضا يذكر خبر التقاء كثير بالمجنون ، وهو يطلق الظباء ،  
ثم بعد ذلك بصفحتين يورد قصة وفاته ، وفي الباب نفسه وبعد ذلك  
بصفحات يذكر خبر التقاء قيس بالأحوص ، وطلبه منه أن يحدثه حديث  
عروة بن حزام ... الخ .

أما الوشاء فإنه يتخطى الاحداث التي تتعلق بنشأة قيس ،  
وغرامه ، وسبب عشقه ، ليتحدث عن المرحلة التي أصبح فيها قيس  
هائما ، مستوحشا من الناس مستأنسا بالوحش .

أما قصة المجنون في الباب الذي عقده أبو الفرج ، فهي قصة  
مزدحمة بالأخبار ، مكتنزة بالأسانيد ، ليس فيها ترتيب أو تنظيم ،  
فنراء مثلا يتحدث عن قيس وليلى ، بعد أن تمكن الحب منهما ، وإنها  
وعدت أن تزوره ليلة ، إذا وجدت الفرصة لذلك ، فمكث مدة يرأسها  
وهي تسوف ، ثم بعد ذلك بصفحتين يروي قصة حدثت في بدء عشقه  
والتي عقر فيها ناقته لنسوة تشاغلنه عنه بمنازل .

المرجع الذي استرحت اليه هو كتاب « الشعر والشعراء » لابن  
قتيبة ، فقد تخلص من كثير من الأقوال والاستطراد . وابتدأ القصة  
ببداية الحب بينهما ، وهما صبيان يرعيان البهيم ، ثم تحدث عن تمكن  
الحب منهما ، ثم ذكر وساطة نوفل وفشلها ، ثم خروج قيس الى مكة  
وعياذته بالبيت الحرام ، ثم هيام قيس في القفر ، وأخيرا وفاته في  
واد كثير الحجارة ( ٢٦ ) .

وتصور لنا هذه القصة قيسا من الناحية الحسية ، فتذكر أنه « كان  
جميلا ، ظريفا ، راوية للشعار حلو الحديث ، وأنه مديد القسامة ،  
طوال ، أبيض ، جعد الشعر ، أعين ، أحسن من رأت عين الرجال ،

( ٢٦ ) انظر القصة كاملة في : الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٧ - ٥٥٤ .

ولكنه بعد تمكن الماساة منه ، تراه « فاذا هو مصفر ، مهزول ، شاحب اللون » .

وكما أن هناك تطورا قد حدث فى بعض صفاته الحسية بسبب مأساته ، إذ كان جميلا أبيض ... فصار مصفرا مهزولا ... فان هناك تطورا أيضا قد حدث فى صفاته المعنوية .

فقد كان انسانا سويا ، يعيش « فى نعم ظاهرة وخير كثير » ، وكان يتوقع له أبوه مستقبلا حسنا ، وكان له أخوة رجال هو آثرهم عند أبيه . ولكنه يعيش ليلى فاذا هو ينتقل الى مرحلة أخرى ، فقد أصبح نزر الكلام ، لا يرد على محدثه الا أن تذكر له ليلى ، يلقي الثياب عليه ، ويلعب بالتراب . ولكنه فى هذه المرحلة ما زال يعيش مع الناس وبينهم ، فقد رآه ابن مساحق ، وهو على تلك الحال ، فى مجمع من تلك المجامع التى كان يسعى اليها .

وقد حاول أهله ، ومن رثى لحاله ، شفاءه وهو فى تلك المرحلة ، واتبعوا كل وسيلة حتى لا يتمادى به الأمر .

حاولوا أن يجمعوا بينه وبين حبه ، فسعى نوفل الى رهط ليلى ، ولكنهم تلقوه بالسلاح ، وقالوا له : والله يا ابن مساحق لا يدخل المجنون منزلنا أبدا أو نموت « وأبو قيس وأهله أتوا أبا ليلى وأهلها وسألوهم بالرحم ، وعطفوا عليهم ، وأخبروهم بما ابتلى به ، فأبى أبو ليلى وحلف ألا يزوجها أياه أبدا » .

ولجأوا الى الدعاء والتضرع ، « فقال الناس لأبى المجنون : لو خرجت به الى مكة فعاد بالبيت ودعا الله ، رجونا أن ينساها ، أو يعاقبه الله مما ابتلى به » .

بل لجأ أهله الى أكثر من ذلك ، فحين زوجت ليلى من رجل آخر ، وخشى أهل قيس عليه ، حبسه وقيدوه ، يقول أبوه « فحبسناه وقيدناه ، فكان بعض لسانه وشفتيه ، حتى خشينا أن يقطعهما » .

ولكن على الرغم من كل ذلك ، انتهى به الأمر الى المرحلة الثالثة .

طلق قيس الدنيا ، وهام في البرية . يقول عنه أبوه « فلما رأينا ذلك خلينا سبيله ، فهو في هذه الغياض مع الوحوش ، يذهب في كل يوم بطعامه ، فيوضع له حيث يراه ، فإذا تنحوا عنه ، جاء فأكل . وإذا اخلقت ثيابه ، وأتوه بثياب ، فيلقونها حيث يراها ، ويتنحون عنه ، فإذا رآها أتاها ، فآلقى ما عليه ، ثم لبسها » . ويقول عنه شيخ من بني مرة ، خرج في طلبه « فخرجت أدور يومى ، فما رأيته الا بعد العصر جالسا على كور من الرمل ، قد خط بأصبعه فيه خطوطا ، قدنوت منه ، غير منقبض منه فنفر والله منى كما تنفر الوحش اذا نظرت الى الأنس ، والى جانبه أحجار ململمة فتناول واحدا منها ، فأقبلت حتى جلست اليه ، ومكث ساعة وكأنه الشيء النافر المتهىء للقيام . . . ثم عنت له ظباء ، فوثب في طلبها » .

هذه قصة قيس ، قد اختلطت فيها الحقائق التاريخية بأشياء أسطورية .

ولست في مجال نقض الأمور الأسطورية عن الحقائق التاريخية ، إذ أننى أقبل هنا هذه الشخصية ، بكل ما فيها من تاريخ وأساطير وتكفينى الصورة الأدبية التى ظهرت فيها هذه الشخصية ، بل ربما كانت الأمور الأسطورية ، أدخل في عالم الأدب من الحقائق التاريخية . وقد حاول الدكتور غنيمى غريلا السمات الأسطورية التى تسريت الى أخبار قيس ، والتى رأى أنها « كانت مبعث انكار شخصية قيس التاريخية ، عند من وقفوا عند ظاهرها ، دون تمييز بينها وبين الأخبار التاريخية الصحيحة ، ثم دون محاولة منهم لتعليل هذه الأخبار ، ورجعها الى روح عصر الرواة الذين رووها » ( ٢٧ ) .

#### قيس لبنى :

هذه القصة من أشرى قصص العشق - ففيها الصراع العنيف الذى يتخذ ألوانا مختلفة : فصراع داخل نفسية واحدة بين تيارين يتنازعانها ، وصراع شخصيتين فى القصة كل يريد أن يتغلب على صاحبه ، وصراع بين القيود الاجتماعية وبين الحب الذى لا يعترف بقيود . وفيها انتصار الحب مرة ، ثم هزيمته مرة أخرى ، ثم انتصار الحب مرة ثانية ، وفيها تراوح البطل بين شعورين مختلفين ، فقد شرب مرة كأس السعادة حتى الثمالة ، ثم تجرع مرة أخرى كأس المرارة حتى النهاية ، وفيه كشف عن العواطف الانسانية حين تثور وتهيج ، وفيها إبراز لعادات اجتماعية فى ذلك العصر ، وفيها رسم لشخصيات بطريقة تعين المحب وتساعد فى مآساته ، وفيها إبراز للخلق العربى الرائع الذى يؤمن بقيم ومثاليات يحتكم إليها حين تتنازعهم الأهواء وتتقاذفه الانواء ، وفيها تصوير لشخصية العاشقة وتقديسها لعاطفتها ، وفيها عقبات ، وفيها مبررات وفيها كثير من غير ذلك مما جعل الأدب العربى يفتخر بهذه القصة .

وقد عرف القدماء لهذه القصة قدرها ، وعظموا بطلها ، فكان المجنون يانس الى ابن ذريح ويلتقى به ويضطرب لأشعاره ، ( ٢٨ ) وقان فى النزهة والبدور السافرة وطوالع الأزهار وغالب شراح ديوان الأستاذ ومن بحث عن أحوال العشاق أنه رأس الهوى ( ٢٩ ) وقد أشار سلطان العاشقين . وأستاذ العارفين الى تفضيله على كل العشاق « وحكمة ذلك - والله أعلم - كونه قد عرف لذة الوصل والتلاق ثم رمى بغصة البعد والفراق ، وذلك عند العقلاء أبلغ وأعظم ، وأرفع فى مقاسة الغرام وأفهم » ( ٣٠ ) .

( ٢٨ ) الاغانى ٣ / ٩٣ « دار الكتب » .

( ٢٩ ) تزيين الاسواق ١ / ٦٢ .

( ٣٠ ) تزيين الاسواق ١ / ٦٢ .

كان ذريح رجلا عليا ينزل بظاهر المدينة ، ولم يكن له من الأبناء  
الا قيس الذي شب محاطا بحب أمه ، وعناية أبيه ، بين رغد العيش ،  
وبلهنية الحياة .

أتاحت له هذه الحياة الكثير من الحساسية والرفاهية ، فهو رجز  
ملى ، عنده الفراغ الذي يهيئ له أن يخلو الى نفسه والى عواطفه ،  
وهو ينتسب الى عذرة تلك القبيلة التي عرفت بالركة والدمائة وجمال  
النساء ، وتقدير الرجال لهذا الجمال وتأثرهم به ، وهو - بعد - شاعر  
يعشق الجمال ويضطرب له .

مر هذا الشاعر المترف بينى كعب وقد احتدم الحر ، واشتعلت  
عواطف الصحراء ، فاستسقى ماء من خيمة « فيرزت اليه امرأة مديدة  
القامة ، بهية المطلعة ، عذبة الكلام ، سهلة النطق ، فناولته اداوة  
ماء » . ثم عرضت عليه أن يبرد عندهم فأجاب ، فمهدت له وطاء ،  
واستحضرت ما يحتاج اليه ، ورحب به أبوها ونحر له جذورا .

\*\*\*

انصرف قيس ، واذا بالحر الذي يحتدم فى الصحراء ، يحتدم  
فى قلبه ، فقد أصبح عاشقا لتلك الكعبية ، مدلها بها ، واذا بتلك  
الكعبية عندها أيضا أضعاف ما عنده من الحب والهيام .

غلبيت العاطفة قيسا ، فلجا الى الأشعار ، ينفس عما فى نفسه  
ويخفف عن لوعته ، واذا بالأشعار تذيب وتشيع فيتناقلها الناس .

كنا نتوقع بعد ذلك أن تشابه هذه القصة غيرها من قصص العشاق ،  
فتقف هذه الأشعار عقبة مروعة ، تحول بين سعادة العاشقين ، بحجة  
أن العرب لا يبيح أن يتزوج الرجل فتاة منهم ، قد تغزل بها وأنشد فيها  
الأشعار .

ولكن القصة تتحول تحولا ، تنفرد به عن كثير من قصص العشاق

المشهورة ، فتتيح للعاشق جوا من السعادة ، وذلك بفضل تدخل رجل من آل البيت ، هو الحسين سبط النبي عليه السلام .

مضى قيس الى أبيه يشكو اليه حب لبني ، فقال له « دع هذه وتزوج بأحدى بنات عمك » فلجا الى أمه ، فكان جوابها مثل جواب زوجها ، غم قيس فجاء الى الحسين يشرح له مأساته ، فرش له ، والتزم أن يحل هذا الأمر ، فجاء الى أبي لبني ، فأجابته بالطاعة ولكنه احتاط وقال « يابن رسول الله لو أرسلت لكفيت ، بيد أن هذا من أبيه اليق ، كما هو عند العرب » ، فجاء الحسين الى أبي قيس ، حاقيا على حر الرمل ، فقام ذريح ، ومرغ وجهه على أقدامه ، ومضى مع الحسين حتى زوج قيسا لبني .

التقى العشقان ، فأنسيا كل شيء ماعدا جبهما ، وتشاغلا عن حولهما ، وتفرغا لعاطفتهم ، يقتطفان ألوان السعادة ، ويجنيان ثمرات اللقاء .

\*\*\*

هناك قلب ثالث لم يرض عن هذا الوضع ، واستيقظت فيه عاطفة الغيرة والانتقام ، فقد رأت الأم أن تلك الكعبية ، قد استأثرت بوحدها ، فأزمت على التفريق بينهما ، وعلى أن تستخدم من أسلحة الكيد ، ما يحقق لها غرضها . فلجأت الى الشيخ الذي لم يكن راضيا في مبدأ الأمر عن هذا الزواج . فالتزمت أذنه وضربت له على وتر حساس . أن هذا الشيخ الملى لم يكن له من الذرية ، غير قيس ، وقد قرب أجله ، وهو يريد أن ينعم بحفيد يخلد اسم الأسرة ، ولكن لبني ظلت مع قيس مدة وهي لاتنجب . قالت الأم الماكرة يوما لزوجها : « لو زوجته بمن تحمل لتجىء بولد كان أبى لنسبك وأحفظ لبيتك ومالك » . اتفق الشيخان على التفريق بينهما ، وعرضا ذلك على قيس « فامتنع امتناعا يؤذن باستحالة ذلك وقال : لا أسيبها قط » .

ويثور في نفس قيس صراع حاد عنيف ، فالأبوان من جانبهما ،  
أقرر رأيهما ، وأزمعا أمرا لا مفر منه ، وحيه للبنى أمر لا يمكن نسيانه  
أو تجاهله . ويصور الرواة موقف قيس تصويرا مؤثرا ، فقد « أقسم  
أبوه ، أو هي أمه ، لا يكنه سقف ، أو يطلق قيس لبنى ، فكان اذا اشتد  
الهجير ، يجيئه ، فيظله بردائه ، ويصطلى هو حتى يجيء الفء »  
فيدخل الى لبنى ، فيتعانقان ويتباكيان ، وهي تقول له : لا تفعل  
فتهلك » .

ظل قيس نهبا لهذا الصراع العنيف زمانا طويلا ، يصل به بعض  
الرواة الى عشر سنين . حتى أزمع أن يضع حدا لهذا الصراع ، واذا به  
يغلب جانب البر بالوالدين وواجب طاعتهما ، فيطلق لبنى .

\*\*\*

وقع اليلاء وقاضت العاطفة بقلب قيس ، وأصبح مثله مثل زملائه  
العذريين ، يبكي عاطفته ، ويندب حظه ، ويغشى عليه ، ويتشأم  
بالغريان .

بلغت المأساة ذروتها ، فلجا الى الأشعار ، تجسد مأساته وتصور  
عاطفته .

أزمعت لبنى بعد انتهاء العدة على الرحيل ، ويعرف ذلك قيس  
فيسقط مغشيا ، ثم يفيق لينشد :

وانى لمن دمع عيني بالبكاء	حذار الذى قدكان ، أو هو كائن
وقالوا غدا أو بعد ذاك بليلة	فراق حبيب لم بين ، أو هو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى	بكفيك ، الا أن ما حان حوائن
وتبعها حين ارتحلت ينظر اليها ، فلما غابت رجع ، فجعل يقبل	
أثر بغيرها ، فليم ، فانشد :	

وما احببت ارضكم ، ولكن  
لقد لاقيت من كلف بلبنى  
اذا نادى المنادى باسم لبني  
ولما جنة الليل ، اوى الى مضجعه ، فلم يطلق له قرارا ، فجعل  
يتلمل وتتمرغ فى موضعه ، ويقول :

بت والهم يا لبني ضجيعي  
وتنفست اذ ذكرتك حتى  
بالبني فدتك نفسى واهلى  
وجرت مذ نأيت عنى دموعى  
زالت اليوم عن فؤادى ضلوعى  
هل لدهر مضى لنا من رجوع

\*\*\*

لام الناس آياه على سوء فعله فجزع وندم ، وحاول تلطيف الامر ،  
وجعل يرسل له الأطباء ، ويحيطه بالقينات ، فلم يفلح فى شفائه .  
« فلما أيس منه استشار قومه فى دائه ، فاتفقت أراؤهم على أن يأمروه  
بتصفح أحياء العرب ، فلعل أن تقنع عيناه على امرأة تستميل عقله ،  
فأقسموا عليه أن يفعل ، ففعل » .

وهنا تريد القصة أن تحافظ على الصورة النقية لهذين العاشقين  
فى ذهن السامع فتخلق موقفا ، تنفرد به عن غيرها من قصص العشق ،  
تبغى من ذلك حفظ الصورة المثالية للبني . فالقاص يريد أن يظهر العشق ،  
بمظهر الوفية لقيس ، فلا بد من مبرر يبرر زواجها ، بعد طلاقها من  
قيس ، وليكن هذا المبرر هو زواج قيس نفسه ، وحتى يحافظ  
أيضا على الصورة المثالية لقيس ، جعل زواجه من امرأة  
تسمى لبني على اسم حبيبته القديمة ، وكأنه يريد  
أن يرى « لبناه » القديمة ، فى تلك « اللبني » الجديدة ، وأمعنا  
فى نقاوة تلك الصورة ، يظهر قيسا بمظهر المرغم على هذا الزواج .  
ومع ذلك فانه لم يهش للبني الجديدة ، وأقام معها أياما لا يكلمها  
« وانه اتفق أن نزل بحى من فزارة ، فرأى جارية قد حسرت عن نفسها  
برقع خز ، وهى كالبدن حسنا وبهجة ، فسال عن اسمها ، فقالت : لبني



فسقط مغشيا عليه ، فارتاعت منه ، ونضحت وجهه بالماء ، وقالت : ان تكن قيسا ، فمجنون . فلما افاق استنسبه ، فاذا هو قيس . فاقسمت عليه ان ينال من طعامها ، فتناول قليلا ، وركب فجاء أخوها على اثره ، فاعلمته القصة فركب حتى استرده ، واقسم عليه ان يقيم عنده شهرا ، وقال : لقد شققت على . واجاب . فكان الفزاري يعجب به ، ويعرض عليه الصحارة ، حتى لامته العرب ، وقالوا : نخشى ان يصير فعلك سنة . فيقول ، دعوني ، ففي مثل هذا الفتى يرغب الكرام ، وقيس يقول له : ان فيكم الكفاية ولكنى فى شغل لا ينتفع بى معه ، فالح عليه ، حتى عقد على أخته ودخل بها ، فاقام معها اياما ، لا تهش نفسه اليها ولا يكلمها . ثم استاذن فى الخروج الى أهله فاذنوا له ، فخرج الى المدينة » .

وهذا الموقف أتاح للقصة تشابكا أكثر ، وإطالة فى الأحداث يغنيها وينميها . وهو فى الوقت نفسه ، تبرير موفق لزواج العاشقة ، التى لم تجب قومها فى الزواج بغير قيس . وبذلك ظهرت القصة أكثر تبريرا من القصص العذرية الأخرى ، التى تستجيب فيها البطلة لارغام أهلها وقسرها على الزواج بمن يختارونه لها .

نمى الى لبنى خبر زواج قيس ، فغمت لذلك وقالت : « انه لغدار ، وانى طالما خطبت فابيت والآن أجيب » . وتتزوج لبنى ، وهنا تطلعننا القصة على لون من شعر الزفاف ، فيه خفة وموسيقية ، تتناسبان مع نقرات الدفوف وتصايح النسوة . ولكن هذا الشعر فيه عطف على قيس ودعاء له بالقرب ، ودعاء على أعدائه بالبعد ، مما لا يجعله متناسبا فى ليلة تزف فيها لبنى الى آخر ، ومن غير المعقول أن يرضى الزوج بانشاد هذا الشعر فى ليلة زفافه . قال النسوة :

لبنى زوجها أصبح لا حـر يـوازيه

له فضل على الناس      وقد باتت تنساجيه  
وقيس ميت حق      صريع في بواكيه  
فلا يبعده الـ      وبعدا لنواعيه

\*\*\*

أهدر السلطان دم قيس ، وتزوجت لبنى ، ورحل بها زوجها ،  
وأصبح قيس في موقف مشابه لموقف غيره من العذريين كالمجنون  
وجميل .

ولكن الرواة يختلفون في اتمام القصة ، كل على حسب ما يراه  
مناسبا لها .

فمنهم من يرى « أن قيسا انتقى ناقة من ابله وقصد المدينة  
ليبيعهها ، فاشتراها زوج لبنى وهو لا يعرفه . ثم قال له : غدا في دار  
كثير بن الصلت أقبضك الثمن ، فجاء وطرق الباب فادخله ، وقد صنع  
له طعاما ، وقام لبعض حاجاته ، فقالت المرأة لخدمتها : سليه ما بال  
وجهه متغيرا شاحبا . فتنفس الصعداء ، ثم قال : هكذا حال من فارق  
الاحبة . فقالت : استخبريه عن قصته . فاستخبرته ، فشرع يحكى  
امره ، فرفعت الحجاب ، وقالت : حبك قد عرفنا حالك . فبهت حين  
عرفها ، لا ينطق ساعة ، ثم خرج لوجهه ، فاعترضه الرجل ، وقال :  
ما بالك ، عد لتقبض مالك ، وإن شئت زدناك . فلم يكلمه ، ومضى .  
فدخل الرجل ، فقالت له : ما هذا الذى فعلت ؟ انه لقيس فحلف انه  
لا يعرفه » .

ومنهم من يرى أن قيسا حين « جاء ليقبض ثمن المطية رأى لبنى ،  
فعاد مبهوتا ، فسأله الرجل ، فقال له : لا تتركب لى مطيتين . فقال :  
أنت قيس ؟ قال : نعم قال : أرجع لتخيرها فإن اختارتك طلقها . وظن  
الرجل أنها تبغض قيسا . فخبرها ، فاخترت قيسا فطلقها لوقتته » .

ومنهم من يبتعد عن هذه المصادفة المصطنعة ، ويرى أن قيساً شفع بابن أبي عتيق « فجاء الى الحسين والحسن ، وأعلمهما أن له حاجة عند زوج لبنى ، وطلب أن ينجدها عليه ، فمضيا معه ، حتى اجتمعوا به وكلموه في ذلك ، فقال : سلوا ما شئتم ، فقال له ابن عتيق : 'هلا كان ذلك أو مالا ؟ قال : نعم . قال : أريد أن تطلق لبنى ولك ما تشاء عندي . فقال : أشهدكم أنها طالق ثلاثا . فاستحيوا منه ، وعوضه الحسين مائة ألف درهم » .

طلقت لبنى من زوجها ، وسواء أكان طلاقها بسبب تدخل أهل الظرف ممن لهم مكانة في قلوب أهل الحجاز ، أم كان للمصادفة في ذلك دورها الكبير ، فهل عادت الأمور الى مجاريها وأعلن الحب انتصاره في اللحظة الأخيرة ، أو ابت الأقدار إلا أن تختتم هذه القصة بمأساة ، تحول بين العاشقين وبين سعادتهما التي كانت قاب قوسين أو أدنى .

#### اختلاف في النهاية :

فمنهم من ينهيها بنهاية سعيدة ، فقد تزوجها وأقام معها الى الموت ، وأنه مدح من أجل ذلك ابن أبي عتيق ، فقال :

جزى الرحمن أفضل ما يجازى	على الاحسان خيرا من صديق
فقد جريت اخواني جميعا	فما ألفيت كابن أبي عتيق
سعى في جمع شملى بعد صدع	ورأى حدث فيه عن الطريق
وأطفأ لوعة كانت بقلبي	أغصتني حرارتها بريقى

والآخرون ينهونها بنهاية حزينة ، فقد ماتت لبنى في العدة ، وحين بلغ ذلك قيساً خرج ، ووقف على قبرها وأشد :

ماتت لبيني ، فموتها موتى	هل ينفعن حسرة على الفوت
انى سابكى بكاء مكثب	قضى حياة وجدا على ميت

ثم بكى ، حتى اغمى عليه ، فحمل ومات بعد ثلاث ، ودفن الى جانبها « (٣١) » .

تلك هي قصة قيس وليبنى ، تبدو قصة مؤتلفة ذات بدء وذات نهاية ، وتظهر أحداثها مترتبة ، متصلة ، لا اضطراب فيها . وقال أبو الفرج : « اخبرنى بخبر قيس وليبنى امراته ، جماعة من مشايخنا ، فى قصص متصلة ، ومتقطعة ، واخبار منثورة ومنظومة ، قالفت ذلك على اجمع ليشق حديثه ، الا ما جاء مفردا وعسر اخراجه عن جملة النظم فذكرته على حدة » (٣٢) .

واهم سمة تلفت نظرك فى هذه القصة ، هي ذلك الصراع الذى يملؤها .

فانظر الى ذلك الصراع فى نفسية قيس بين عواطفه وواجباته ، فقد احب لبنى حبا لا حد له ، وعارضه ابواه فى الزواج منها ، ولكنه استطاع ان يتغلب على هذه المعارضة بفضل تدخل الحسين اخيه فى الرضاع ، واتيح له ان ينعم بشيء من السعادة . ولكن لم تتم ، فقد اعلن ابواه الحرب على زوجه من جديد ، وصمما على ان تطلق منه ، واصبح قيسا نهبا للصراع بين حبه لزوجه وبره بوالديه . تقول له زوجه : « ياقيس ، لا تطع اباك ، فتهلك وتهلكنى » (٣٣) ويحلف ابوه « لا يكتف سقف بيت ابدا ، حتى يطلق لبنى » (٣٤) .

وحاول قيس ان يضع حدا لهذا الصراع ، وان يقترح مختلف الحلول ، قال لوالده : « الموت والله على اسهل من ذلك ، ولكنى اخيرك خصلة من ثلاث خصال . قال : ما هي ؟ قال : تتزوج ، فلعل الله يرزقك .

- 
- (٣١) انظر القصة كاملة فى تزيين الاسواق ١ / ٥٣ - ٦٢ .  
والجمل التى بين علامات التنصيص منقولة عن هذا المرجع .  
(٣٢) الاغانى ٩ / ١٨١ « دار الكتب » .  
(٣٣) المرجع السابق ٩ / ١٨٤ .  
(٣٤) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ .

ولدا غيرى . قال : فما فى فضلة لذلك . قال : فدعنى ارتحل عنك ،  
واصنع ما كنت صانعا ، لو مت فى علتى هذه . قال : ولا هذه . قال :  
فادع لبنى عندك ، وارتحل عنك ، فلعلى أسلوها ، قال : لا أرضى ،  
أو تطلقها « (٣٥) » .

لم يستطع قيس اذن التوفيق ، ورفض أبوه مختلف الحلول ،  
ورفع راية الحرب « فكان يخرج ، ويقف فى حر الشمس ، ويجىء قيس  
فيقف الى جانبه فيظله بردائه ويصلى هو بحر الشمس حتى يفىء الفىء  
فيتصرف عنه ، ويدخل الى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكى وتبكى  
معه » (٣٦) .

ظل قيس فى هذا الصراع مدة ، يجعلها بعضهم أربعين يوما ،  
ويرفعها بعضهم الى سنة ويبالغ بعضهم ، فيجعلها عشر سنين (٣٧) .  
وأخيرا أراد أن يضع حدا لهذا الصراع ، فيغلب جانب البر بوالديه  
على جانب عاطفته ، تمشيا مع الخلق العربى ، الذى يجعل الواجب  
فى النهاية ينتصر على العاطفة .

طلق لبنى ، ولكن تعرض لهزات من نوع آخر ، فقد « أسف ،  
وجعل يبكى وينشج أحر نشيج » (٣٨) وحين جاء أهلها ، ليحملوها  
الى ديارهم ، سقط مغشيا عليه (٣٩) .

وانظر الى الصراع بين المعسكرين فى هذه القصة ، معسكر يمثل  
قيس وزوجه ، وآخر يمثل ذريح وزوجه ، وكل معسكر يلجأ الى مختلف  
الوسائل .

يحاول قيس أن يلين قلوب والديه ، وأن يقترح لهما الحلول ،  
ومن ورائه لبنى تشجعه وتقويه .

(٣٥) و (٣٦) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ .

(٣٧) المرجع السابق ٩ / ١٨٤ .

(٣٨) الاغانى ٩ / ١٨٤ « دار الكتب » .

(٣٩) المرجع السابق ٩ / ١٨٥ .

ويحاول والده أن يضغط على قيس ، وأن ينتهز لذلك فرصة مرضه ، الذي أشفى فيه على الهلاك ، ويضرب على غريزة حفظ النوع ، فلبنى امرأة عاقر ، وذريح لا ولد له غير قيس ، وهو ذو مال كثير ، لا يريد له أن ينتقل إلى غريب ، ولهذا يقول لولده عقب شفائه من العلة « يا قيس ، أنك اعتلت هذه العلة ، فخفت عليك ، ولا ولذلك ولا لى سواك ، وهذه المرأة ليست بولود ، فتزوج إحدى بنات عمك ، لعل الله أن يهب لك ولدا تقرر به عينك وأعيننا » (٤٠) . ويأبى قيس ، فيلجأ والده إلى سلاح آخر : « فإن فى مالى سعة ، فتسر بالاماء » (٤٦) ويرفض قيس أن يسوها بشيء أبدا - يفعل ذلك الوالد ، ومن ورائه زوجه تحمسه وتدفعه .

صراع بين المعسكرين ، يمثل المشكلة الأزلية ، وهى النزاع بين الزوجة والام ، ترى الزوجة أن من حقها أن تستأثر بزوجها ، وأن يبتيا معا مستقبلا ملكا لهما . وترى الام أن ابنها ثمرة عملها ، فكيف تبنيح لغريبة أن تستأثر به فى سهولة .

وأخيرا .. ينتصر الشيخان على الشابين ، ولكنه انتصار مؤقت ، فلم يخلص لهما الابن بعد ذلك ، فقد ضغط على عواطفه وتكلف لذلك جهدا كثيرا ، وأحس أن والديه هما سر مأساته ، فأنصرف عنهما إلى آلامه وأحزانه وإلى هوسه وغشيانه .

ندم الوالدان ولامهما الناس فحاولا إصلاح غلطتهما بكل الوسائل ، فقد أغرت أمه فتيات الحى بأن يعين عنده لبنى ، ليسلوها ، فلم يسلم (٤٢) . وفعل أبوه مثل ذلك (٤٣) . بل وأحضر له الأطباء ، فلم يفتحوا .

(٤٠) و (٤١) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ .

(٤٢) الأغاني ٩ / ١٩٣ دار الكتب .

(٤٣) المرجع السابق ٩ / ١١٤ .

وتأبى القصة ، إلا أن تثبت فشل الشيخين في كل محاولتهما ،  
وأن تعلن الحب وتخطيه لمختلف العقبات ، فقد تدخل الحسين ، وطاقته  
من أهل البيت ، وأعادوا الصفاء إلى الحبيبين .

\*\*\*

وصادقة هذه القصة في رسم الشخصيات ، رسماً إنسانياً .  
قالام ، تحب وحيدها ولعلها من أجل ذلك لاتوافق على أن تزوجه  
من غريبة يصبحها حبا شديدا ، قد يصرفه عنها ، فتري أن تزوجه واحدة  
من بنات عمه . ولكن الوحيد يتزوج حبيبته رغبا عنها . ويصح ماتوقعته  
الأم فآلهته لبنى عن أمه ، فتجد في نفسها وتقول : « لقد شغلت هذه  
المرأة ابني عن برى » (٤٤) . وتعزم على أن تعيد ابنها إليها ، حتى  
لاحت لها الفرصة في مرض قيس مرضا شديدا فتسعى إلى ذريح ، وتقول  
له بكل خبث : « لقد خشيت أن يموت قيس وما يترك خلفا ، وقد حرم  
الولد من هذه المرأة وأنت ذومال فيصير مالك إلى الكلالة ، فزوجسه  
بغيرها لعل الله أن يرزقه ولدا » (٤٥) . وأخذت تضرب على هذا الوتر  
وتلح عليه ، إلى أن تنتصر . ولكنه انتصار مزيف فقد سقم وحيدها .  
فتأرت فيها عاطفة الأمومة ، فتحاول أن تشفى وحيدها مما به ، فتغري  
به فتيات الحي ، فيعين البنو عنده ، عسى أن يملو عنها .

والعاشقة تحب حبيبها وتخلص له ، وتعرف أنه مرغم على أمره  
من قبل والديه ، ولهذا حين يعرض عليها أهلها الزواج بعد طلاقها من  
قيس ، تمتنع عن أجابتهم ، منفردة بذلك عن ليلى التي أجابت أهلها ،  
حين ألحوا عليها في الزواج بغير المجنون . بيد أنه ما أن يصل إلى  
علمها أن قيسا قد تزوج من فزارة ، حتى تثور فيها الغزة ، وتستيقظ

(٤٤) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ .

(٤٥) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ .

فيها الغيرة الشديدة ، على عادة الأنثى ، وتقبل الزواج بغير قيس « . بل تقول ، « انه لغدار ، ولقد كنت امتنع عن اجابة قومي عن التزويج ، والآن اجيبهم » (٤٦) . ومع ذلك تحتفظ بعواطفها لقيس ، وتدس اليه من يعاتبه على فعلته ، فقد ارسلت اليه رسولا ، يسأله « لم تزوجت بعدها حتى اجليت الى ان تتزوج بعذك » (٤٧) . - وصاحب التزيين ، يذكر انها تزوجت ، خوفا على حبيبها حين اهدر السلطان دمه ، وحتى يحمله ذلك على الياس منها والبعد عن المخاطرة التي قد تؤدى الى قتله . - ولننظر الى موقف قيس وليبنى ، - وحسبا يتعاقبان « وروى ان لبنى عاتبت قيسا على تزوج الفزارية فحلف لها ان عينيه لم تكتحل برؤيتها ، ولم يكلمها لفظة واحدة ، وانه لو رآها لم يعرفها . واخبرته لبنى انها كارهة زوجها ، واعلمته انها لم تتزوجه . رغبة فيه ، بل شفقة على قيس ، حين اهدر دمه ليغلى عنها » (٤٨) .

\*\*\*

وهناك قصة حدثت في العصر الجاهلى ، شبيهة بمقتنا هذه ، وهى قصة عبد الله بن العجلان وزوجه هند .

فقد كان عبد الله وحيد والديه ، ومرت ذات يوم بغير غسان ، فرأى بنات العرب يفتسلن فيه ، وشاهد من بينهن هنداً تمشط شعرها وتسبله على بدننها ، فجعل يتأمل شقوف بياض جسمها من خلال سواد الشعر ، واصابه الحب . ثم خطبها الى أبيها ، فاجيب وتزوج بها ، واقاما على احسن حال وأنعم بال . ولكنه ظل معها ثمانى سنين ، لم تنجب ولدا له . فتضايق والده من ذلك ، وكان ذا ثروة وليس له غيره ، فأمر ابنه بطلاقها . واخذ الاب يلح عليه حتى لاحت له الفرصة ، اذ بلغه ان السكر

(٤٦) الاغانى ٩ / ١٩٧ « دار الكتب » .

(٤٧) المرجع السابق ٩ / ٢٠٧ .

(٤٨) تزيين الاسواق ١ / ٥٩ .



قد تمكن من عبد الله ، فأرسل إليه يدعو ، وجمع إليه أكابر الحي ، فجعلوا يلومونه ، ويتناوشونه من كل مكان ، حتى طلقها ، وبعد طلاقها ازداد به الوجد ، حتى ألزمه الموساد . ثم احتمل أهل هند أبنتهم إلى محلثهم ، وزوجوها برجل من نمير ، وهي قبيلة بينها وبين عبد الله ثارات ودماء كثيرة ، فحذره أبوه من الخروج إليها ، ولكنه لم يابه ، إذ خرج إليها مرا حتى أتاها ، فأراها جالسة على حوض ، وزوجها يسقى إبله . فلما تعارفا ، شد كل منهما على صاحبه ، ودنا منه ، حتى اعتنقا ، وسقطا إلى الأرض ميتين (٤٩) .

على أنك لن تعدم اشارات اسلامية فى قصة قيس ، كتعظيم آل البيت ، وقبول شفاعتهم ، وتوقيرهم .

ولن تعدم اشارات جاهلية فى قصة ابن العجلان كما ذكرها أبو الفرج (٥٠) . فما أكثر الحروب التى كانت تدور بين نهد قبيلة عبد الله ، وبين نمير قبيلة زوج هند . وقد كان لهند دور فى نصره قبيلتها نهد على قبيلة زوجها فى احدى الغزوات (٥١) .

ويروى صاحب التزيين قصة شبيهة بقصة قيس لبنى ، فقد كان ابن عباس يوما جالسا بفناء الكعبة ، اذ وضع بين يديه شخص ، فكشف عنه ، فاذا هو رسم عاف ، وجسم بال . وقال السيوطى ان اسمه عروة بن قيس ، وأنه ولع بجارية من العرب ، فزوجه بها شفاعا للحسين ، فاقام معها مدة ، وكانت أمه تقسم عليه أن يفارقها ، وهو يقول لها : أخاف اتلاف نفسى . فلم ترض . فلما كان يوم حر شديد وقفت حافية على الرمل ، وأقسمت لاتزول ، أو يفارق عروة الجارية .

(٤٩) تزيين الاسواق ١ / ٩٩

(٥٠) الاغانى ١٩ / ١٠٢ « ساسى »

(٥١) المرجع السابق ١٩ / ١٠٤

نفارقتها رفقا بامه ، فجعل يزداد به الوجد ، حتى امتنع عن الطعام  
والشراب ، فحمل الى الكعبة (٥٢) .

تتشابه هذه القصص الثلاث ، كما تتشابه كثير من قصص العشاق ،  
لان قصة الحب ومايتعلق به قصة شعبية اخرى بها العامة ، فكانوا يتسامرون  
بها ، ويديرون احداثها على من يشاءون من الاسماء ، التي قد تكون  
حقيقية ، او خيالية ، فالعاشق مرة هو ابن العجلان ، ومرة هو عروة  
ابن قيس ، ومرة هو قيس بن ذريح .

#### ابن الطبرية :

كان بين قشير وجرم بلاء وحرب ، يتربص كل فريق بالآخر ،  
ويتغزل في نسائه ، وينشد الاشعار للنيل منه ، يتقاتلون على الرعى ،  
ويقتتلون بسبب الغيث .

أمحل الناس « حتى ذهبت الدقيقة من المال ونهكت الجليلة »  
وأصاب جرم « السنة والجذب والمجاعة ودقة الاموال وأشرفوا على  
الهلكة » فانطلقوا يضربون في الارض بحثا عن سبب للرزق ومصدر  
للخير .

وتسامع الناس أن « الربيع قد وقع في بلاد بني قشير فانتجعوها  
وطلبوها ، فاقبل صرم من جرم لم يجدوا بدا من رمى قشير بأنفسهم »  
ومن الاستجارة بها « انما جئنا مستجيرين غير محاربين » .

قالوا :

— مماذا

— من السنة والجذب والهلكة التي لا باقية لها .

وتغلب الخلق العربي فاجارتهم قشير وسالمتهم وأرعتهم طرفا من  
بلادها .

\*\*\*

كان في جرم فتى يقال له مياد ، غزلا ، حسن الوجه ، تمام  
القامة ، آخذا بقلوب النساء ، فغدا الى القشريات يطلب منهن الغزل  
والصبا والحديث ، واستبraz الفتيات عند غيبة الرجال واشتغالهم بالسقى  
والرعية « ولكن القشريات كن من اللئفة والعزة » فدفعنه عنهن وأسمعنه  
ما يكره ، وزاحت رجالهن عليهن وهن مغضبات ، فقال عجائز منهن :  
— والله ما ندرى ، أرعيتم جرما الرعى ، أم أرعيتموهم نساءكم ؟

فأشدد ذلك عليهم فقالوا :

— وما ادراكه ؟

قلن :

— رجل منذ اليوم ظل مجحرا لنا ، ما يطلع منا رأس واحدة يدور

بين بيوتنا . فقال بعضهم :

— بيتوا جرما فاصطلموها .

وقال بعضهم :

— فبيح ، قوم قد سقيتموهم مياهكم ، وأرعيتموهم مراعيكم ، وخلصتموهم بأنفسكم ، وجرتموهم من القحط والسنة ، تفتاتون عليهم هذا الافتيات ، لاتفعلوا ، ولكن تصبحون وتقدمون الى هؤلاء القوم في هذا الرجل ، فانه سقيه من سفائهم فليأخذوا على يديه ، فان يفعلوا فأتوا لهم احسانكم ، وان يمتنعوا ويقروا ما كان منه يحل لكم البسط عليهم وتخرجوا من ذمتهم » .

\*\*\*

فلما أصبحوا غدا نفر منهم الى جرم ، فقالوا :

— ما هذه البدعة التي قد جاروتمونا بها ؟ . ان كانت هذه البدعة

سجية لكم فليس لكم عندنا رعاء ولا اسقاء ، فبرزوا لنا أنفسكم ، واذنوا بحرب وان كان افتئاتنا فغيروا على من فعله » .

فقام رجل من جرم وقال :

— ما هذا الذي نالكم ؟

قالوا :

— رجل منكم أمس ظل يجر اذياله بين أبيتائنا ما ندرى علام كان

أمره ؟ . ففقهت جرم من جفاء القشيرين وعجرفتها ، وقالوا :

— أنكم لتحسون من نساكنكم ببلاء الا فابعثوا الى بيوتنا رجلا ورجلا .  
قالوا :

— والله ما نحس من نساكننا ببلاء وما نعرف منهن الا العفة والكرم ،  
ولكن فيكم الذى قلتم .

— فانا نبعث رجلا الى بيوتكم يابنى قشير اذا غدت الرجال واخلف  
النساء ، وتبعثون رجلا الى البيوت ، ونتحالف انه لا يتقدم رجل منا الى  
زوجة ولا أخت ولا بنت ولا يعلمها بشيء مما دار بين القوم ، فيظسل  
كلاهما فى بيوت أصحابه حتى يردا علينا عشيّة الماء وتخلّى لهما البيوت  
ولا تبرز عليهما امرأة ولا تصادق منهما واحدا فيقبل منهما صرف ولا عدل  
الا بموثق يأخذه عليها وعلامة تكون معه منها .

قالوا :

— اللهم ، نعم .

\*\*\*

غدا يزيد بن الطثيرة الى الجرميات ، فظل عندهن باكرم مظل ،  
لا يسير الى واحدة منهن الا افتتنت به ، وتابعت الى العودة والاخاء ،  
وقبض منها رهنا ، وسالته الا يدخل من بيوت جرم الا بيتها ، فيقول :  
لا ، واى شيء تخافين ، وقد أخذت منى الموائيق والعهود ، وليس لاحد  
فى قلبى نصيب غيرك . حتى صليت العصر ، فانصرف يزيد بفتح كثير  
وذيل وبراقع ، وانصرف مكحولا مدهونا ، شبعان ريان مرجل اللمة .

وغدا مياد الجرمى الى القشيريات ، ولكنه ظل « يدور بين بيوت  
القشيريات ، مرجوما مقص لا يتقرب الى بيت الا استقبلته اللواتى  
بالعمد والجنادل ، فتهالك لهن ، وظن انه ارتياذ منهن له حتى اخذه  
ضرب كثير بالجنادل ، ورأى البأس منهن وجهه العطش ، فانصرف حتى  
جاء الى سمرة قريبا الى نصف النهار ، فتوسد يده ونام تحتها نومة ،  
حتى أفرجت عنه الظهيرة ، وناعت الاظلال ، وسكن بعض ما به من

الم الضرب ، وبرد عطشه قليلا ، ثم قرب الى الماء على القوم قبل يزيد ، فوجد أمة تزود غنما في بعض الظعن ، فأخذ برقعها فقال : هذا برقع واحدة من نسائك ، فطرحه بين يدي القوم وجاءت الأمة تعدو خلفه فتعلقت ببرقعها ، فرده عليها وخجل مياد خجلا شديدا .

وجاء يزيد ممسيا وقد كاد القوم أن يتفرقوا ، فنثر كمه بين أيديهم ملآن براقع وذبلا وفتخا وقد حلف القوم ألا يعرف الرجل شيئا إلا رفعه ، فلما نثر ما معه اسودت وجوه جرم ، وأمسكوا بأيديهم امسكة ، فقالت قشير : انتم تعرفون ما كان بيننا بالأمس من العهود والمواثيق وتخرج الاموال والاهل فمن شاء أن ينصرف الى حرام فليمنك يده . فبسط كل رجل يده الى ما عرفه ، فأخذه وتفرقوا عن حسرب ، وقالوا : هذه مكيدة يا قشير .

\*\*\*

تفرق القوم عن حرب ، ورجعت بينهما العداوة والبغضاء واتصلت الاشعار تعاود رسالتها ، فتذب عن قبيلتها ، وتثلم القبيلة الأخرى ، وتطاول الأمر بين مياد ويزيد :

فقال يزيد :

فان شئت يا مياد زرنا وزرتم ولم تنفس الدنيا على من يصيبها  
ايذهب مياد بالباب نسوتى ونسوة مياد صحيح قلوبها  
وقال مياد :

لعمرك ان جمع منى قشير لجرم في يزيد لظالمونا  
اليس الظلم ان أباك منا وانك في كتيبة آخريتنا  
أحالفه عليك بنو قشير يمين الصبر أم متحرجونا

\*\*\*

ويلى يزيد بعشق جارية من جرم فى ذلك اليوم ، يقال لها  
وحشية وكانت من أحسن النساء ، ونافرتهم جرم ، فلم يجد اليها سبيلا ،  
فصار من العشق الى أن اشرف على الموت ، واشتد به الجهد .

فجاء اليه ابن عم له ، يقال له خليفة بن بوزل ، بعد اختلاف  
الاطباء وياسهم منه ، فقال له :

- يا بن عم ، قد تعلم انه ليس الى هذه المرأة سبيل ، وان التعزى  
أجمل ، فما أريك فى أن تقتل نفسك ، وتائم بريك ؟

قال :

- وماهى - يابن عمى - بنفسى ، ومالى فيها امر ولا نهى ، وما  
هى الا نفس الجرمية ، فان كنت تريد حياتى ، فارنيها .

قال :

- كيف الحيلة ؟

قال :

- تحملنى اليها .

فحملة اليها ، وهو لا يطمع فى الجرمية : الا أنهم كانوا اذا قالوا  
له : نذهب بك الى وحشية ، أبل قليلا ، وراجع ، وطمع ، واذا أيس  
منها ، اشتد به الوجع . فخرج به خليفة بن بوزل ، فتخلل به اليمن ،  
حتى اذا دخل فى قبيلة ، انتسب الى أخرى ، ويخبر انه طالب حاجة .

وصارا بعد زمان الى حى وحشية ، فلقيا الرعيان ، وكنتا فى جبل  
من الجبال فجعل خليفة ينزل ، فيتعرض لرعيان الشاء ، فيسألهم عن  
راعى وحشية ، حتى لقي غلامها وغنمها ، فواعدهم موعدا ، وسألهم :  
ما حال وحشية ؟ فقال غلامها : هى والله بشر ، لاحفظ الله بنى قشير ،  
ولا يوما رأيناها فيه ، فما زالت عليلة منذ رأيناها . فقال : ويحك .  
فان هاهنا انسان يداويها ، فلا تقل لأحد غيرها . قال : نعم ، ان شاء  
الله تعالى .

« وجنح الليل ، وانحدر بين مرعى غنمه ، حتى أراحها ، ومثى فيها يزيد حتى قرئت من البيت على أربع ، وتجلل شملة سوداء بلسون شاة من الغنم ، فصار إلى وحشية ، فسرت به سرورا شديدا ، وأدخلته سترا لها ، وجمعت عليه من الغد من تثق به من صواحباتها وأترابها ، وقد كان عهد إلى ابن عمه أن يقيم في الجبل ثلاث ليال ، فإن لم يره ، فليصرف ، فأقام يزيد عندها ثلاث ليال . ورجع إلى أصح ما كان عليه ، ثم انصرف فصار إلى صنّاحيه ، فقال : ما وراءك يا يزيد ؟ ورأى من سروره وطيب نفسه ما سره فقال :

لو أنك شاهدت الصبا يابن بوزل      بفرغ الغضى إذ راجعتنى غياطله  
لشاهدت لهما بعد شحط من النوى      على سخط الأعداء حلوا شمائله  
ويوما كابها القطاسة ، مزيتا      لعينى ضحاه ، غالبا لى باطله »

\*\*\*

تلك هي قصة ( ابن الطثرية ) ، حرصت أن أكون فيها ناظرا أكثر منى كاتبا ، فلم أحشر فيها نفسى إلا بجملة أو جملتين ( ٥٣ ) . وذلك حتى يتبين القارىء بنفسه روعة القصص العربى ، وحتى يلمس السلاسة فى استعمال اللغة ، ويدرك البناء القصصى لهذا النوع من القصص .

وقد حدثت هذه القصة فى بادية اليمامة ، ولم تحدث فى بادية الحجاز ، ويزيد فيها طرف وسط بين ابن أبى ربيعة والمجنون ، مرة يحظى من الجرميات بما كان يحظى به عمر فينصرف متهن « مكحول مدهونا ، شبعان ريان ، مرجل اللمة » ، ومرة يحال بينه وبين وحشية « فيشرف به العشق على الموت ، ويشدد به الجهد » ، ولكنه كان يلتقى بها وينشد اشعارا فيها سرور وطيب نفس ، بل كان يلتقى بوحشية ،

( ٥٣ ) الاغانى ٨ / ١٥٧ - ١٦٣ دار الكتب والجمل الموضوعات بين علامات التنصيص ، منقولة عن هذا المرجع .



رغم عمها ، ويواعدها ويقول فى ذلك الاشعار . ويخاطب عمها بأن وحشية « تأتى الذى تهوى مخلقى طريقها » .

ولا تصرف هذه القصة ، كما اسرفت بعض قصص الحجازيين فى ذلك الجو المظلم ، ولا تبيح للسلطان أن يتحكم فى مجرى القصة وفى مقادير شخصياتها ، فهو لا يهدر دم يزيد ، وبذلك يكون سببا فى زيادة العقبات والاهوال التى يلاقىها العاشق ، وتجعل سبب العقبات تلك العداوة التى كانت بين جرم وقشير ، وحين ارادت القصة أن تجرى مع التقليد الذى يعنى تدخل الحاكم ، اكتفت بأن الحاكم رجا أخاه ثورا أن يؤديه .

وعشق يزيد ، الذى شابه من بعض جوانبه عشق العذريين الحجازيين ، يدل على أن هذا الميل . يرجع - أولا وقبل كل شئ - الى تلك البيئة البدوية ، التى تغرس هذا الميل فى نفوس أهل البدو ، سواء كانوا من أهل اليمامة ، أو من أهل الحجاز . وخاصة أن يزيد « يمثل هؤلاء الفتيان من أهل البادية المتعمقة فى بداواتها ، الذين كانوا يحيون حياة حرة طليقة لا تكاد بشئ خارجى ، وإنما تصدر عن الطبيعة المطلقة المرسله » ، ( ٥٤ ) . ويضعف من أهمية العامل الدينى الذى بالغ فيه بعض الناس ( ٥٥ ) ، فلم يكن يزيد شديد التأثر بالدين ، فقد كان يحيا حياة حرة طليقة ، لا تكاد تتأثر بشئ خارجى ، وإنما تصدر عن الطبيعة المطلقة المرسله ، ويبدو لى أن أهل اليمامة ، كان تأثرهم بالاسلام قليلا ، وقد ارتد كثير منهم بعد وفاة النبی عليه السلام ، وتابعوا مسيلمة الكذاب ( ٥٦ ) .

أصدق أنه كانت بين جرم وقشير حرب من أجل المرعى والغيث ، ومن أجل ذلك كانت تنشد بينهما الاشعار ، مرة بين يزيد ومياد ، ومرة

( ٥٤ ) حديث الاربعاء ١ / ٣٤٧ .

( ٥٥ ) المرجع السابق ١ / ٢٢٧ .

( ٥٦ ) مروج الذهب ٢ / ٥٠٤ « مطبعة الاستقامة » سنة ١٣٧٥ هـ .

بينه وبين فديك . ولكنى لا أصدق أن لهذه القصة صفة الواقعية التاريخية ، بل هى نوع من السلاح الذى كان يشهره القشيريون فى وجوه جرم ، فالعداوة بينهما كانت حادة عنيفة ، تلجئ الخصم الى استخدام أى سلاح يمكنه ، فكان بنو قشير يلجئون مرة الى الاشعار تفضح الجرميات ، واخرى يخترعون القصص تنال أيضا منهم .

هذه القصة - اذن - موضوعة ، وضعت للتشهير بنساء بنى جرم ، ويفوح هذا فى كل اجزائها ، فالغزل فى جرم جائز ، ولكنه فى بنى قشير نائرة . ومع ذلك فان القاص يفصح نفسه ، فبالرغم من أن الغزل فى هذه القبيلة جائز ، وأنهم يعرفون ذلك ، فكانوا يتعجبون من كبرياء بنى قشير وعجرفتهم ، اذا بهم يعرضون حلا عجيبا ، سيؤدى - بالتاكيد - الى فشلهم يطلبون من بنى قشير أن يبعثوا رجلا منهم الى بيوتهم ، على أن يبعث الجرميون رجلا الى خيام قشير ، ثم ينتظرون النتيجة التى ستسفر عن أى النساء أكثر حزما وصلابة ، وحتما ستكون النتيجة هزيمة الجرميين . وبالفعل أولع نساء جرم بيزيد ، وكن يواعدنه ويخرجن اليه ، ويتحايين على لقاءه بالرغم من تهديدات ذويهن واقاربهن ، وتستطيع أن تشم أن تلك القصة تبغى تمجيد القشيريين ، والاشادة بعفة نسائهم ، من تلك الاشعار التى صاحبت هذه القصة فانك ترى - من هذه الاشعار - أن نسوة يزيد ، لم يكن أكثر تصونا من نسوة مياد . قال يزيد :

ايذهب مياد بالباب نسوتى ونسوة مياد صحيح قلوبها  
واذا كان يزيد قد اعترف بان ميادا يذهب بالباب نسوته ، فان ميادا من ناحيته يعير يزيد بسوء سلوك امه فيقول :

لعمرك ، ان جمع بنى قشير لجرم فى يزيد لظالمونا  
اليس الظلم أن اباك منا وانك فى كتيبة اخيرنا

\*\*\*

والأسلوب فى هذه القصة ، ليس أسلوبا مبتذلا مهلهلا ، بل هو أسلوب قوى متين ، ولكنه - فى الوقت نفسه - واضح مشرق . ولتقرا هذا الأسلوب مرة أخرى « ... يدور بين بيوت القشريات ، مرجوما ، مقصى ، لا يتقرب الى بيت ، الا استقبلته الولائد بالعمد والجندل . فتهالك لهن ، وظن انه ارتياد منهن له ، حتى أخذه ضرب كثير بالجندل ، ورأى البأس منهن ، وجهده العطش ، فأنصرف ، حتى جاء الى سمرة ، قريبا الى نصف النهار ، فتوسد يده ، ونام تحتها غائمة ، حتى أفرجت عنه الظهيرة ، ونامت الظلال ، وسكن بعض ما به من ألم الضرب ... » وفى هذه القصة كثير من الجمل المختقة ، مثل : « فاقبل صرم من جرم ، لم يجدوا ندا من رعى قشير بأنفسهم » . « ذهبت الدقيقة من المال ، ونهكت الجليظة » . « والله ما ندرى أرعيتم جرما المرعى ، أم أرعيتموهم نسائكم ؟ » « ظل مجعرا لنا ، ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا » . « ببقوا جرما فاصطلموها » . « فبرزوا عنا انفسكم وأذنوا بحرب » ... الخ .

وهذه القصة غنية بالاحداث والمفاجآت ، فيزيد يكسب الرهان لقومه ، ويثبت لهم قوة أسره على الجرميات ، وتهافتهن ، ولكنه من ناحية أخرى يقع فى حب وحشية ، وبهذا تنتقل الى مجال آخر . فتتحدث عن حب يزيد ووحشية ، ذلك الحب الذى أثر على يزيد ، وجعله يتبع هواه ، ويتحایل على الوصول الى حبيبته . وهنا تطلعننا القصة على لون من الفكاهة طريف ، فقد اندس يزيد وسط غنم حبيبته ، ومضى على أربع ، وتجلل شمله سوداء بلون شاة من الغنم .

وهذه القصة ذات دلالات مختلفة ، فهم تدل على نوع الحياة التى كان يحياها فريق من البدية ، وعلى لون العيش الذى يعيشونه ، فانظر الى أثر الماء على حياة البادية ، وما يجره على أهلها من رحلات وتنقلات . وانظر الى الحروب والغارات التى تحدث بين القبائل ، وانظر الى العلاقات بين الرجال والنساء التى فيها شيء من الحرية والاختلاط . وانظر الى الخلق العربى فى تسامحه وتساهله ، فقد

أجارت بنو قشير جرما ، ونسيت ما كان بينهما من عداوة وبغضاء .  
وهذه الحياة بما فيها من تلك المظاهر ، امتداد لحياة الجاهليين ، وكان  
اثر الاسلام فى تلك القبائل المتبدية ، وفى تغيير اقتصادياتها ،  
وعاداتها ، ضعيف .

ومن العجيب أن لاحظ أن الكتب العربية القديمة التى تحدثت  
عن أخبار العشاق ، لم تول لهذه القصة من العناية والاهتمام ما أولته  
لقصص أخرى ، مثل قصة المجنون وقصة جميل ، فيكاد لا يخلو كتاب  
من هذه الكتب الا وقد تحدث أو ذكر نتفا عن جميل أو المجنون ، أو حتى  
كثير ، الذى يعتبره بعض الاقدمين (٥٧) والمعاصرين (٥٨) ، دعى  
متكلف فى حبه .

وربما كان السبب ، أن المجنون وقيسا وجميلا ، لا قوا مصاعب  
ومتاعب ، أكثر مما لاقى يزيد ، وكان عشقهم عذريا لم يخالطه شيء .  
أما يزيد فقد كان حبه وسطا بين العذرية والحسية ، فله - بجانب عشقه  
لوحشية عشقا مبرحا - مغامرات ماجنة (٥٩) ، وشعر مفضوح (٦٠) ،  
وهو فى مجونه واقتضاحه يختلف عن ابن أبى ربيعة ، الذى يشبه  
حمامة من حمامات مكة الآمنة . والعرب يأنفون من أمثال مغامرات  
يزيد الماجنة ، وشعره المفضوح .

وربما كان السبب ، أن جميلا وابن ذريح وكثيرا وعروة بن حزام  
وغيرهم ، كانوا من بادية الحجاز ، أما يزيد فقد كان من اليمامة .  
والرواة والمؤرخون اهتموا بالحجاز أكثر من غيره ، فقد كان الحجاز -  
قبل الاسلام - ذا مكانة اقتصادية وسياسية واجتماعية ، جعلت له مكان

---

(٥٧) الاغانى ٩ / ٣٢ « دار الكتب » .

(٥٨) حديث الاربعاء ١ / ٣٥٩ .

(٥٩) الاغانى ٨ / ١٦٥ ( دار الكتب ) .

(٦٠) المرجع السابق ٨ / ١٧٢ .

الصدارة فى شمال الجزيرة العربية ، حتى هيات للإسلام أن يشرق فيه ،  
مما جعل الأضواء تتسلط عليه أكثر وأكثر ، ففى مكة ولد الرسول  
عليه السلام ، وإلى يثرب هاجر ، ولهذا لا نعجب حين نرى أن تآثر  
الحجازيين بالإسلام ، كان أكثر من تآثر أهل اليمامة .  
ربما كان السبب هذا ، أو ذاك ، وربما كان الأمرين معا .

## مأساة عاشق :

حدث أحد الرواة

« خرجت في نشدان ضالة لى ، فاوانى المبيت الى خيمة اعرابى ،  
فقلت : هل من قرى ؟ فقال لى : انزل ، فنزلت ، فثنى لى وسادة ،  
واقبل على يحدثنى ثم اتانى بقرى ، فاكلت . فبينما انا بين النائم  
واليقظان ، اذا انا بفتاة قد اقبلت لم أر مثلها جمالا وحسنا ، فجلست ،  
وجعلت تحدث الاعرابى ويحدثها ، ليس غير ذلك ، حتى طلع الفجر ،  
ثم انصرفت ، وقلت : والله لا أبرح موضعى هذا حتى اعرف خبر الجارية  
والاعرابى . قال : فمضيت فى طلب ضالتي يوما ، ثم اتيت عند الليل  
فاتى بقرى ، فبينما انا بين النائم واليقظان ، وقد ابطأت الجارية عن  
وقتها ، فلق الاعرابى ، فكان يذهب ويجيء ، وهو يقول :

ما بال مية لا تأتى كعادتها	عاجها طرب أم صادها شغل
لكن قلبى عنكم ليس يشغل	حتى الممات ومالى غيركم أمل
لو تعلمين الذى بى من فراقكم	لما اعتذرت ولا طابت لك العلل
نفسى فداؤك قد احللت بى مقما	تكاد من حره الأعضاء تنفصل
لو أن غاديه منه على جبل	لماد وانهد من أركانه الجبل

ثم اتانى فأنبهنى ، وقال : أن خلتي التى رايت بالأمس قد  
ابطأت على ، وبينى وبينها غيضة . وقال : ولست آمن عليها ، فانظر  
ما ها هنا ، حتى اعلم علمها . ثم مضى ، فابطا قليلا ، ثم جاء بها  
يحملها ، واذا السبع قد اصابها ، فوضعها بين يدي ، ثم اخذ سيفه  
ومضى . فلم أشعر الا وقد جاء بالأسد يجره مقتولا ، ثم أنشأ يقول :

الا بها الليث المضر بنفسه	هبلت لقد جرت يدك لك الشر
اخلفتنى فردا وحيدا مدلها	وصيرت أناق البلاد لها قيرا
أصبح دهرنا خائنى بفراقها	معاذ الهى أن اكون لها يرا

ثم أقبل على فقال : هذه ابنة عمى كانت من أحب الناس الى «  
فمتعنى أبوها أن تزوجها ، فزوجه رجل من أهل هذه الأبيات ،  
فخرجت من مالى كله ، ورضيت بالمقام ها هنا على ما ترى ، فكانت  
إذا وجدت خلوة أو غفلة من زوجها ، اتنتنى فحدثتنى وحدثتها كما رأيت ،  
ليس شيء غيره ، وقد آليت على نفسى ألا أعيش بعدها فاسالك بالحرمة  
التي حرت بينى وبينك إذا أنا مت فلفنى وإياها فى هذا الثوب ،  
وأدفنا فى مكاننا واكتب على قبرى هذا الشعر :

كنا على ظهرها والدهر فى مهل والعيش يجمعنا والدار والوطن  
ففرق الدهر بالتصريف الفتنا فالיום يجمعنا فى بطنها الكفن  
تم اتكا على سيفه فخرج من ظهره ، فسقط مغشيا عليه ، فللفتهما  
فى الثوب وحفرت لهما ، فدفنتهما فى قبر واحد ، وكتبت عليه كما  
أمرنى » .

\*\*\*

حرصت أن أنقل (٦١) هذه القصة بدون تدخل أو تغيير ، حتى  
لا أفسد فيها هذا الجو الساذج ، وحتى تنتقل معى الى هذه السذاجة ،  
واليسر ، وتلك المواقف الأسطورية ، وبذلك تؤمن معى أن هذه القصة  
من أصلح الأشياء لأن تتحول الى « أوبرا موسيقية » ففيها  
هذا الجو الساذج ، وتلك المواقف الرائعة . وتصور معى تلك المواقف  
الخلابة وقد اضيفت اليها الموسيقى التصويرية المعبرة ، موقف الاعرابى  
وهو يحمل معشوقته على كتفه ، أو موقفه وهو يجرجر الأسد وينشد  
الاشعار ، أو موقفه وقد اتكا على سيفه فخرج من ظهره ، أو موقف  
الرجل الذى لفهما فى ثوب واحد ، ودفنتهما فى قبر واحد ، وكتب  
عليه أبياتا من الشعر (٦٢) .

(٦١) مصارع العشاق ص ٢٢٩ ( مطبعة التقدم ) ، ص ٢٩٥  
( مطبعة الجوائب ) .  
(٦٢) انظر مقالا لى بمجلة الرسالة تحت عنوان ( اوبرات عربية )  
« العدد ١٧٩ » .

وهذه القصة خير شاهد على وظيفة الشعر فى القصص العربى .  
فهو هنا يتطور بالحركة الفنية الى الامام ، ويعبر عن أشياء تعبيرا يعجز  
النثر عن ادائه . يلقى الاعرابى فليجا الى الشعر ، كوسيلة للتعبير عن  
فلقه واضطرابه ، وينتقم من السبع ويجره ، فيعبر عن انفعاله بأبيات  
من الشعر . ثم يريد أن يلخص مأساته حكمة للاجيال ، وتخليدا على  
الدهر ، فيلخصها فى بيتين من الشعر ، يكتبهما على قبره .

\*\*\*

وقد اهتمت الكتب العربية القديمة بهذه القصة .  
فقد ذكرها صاحب التزيين ، وهو يشبه صاحب المصارع فى ايراده  
لها ، وان كان يختلف عنه فى اشياء يسيرة ، كان يعبر صاحب التزيين  
عن الفتاة بانها « كاحسن ما يكون من النساء » بينما يقول فى المصارع  
« لم أر مثلها جمالا وحسنا » ... الخ .  
ثم ان صاحب التزيين لم يذكر الابيات التى أنشدتها الاعرابى وهو  
يجر الاسد .

وذكرت هذه القصة أيضا فى الموشى ، ولكن الذى رواها هو جميل.  
ابن معمر العذرى ، فقد قال له عبد الملك بن مروان : « يا جميل ،  
حدثنى ببعض احاديث عذرة » فانه يبلغنى انهم اصحاب ادب وغزل ..  
قال : نعم ، يا امير المؤمنين ... »

وذكرت أيضا فى ذم الهوى عن جميل بن معمر العذرى أيضا .

وابن الجوزى يتشابه مع الوشاء فى اشياء كثيرة ، ولا يختلف عنه  
الا فى تغييرات لفظية طفيفة . كان يقول جميل فى ذم الهوى « انتجعوا  
عن حيهم مرة ، فوجدوا النجعة بموضع نازح فقطنوه » ولكنه يقول  
فى الموشى « ان آل بثينة انتجعوا الحى وقطنوا بلدا آخر » . ثم ان  
ابن الجوزى يزيد بيتا بعد البيتين اللذين ذكرهما الاعرابى وهو يجسر  
الاسد ، وذلك البيت الثالث هو :



أقول لدهر خائننى بقراقبه معاذ الهى أن اكون له خدنا  
وقد ذكر صاحب المصارع هذا البيت ، ولكن بصيغة مختلفة ، كما  
رأيت آنفا .  
ويبقى بعد ذلك التشابه الكبير بين السراج وداود الانطاكى ،  
والتشابه الكبير بين الوشاء وابن الجوزى .

فالاولان قد ذكرا أن الراوى قد خرج فى نشدان ضالة له فإواه  
المبيت عند خيمة اعرابى ، فلما جن الليل اذا بفتاة جميلة تقبل وتجلس  
من الاعرابى ويتحدثان حتى مطلع الفجر ، حتى كانت ليلة لم تقبل  
هذه الفتاة كعادتها ، فيتململ الاعرابى ويقوم ويعقد ، وينشد الاشعار ،  
ثم يوقظ ضيفه ويخبره بقلقه ، وبانه يخشى على خلته من سبع فى الطريق  
ويلتمس منه أن ينظر ما ها هنا حتى يعلم الخبر . ثم مضى وعاد بعد  
قليل وهو يحملها بين يديه مقتولة ، وياخذ سيفه ويمضى به اثر الاسد .  
ويعود به مجندلا وهو ينشد الاشعار . ثم بعد ذلك يذكر لضيفه قصة  
انفتاة ، ويوصيه وصيته .

أما جميل فيذكر أنه خرج يريد بثينة ، فغلط الطريق ، فلما جنة  
الليل لاحت له نار فقصدها ، فاذا هو برام فى أصل جبل قد الجأ غنمه  
الى كهف ، فينزل ضيفا عليه ، ولكن يسمعه فى الليل يبكى ويشكو الى  
شخص ، فيسأله فى الصباح عن حاله ، فيقص اسمه ونعته وخبره ، وأنه  
كان يهوى ابنة عم له ، فابى أبوها أن يزوجه منه لقلة ذات يده ،  
وزوجه الى رجل آخر ، وأنه تنكر ورضى أن يكون راعيا لزوجهما ،  
وبذلك ضمن أن يراها وأن تراه . حتى كانت ليلة لم تحضر فيها ابنة  
عمه ، فتقلق وغلبه الشوق ، وجعل ينشد الشعر . ثم ترك جميلا  
ومضى ليرى الامر . ثم عاد وعلى يديه شيء محمول ، وقد علا شهيقه  
وسحيبه ، فاذا هو ابنة عمه قد اعترضها السبع . ثم أخذ سيفه ومضى  
وابطا حتى يتس جميل من عودته . ولكنه عاد ورأس الاسد على يده ،

فوضعه وجعل ينكت على أسنانه هو ينشد الشعر ، ثم أوصى جميلاً بوصيته ، وعمد الى خناق ، فجعل يخفق نفسه حتى مات .

جميل يبدأ بذكر عشق ذلك الاعرابي وخبره مع ابنة عمه ، ثم يذكر بعد ذلك خبر السبع ومأساته . أما في المصارع وفي التزيين فيذكر الراوي خبر السبع أولاً ، ويؤخر كشف حقيقة الاعرابي وحقيقة فتاته بعد ذلك .

قد يكون جميل منطقياً من حيث الترتيب الزمني . ولكن نجد صنيع الراوي الآخر أقوى من الناحية القصصية ، فهو يؤخر كشف أوراقه ، وتوضيح ما عنده حتى يثير الشوق ، ويجذب الانتباه . فيذكر أن اعرابياً لا يعرفه وفتاة لا يعرفها يتحادثان طيلة الليل ، فيقسم ألا يبرح موضعه حتى يعرف خبرهما ، ثم تأتي ليلة فتتأخر الفتاة ويقلق الاعرابي ، ثم يمضي فيجىء بفتاته مقتولة ، فيضعها ، ثم يمضي ويجىء بسبع مقتول ، وبعد ذلك يعرف خبره وخبر الفتاة والسبع . وبذلك يصير الأمر أكثر تشويقاً .

على أنك لن تجد في خبر جميل أشياء فنية مشوقة لا تجدها في خبر الراوي الآخر . فجميل يفيض في المقدمة ، ويمهد للحادثة . بينما الراوي الآخر يقتطع ذلك . فبينما يقول : « خرجت في نشدان ضالة لي ، فأوانى المبيت الى خيمة اعرابي ، فقلت : هل من قرى ؟ فقال له انزل . فنزلت . فثنى لي وسادة ، وأقبل على يحدثني » ، اذا بجميل يفيض في هذا ويمهد فيقول : انه دخل على عبد الملك وطلب منه ان يحدثه ببعض أحاديث عذرة . فقال : « نعم يا أمير المؤمنين ، ان آل بئينة انتجعوا الحى ، وقطنوا بلداً آخر ، فخرجت أريدكم فغلطت الطريق وجننى الليل ، ولاحت لي نار فقصدتها حتى دنت ، ووردت على راع في أصل جبل ، قد ألجا غنمه الى كهف في الجبل ، فسلمت . فرد على السلام ، وقال : احسبك قد ضللت الطريق قلت قد كان ذلك ، فارشدني . قال : بل انزل حتى تريح ظهرك ، وتبيت ليلتك ، فإذا

الى شاة فذبحها ، وأجج نارا ، وجعل يشوى ، ويلقى بين يدى ،  
أصبحت وقفنك على الطريق ، فنزلت ، فرحب بى وأكرمنى ، وعمد  
ويحدثنى فى خلال ذلك « (٦٣) » .

وجميل ماهر فى أنه يعمد الى أشياء فيخفيها ، وبذلك يثير  
التشويق والتشوف ، بينما نجد الراوى الآخر يوضح هذه الأشياء  
ولا يخفيها . فبينما يقول جميل : « فلما كان فى الليل سمعته يبكى  
ويشكو الى شخص كان معه » ، يقول الآخر : « واذا أنا بفتاة قد أقبلت  
ثم أر مثلها حسنا وجمالا ، فجلست ، وجعلت تحدث الاعرابى ويحدثها »  
أو بينما يقول جميل : « فلم يلبث أن أقبل وعلى يده شىء محمول ،  
وقد علا شهيقه ونحيبه » ، يقول الآخر : « ثم جاء بها يحملها » .

#### الاعرابى الطريف والحسناء الفاتنة :

تزوج اعرابى طريف ابنة عم له ، فلما اصابته نائبات الزمان ،  
وحادثات الدهر على حد تعبيره ، رغب عنه ابوها ، فاشتكاه الى ابن  
أم الحكم ، واذا بهذا يعجبه جمال المرأة ، فيعطى اباها عشرة آلاف  
درهم ، ويجلس الاعرابى ، فيضطر الى طلاقها . ثم يأتى الى معاوية ،  
ويشكو اليه عامله ، ويقول له ، وهو يبكى :

فى القلب منى نار	والنار فيها شنار
وفى قوادمى جمر	والجمر فيها شرار
والجسم منى نحيل	واللون فيه اصفرار
والعين تبكى لشجو	فدمعها مدارار
والحب داء عسير	فيه الطبيب يحار
حملت منه عظيما	فما عليه اضطبار
فليس ليلى ليلا	ولا نهارى نهار

فأرسل معاوية الى ابن أم الحكم كتابا عظيما ، جاء فى آخره :

ركبت امرا عظيما لست أعرفه	استغفر الله من جور امرئ زان
قد كنت تشبه صوفيا له كتب	من الفرائض ، أو آيات فرقان
حتى أتانى الفتى العذرى منتحب	يشكو الى بحق غير بهتان
أعطى الاله عهدا لا أحنث بها	أولا فأبرا من دين وايمان
ان كنت راجعتنى فيما كتبت به	لا جعلنك لحما بين عقبان
طلق سعاد وفارقها بمجتمع	واشهد على ذلك نضر وابن طبيان
فما سمعت كما بلغت من عجب	ولا فعالك حقا فعل انسان

ويرد الكتاب الى ابن أم الحكم ، فيقول « وددت أن أمير المؤمنين ،

خلى بينى وبينها سنة ، ثم عرضنى على السيف « ويدور فى داخله صراع ، يطلقها أم يمسكها ، وأخيرا يزعجه الوفد ، فيتغلب على عاطفته ويغلب واجبه ، فيطلقها ، وتخرج سعاد ، فإذا هى « شكلة » ، غنجة ، ذات هيبة وجمال ، ويراهها الوفد فيقول : ما تصلح هذه إلا لأمير المؤمنين ، لا لأعرابى . فيرسلها ابن أم الحكم إلى معاوية . ويرد على كتابه ، يكتب من « البحر » نفسه ، ومن « القافية » نفسها :  
لا تحنن أمير المؤمنين وفى      بعهدك اليوم فى رفق واحسان  
وما ركبت حراما حين أعجبتى      فكيف سميت باسم الخائن الزانى  
وسوف تأتيك شمس ، لا خفاء بها      أبهى البرية ، من أنس ومن جان  
حوراء ، يقصر عنها الوصف ، ان      وصفت أقول ذلك فى سر وإعلان  
ويرد الجواب على معاوية ، فيقول : « ان كانت اعطيت حسن النعمة مع هذه الصفة ، فهى اكمل البرية » . ويستنطقها « فإذا هى أحسن الناس كلاما ، واكملهم شكلا ودلا » .  
قال معاوية للأعرابى : يا أعرابى ، هل من سلو عنها ، بأفضل الرغبة ؟

قال : نعم ، اذا فرقت بين رأى وجسدى ، ثم أنشأ يقول :  
لا تجعلنى والامثال تضرب بى      كالمستغيث من الرمضاء بالثار  
أردد سعاد على حبران مكتئب      يمسى ، ويصبح فى هم وتذكار  
قد شقه قلق ما مثله قلق      وأشعر القلب منه ، أى اشجار  
والله والله لا أنسى محبتهم      حتى أغيب فى رسم وأحجيار  
كيف السلو وقد هام الفؤاد بها      وأصبح القلب عنها غير صبار  
فغضب منه معاوية غضبا شديدا ، ولم يجد بدا من أن يخير الحيناء الفاتنة بينه ، وبين ابن أم الحكم ، وبين الأعرابى . وإذا بتلك الجميلة تختار الأعرابى ، وتؤثره على الثروة والجاه ، وتنشد :

هذا ، وإن أصبح في المصير . . . وكان في نقص من اليسار  
أعز عندي من أبي وجاري . . . وصاحب الدرهم والدينار  
أخشى أن غدرت حر النار

فقال معاوية : خذها ، لا بارك الله لك فيها . فانثا الاعرابي  
يقول :

خلوا عن الطريق للاعرابي . . . أن لم ترقوا ويحكم لما بي  
فضحك معاوية ، وأمر له بعشرة آلاف درهم + وثاقه ، ووطاء (٦٤)

\*\*\*

أرايت لتلك الحكاية اللطيفة ، التي تنتصف فيها الحسناء الغائنة  
للطيفة الفقيرة ، من الجاه والمال . وتلك الأشعار المنبثة في ثنايا القصة  
وعلى لسان كل أبطالها ، يشكو الاعرابي الى معاوية ، فينشده الأشعار ،  
فيكتب معاوية الى عامله شعرا ، فيرد عليه عامله بالشعر ، ويبكي  
الاعرابي أمام معاوية ، وينشده شعرا ، ويسأل معاوية الاعرابية عن  
رايها ، فتجيب بالشعر ، وينهى الاعرابي الحكاية ببيت من الشعر .

وانظر الى مقدرة أعرابى الخليل ، على القيام بوظيفة فنية في  
تلك الحكاية وعلى التشكل بحسب المواقف والظروف . فالموسيقى  
الشعرية في القصة السابقة لا تخرج عن التفعيلات : « مستعلن »  
و « فاعلاتن » . ولكن تلك الموسيقى قد اتخذت لونا على لسان معاوية  
وعامله . ثم اتخذت لونا آخر على لسان الاعرابي والاعرابية . وانظر  
الى تلك الموسيقى ، كيف تطول وتقصر بحسب الانفعال ، فالاعرابي  
تشتعل عاطفته ويشتد انفعاله ، فيشكو الى معاوية ، ويختار بحسب  
مجزوءا ، وتفعيلات سريعة ، تتناسب مع سرعة انفعاله ، ويختار

(٦٤) مصارع العشاق ص ١٧٨ : وانظرها أيضا في « ذم الهوى »  
مع اختلاف يسير في اللفاظ ص ٣٣٨ .

اللقافية حرف الراء وهو حرف يدق فيه اللسان سقف الحلق دقات متتالية ،  
فيقول :

فى القلب منى نار والنار فيها شزار  
( الى آخر الابيات )

وانظر الى التشابه الفنى بين موقفين متشابهين ، يكتب معاوية الى عامله ، فيرد عليه مدافعا عن نفسه ، ومستعملا النغمة نفسها التى استعملها معاوية فى اتهامه له . وتفضل الاعرابية عشيقها منشدة شعرا ، فينشد الاعرابى العاشق شعرا من البحر نفسه . وكان القاص - شعوريا او لا شعوريا - يرى انه ما دامت عواطفهما واهواؤهما مشتركة ، فليختر لهما نغمة واحدة ، وموسيقى متشابهة . وانظر الى هذا التوفيق الذى تصده القاص ، او جاءت به المصادفة ، فجعل الاعرابية والاعرابى فى آخر القصة ، ينشدان فى بحر الرجز ، وهو بحر سهل ميسور لىدى العامة ، يكثر فيه الجزء والحذف والزيادة . وكثير من الباحثين يعتبرون هذا البحر بحرا شعيبا ، ولعل هذا ما جعل أبا العلاء يختار جنسة للرجاز أدنى طبقة من جنة الشعراء .

وكم يكون جميلا لو أن باحثا جادا يتناول الشعر فى القصص العريى ، فيكشف لنا : هل أعاريض الخليل - بما اتيج لها من تصرف وزيادة - تستطيع أن تنهض للتعبير عن موقف النفس المختلفة ، وتشف عن الحركة الداخلية للنفس . وعلى ضوء الاجابة على هذا السؤال نستطيع أن نحكم : فيما اذا كان الحق لأصحاب الشعر الحر ، أو الحق عليهم فى اتهامهم الاوزان التقليدية بالعجز عن ملازمة الحركة الداخلية والقصور عن شفاافية الموقف النفسى .

وهنا ملاحظة : فالشعر فى هذه القصة وفى قصص أخرى مثلها ، يميل الى السهولة واليسر ، واختيار الألفاظ الدارجة والمفهومة ، التى لا تحتاج الى قاموس أو استفسار .

وهذا يختلف عن كثير من قصائد العصر الأموي ، التي تميل الى طول النفس ، وإيثار الأوزان الطويلة ، واختيار الألفاظ الفحلة ، التي لا يدرك معناها بسهولة ، والتي تعتبر امتدادا - الى حد كبير - لقصائد العصر الجاهلي .

وأى مقارنة بين شعر كثير من هذه القصص وبين شعر الشعراء الأمويين ، مثل مروان بن أبي حفصة ، والاختل ، والفرزدق - تؤكد ذلك .

قال بشار بن برد يفتخر ، وقد صاغ ذلك في البحر الطويل :

إذا ما غصبتنا غصبة مضرية  
هتكنا حجاب الشمس ، أو تمطر الدما

إذا ما أعرنا سيذا من قبيلة  
ذرى منبر ، صلى علينا وسلما (٦٥)

وقال كثير يمدح عبد الملك مروان . وقد صاغ ذلك في البحر الطويل :

جزتك الجوازي عن صديقك نصره  
وأدناك ربي في الرفيق المقرب

فانك لا يعطى عليك ظلامة  
عدو ، ولا تنأى عن المتقرب

وانك ما تمنع ، فانك مانع  
بحق ، وما أعطيت لم تتعقب (٦٦)

حتى في كثير من شعر الغزل ، تجد فرقا بينه وبين كثير من شعر

(٦٥) الاغانى ٣ / ٣١ « ساسى » .

(٦٦) الاغانى ٩ / ١٠ « دار الكتب » .



هذه القصص وخذ مثلا قول جرير يتغزل ، وقد صاغ ذلك في البحر الطويل :

الى الله اشكو أن بالغدور حاجة  
واخرى ، اذا ابصرت نجدا بدت ليا

نظرت برهبي والطعائن باللوى  
فطارت برهبي شعبة من فؤاديا (٦٧)

فكثير من شعر هذه القصص يؤثر السهولة واليسر ، ويميل الى الاوزان السهلة ، بينما يحافظ شعر الغزل على تماسكه ورونقه .  
وربما كان من أهم الأسباب ، التي أدت بشعر القصص الى هذه الدرجة ، هو أن هذه القصص شعبية ، يتناولها العامة ، ويسمر بها الناس في مجالسهم ، فكان من الطبيعي أن تنحوا هذا المنحى ، وأن تختار الاوزان والألفاظ التي تروق للعامة ، وتصلح مادة للسمر .

وقد أدرك بشار بن برد أن ما يرضى العامة غير ما يرضى الخاصة ، فقد قال له قائل : « بينما تقول شعرا تثير به النقع وتخلع القلوب مثل قولك : « اذا ما غضبنا غضبة مضرية ٠٠٠ الخ » - تقول :

ربابة ربة البيت      تصب الخل في الزيت  
لها عشر دجاجات      وديك حسن الصوت

فقال : كل شيء له وجه وموضع ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي ، وأنا لا أكل البيض من السوق ، وربابة هذه لها عشر دجاجات وديك ، وهي تجمع لى البيض عندها ، فهذا عندها من قولى ، أحسن من « قفائيك من ذكر حبيب ومنزل » عندك » (٦٨) .

فإذا كان بشار يميل الى السهولة واختيار الاوزان الخفيفة ، ارضاء لربابة وطمعا في بيعها ، فكذلك هذه القصص تنجح الى الشعر الخفيف السهل ، ارضاء للعامة ، وطمعا في جذبهم .

(٦٧) ديوان جرير ٧ / ١٦٦ .

(٦٨) الاغانى ٣ / ٣١ « ساسى » .

#### عاشقة قد رفع عنها الحجاب :

يقص الفرزدق تلك القصة بأوصاف والفاظ تليقان بشاعر مشهور ،  
فيقول : « ابنى غلامان لرجل من بنى نهشل ، يقال له الخضر . قال :  
فخرجت في طلبهما ، وأنا على ناقه لى عنساء أريد اليمامة . فلما  
صرت في ماء لبني حذيفة ، ارتفعت لى سحابة ، فرعدت وبرقت ،  
وأرخت عزاليها ، فعدلت الى بعض ديارهم ، وسألتهم القرى ،  
فأجابوا . فدخلت الدار ، وأنخت الناقة ، وجلست تحت ظلال من  
جريد النخل ، وفي الدار جويرية سوداء . اذ دخلت الدار جارية ،  
كانها فلقه قمر ، وكان عينيها كوكبان دريان ، سألت السوداء : من هذه  
العنساء ؟ فقالت : لضيفكم هذا . فعدلت الى ، فقالت : السلام عليك ،  
فقلت : وعليك السلام . فقالت لى : من الرجل ؟ فقلت : من بنى  
حنظلة . فقالت : من أى بنى حنظلة ؟ قلت : من بنى نهشل ، قالت :  
فانت الذى يقول فيك الفرزدق :

ان الذى سمك السماء بنى لنا بيتا ، دعائمه اعز وأطول  
بيتا زرارة محتب بفنائه ومجاشع ، وابو الفوارس نهشل  
قال : فقلت : نعم . فتبسمت وقالت : فان ابن الخطفى هدم عليه  
بيته وهو الذى يقول :

أخزى الذى رفع السماء مجاشعا وبنى بناءك بالحضيض الأسفل  
بيتا يحمم قينكم بفنائك دنس مقاعده ، خبيث المدخل  
قال : فاعجبتنى ، فلما رأت ذلك فى وجهى ، قالت : الى أين  
تؤم ؟ قلت : اليمامة .

قال : فتنتفت الصعداء ، ثم قالت : ها هى تلك أمامك ، ثم  
انشأت تقول :

يذكرني بلادا خير أهلى بها ، أهل المروعة والكرامة  
الا فسقى الملك أجش صوب يدر يسحه تلك اليمامة  
وحىي بالسلام أبا نجيد فاهل للتحية والسلامة  
قال : فانتست بها ، فقلت : اذات خدن أم ذات يعل ؟ فانشأت  
تقول :

اذا رقد الخلى ، فان عمرا هو القمر المضى المستنير  
ومالى بالتبعيل مستراح ولو رد التبعيل لى أسيرى  
قال : ثم سكتت مكتة ، كأنها تستمع الى كلامى ، ثم تهافتت ،  
وانشأت تقول :

يخيل لى أيا عمرو بن كعب كأنك قد حملت على سرير  
فان يك هذا يا عمرو انى مبرة عليك الى القبور  
قال : ثم شهقت شهقة فماتت . ويسأل عنهما الفرزدق ، فاذا هى  
بنت الضحاك بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، واذا عمرو هذا  
ابن عمها . ولما دخل اليمامة سأل عنه ، فاذا به قد دفن فى ذلك الوقت  
من ذلك اليوم « (٦٩) »

\*\*\*

تلك هى القصصة التى يديرون أحداثها على لسان الفرزدق ،  
ويزعمون أنه شاهدها بعينيه ، والعاشقة هنا شابة جميلة كأنها فلقة  
قمر ، وكان عينيها كوكبان دريان ، ذكية تحفظ الشعر وترويه بسل  
وتنشده ، تميزت بشخصية روحية شفاقة ، تبصر عن بعد ، ولهذا علق  
صاحب منازل الاحباب على هذه الحكاية بقوله : « وهذه الحكاية أعجب  
من جميع ما تقدم ، فان كلا من أولئك حصل له الموت عند تحقق اليأس

(٦٩) الزهرة ص ١٦١ . ومصارع العشاق ص ٦٣ . وأخبار  
النساء ص ٧٨ .

من محبوبه ، أما بمعينة موته أو إخباره بذلك ... أما هذا قلّطفت .  
نفسها إلى أن رفع بينها وبين محبوبها حجاب البعد ، ولم يبق  
لنفسها مادة ، إلا مما يرد عليها من ذلك الحبيب ، فكان بمنزلة المصباح  
الذى للبصير . فلما ذهب عن القلب أحس بفقده ، كما يحس البصر  
بذهاب نور المصباح إذا أطفئ » (٧٠) .

وصاحب التزيين يضيف إلى هذه القصة أمورا أخرى . فعمرو  
هذا قد طلب منه عمه مهرا يعجز عنه ، وإزاء تلك العقبة يشير عليه  
بعض أصحابه بالخروج إلى أبرويز بن كسرى لما كان بين جدودهما من  
الوصلة . وفى طريقه أخبره عراف أن عمه قد زوجها لرجل من فزار  
قعاد . أما موقفها من الفزارى فيلخصه صاحب التزيين بطريقة مضحكة ،  
إذ كانت « تشد الفزارى إذا جن الليل إلى كسر البيت وتبيت فى الخدر ،  
فاذا أصبح الصبح تطلقه ، فيستحى أن يخبر العرب بذلك ، فلمّا  
كثر توبيخ العرب له واختلاف ظنونهم ، خرج فلا يدري أين  
يذهب » (٧١) .

ونستنتج من قول صاحب التزيين ، أن هذه القصة قد حدثت قبل  
أن يدال من الأكاسرة ، وقبل أن تسقط دولتهم ، فقد نصحه بعض  
أصحابه ، بالخروج إلى أبرويز بن كسرى . وقد ذكر الدكتور الحوفى  
هذه القصة - نقلا عن الدر المنثور - على أنها حدثت فى العصر  
الجاهلى (٧٢) . ولكن الرواية التى نحن بصددتها تذكر أن الفرزدق قد  
شاهد عقيلة بعينيه ، وأنها كانت شابة جميلة تعشق وتنشد الأشعار .

والحل ... أننى لا أصدق أن الفرزدق قد شاهد الحساء بعينيه ،  
ولا أصدق تلك الرحلة الطويلة التى خرج يطلب فيها عبيدين أبقيين ، كل

(٧٠) ديوان الصباية ٢ / ٩١ .

(٧١) تزيين الأسواق ١ / ١٢٣ .

(٧٢) الغزل فى العصر الجاهلى ص ١٧٩ .

هذا من خيال الشعراء ، بل أقول من خيال القصاص ، أراد أن يكسب به القصة شيئا من الواقعية ، وشيئا من التصديق .

ولست أزعم أن هذه القصة قد حدثت في العصر الجاهلي فهذا شيء يصعب تحديده ، إذ أن هذه القصة من الأدب الشعبي الذي لا يتحصى الصحة التاريخية ، ولا الدقة في الأسماء والأمكنة ، وإنما هو يريد أن يحكى قصة غرامية غريبة ، بطلها عاشقة قد رفع عنها حجاب البعد ، فليختر لها القاص أسماء جذابة مشهورة ، فلتكن البطلة عقيلة بنت النعمان ، وليكن عاشقها ابن عم لها باليمامة . ويريد القاص أن يفرق بين العاشق والمعشوقة ، وليس هذا شاقا فالصلة بين ملوك الحيرة والاكاسرة صلة مشهورة يعرفها العامة والخاصة ، وأذن فليُنصَح بعض أصحابه بالخروج إلى أبرويز للاستعانة به ، ولا يهم القصة ، فمِمَّا إذا كان أبرويز هذا ما زال حيا ، أم أن الأحداث قد ذهبت به وبملكه ، لا يهمنا هذا بقدر ما يهمها اسم له رنين ، يخدمها في خلق موقف يفرق به بين العاشقين .

\*\*\*

ونظرة إلى الشعر الذي ورد على لسان بنت الضحاك ، والشعر الذي قاله الفرزدق أو جرير وورد في هذه القصة ، يؤكد ما سبق أن قلته من أن شعر بعض هذه القصص ، يجنح إلى السهولة واستعمال العبارات الدارجة ، واليك مثلا من تلك العبارات الدارجة « وحى بالسلام أبا نجيد ... فاهل للتحية والسلامة » أو « إذا رقد الخلى فان عمرا .. هو القمر المضيء المستنير » أو « ومالي بالتبعل مستراح ... ولورد التبعل لى أسيرى » أو « يخيّل الى أبا عمرو بن كعب .. كأنك قد حملت على مرير » . وتحس بذوقك اللغوى إن هذه العبارات تجنح إلى السهولة والقرب من الاستعمال الدارج . وإذا أردت أن تتبين هذا أكثر ، فقارن بين قول الفرزدق وهو يمدح بيت آله :

ان الذى رفع السماء بنى لنا بيتا ، دعائمه اعز واطول

او قول جرير وهو يهدم عليه بيته :

يحمم قينكم بفنائمه دنس مقاعده خبيث المدخل

قارن بين قول الفرزدق او جرير ، وبين قول بنت الضحاك وهى  
تمدح بلاد حبيبها : « يذكرنى بلادا خير اهلئى .. بها ، اهل المروءة  
والكرامة » : فالفرق واضح بين القوة فى « دعائمه اعز واطول » او  
« دنس مقاعده خبيث المدخل » ، وبين السهولة فى « اهل المروءة  
والكرامة » .

#### عمارة :

روى السراج هذه القصة تحت عنوان « باب من عجائب العشاق (٧٣) »، ويطلقها جارية حسناء يقال لها « عمارة » وكانت عند عبد الله بن جعفر ، وكان يكلف بها كلفا شديدا . فاتفق أن وفد الى معاوية وكنت معه ، فراها يزيد فوقع في قلبه ، وهنا يحدث في داخله صراع عنيف . ان حب هذه الجارية قد ملأ عليه قلبه وحياته ، وابن جعفر لا يتنازل عنها ، ولا يبيعها ، ومنزلته من الخاصة والعامة - كما تقول القصة - لا تبيع ليزيد ان يكرهه على التخلي عنها . ماذا يفعل يزيد امام هذا الحجازي الذي يقف عقبة في سبيل سعادته . وهنا تكشف القصة عن نوع من الصراع بين الحجازيين ويمثلهم ابن جعفر ، وبين الشاميين ويمثلهم يزيد . فيستشير يزيد من يثق به في سبيل انتزاع هذه الحسنة من ذلك الحجازي ، فيشيرون عليه بان يلجأ الى الحيلة ، فيرسل في طلب رجل عراقي له ادب وظرف . ويكون بينهما حديث ، يعرض فيه يزيد على العراقي حاجته ، فيجيب العراقي ، ويطلب من يزيد ان يعينه بالمال ، ثم « اخذ من طرف الشام ، وثياب مصر ، واشترى متاعا للتجارة من رقيق ودواب ، وبغير ذلك ، ثم شخص الى المدينة ، فاناخ بعريضة عبد الله بن جعفر ، واكترى منزلا الى جانبه » وهنا تكشف القصة عن ألوان من الحيل والمخادعة ، يتعرض لها هذا الحجازي ، فقد أرسل اليه هذا الرجل ، المتنكر في ثياب تاجر ، وقال له : اني رجل من أهل العراق قدمت بتجارة ، وأحببت ان أكون في عز جوارك وكنفك ، الى أن أبيع ما جئت به ثم هيا له بغلة فارهة ، وثيابا من ثياب العراق ، والطاقا ، فبعث بها اليه وكتب معها « ياسدي اني رجل تاجر ، ونعمة الله على سابغة ، قد بعثت اليك بشيء من التحف ، وكذا من اللثياب والعطر ، وبعثت اليك ببغلة خفيفة العنان ، وطيئة الظهر ، فاتخذها لرحلك . فانا اسالك بقرابتك من رسول الله

(٧٣) مصارع العشاق ص ٢٣٩ . وانظرها في « ذم الهوى » مع تغييرات لفظية يسيرة ص ٦٠٤ .

ﷺ ، الا قبلت هديتي ولم توحشني بردها ، انى ادين الله تعالى بحبك  
وحب اهل بيتك ، وان اعظم املنى فى سقرتى هذه ان استقيد الانس  
بك . . « ويكثر العراقى من التقرب لابن جعفر ، فاذا ما رآه قام وقبل  
يده ، وكل يوم يبعث اليه بلطف تطرفه ، وانه لكذلك الى ان دعاه  
عبد الله ، ودعا بعمارة من جواريه ، فلما طاب لهما المجلس ، وسمعا  
غناء عمارة ، تعجب العراقى ، وجعل يزيد فى عجبه . ثم كان بينهما  
حوار ، كان فيه عبد الله على نيته وعلى سجيته . وكان حوار العراقى  
يبنى به غايته ، ويطوعه لهدفه .

لما اطمأن بهما المجلس ، قال عبد الله لضيفه العراقى :

— « هل رأيت مثل عمارة ؟ » .

قال الضيف العراقى بخيث : —

— « لا والله يا سيدى ، ما رأيت مثلها ، وما تصلح الا لك ، وما ظننت .

أن يكون فى الدنيا مثل هذه الجارية ، حسن وجه وحسن عمل ؟ »  
قل ابن جعفر ، وقد انتشى : —

— « ذلكم سرورى » .

قال الضيف وقد قرب من غرضه :

— « يا سيدى انى والله لا احب سرورك وما قلت لك الا الجد ، وبعد ،

فانى تاجر اجمع الدرهم الى الدرهم ، طلبا فى الريح ، ولو اعطيتها  
ب عشرة آلاف لاخذتها » .

فقال له عبد الله متعجبا :

— « عشرة آلاف . . . »

فاجاب العراقى باختصار :

— « نعم » .

وهنا اندفع الحجازى « فقال :



- « أنا أبيعكها بعشرة آلاف » .
- فتلقف العراقي هذه الكلمة . وقال :
- « وقد أخذتها » .
- فقال ابن جعفر ، وكأنه يمزح :
- « هي لك » .
- وأنهى العراقي الحوار بقوله :
- « وقد وجب البيع » .
- ثم انصرف . وما يشعر عبد الله إلا بالمال وقد حمل اليه عند شروق الشمس ، فيقيق لنفسه ويدرك أنه وقع في الفخ ، فيرده إلى العراقي ، ويكتب اليه :
- « أنا كنت أمزح معك ، ومما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها » .
- فرد عليه العراقي ، منبها له إلى قاعدة دينية :
- « جعلت فداك ، ان الجد والهزل في البيع سواء » .
- ويتحاوران . يقول له عبد الله وقد كاد يفقد اعصابه :
- « ويحك ، ما أعلم جارية تساوي ما بذلت ، ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك ، ولكني كنت مازحا وما أبيعها بملك الدنيا ... »
- فيجيب العراقي بهدوء ويجد :
- « ان كنت مازحا فاني كنت جادا ، وما اطلعت على ما في نفسك ، وقد ملكت الجارية ، وبعثت اليك بثمانها ، وليست تحل لك ، ومالي من أخذها من يد » . فمانعه أياها ، فقال له :
- « ليست لي بيعة ، ولكني استخلفك عند قبر رسول الله وآله ومنبره » .
- فلما رأى عبد الله الجد ، قال :
- « بنس الضيف أنت ، ما طرقتنا طارق ولا نزل نازل بنا نازل أعظم بلية منك ، اتخلفني فيقول الناس : اضطهد عبد الله ضيفه

وقهره والجاه الى أن استخلفه ، أما ليعلمن الله عز وجل أنى سألبيه  
فى هذا الأمر بالصبر وحسن العزاء » .

مضى بها العراقى ، وكأنها طرفة من طرفة التى يحملها ، حتى  
ورد دمشق . ولكن القصة تتحول هنا الى مجرى آخر ، يحاول به القاص  
أن يرضى عواطف الحجازيين ، وأن يغرس الأمل فى نفوسهم ، فالعراقى  
يدخل الشام ، وإذا بجنائز يزيد ، وقد استخلف ابنه معاوية . فيدخل  
على معاوية ، الذى يهب الجارية والمال للعراقى .

ويستيقظ ضمير العراقى ، فيعود بها الى المدينة ، ثم يدخل الى  
عبد الله ، ويقص عليه القصة ، ثم يختمها بقوله :

— « والله قد وهبتها لك ، قبل أن أراها ، واضع يدى عليها ، فهى  
لك ومردودة عليك ، وقد علم الله تعالى أنى ما رايت لها وجهاً  
الا عندك » .

وهنا ، وبعد كل هذه الرحلة الطويلة ، تبدى الجارية عواطفها ،  
ولكن لا تبديها بالحديث ولا تعبر عنها بصراحة . بل حين نظرت الى  
عبد الله ، فاضت عواطفها : « فخرت مغشياً عليها ، وأهوى اليهـ  
عبد الله ، فضمها . وخرج العراقى ، وتصايح أهل الدار : عمارة . فجعل  
عبد الله يقول ، ودموعه تجرى : أحلم هذا . أحق هذا . ما أصدق  
بهذا » .

قال العراقى لعبد الله بن جعفر :

— « جعلت فداك . قد ردها عليك أيثارك الوفاء ، وصبرك على  
الحق ، وانقيادك له » .

فقال عبد الله ، وقد انفرجت أساريره :

— « الحمد لله ، اللهم انك قد تعلم أنى قد تصبرت عنها ، وآثرت  
الوفاء ، وأسلمت لأمرك ، فرددتها على بيمتك ، فله الحمد .

يا أبا العراق ، ما أعلم في الأرض ، أعظم منه منك ، وسبجازيك  
الله تعالى » .

\*\*\*

قصة « عماره » قصة قد تفيد في الكشف عن شخصية الجوارى في  
هذا العصر ، وموقفهم مما يحيط بهن من الأحداث ، ونستطيع أن نضم  
اليها القصص التي يكون أبطالها من الجوارى ، ونستطيع أن نستنتج من  
ذلك نتائج قيمة . ويكون جميلا ورائعا لو أن كاتبنا استعرض القصص  
التي حدثت في العصر العباسي ، وبعد أن أصبح للأعاجم والموالي منزلة  
كبيرة وأثر عظيم . ويكون أجمل ، لو أنه قارن بين نتائج قصص الجوارى  
التي نسبت إلى العصر الأموي ، وبين نتائج قصصهن التي حدثت في  
العصر العباسي . وبذلك يكون قد اتبع منهجا أكثر سلامة وأصح نتائج ،  
أذ ستشف تلك القصص الشعبية ، التي بعدت عن التكلف ، وعن سيطرة  
الحكام ، وأصحاب الشأن ، عن نتائج أصدق دلالة من الاعتماد على  
التاريخ فقط ، الذي نسج حول الملوك والسلطين .

ولو أن كاتبنا صاغ منها « قصة تاريخية » ، لاستطاع أن يكشف  
عن روح العصر وأن يجسد كثيرا من أحداثه ، يبرز لنا أثر الجوارى  
والغناء ، ويكشف عن حالة أهل الحجاز وموقف الشام منهم . ويتعرض  
للمسلك الأموي الذي يملك الخلافة والمال والجاه والحيلة والخداع  
ولاتجاه أهل البيت الذي يملك الحب والعطف وادخال السرور على  
الناس .

وفي ظني أن « عمارة » هذه هي التي يعنيها ابن جعفر حين  
حدث عبد الملك أنه اشترى جارية مولدة بعشرة آلاف درهم ، وأنهما  
وصفت ليزيد بن معاوية ، فأرسل إليه : أما أن تهديها لي ، وأما أن  
تبيعها بحكمك . فأبى عبد الله أن يخرجها من ملكه ببيع أو هبة أبدا ،  
ثم بلغه أن بعض عزاب المدينة يهواها ، وأنه يجيء في كل يوم متنكرا ،  
فيقف بالباب ، حتى يسمع غناها . فراعى عبد الله مجيئه ذات ليلة ،

فإذا به قد أقبل متقنع الرأس ، حتى قعد مستخفيا . فاصلى عبد الله  
أمر الجارية ، وخرج بها وفتح الباب ، فانتبه الرجل مذعورا . فقال له  
عبد الله : « لا بأس عليك ، خذ بيد هذه الجارية ، هى لك ، فإذا هممت  
ببيعها فأرددها الى « قدهش الفتى ، ولبط به ، وخاطبه عبد الله ، فإذا  
هو قد مات (٧٤) . وهى التى قص ابن جعفر امرها على عبد الملك  
حين هون من أمر الغناء . فأراد عبد الله أن يقتنع عبد الملك بأهمية  
الغناء ، فقص عليه قصة الفتى الذى كان يأتى متنكرا كل ليلة ليسمع  
غناء جاريته (٧٥) .

ومن تلك الروايات نستطيع أن نرسم صورة لتلك الجارية العجيبة  
الشان ، ذات الأثر الكبير على قلوب الحكام والعامة والخاصة والأشراف .  
فهى جارية مولدة اشترت بعشرة آلاف ، تجيد الغناء وتتلقاه على حذاق  
هذا الفن ، « فكان يديح وطويس يأتيناها فيطرحان عليها اغانيهما ،  
فعلقت منهما حتى غلبت عليهما » (٧٦) ، وكانت لها جاذبية قوية ،  
فعبد الله يحبها حبا شديدا ، ولا يخرجها عن ملكه حتى ولو أعطى  
الخلافة . ويزيد يكلف بها كلفا شديدا يدفعه الى التآمر والاستيلاء عليها .  
وفتى من أهل المدينة يعشقها ، ويأتى كل ليلة متنكرا ليسمع غناءها .  
وأهل الدار يحبونها ويفرحون لعودتها ، ويتصايحون : عمارة : بينما  
يقول عبد الله ودموعة تجرى : أحلم هذا . احق هذا . ما أصدق بهذا .

ومع ذلك لا تتحدث القصة عن عواطف هذه الجارية الا بإشارات  
صغيرة ، فهى حين رأت عبد الله بعد رحلتها الطويلة « خرت مغشيا  
عليها ، وأهوى اليها عبد الله فضمها » . وهى حين تسمع بموت الفتى  
حبا لها « مكثت مديدة ثم ماتت » ، ويظن عبد الله - وأن الظن لا يغنى  
من الحق شيئا - أنها ماتت كمدا وأسفا على الفتى .

(٧٤) « ذم الهوى » ص ٥٢٠ .

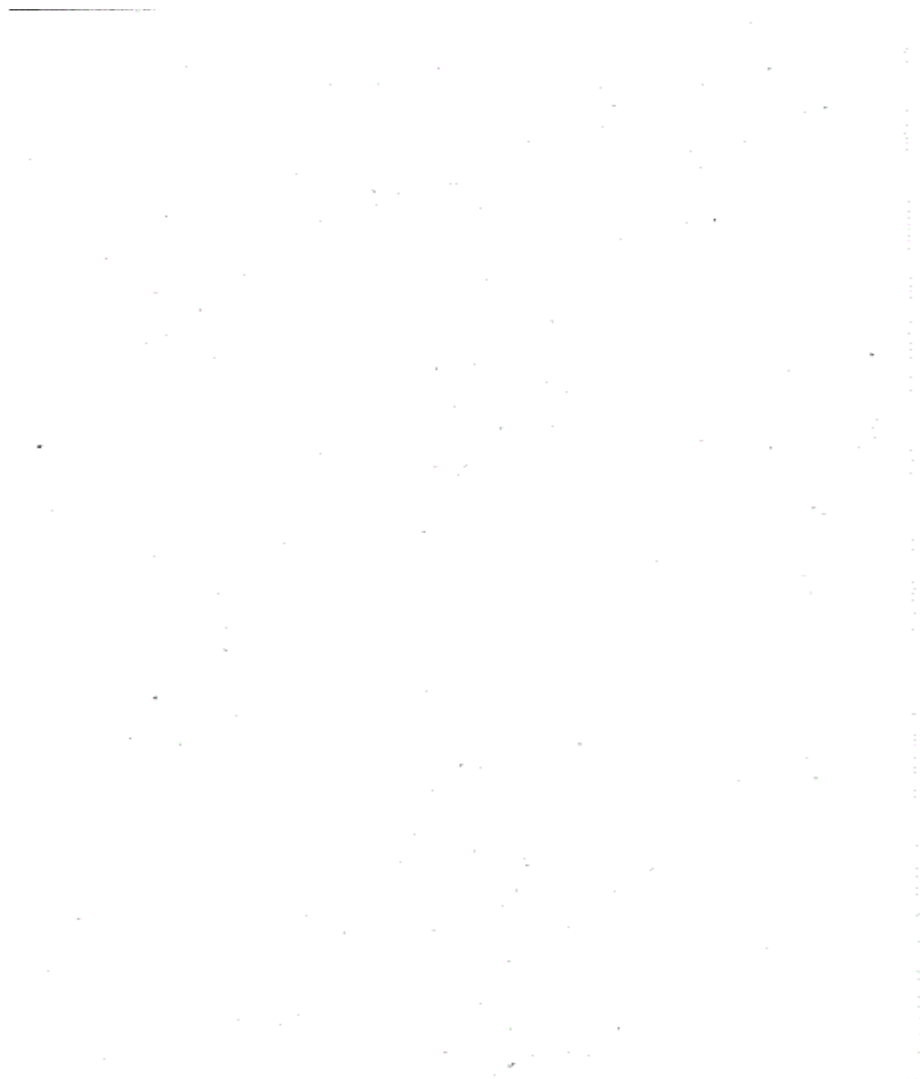
(٧٥) العقد الفريد ٣ / ١٩٩ .

(٧٦) العقد الفريد ٣ / ١٩٩ .



---

## الختامه



كان هذا البحث محاولة للإجابة عن سؤال ، دار في ذهني وفي ذهن كثير من الباحثين . وقد طفر هذا السؤال في الفترة الأخيرة ، خلال اتصال البعث العربي بالنهضة الأوروبية .

#### هل عرف العرب القصة ؟ ؟

ومحاولة الإجابة عن هذا السؤال ، اقتضتني أن أبدأ بالحديث عن « القصة عند العرب » . وسأقتنى هذا الحديث إلى معرفة أنه لا يوجد مانع « بيولوجي » ، يمنع العرب من أن يكونوا كغيرهم من أمم الأرض في معرفة هذا الفن . ثم كان التاريخ أكبر دليل ، . فالقصة واكبت الأدب العربي في مختلف عصوره ، من عصر الجاهلية ، حتى العصر الحديث . وبعد أن استعرضت القصة على مختلف العصور ، استعرضنا عاما ، سلطت الضوء على فترة معينة ، وهي « القصة في العصر الأموي » . وقد كشف لي هذا الضوء عن ثراء هذا العصر بأنواع عديدة من القصة ، وعن وفرة القصص الذين كان يأنس بهم الخلفاء والقواد والحكام والعامة . ثم سلطت الضوء على نوع واحد من قصص هذا العصر ، وهو « قصص العشاق » ، موضوع هذه الرسالة .

بيد أنني قبل دراسة هذا النوع ، رأيت من الواجب أن أعرف المراد « بالقصة » .

وكان بدهيا إنني لا أقصد ذلك الفن ، الذي لم يعرف عند أمة من الأمم ، إلا في القرن التاسع عشر ، حيث استكمل صورته - كقالب قننى - على يد الواقعيين ( ١ ) . أو الذي لم يشهد نور الحياة إلا سنة ١٧٤٠ م ، حين أخرج القصص الإنجليزي ( ريتشاردسن ) قصة « باملا » ( ٢ ) .

( ١ ) انظر : مقالا للدكتور محمد مندور ( الجمهورية ١٣ نوفمبر ١٩٦٣ ) .  
( ٢ ) الادب للشارلتن ص ١٥١ .



أو الذى لم يخترع إلا على يد موباسان (٣) . وإنما أقصد معنى قريبة للمعنى لهذه المادة فى القواميس العربية ، ومثابها للمعنى المعروف فى العالم فى ذلك الحين . وهو معنى أقرب إلى « الأسلوب القصصى » كما يفهمه المعاصرون .

وكانت دراستى من بابين :

سأقنى الباب الأول إلى الكلام عن « نشأة قصص العشق » . فتتبعته - فى الفصل الأول - نموها ، فإذا هى عربية أصيلة ، عرفها العرب فى فترة مبكرة من تاريخهم ، بل فى تلك الفترة التى لا تزال غامضة عند المؤرخين ، والتى يسمونها بالعرب البائدة .

على أنها إذا كانت عربية موغلة فى القدم . فإنها قد ازدهرت ، وانتشرت فى العصر الأموى ، وكان لابد لها الازدهار من عوامل هى موضوع الفصل الثانى من هذا الباب .

فقد مر الحجاز فى العصر الأموى ، بتيارات سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، جعلت هذا الفن ينمو ويتزدهر بين الناس ، وقد انبثت هذه العوامل فى حواضر الحجاز نباتا ، مخالفا للنبات الذى انبثت فى بواديها ، لأن البيئة والمناخ ، والظروف التى احتضنت هذه القصص ، تختلف فى الحواضر عنها فى البوادي .

أما الباب الثانى ، فكان محاولة لدراسة ما فى القصص من بذور فنية ، وكوامن أدبية .

وقد انفتح عن أربعة طرق أو أربعة فصول .

بان فى الفصل الأول أن كثيرا من هذه القصص ، لم يكن يقصده بها التاريخ ، بل كان يخترعها الناس ، لتكون حلية المجالس ، وحديث المسامر . وكانوا يحملونها أغراضا شخصية ، أو قومية ، أو قبلية ، أو أهدافا دينية ... الخ .

(٣) فن القصة القصيرة ص ١٠ .

أما الطريق الثاني ، فكان لتحديد معالم هذه القصص ، فرسمت  
هيكلها ، وكشفت عما فيها من فن « بالقوة » كما يقول المناطقة ، أى  
عما فيها من كوامن فنية كالصراع ، والتشويق ، والخيال ، واللون  
المحلى ، وغير ذلك ، من كوامن ، لو وجدت العناية والرعاية ، لأصبحت  
« بالفعل » فنا سائفا ، يؤتى أكله للأجيال ، ولا يؤخر ثمرة الناضج  
حتى القرن التاسع عشر .

أما الفصل الثالث ، فقد تتبعته فيه تطور هذه القصص ، وأثرها  
فيما بعدها ، وقد غنى هذا الفصل بالدراسات الموازنة ، وبيان أوجه  
الأثر والتأثير ، مما عمق النظرة الى هذه القصص وألقى الضوء على  
طبيعتها .

أما خاتمة المطاف فى هذا الباب ، فقد تناولت فيها نماذج من هذه  
القصص ، فحللتها ، ونقدتها ، وقارنتها بما يشبهها من قصص .

## ( ٢ )

وإذا كان من تقليد الدراسات الجامعية أن يتحدث الباحث عما  
فيها من جديد ، فأننى أزعـم :

أننى حاولت أن أحدد ملامح فن ، انتشر بين الشعب فى ذلك  
العصر ، وكانت له دواعيه وأسبابه ، وكان له قصاصة ورواته ، وكان له  
متلقيه ومتذوقوه .

وجل ما ورد فى الباب الثانى من هذه الرسالة جديد . وفى حدود  
ما طالعت لم أجد من تناول قصص العشق ، ودرسها دراسة مستقلة  
واسعة ، كنوع من الأدب انتشر بين الناس ، وكان يرضى حاجة فى نفوس  
أصحابه . وكل ما ورد من دراسة حول هذا الموضوع ، كانت دراسة  
سريعة عامة ، قد تصوغ بعضاً من هذه القصص - ولا تنقيد بعض من  
العصور - صياغة أدبية . وقد تدرس قصة أو قصتين أو أكثر خلال  
حديثها العام .

حقاً . . وجد في الفترة الأخيرة اهتمام من الدارسين بالأدب الشعبي ، فهناك رسائل جامعية نوقشت حول الهلالية ، وألف ليلة وليلة . وهناك كتب كثيرة ألفت حول مسيرة سيف بن ذي يزن أو مسيرة عنترة العبي ، ولكني لم أجد كتاباً مستقلاً ، أو رسالة تقتصر على دراسة هذه القصص .

وربما كان السبب في هذا أن مسيرة عنترة ، أو ألف ليلة وليلة ، أو غيرهما مما سبق ذكره ، قد جمعت في كتاب مستقل طويل ، يجده الباحث مسيراً أمامه ، أو تدولت في أحاديث طويلة يجد فيها الدارس غناء ومادة دسمة . أما هذه القصص ، فقد كانت - في معظمها - أخبار قصيرة ، سريعة ، تشبه الخبر الصحفي ، وتتناثر في كتب التاريخ ، ولا يجمعها كتاب مستقل ، وتختلط بمفاهيم التاريخ ، اختلاطاً لا يبين عن شخصية محددة للتاريخ ، أو شخصية واضحة للقصص الشعبي .

### ( ٣ )

ولست أزعم أنني استوعبت كل شيء في هذا الموضوع . فما زالت هناك جوانب تغري الباحثين بالدرس والاستقصاء .

١ - فليت من ينهض ، فيجمع هذا التراث المتناثر في مختلف الكتب ، ثم يفهرسه حسب النهاية ، أو حسب العصر ، أو حسب الموضوع ، أو كما يحلوه . ويضمه في كتاب واحد ، ويذكر المراجع التي استقى منها كل حكاية ، ولا يقتصر على القصص التهذيبية ، أو الحكايات التعليمية ، بل يجمع الغث والسمين والنافع والضار ، فإن الباحث قد يجد في الضار نفعاً ، وفي الغث ثراءً لبحثه . ويخلص فر على أجهال الباحثين مشقة البحث عن هذه الحكايات ، والتنقيب عنها في مختلف الكتب ، تنقيراً يستهلك جل الوقت ، ومعظم الجهد .

٢ - وليت من يشمر لدراسة الشعر في هذه القصص ، فيجمعه ، ويرى منه الموضوع والذي له أصل في الدواوين ، ويرى ما يتجه فيه

اتجاهها شعبيا ، وما يتجه فيه الى الخاصة ، وسمات كل ، ثم يقارن بين شعر القصص ، وشعر الدواوين ، ويسجل ما يجره اليه البحث ، فسيجره الى جوانب شرية ومغرية تلقى الضوء على كثير من المشكلات المعاصرة ، كمشكلة الشعر العامي ، فنرى فيما اذا كان هذا الشعر ، تطورا لاوزان كانت شائعة بين عامة الناس منذ العصور القديمة ، ونحدد من ذلك الموسيقى التي يميل اليها ذوق عامة العرب ، أو كمشكلة الشعر الحر ، وهل هو اثبات لعجز الاوزان الخليلية ، وقصورها عن اظهار الحركات النفسية ، وعن مواعمة المواقف الداخلية ، أو أن هذه الاوزان قادرة على ذلك .

٢ - ولبت هناك من يعيد النظر في مناهجنا الدراسية ، فانها محتاجة الى أن تهتم بهذا التراث ، الى جانب اهتمامها بالنواحي الأخرى . فقد اطلعت على كتاب وزارة التربية والتعليم ( جمهورية مصر العربية ) في « الأدب والنصوص والبلاغة » المقرر على الصف الأول من المرحلة الثانوية ، على أحدث منهج في ذلك الحين ( ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م ) - فوجدت أن هذا الكتاب ، حين تعرض للنثر الاسلامي ( بما فيه النثر الأموي ) ، تحدث عن القرآن . وعرض للحاديث النبوية . ثم للخطب والوصايا . ثم للرسائل . وليس هذا فقط - مع أهميته - ماأريده . لا أريد أن نكتفي بدراسة رسائل عبد الحميد ، أو بدراسة خطب الحجاج ، ثم يضرب الأمثال والنماذج على هذا . بل أريد أن نهتم - الى جانب ذلك - بدراسة هذه القصص التي انتشرت بين الناس . ولن نعدم أن نجد نماذج حية من قصص العشق فيها اللغة المشرقة ، والخيال المبتكر ، وفيها ما يرقق الحس ، ويهذب العواطف ، ويعلم النشء كيف يتسامون بعواطفهم ، وكيف يغلبون واجبهم على رغبتهم اذا اصطدما . وقد جمع الأستاذ محمد أحمد جاد المولى وزميله طائفة من هذه القصص ، في الجزء الرابع من كتابهم « قصص العرب » . وكذلك فعل الأستاذ موسى خليل سليمان ، فقد أورد للطلاب نماذج من

الحكايات الغرامية ، فى الجزء الثانى من كتابه « يحكى عن العرب » ، وكان يعقب على كل حكاية بالدرس والتحليل ، ويورد أسئلة للطالب ، تدور حول مناقشة الحكاية وما فيها .

٤ - وليت الجهود من الأدباء والفنانين تبذل لا استغلال هذا التراث الخصب فى نواح مثمرة :

( ١ ) اذ من الممكن عرض هذا التراث بأسلوب فنى ، وبطريقة جذابة ، وبصياغة تؤثر على النفوس ، وتجذب الأفتدة ، كما فعل الأستاذ أحمد حسن الزيات حين صاغ قصة وضاح اليمن ، مع روضة ومع أم البنين تحت عنوان « مأساة الشاعر وضاح » صياغة أدبية ، أراد منها - كما يقول - أن يصور الحياة البدوية والبيئة العربية (٤) .

(ب) ومن الممكن استغلال هذه القصص فى مسرحيات شعرية . وإذا كان أحمد شوقى قد ألف رواية « مجنون ليلى » . وعزيز أباظة قد أنشأ مسرحية « قيس ولبنى » ، فما زالت هناك قصص كثيرة صالحة لخلق عمل فنى جذاب ، كقصة ابن الطثرية ، فلو أن فنانا موهوباً تناولها ، لاستطاع أن يخلق منها عملاً ، يضارع عمل « روميو وجوليت » ولاستطاع الكشف عن عادات القبائل ، وعن حياتها ، وعن اقتصادياتها ، وعن مركز المرأة فى البادية ... الخ .

( ج ) ومن الممكن ، جعل هذا التراث نقطة انطلاق لخلق قصص فنية رائعة ، وخذ لذلك مثلاً قصة « وضاح اليمن » ، فلو رجعت الى هذه القصة فى المصادر العربية ، فستجدها قصة فقيرة ، تنتهى عند اختفاء وضاح فى الحفيرة (٥) . وبعض الروايات (٦) تخطو خطوة

(٤) مأساة الشاعر وضاح ص ٢٩ .

(٥) انظر : ١ - مضارع العشاق ص ٢٧٦ ، ٢ - ديوان الصباية ٧٨ / ٢ .

(٦) انظر : ١ - أخبار النساء ص ٨٧ ، ٢ - تزيين الاسواق ١٦٩ / ٢ ، ٣ - ذم الهوى ص ٣٧٣ .

أخرى ، فنذكر أن أم البنين كانت تأتي الى المكان فتبكي فيه ، الى أن وجدت يوما مكبوبة على وجهها ميتة . هذه القصة - كما هي في المصادر العربية - قصة فقيرة ، لو قارنتها بقصة شبيهة لها ، وجدت عند قسوم آخرين وفي عصر موغل في القدم ، وهي قصة « أوزيريس وأزيس » ، فإن « أزيس » لم تكتف بالموقف السلبي الذي وقفته أم البنين تبكي ، ثم تموت بجانب قبر الحبيب على أحسن الروايات ، لم تكتف بهذا بل جعلت تبحث عن حبيبها الذي عزق أربا ، والقيت أشلاءه في النيل ، فجعلت تجمع هذه الأجزاء ، وتركب الصعاب ، وتتخطى العقبات ، حتى استطاعت أن تجمع أشلاء زوجها ، وأن تعيد اليه الحياة ، وأن تنتصر على اله الشر (٧) .

لو أن كاتبنا موقفا تناول قصة وضاح ، وطوعها لأفكار راقية ، ورمز بها الى صمود الانسان أمام العقبات ، واستخفافه بالمثبطات التي تجابهه في سبيل إيمانه بفكرة ، أو بحثه عن مثل ، أو تعلقه بهدف ، لو فعل هذا الكاتب ذلك لخطأ بنا خطوة محمودة في طريق إثراء الأدب العربي « بأدب البحث » الذي مازلنا في حاجة ماسة الى نماذج كثيرة منه .

---

(٧) انظر : الأدب المصري القديم ٢ / ١٣ .



## المراجع

« مرتبة حسب الحروف الهجائية »

اولا - المراجع العربية

( ١ )

- ١ - أبو الانبياء الخليل ابراهيم للاستاذ عباس محمود العقاد .  
( القاهرة - مطابع أخبار اليوم - سلسلة كتاب اليوم أغسطس سنة ١٩٥٣ م ) .
- ٢ - الانتقان فى علوم القرآن للامام جلال الدين السيوطى . ( القاهرة - مطبعة حجازى - الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٠ م ) .
- ٣ - أثر العرب فى الحضارة الاوربية للاستاذ عباس محمود العقاد .  
( القاهرة دار المعارف - الطبعة الثانية ) .
- ٤ - احياء علوم الدين للامام أبى حامد الغزالى ( القاهرة - لجنة نشر الثقافة الاسلامية - سنة ١٣٥٦ هـ ) .
- ٥ - الأخبار الطوال لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى وتحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ( القاهرة - وزارة الثقافة والارشاد القومى الادارة العامة للثقافة ) .
- ٦ - أخبار الظراف والمتماجنين لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ونشر القدى ( دمشق سنة ١٩٤٧ م ) .
- ٧ - أخبار عبيد بن شربة الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وانسابها . ( حيدر آباد الطبعة الاولى سنة ١٣٧٤ هـ )



- ٨ - أخبار عروة بن حزام . لم يعلم جامعه . ( مطبعة جول يبروك  
بمحروسة الجزائر ) .
- ٩ - أخبار النساء للعلامة شمس الدين أبى عبد الله الدمشقى الحنبلى  
المعروف بأبن قيم الجوزية . ( القاهرة - مطبعة محمد أفندى  
مصطفى سنة ١٣٠٧ هـ ) .
- ١٠ - الأدب الشعبى للأستاذ أحمد رشدى صالح ، الجزء الأول ( القاهرة  
مكتبة النهضة - الطبعة الثانية ) .
- ١١ - الأدب الشعبى للدكتور عبد الحميد يونس . ( القاهرة - مطبعة  
جامعة القاهرة سنة ١٩٦٠ ) .
- ١٢ - الأدب القصصى عند العرب للأستاذ موسى خليل سليمان . ( بيروت  
- دار الكتاب اللبنانى - مطابع دار الغد سنة ١٩٥٦ م ) .
- ١٣ - الأدب المصرى أو أدب الفراعنة للأستاذ سليم حسن ( القاهرة -  
لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ م ) .
- ١٤ - الأدب المقارن للدكتور محمد غنيمى هلال . ( القاهرة - مكتبة  
الأنجلو المصرية - الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢ م ) .
- ١٥ - الأدب الهادف للأستاذ محمود تيمور . ( القاهرة - مكتبة الآداب  
بالجماميز - الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ م ) .
- ١٦ - الأدب والنصوص والبلاغة ، للصف الأول من المرحلة الثانوية  
( جمهورية مصر العربية ، وزارة التربية والتعليم سنة ١٣٨٤ هـ -  
١٩٦٤ م ) .
- ١٧ - أركان القصة تأليف : ١ . م . فورستر ، ترجمة كمال عياد جاد  
( القاهرة سلسلة الألف كتاب « ٣٦ » ) .
- ١٨ - أساس البلاغة لجار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشري  
( القاهرة - مطابع دار الكتب المصرية سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م ) .

- ١٩ - أساطير الحب والجمال عند الاغريق للأستاذ دريني خشبة  
القاهرة - مطبعة الرسالة - لم يذكر تاريخ ) .
- ٢٠ - أسد الغابة في معرفة الصحابة للإمام عز الدين أبي الحصن علي  
ابن محمد بن عبد الكريم الجرري المعروف بابن الأثير ( القاهرة  
- طبعة جمعية المعارف سنة ١٢٨٠ هـ ) .
- ٢١ - أسس النقد الأدبي عند العرب للدكتور أحمد أحمد بحوى .  
( القاهرة - مكتبة نهضة مصر بالقاهرة - الطبعة الثانية سنة  
١٩٦٠ م ) .
- ٢٢ - الاسلام انطلاق لا جمود للدكتور مصطفى الراجحي قاضي بيروت  
الشرعي ( بيروت دار مكتبة الحياة سنة ١٩٥٦ م ) .
- ٢٣ - الاصابة في تمييز الصحابة لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي  
ابن محمد ابن محمد بن علي الكتاني العسقلاني المعروف بابن  
حجر ( القاهرة - المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٥ هـ ) . وأيضا مطبعة  
السعادة سنة ١٣٢٣ هـ ) .
- ٢٤ - الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن  
الساوي ونشر القدسي ( دمشق سنة ١٣٤٩ هـ ) .
- ٢٥ - الاعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب  
والمستعربين لخير الدين الزركلي . ( القاهرة - المطبعة العربية  
سنة ١٣٤٦ هـ ) .
- ٢٦ - اعلام الفن القصصى لهنرى توماس وآمالى توماس ، ترجمة  
الدكتور عثمان نويه ( القاهرة سلسلة الألف « ٤٨ » ) .
- ٢٧ - الاغانى لأبي الفرج الأصبهاني ( طبعات مختلفة ) .
- ٢٩ - الف ليلة وليلة ( القاهرة - مطبعة عبد الرحمن رشدي ببولاق -  
الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ . وأيضا بيروت - مطبعة الأبياء  
اليسوعيين ) .

٣٠ - الف ليلة وليلة للدكتورة سهير القلماوى ( القاهرة - دار المعارف  
سنة ١٩٥٩ م ) .

٣١ - الامالى لابی على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادي ( القاهرة  
- مطبعة دار الكتب المصرية - الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ هـ -  
١٩٢٦ م ) .

٣٢ - الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى وهو جلال  
الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين أبى محمد عبيد الرحمن  
القزوينى ( القاهرة - مطبعة محمد على صبيح سنة ١٣٤٨ هـ ،  
وأيضاً شرح محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة الحسين سنة  
١٩٤٩ م ) .

#### ( ب )

٣٣ - البداية والنهاية فى التاريخ للمؤرخ عماد الدين أبى الفدا اسماعيل  
ابن عمرو ابن كثير القرشى الدمشقى ( القاهرة - مطبعة السعادة -  
الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ ) .

٣٤ - بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية .  
للدكتور مصطفى الشكعة ( القاهرة - مكتبة القاهرة الحديثة سنة  
١٩٥٩ م ) .

٣٥ - بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب للسيد محمود شكرى الألوسى  
البغدادي ، تصحيح الأستاذ محمد بهجة الاثرى ( القاهرة المطبعة  
الرحمانية - الطبعة الثانية سنة ١٣٤٣ هـ ) .

٣٦ - البيان والتبيين لابی عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وقف على  
طبعه محب الدين الخطيب . ( القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ ، وأيضاً  
طبعت أخرى ) .

( ت )

- ٣٧ - التاج فى أخلاق الملوك للملاحظ ، تحقيق الاستاذ إجميد زكى .  
( القاهرة - المطبعة الأميرية - الطبعة الأولى سنة ١٩١٩ م ) .
- ٣٨ - تاريخ آداب العرب للاستاذ صطفى صادق الرافعى ( القاهرة -  
الطبعة الثانية سنة ١٩٤٠ م ) .
- ٣٩ - تاريخ آداب اللغة العربية . للاستاذ جرجى زيدان ( القاهرة -  
دار الهلال سنة ١٩٥٧ م ) .
- ٤٠ - تاريخ الأدب العربى للاستاذ أحمد حسن الزيات ( القاهرة -  
مطبعة الرسالة - الطبعة الحادية عشرة ) .
- ٤١ - تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ، تعريب الدكتور عبد الحليم  
النجار . ( القاهرة مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦١ م ) .
- ٤٢ - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى للدكتور  
حسن إبراهيم ، الجزء الأول ( القاهرة - مكتبة النهضة ، الطبعة  
السادسة ) .
- ٤٣ - تاريخ الأمم والملوك لابى جعفر بن جرير الطبرى ( القاهرة -  
المطبعة الحسينية - الطبعة الأولى ) .
- ٤٤ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبى بكر أحمد بن على  
الخطيب البغدادى ( القاهرة - مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ -  
سنة ١٩٢١ م ) .
- ٤٥ - تاريخ الحكماء لجمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى  
( ليبسك سنة ١٣٢٠ هـ ) .
- ٤٦ - تاريخ الفلسفة فى الاسلام تأليف ب.ج . دى بور . ترجمة الدكتور  
محمد عبد الهادى أبوريدة ( القاهرة - مطبعة لجنة التأليف  
والترجمة والنشر سنة ١٣٥٧ هـ ) .

- ٤٧ - تاريخ اليعقوبى لاحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب ، الكاتب المعروف بابن واضح الاخبارى ( النجف - مطبعة القونى سنة ١٣٥٧ هـ ) .
- ٤٨ - التحفة البهية والطرفة الشهية . لم يذكر اسم جامعها ( مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ ) .
- ٤٩ - تراث الاسلام ، فصل « الادب » ، وضعه : هـ . ١٠ . ر . جب وترجمة الدكتور عبد اللطيف محمود حمزه ( القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ م ) .
- ٥٠ - تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق للشيخ داود الانطاكى ( القاهرة - مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ ) .
- ٥١ - التطور والتجديد فى الشعر الاموى للدكتور شوقى ضيف ( القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٢ م ) .
- ٥٢ - تفسير البيضاوى المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى ( القاهرة - طبع صبيح سنة ١٣٦٦ هـ ) .
- ٥٣ - تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربى المطبعة الاميرية سنة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م ) .
- ٥٤ - تفسير الحافظ بن كثير وهو الامام الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ( القاهرة - مطبعة المنسار سنة ١٣٤٣ هـ ) .
- ٥٥ - تفسير الزمخشري المسمى ( الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل ) للامام محمود بن عمر الزمخشري ( القاهرة - مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى - الطبعة الاولى سنة ١٣٥٤ هـ ) .

- ٥٦ - تفسير الطبري المسمى « جامع البيان في تفسير القرآن » لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ( القاهرة - مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ ، وأيضاً دار المعارف سنة ١٩٥٨ م ) .
- ٥٧ - تفسير القاسمي المسمى « محاسن التأويل » لعلامة الشام محمد جمال الدين القاسمي ( القاهرة - دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٧ م ) .
- ٥٨ - التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب السرى ( القاهرة - المطبعة الخيرية بجمالية مصر - الطبعة الاولى سنة ١٣٠٧ هـ ) .
- ٥٩ - تفسير المنار : محمد رشيد رضا ( القاهرة - مطبعة المنار سنة ١٣٤٧ هـ ) .
- ٦٠ - تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي ( القاهرة - المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٩٣٦ م ) .
- ٦١ - تفسير النيسابوري المسمى « غرائب القرآن و رغائب الفرقان » لنظام لدين الحسن ابن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، على هامش تفسير الطبري ( القاهرة مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ ) .
- ٦٢ - توفيق الحكيم للدكتور اسماعيل أدهم والدكتور ابراهيم ناجي ( القاهرة - دار سعد مصر للطباعة والنشر بالفجالة سنة ١٩٤٥ م ) .
- ٦٣ - التيجان في ملوك حمير ، عن وهب بن منبه ، رواية ابن هشام ( حيدر آباد ، الطبعة الاولى سنة ١٣٧٤ هـ ) .
- ( ث )
- ٦٥ - ثمرات الاوراق في المحاضرات للشيخ تقى الدين أبي بكر ابن علي المعروف بابن حجة الحموي ( القاهرة - الادارة العامة للثقافة ) .

٦٦ - ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل ( القاهرة - مطبعة  
السياسة سنة ١٩٣٣ م ) .

( ج )

٦٧ - جابر بن حيان للدكتور زكي نجيب محمود ( القاهرة - وزارة  
الثقافة والارشاد القومى - سلسلة اعلام العرب العدد / ٣٠ ) .

٦٨ - جمهورية أفلاطون نقلها الى العربية حنا جباز ( القاهرة - مطبعة  
المقتطف والمقطم سنة ١٩٢٩ م ) .

٦٩ - جمهورية فرحات للدكتور يوسف ادريس ومقدمة الدكتور طه حسين  
( القاهرة - الكتاب الذهبى يناير سنة ١٩٥٦ م ) .

٧٠ - جميل بثينة للأستاذ عباس محمود العقاد ( القاهرة - دار المعارف  
- سلسلة اقرا العدد / ١٣ ) .

( ح )

٧١ - حب ابن أبى ربيعة وشعره للدكتور زكى مبارك ( القاهرة -  
المطبعة الرحمانية - الطبعة الثالثة سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م ) .

٧٢ - الحب العذرى ، نشأته وتطوره للأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى  
( القاهرة - مطبعة الكتب العربى سنة ١٩٤٧ م ) .

٧٣ - الحب العذرى للأستاذ موسى خليل سليمان ( بيروت - دار العلم  
للملايين سنة ١٩٤٧ م ) .

٧٤ - حديث الأربعاء للدكتور طه حسين ( القاهرة - مطبعة الحلبي  
سنة ١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧ م ) .

٧٥ - حديث عيسى بن هشام للأستاذ محمد المويلحى ( القاهرة - مطبعة  
دار المعارف - الطبعة السابعة ) .

- ٧٦ - حين المحاضرة في إخبار مصر والقاهرة، للشيخ جلال الدين السيوطي الشافعي ( القاهرة - مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ ) .
- ٧٧ - الحضارة الاسلامية ومدى تاثيرها بالمؤثرات الاجنبية لفون كريم . تعريب الدكتور مصطفى طه يدر ( القاهرة - مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٧ م - دار الفكر العربي ) .
- ٧٨ - حضارة العرب للدكتور غوستاف لويون ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ( القاهرة الطبعة الثانية ١٩٤٨ م ) .
- ٧٩ - الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية محمد غنيمي هلال ( القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠ م - مكتبة الانجلو ) .
- ٨٠ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور احمد محمد الحوفي ( القاهرة - سنة ١٣٦٩ هـ - سنة ١٩٤٩ م - مكتبة نهضة مصر الفجالة ) .
- ٨١ - حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ( القاهرة - مطبعة مصر سنة ١٩٥٤ ) .
- ٨٢ - الحيوان لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ( القاهرة - مطبعة الحلبي - الطبعة الاولى سنة ١٣٦٣ هـ ) .

( د )

- ٨٣ - دائرة المعارف الاسلامية ( الترجمة العربية ) .
- ٨٤ - دراسات أدبية للأستاذ عمر الدسوقي ( القاهرة - مكتبة نهضة مصر ) .
- ٨٥ - دراسات أدبية للأستاذ يوسف الشاروني ( القاهرة - سلسلة الألف كتاب « ٥٠٣ » ) .



٨٦ - ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شرح الدكتور محمد حسين ( القاهرة المطبعة النموذجية سنة ١٩٥٠ ) مكتبة الآداب بالجماميز .

٨٧ - ديوان أمية بن أبي الصلت . جمعه بشير يموت ( بيروت - المطبعة الوطنية - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢ هـ ) .

٨٨ - ديوان جرير بن عطية الخطفي التميمي ( القاهرة - المطبعة العلمانية - الطبعة الأولى سنة ١٣١٣ ) .

٨٩ - ديوان الصبابة لشهاب الدين أحمد بن حجلة المقرئ ، على هامش تزيين الأسواق . ( القاهرة - مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ ) .

٩٠ - ديوان طرفه بن العبد ، شرح أحمد بن أمين الشنقيطي ( قرائده « أورندك » سنة ١٩٠٩ م ) .

٩١ - ديوان عنتر بن شداد بن معاوية بن قراد العبسي ، المعروف بمنية النفس في أشعار عنتر عبس ( بيروت - الطبعة الثالثة - المكتبة العمومية لابراهيم صادر وأولاده ) .

( ذ )

٩٢ - ذم الهوى للامام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد ( القاهرة - مطبعة السعادة - الطبعة الأولى سنة ١٢٨١ هـ - سنة ١٩٦٢ م ) .

( ر )

٩٣ - رسالة لأبي العلاء المعري ، شرح كامل الكيلاني . ( القاهرة - مطبعة المكتبة التجارية - الطبعة الأولى سنة ١٣٤٢ هـ - سنة ١٩٢٣ م ) .

٩٤ - رواية مجنون ليلى للأستاذ أحمد شوقي ( القاهرة سنة ١٩٤٥ م ) .

٩٥ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين للشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ، تصحيح أحمد عبيد ( القاهرة - مطبعة السعادة سنة ١٣٧٥ هـ ) .

٩٦ - الرومانتيكية للدكتور محمد غنيمى هلال ( القاهرة - مطبعة الرسالة - مكتبة نهضة مصر بالجيزة ) .

( ز )

٩٧ - الزهرة لأبى بكر محمد بن أبى سليمان الأصفهاني ، نشر الدكتور لويس نيكل البوهيمى ( بيروت ١٩٣٢ م ) .

٩٨ - زهر الآداب وثمر الآليات لأبى اسحاق ابراهيم بن على الحصرى القيروانى على هامش العقد الفريد ( القاهرة - المطبعة الشرقية سنة ١٣٠٥ هـ ، وأيضاً تحقيق على محمد البجاوى الحلبي سنة ١٣٧٢ هـ ) .

٩٩ - زهرة العمر لتوفيق الحكيم ( القاهرة - كتاب الهلال - العدد / ٤٧ فبراير سنة ١٩٥٥ م ) .

( س )

١٠٠ - ساعات بين الكتب للأستاذ عباس محمود العقاد ( القاهرة - مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٢٩ م ) .

١٠١ - شرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون للامام جمال الدين محمد بن محمد ابن نباتة المصرى ( القاهرة - مطبعة الموسوعات - الطبعة الرابعة سنة ١٣٢١ هـ ) .

١٠٢ - السقامات للأستاذ يوسف السباعى ( القاهرة - الكتاب الذهبى - العدد ٥٣ - نوفمبر سنة ١٩٥٦ م ) .

١٠٣ - سيرة الاميرة ذات الهمة وولدها الامير عبد الوهاب والامير أبو محمد البطال وعقبة شيخ الضلال ( القاهرة - المكتبة الحسينية

المصرية بالأزهر الشريف - الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ - سنة ١٩٠٩ م ) .

١٠٤ - سيرة فارس اليمين وسيد أهل الكفر والمحن ، سيف بن ذي يزن ( القاهرة - مطبعة الشيخ شرف موسى سنة ١٣٠٣ هـ ) .

١٠٥ - سيرة النبي لأبي محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ( القاهرة - مطبعة حجازي سنة ١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧ م ، وأيضا كتاب التحرير سنة ١٣٨٣ هـ . ) ( ش )

١٠٦ - شاعر الغزل الأستاذ عباس محمود العقاد . ( القاهرة - دار المعارف - سلسلة أقرا العدد / ٢ ) .

١٠٧ - الشاهنامة نظمها بالفارسية أبو القاسم الفردوسي وترجمها نثراً أبو الفتح بن علي البغدادى وقارنها بالأصل الفارسي وقدم لها الدكتور عبد الوهاب عزام . ( القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٠ - ١٩٣٢ م ) .

١٠٨ - شرح المقامات الحريرية للامام أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى ( القاهرة سنة ١٣١٤ هـ ) .

١٠٩ - الشعر الشعبي للدكتور حسين نصار . ( القاهرة - المكتبة الثقافية العدد / ٦٠ ) .

١١٠ - الشعر الغنائى فى الامصار الاسلامية للدكتور شوقي ضيف - ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربى .

١ - فى المدينة ( القاهرة - مطبعة الاعتماد - الطبعة الاولى سنة ١٩٤٩ م ) .

٢ - فى مكة ( القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الاولى سنة ١٩٥٣ م ) .

١١١ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر .

( القاهرة - دار أحياء الكتب العربية - مطبعة الحلبي سنة ١٣٦٦ هـ ) .

( ص )

١١٢ - صحيح البخارى لأبى عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بن بردزبه البخارى الجعفى .

( القاهرة - المطبعة العثمانية المصرية سنة ١٣٥٥ هـ ) .

١١٣ - الصديقة بنت الصديق للأستاذ عباس محمود العقاد . ( القاهرة - دار المعارف سلسلة أقوال العظماء / ١٢٥ ) .

١١٤ - صفة جزيرة العرب لأبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ابن يوسف داود الهمداني وتحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد . ( القاهرة - مطبعة السعادة سنة ١٩٥٣ م ) .

١١٥ - المضاعفين الكتابة والشعر ، من تصنيف أبى هلال الحسن ابن عبد الله ابن سهل العسكري ( مطبعة محمود بك الكاشنة فى أبى السعود فى الاستانة العلية - الطبعة الاولى سنة ١٣٢٠ هـ )

( ض )

١١٦ - الضحك لهنرى برجسون وترجمة الاستاذين سامى الدروبي وعبد الله الذأيم . ( القاهرة - دار الكتب المصرى سنة ١٩٤٨ م )

( ط )

١١٧ - الطبرى للدكتور أحمد محمد الحوفى . ( القاهرة - وزارة الثقافة والارشاد القومى - سلسلة اعلام العرب العدد / ١٣ ) .

١١٨ - طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين لأبى عبد الله محمد ابن سليمان الجمحى البصرى . ( القاهرة - مطبعة محمود صبيح مطبعة السعادة بمصر ) .

- ١١٩ - طوق الحمامة فى الالفه والالف للامام أبى محمد على بن سعيد  
ابن حزم وتحقيق الاستك حسن كامل الصيرفى . ( القاهرة -  
مطبعة جحازى سنة ١٣٦٩ هـ - سنة ١٩٥٠ م ) .

#### ( ع )

- ١٢٠ - العجوز والبحر لارنست هيمنجواى ، وترجمة الاستاذ صالح  
جودت ( القاهرة - الدار القومية - سلسلة جوائز عالمية ، العدد  
٣١ فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٣ م ) .
- ١٢١ - عصر ما قبل الاسلام للاستاذ محمد مبروك نافع . ( القاهرة -  
مطبعة وادى النيل سنة ١٩٤٨ م ) .
- ١٢٢ - العقد الفريد للامام شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه  
الاندلسى ( القاهرة - المطبعة الشرقية سنة ١٣٠٥ هـ ) .
- ١٢٣ - على هامش التاريخ المصرى القديم للاستاذ عبد القادر محمد  
حمزة . ( القاهرة كتب الشعب - العدد - ١١ ) .
- ١٢٤ - العمدة فى صناعة الشعر ونقده تأليف أبى على الحسن بن رشيق  
القيروانى ( القاهرة - مطبعة أمين هندية بمصر - الطبعة الاولى  
سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٥ م ) .
- ١٢٥ - عيون الأخبار لابن قتيبة ( القاهرة - دار الكتب المصرية سنة  
١٩٠٥ م ) .
- ١٢٦ - عيون الانباء فى طبقات الاطباء للطبيب موفق الدين أبى العباس  
أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى المعروف  
بين أبى أصيبعة . ( بيروت ١٣٧٦ هـ ) .

#### ( غ )

- ١٢٧ - الغزل فى العصر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى .

( القاهرة - مطبعة لجنة البيان العربى - الطبعة الاولى سنة ١٣٧٠ هـ - سنة ١٩٥٠ م ) .

( ف )

- ١٢٨ - فتوح البلدان لاحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى وتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ( القاهرة - مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٥٦ م مكتبة النهضة ) .
- ١٢٩ - فجر الاسلام للدكتور احمد أمين ( القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية ) .
- ١٣٠ - الفصل فى الملل والاهواء والنحل للامام أبى محمد على بن أحمد ابن حزم الظاهرى ( القاهرة - المطبعة الادبية - الطبعة الاولى سنة ١٣١٧ هـ ) .
- ١٣١ - الفصول للأستاذ عباس محمود العقاد ( القاهرة - مطبعة السعادة سنة ١٩٢٢ م ) .
- ١٣٢ - فلسفة الحب عند العرب للأستاذ عبد اللطيف شرارة . ( بيروت - منشورات دار مكتبة الاحياء - الطبعة الاولى سنة ١٩٦٠ م )
- ١٣٣ - فن الشعر لارسطو طاليس وترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ( القاهرة سنة ١٩٥٣ - مكتبة النهضة المصرية ) .
- ١٣٤ - فن القصة القصيرة للدكتور رشاد رشدى . ( القاهرة - الطبعة الاولى سنة ١٩٥٩ م مكتبة الانجلو المصرية ) .
- ١٣٧ - فن القصص للأستاذ محمود تيمور . ( القاهرة - مطبعة دار الهلال - الطبعة الثانية ) .
- ١٣٨ - الفن القصصى فى الادب العربى الحديث للدكتور محمود حامد شوكت ( القاهرة - الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣ م - دار الفكر العربى ) .

- ١٣٩ - الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف . ( القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ م ) .
- ١٤٠ - فنون الادب تأليف : ه . ب . ب . تشارلتن وترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ( القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثانية سنة ١٩٥٩ م ) .
- ١٤١ - الفهرست لابن النديم ( القاهرة - الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ ) .
- ١٤٢ - فى الادب الجاهلى للدكتور طه حسين . ( القاهرة - مطبعة محمد عبد الرحمن - الطبعة الثالثة مسنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م ) .
- ١٤٣ - فى طريق الميثولوجيا عند العرب للأستاذ محمود سليم الحوت ( بيروت ١٩٥٥ م ) .

#### ( ق )

- ١٤٤ - القاموس المحيط للشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى السيرافى ( القاهرة - المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٣٠ هـ ) .
- ١٤٥ - القرآن الكريم .
- ١٤٦ - القصة فى الادب العربى الحديث للدكتور محمد يوسف نجم ( القاهرة - دار مصر للطباعة سنة ١٩٥٤ م ) .
- ١٤٧ - القصة القصيرة فى الادب الشامى الحديث للأستاذ نعيم حسن البافى . ( وهى رسالة ماجستير بقسم اللغة العربية بكلية الاداب سنة ١٩٦٤ م ) .
- ١٤٨ - قصة قيس بن الملوخ العامرى المعروف بمجنون ليلى . ( القاهرة - مطبعة الجمل المصرية - الطبعة الاولى سنة ١٣٤١ هـ - مسنة ١٩٢٣ م ) .

١٤٩ - قصص الانبياء أو خلق الدنيا وما فيها لأبى الحسن محمد  
ابن عبد الله الكسائي تصحيح اسحاق بن سؤول ايزنبرغ ( ليدن  
- مطبعة بريل سنة ١٩١٢ م ) .

١٥٠ - قصص الحيوان فى الأدب العربى للدكتور عبد الرازق حميد  
( القاهرة ملتزم الطبع والنشر مكتبة الانجلو المصرية - سنة  
١٩٥١ م ) .

١٥١ - قصص العرب للأساتذة : محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل  
ابراهيم وعلى محمد البجاوى . ( القاهرة - مطبعة الحلبي -  
الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٥ هـ ) .

١٥٢ - قصصنا الشعبى للدكتور فؤاد حسنين على . ( القاهرة - مطبعة  
لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ - الناشر دار الفكر  
العربى ) .

١٥٣ - قيس وليبنى مسرحية شعرية للأستاذ عزيز أباطه ( القاهرة -  
شركة فن الطباعة - الطبعة الثانية ) .

#### ( ك )

١٥٣ - الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد .  
( ليبسك سنة ١٨٠٤ م ) .

١٥٤ - الكامل فى التاريخ للشيخ عز الدين أبى الحسين على بن أبى  
انكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى  
المعروف بابن الأثير ( مطبعة ليدن ، بريل سنة ١٨٩٩ م ) .

١٥٥ - الكتاب المقدس .

١٥٦ - كلية ودمنة ليديبا الفيلسوف الهندى وترجمة عبد الله بن المقفع  
( القاهرة المطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٩٢٧ م ) .



( ل )

- ١٥٧ - لسان العرب للإمام أبى الفضل جمال الدين محمد المعروف بابن منظور ( القاهرة - بولاق ) .  
١٥٨ - اللمع لأبى نصر السراج الطوسى وتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ طه عبد الباقي سرور . ( القاهرة - مطبعة السعادة سنة ١٣٨٠ هـ - سنة ١٩٦٠ م ) .

( م )

- ١٥٩ - ما الأدب لسارتر وترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال . ( القاهرة سنة ١٩٦١ - مكتبة الانجلو ) .  
١٦٠ - مأساة الشاعر وضاح للاستاذين محمد بهجة اثرى وأحمد حسن الزيات ( مطبعة بغداد - مطبعة العهد سنة ١٣٥٤ هـ ) .  
١٦١ - مائدة أفلاطون نقل الأستاذ محمد لطفى جمعه مصر سنة ١٩٠٨ وجنيف سنة ١٩١٣ . ( القاهرة - مكتبة ومطبعة التأليف بشارع عبد العزيز ) .  
١٦٢ - ما هو الجنس من مؤلفات اليونسكو ، وتعريب الدكتور يوسف أبو الحجاج ( القاهرة - الألف كتاب «٥٥» علوم انسانية ) .  
١٦٣ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر للشيخ ضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلى . ( القاهرة - مطبعة حجازى - الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ) .  
١٦٤ - مجمع الأمثال للعلامة أبى الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميدانى النيسابورى ( القاهرة - مطبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م وأيضا المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣١٠ هـ ) .  
١٦٥ - مجموعة رسائل الجاحظ لأبى عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ ( القاهرة - مطبعة التقدم - الطبعة الأولى ) .

- ١٦٦ - المحاسن والأضداد المنسوب لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى وتصحيح الخانجي ( القاهرة - مطبعة السعادة - الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤ هـ ) .
- ١٦٧ - المختار للأستاذ عبد العزيز البشرى ، الجزء الأول . ( القاهرة - المطبعة اليوسفية بباب الخلق سنة ١٣٤١ هـ ) .
- ١٦٨ - المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى . ( القاهرة - مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، سنة ١٩٥٤ م ) .
- ١٦٩ - مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبى الحسن على بن الحسين ابن على المسعودى ( القاهرة المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ هـ ) .
- ١٧٠ - المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر السيوطى الشافعى . ( القاهرة - مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ ) .
- ١٧١ - المسترف فى كل فن مستطرف للشيخ شهاب الدين أحمد الأبهى ( القاهرة سنة ١٢٩٢ هـ ) .
- ١٧٢ - مصارع العشاق للشيخ أبى محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج ( القاهرة ، مطبعة التقدم سنة ١٩٠٧ م ) .
- ١٧٣ - معجم الأدباء أو طبقات الأدباء أو إرشاد الأريب الى معرفة الأديب لشهاب الدين أبى عبد الله الرومى الحموى البغدادى ( القاهرة - مطبعة دار المأمون ) .
- ١٧٤ - معجم البلدان للعلامة ياقوت الحموى ( دار صادر - بيروت ١٩٥٥ ) .
- ١٧٥ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ( القاهرة - كتاب الشعب ) .

- ١٧٦ - المعلقات العشر وأخبار قائلها ، جمع الأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطى ( القاهرة المطبعة الرحمانية - الطبعة الثالثة سنة ١٣٣٧ هـ ) .
- ١٧٧ - المقامة للدكتور شوقي ضيف . ( القاهرة - دار المعارف سنة ١٩٥٤ م ) .
- ١٧٨ - مقدمة العلامة ابن خلدون ( القاهرة - مطبعة مصطفى محمد بشارع محمد على ) .
- ١٧٩ - الملل والنحل للامام محمد بن عبد الكريم التهرستاني وتحقيق الأستاذ محمد فتح الله بدران . ( القاهرة - مطبعة الأزهر - الطبعة الأولى ) .
- ١٨٠ - مناهج الدراسة الادبية فى الادب العربى للدكتور شكرى فيصل . ( القاهرة مطبعة دار الهلال بشارع الصحافة ) .
- ١٨١ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للشيخ تقى الدين أحمد ابن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقرئى ( القاهرة - المطبعة الاميرية ١٢٧٠ هـ ) .
- ١٨٢ - الموشى أو الظرف والظرفاء لأبى الطيب محمد بن يحيى الوشاء تحقيق الأستاذ كمال مصطفى ( القاهرة - طببع الخانجى - الطبعة الثانية ) .

#### ( ن )

- ١٨٣ - النثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك ، الجزء الأول . ( القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ م ) .
- ١٨٤ - نشأة التدوين التاريخى للدكتور حسين نصار . ( القاهرة - النهضة المصرية ) .

١٨٥ - نهاية العرب فى فنون الادب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب  
النويرى . ( القاهرة - طبع دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٩ هـ -  
١٩٤٢ م ) .

( و )

١٨٦ - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لآبى العباس شمس الدين  
أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان . ( القاهرة - مطبعة  
السعادة سنة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م ) .

( ى )

١٨٧ - يحكى عن العرب للأستاذ موسى خليل سليمان ، جزءان .  
( بيروت دار الكتاب اللبنانى - الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥ م )

ثانيا - المراجع الافرنجية

Encyclopeadia Britanica. - ١٨٨  
Encyclopeadia of Islam. - ١٨٩  
The Modern Arabic Short Story . Abdel Aziz Abdel Meguid- ١٩٠  
(Al Maaref Press Cairo)

ثالثا - الدوريات

صحيفة الجمهورية

مجلة الاديب

مجلة الثقافة

مجلة الرسالة

مجلة المجلة

مجلة المقتطف

مجلة منبر الاسلام

The first part of the paper is devoted to a discussion of the  
 various methods which have been proposed for the determination of  
 the rate of reaction between a radical and a molecule. The  
 most common of these is the method of initial rates, in which  
 the initial concentration of the radical is varied and the  
 initial rate of reaction is measured. This method is simple  
 and direct, but it is subject to a number of errors, and it  
 is often difficult to obtain accurate results. Other methods  
 have been proposed, such as the method of half-lives, and  
 the method of integrated rate laws, but these are also  
 subject to errors, and they are often more complicated than  
 the method of initial rates. The method of initial rates  
 is the most commonly used, and it is the one which will be  
 discussed in this paper.

The second part of the paper is devoted to a discussion of  
 the various factors which influence the rate of reaction between  
 a radical and a molecule. These factors include the nature of  
 the radical, the nature of the molecule, the temperature, and  
 the concentration of the reactants. The rate of reaction  
 increases with increasing temperature, and it increases with  
 increasing concentration of the reactants. The rate of  
 reaction also increases with increasing reactivity of the  
 radical, and it increases with increasing reactivity of the  
 molecule.

The third part of the paper is devoted to a discussion of  
 the various applications of the study of the rate of reaction  
 between a radical and a molecule. This study has many  
 important applications in chemistry, and it has many  
 important applications in industry. It is used to determine  
 the rate of reaction between a radical and a molecule in  
 the laboratory, and it is used to determine the rate of  
 reaction between a radical and a molecule in industry. It is  
 used to determine the rate of reaction between a radical and  
 a molecule in the atmosphere, and it is used to determine  
 the rate of reaction between a radical and a molecule in the  
 environment.

## فهرست تفصیلی

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
موضوع الدراسة - البحوث السابقة - ملخص الدراسة - الصعوبات وتذليلها - المنهج	٥ - ١٥
تمهيد	١٧
القصة عند العرب :	١٩ - ١٧
( بعض المفكرين العرب ينكرون معرفة العرب بالقصة - أسباب انكارهم - تأثرهم بنظرية الفروق الجنسية التي شاعت بسبب الغرور الأوروبي - وهو غرور يصيب أي حضارة إبان ازدهارها - الحضارة الانسانية ليست وقفا على جنس دون جنس - التمييز العلمي يثبت بطلان نظرية الاجناس - القصة واكبت الأمة العربية في سيرها التاريخي - القصة في العصر الجاهلي - قصص حول الجان - أيام العرب - قصص حول الأمثال - القرآن الكريم يبعث نهضة في القصص - قصص حول الأنبياء - ابن النديم والجاحظ وغيرهما يشيرون الى القصص - القصة في العصر العباسي قصص ذات طابع فلسفي - ازدهار القصة العربية القديمة - ولكن النقاد العرب لم يهتموا بها بالقدر الكافي - فقد شغلوا بالشعر - وبأنواع أخرى من النثر مثل الخطابة والكتابة )	

( أسباب ازدهار القصة في العصر الأموي - امتداد  
لنزعة جاهلية نحو القصص - تأثير القصص القرآني - تأثير  
الحديث النبوي - تأثير الغزوات - المفاخرة بين المسلمين  
وأهل الكتاب - المفاخرة بين العدنانيين والقحطانيين - تعقد  
الحياة في العصر الأموي - الخلفاء والحكام يميلون إلى  
المسامرة - استغلال القصة استغلالاً سياسياً - أنواع القصة في  
العصر الأموي - قصص الحيوان - أيام العرب - أساطير  
حول شخصيات مشهورة - القصة الدينية - كعب الأحبار -  
وهب بن منبه - عبيد بن شربة الجهمي - ارتباط القصة  
الدينية بالوعظ - الدكتور شوقي ضيف يرى أن القصص  
الدينية ازدهرت في العراق والشام - ولكنى أراء مزدهرا  
بصورة أكبر في المدينة - قصص دينية للخاصة - وأخرى  
للعمامة - الخاصة ينفرون من قصص العمامة ) •

( ليس المراد تطبيق المقاييس الحديثة على قصص العشاق  
لأن المقاييس الحديثة لم تكن موجودة قديماً - وإنما المراد  
معنى يتفق والمفهوم القديم - معنى القصة في القواميس  
العربية - تجاهل الأدباء والبلاغيين للقصة - المفسرون  
يتحدثون عن القصة الدينية - فيعرفونها - ويتحدثون  
عن عناصرها - وعن تأثيرها - غلبة المعنى الديني على  
القصص في القواميس العربية - كلمة قصة تخصصت بعد نزول  
القرآن الكريم - وردت كلمة قصة في نصوص في العصر  
الأموي - وهي نصوص شعرية ونثرية - معنى السمر - معنى  
الخرافة - معنى الخبر والحديث - معنى الحكاية - معنى

كلمة عشق وحب - معنى كلمة نثرية تخطيط جديد لانتواع  
النثر فى العصر الاموى ) .

٨٧

#### الباب الاول : نشأة قصص العشق :

١٣٩ - ٩١

#### الفصل الاول : مصادر قصص العشق :

( علاقة العرب بغيرهم قبل الاسلام - فى الغناء -  
فى القصص والاساطير - دور الاديرة - تأثير قصص اهل  
الكتاب - علاقة العرب بغيرهم بعد الاسلام - ظهور نسل  
من الفرس - تأثير الاعاجم على الغناء - تاثر العرب بثقافة  
الامم المفتوحة - موقف قصص العشق من الحضارات الاخرى -  
قصص العشق نشأت نشأة عربية - تتابع هذه القصص  
عذرية او حسية على مدى التاريخ العربى - ولكن العرب  
يطبعهم يباركون العشق العذرى - القدامى مثل ابن حزم  
يهتمون بالحب العذرى - العرب منذ الجاهلية يمتدحون العفة -  
ويؤكد الاسلام هذا الميل وينميه - قصص لقمان ذات طابع  
خارجى - بين الحب الافلاطونى والحب العذرى - الاسباب التى  
جعلت قصص العشق معزولة عن التيارات الخارجية -  
الامويون يتعصبون لكل ما هو عربى - عزلة الجزيرة العربية  
جغرافيا - قصص العشق ذات طابع شعبى لايتفتح للتيارات  
الثقافية ) .

#### الفصل الثانى : اسباب ازدهار قصص العشق فى العصر الاموى .

١٦٠ - ١٤٠

( صراع واضطراب خارج الحجاز - ثم ثورات داخل  
الحجاز - الحجاج نموذج للطغيان - نتيجة سياسة الامويين -  
ازدهار الغزل من جانب - ازدهار شعر الزهد من جانب  
آخر - ليس هناك تناقض بين الحب والزهد - عوامل  
ازدهار الحب الحسى فى جواضر الحجاز - الموالى والجوارى  
الغناء - الغناء والشعر - الغناء والشعر والقصص - ايام



الحج والطواف - عوامل ازدهار العشق العذرى فى الميادى  
الحجازية - البيئة - الفراغ - تقاليد البادية ) .

#### الباب الثانى : الفن فى قصص العشق : ١٦١ - ١٦٦

( هذه القصص مجرد أخبار - تشبه حوادث الصحف -  
ولكنها تمثل مادة للسمر - وهناك رواة مشهورون بها ) .

#### الفصل الاول : اغراض قصص العشق : ١٦٧ - ١٩٣

( انتشر هذه القصص بين الناس - مؤلفات قديمة  
حولها - العشاق يتحولون الى شخصيات قصصية - قصص  
لتفسير آيات شعرية - قصص للتسلية - قصص للدعاية -  
قصص ذات اغراض تعصبية - قصص ذات اهداف دينية ) .

#### الفصل الثانى : ملامح قصص العشق : ١٩٤ - ٢٢١

( الشعبية فى قصص العشق - شعبية فى انتشارها -  
فى تأليفها - فى موضوعها - فى مقاومتها للفروق الاجتماعية -  
فى لغتها - فى طريققتها - فى افكارها ومعتقداتها - الانتقال  
من موضوع الى موضوع وتجاوز الموضوعات - ظهور شخصية  
الراوى - الشعر فى القصص - قد يكون للشعر وظيفة  
فنية - وقد يقف فى سبيل تطور القصة - لغة قصص العشق -  
الشخصية - هى رمز لصفات انسانية - شخصية المحب  
الحسى - شخصية العاشق العذرى - شخصيه العاشقة - الحادثة  
فى حكايات الحب الحسى - فى قصص العشق العذرى -  
العقبة - العادات والتقاليد - الكراهية التقليدية بين الام وزوجة  
ابنها - الوشاة - الحروب بين القبائل - الفقر - العقبة فى كل  
ذلك كنود - ولكن أحياناً يمكن زحزحتها - الصراع - ينتهى

بانتصار الواجب - لم يستغل عنصر الصراع جيداً - السيرة الشعبية تتميز بشراء الصراع - الاهتمام بالصراع في نفسية العاشق - وتجاهل ذلك عند العاشقة - التشويق - وسائل ساذجة - مقدمات تثير التشويق - الفكاهة - مواقف غير فنية - بعض المواقف الفنية - الخيال - توافر الخيال التفسيري - ابتكار القصص - رموز خيالية - تصوير شخصيات - مواقف خيالية - جو غامض - اللون المحلى - المكان - الزمان - الطبيعة - العصر - النهاية - نهاية مرتجلة - النهايات الحزينة - النهايات السعيدة ( )

#### الفصل الثالث : تطور قصص العشق : ٣٢٢ - ٣٥٧

( التطور في حكاية واحدة - التطور في قصص متشابهة - تطور القصص مع تطور ظروف العصر - الحب الحسى يتطور الى حب شاذ - الحب العذرى يتطور الى حب صوفى - تطور هذه القصص في السير الشعبية - في ألف ليلة وليلة - في قصة قيس الشعبية - في سيرة الاميرة ذات الهمة - تطور هذه القصص في الادب الفارسي والتركي - عبد الرحمن الجامي - تطورها في الادب العربي الحديث - احمد شوقي ( )

#### القصص الرابع - نماذج من قصص العشق : ٣٥٨ - ٣٦٤

( عروة بن حزام - مجنون ليلى - قيس لبنى - ابن الطثرية - ماساة عاشق - الاعرابى الظريف والحسناء الفاتنة - عاشقة قد رفع عنها الحجاب - عمارة ( )

#### الخاتمة : ٤٢٧ - ٤٣٤

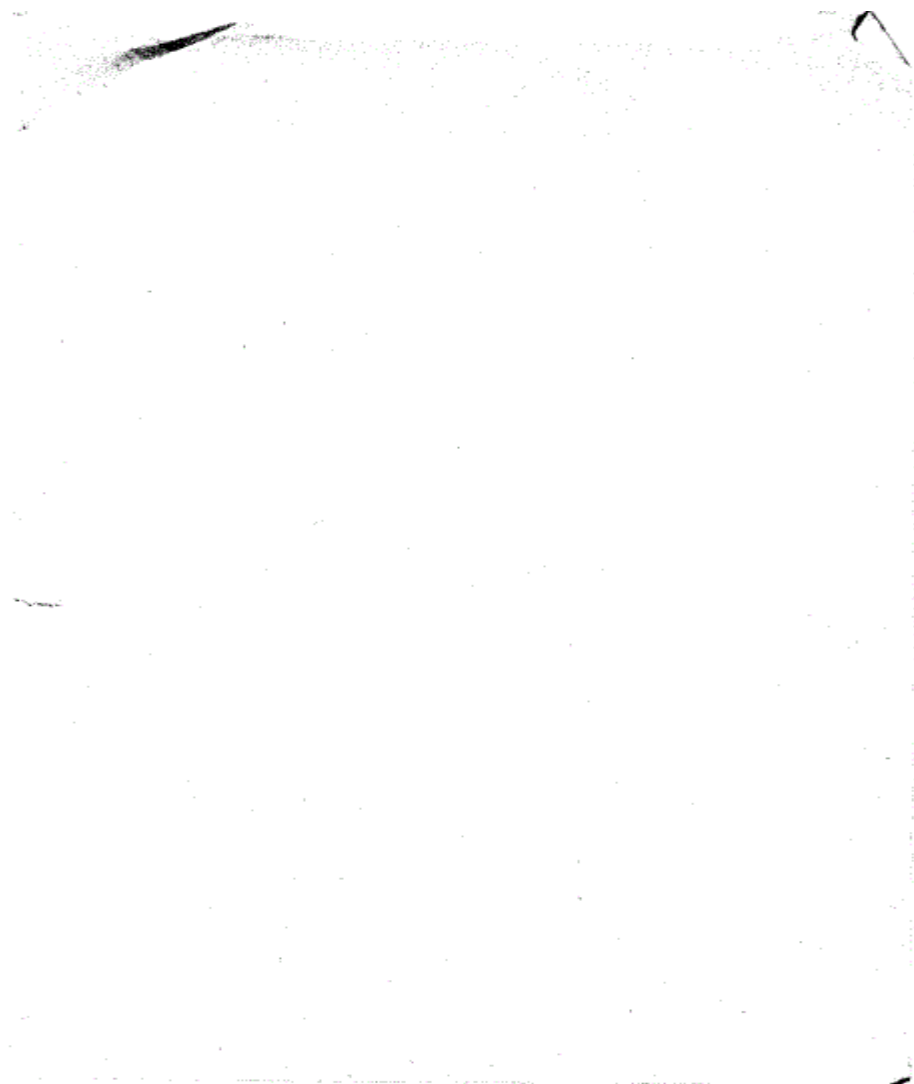
( ملخص البحث - الجديد في البحث - مقترحات ( )

#### المراجع ٤٣٥ - ٤٥٥

( المراجع العربية - الاجنبية - الدوريات ( )

## فهرس عام

الموضوع	الصفحة
تمهيد	١٧
القصة عند العرب	١٩
القصة فى العصر الاموى	٤٨
قصص العشاق النثرية	٧٤
الباب الاول : نشأة قصص العشق	٨٧
الفصل الاول : مصادر قصص العشق	٩١
الفصل الثانى : اسباب ازدهار قصص العشق	١٤١
الباب الثانى : الفن فى قصص العشق	١٦١
الفصل الاول : اغراض قصص العشق	١٦٧
الفصل الثانى : ملامح قصص العشق	١٩٥
الفصل الثالث : تطور قصص العشق	٣٢٣
الفصل الرابع : نماذج من قصص العشق	٣٥٩
الخاتمة	٤٢٧
المراجع	٤٣٥
الفهرست التفصيلى	٤٥٧
فهرست عام	٤٦٣



رقم الايداع ٢٥٥٠ / ٨٨  
الترقيم الدولى ٧ - ٢٤٢٢ - ٠ ٢ - ٩٧٧

دار التضامن للطباعة  
٢٢ شارع سامى - ميدان لاطو على  
تليفون ٣٥٥٠٥٥٦ - القاهرة